Mu god. com

عقبات في طريق النهضة

مراجعة لتاريخ مصر الإسلامية منذ الحملة الفرنسية إلى النكسة

١٨٩٨ - ١٩٦٤

أنور الجندي

دار الاعتصام

آفاق البحث

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل إلى البحث

على الكاتب المسلم إضاءة الطريق أمام الأمة الإسلامية لتعرف واجبها ومسئوليتها إزاء ربنا الخالق العظيم ، إيماناً به وجهاداً فى سبيل إعلاء كلمته وتحريراً للكلمة المسلمة من تلك الغواشى والعواصف والسموم التى تحاول قوى التغريب والغزو الثقافى أن تملأ بها جو الفكر الاسلامى حتى تحول دون الرؤية الحقيقية ، ودون الايمان الصادق بأن هذا الدين هو الحق الذى أضاء للبشرية الطريق إلى معرفة أهدافها وغاياتها ويكشف لها مسئولياتها الفردية والخلقية والجماعية ، وهو اليوم مطمح أمل الأمم فى كل القارات الخمس بعد أن تهاوت الحضارة الغربية وعجزت الأيدلوجيات خلال القرون الخمس الماضية عن أن تحقق لها الأمن أو السلام أو مطامح الروح .

ولعل من أخطر القضايا التى تطرحها قوى التغريب والصهيونية اليوم فى أفق الاسلام : محاولة تمييع مفهوم الاسلام الأصيل وصهره مع الأديان فى بوتقه واحدة .

وقد جاء كاشفا ومصححاً لما وقعت فيه الأمم من إنحرافات عن دين الله الحق ، ولذلك تطلع علماء الغرب إلى الاسلام فى أعظم ظاهرة فى مطالع القرن الخامس عشر بوصفه منقذاً للحضارة المعاصرة والمجتمعات المعاصرة وأنه وسيلة الانقاذ الوحيدة من التردى فى الهزيمة والتدمير الذى وقع بالحضارات الرومانية والفارسية والفرعونية .

ولقد مر اليوم على الاحتلال البريطانى لمصر مائة عام (أى قرن كامل من الزمان) يوازى القرن الرابع عشر الهجرى تماماً حيث جرت المحاولة فى مراحلها المختلفة لتغريب هذه الأمة وفصلها عن عقيدتها وقيمها ومقوماتها ، وهى محاولة بدأت منذ الحملة الفرنسية ووصلت غايتها بالاحتلال البريطانى وذلك

المخطط الذى رسم كرومر والذى سار عليه خلفاؤه ، ولقد كانت هذه السنوات عبارة عن صراع دائم متصل بين الاصالة والتغريب ، وبين فرض أسلوب العيش الغربى ورفض هذا الأسلوب ، وبين الادعاء بأن قبول تجربة الغرب السياسية والاجتماعية هو المنقذ للأمة الاسلامية من التخلف ، وقد تبين فساد ذلك كله وعجز معطيات الليبرالية الغربية والماركسية الشيوعية عن إعطاء النفس المسلمة التى تشكلت خلال أربع عشر قرنا فى محيط الاسلام والقرآن ، عجزت هذه الأيدلوجيات عن إعطائها أشواقها ومطامحها ، وإن كانت قد استطاعت التأثير فى عاداتها وأخلاقها وإعراقها ، ولكن نكسة ١٩٦٧ هزت وجدان الأمة هزاً شديداً وكشفت الحقيقة التى لا مناص منها وإنه لا سبيل لهذه الأمة فى بناء وجودها وتشكيل مجتمعها واستئناف حضارتها إلا عن طريق واحد : هو طريق منهج الله وحكم القرآن وقد نشأت منذ ذلك الوقت وإلى اليوم ظاهرة حقيقية لا سبيل إلى تجاوزها هى : (الصحوة الاسلامية) .

ويمر العالم الاسلامى اليوم بمرحلة حاسمة من تاريخه الطويل ، ونخشى أن يكون هناك تسليم لمفاهيم الخضوع والقبول بالعناصر الغربية فى قلب الأمة الاسلامية تحت ضغط القوى المسيطرة أو استسلاما للترف والمتاع المادى ذى البريق الكاذب ، وربما كانت هناك محاولات لاحتواء الصحوة الاسلامية وضربها وبذلك يتأخر خروج المسلمين من مرحلة (اليقظة) إلى مرحلة (النهضة) وأخطر مافى ذلك أن يتوقف الأعداد والجهاد والمرابطة فى الثغور ، والقبول بمعطيات الغرب فى مفاهيم التحلل والترف والانحلال التى تكاد تتخطفنا من كل طريق ، وخاصة عن طريق المسرح والتلفاز والكتب الرخيصة والقصص وأحاديث السحرة ، والعرافين وقصص الحب والهيام مما يضعف القدرة على الحصانة والمقاومة ، وبما يؤدى إلى انحراف المسلمين عن الطريق الصحيح : طريق الأسرة وبناء المجتمع . وحماية المرأة وسلامة الأجيال ، كذلك فإن الخطر قائم مما يخشى أن يكون التفتح على جميع المعارف والمذاهب (دون تعرف لموقف الاسلام منها) مما يجعلنا نقلل من شأن قيمنا الأساسية وشأن الحدود التى أقامها الله تبارك وتعالى ، وتلك الضوابط التى بثها فينا

الإسلام لحماية شخصيتنا الفردية والجماعية ، مما يؤدى إلى الاستسلام لانحراف حضارة منهاره . ولما كان الاسلام هو القوة الوحيدة التى لها قدرة التعبئة وقت الخطر ولحظة المصير ، وهو الذى يجمع القلوب حين يهدد الأمم الاجتياح والزوال ، فإن من أهداف النفوذ الأجنبي أن تطوى هذه الصفحة ، إذ أنه قد أعلن مراراً عن رغبته فى نزع فتيل الدين عن أرض الاسلام ليحولها إلى قطعة من الحديد الخردة التى لا فعل لها ولا أثر ، ويصبح معها المسلم أجنبياً فى أرض بلا هويه ولا بطاقة ، مما يؤدى إلى نسف « الوحدة الاسلامية » من جذورها وخلع المسلمين من نسبهم وإنتمائهم وتاريخهم .

فقد اتفقت جهود القوى الأجنبية على ضرب الوحدة الإسلامية وتفتيت تجمعات المسلمين إلى شظايا صغيرة ، بما يمكن للقوى الغاصبة من السيطرة والتحكم .

ولقد كان التجمع الاسلامى دائماً إنسانياً للسلام والحق وللدفاع عن الشخصية الإسلامية وإبراز ملامحها وليس للغزو أو الفتح أو العدوان .

لقد احتوت تلك الفترة الخطيرة على مؤامرات متعددة :

١ ـ ضربت الوحدة الإسلامية وفرضت القوميات والاقليميات .

٢ ـ ضربت الشريعة الإسلامية وفرض القانون الوضعى :

٣ ـ ضربت اللغة العربية الفصحى وفرضت اللغات الأجنبية والعاميات .

٤ ـ ضرب مفهوم الجهاد :

٥ ـ ضرب مفهوم الاقتصاد الاسلامى وفرض الاقتصاد الربوى .

وكان أخطر ذلك كله التفرقة بين الاستعمار وبين التبعية الثقافية ، فقد كان كتاب مصر يهاجمون النفوذ الأجنبي فى نفس الوقت الذى كانوا يشيدون فيه بالثقافات الغربية والحضارة الغربية ويعلنون ولاءهم لها وتبعيتهم لمذاهبها.

ولكن ظهور النقطة الاسلامية وقيام مفهوم أصيل لمواجهة الأحداث يستمد قوته ومصادره من الإسلام مرة أخرى بعد أن حجبت هذه المفاهيم وتهاوت ، كان عاملا خطيراً فى مواجهة المدرسة العلمانية التغريبية التى أنشأها النفوذ الأجنبى وقادها لطفى السيد وسعد زغلول ، والتى عملت على تحويل مفهوم الإسلام إلى دين عبادة ومسجد ، وحجب مفهومه الأصيل بوصفه نظام مجتمع ومنهج حياة ، وله أيدلوجيته الكاملة فى مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية مستمدة من القرآن الكريم على النحو الذى طبقها المسلمون والذى كان قائماً حتى ما قبل الاحتلال البريطانى الذى أوقف تطبيق الشريعة الإسلامية وأقام المحاكم المختلطة والأهلية على أساس القانون الوضعى .

وكان سقوط الخلافة الاسلامية ١٩٢٤ علامة على اليقظة كما كان سقوط القدس فى نكسة ١٩٦٧ علامة على الصحوة .

ولقد اتسع نطاق الدعوه الاسلاميه وكان عليها أن نقدم منهجاً فى التعليم والصحافه والثقافة ، غير أن المعوقات التى قادها النفوذ الأجنبى مازالت تؤخر هذه الخطوة ، وما يزال يسمع اليوم رأى المنهج الغربى الليبرالى ورأى المنهج الماركسى الاشتراكى فى مختلف الامور ، دون أن يسمع رأى المنهج الغربى الذى هو صاحب الحق الأول فى أرضه وبلاده .

ولكن نكسة ١٩٦٧ فجرت طاقات جديده فاستعلنت دعوة « العودة إلى الله » وخطت الامة الاسلامية خطوات نحو تقنين الشريعة الاسلامية وعدلت الدساتير فى عديد من البلاد العربية والاسلامية ليكون الشريعة الاسلامية هى المصدر الاساسى للقانون .

وهى خطوة جاءت فى ظلال الصحوة الاسلامية التى لا يتوقف طلبها عند تطبيق الشريعة ، ولكنها تأمل فى أن ينتظم الاسلام المجتمع كله ، فى كل شئونه وأموره ، بما يؤدى إلى إمتلاك الأمة الاسلامية لاراداتها وإقامة مجتمعها وتبليغ رسالتها للعالمين .

ويبقى بعد ذلك على المسلمين أن يتعلموا من عبرة التاريخ البشرى ،

وليس فى التاريخ البشرى إلا تجربة واحدة مستمرة على مدى الأجيال : تلك هى الخضوع لله تبارك وتعالى (أو الأعراض عنه) فالمجتمعات التى قامت حضارتها واتسعت ونمت ، هى المجتمعات التى قامت على أساس الأذعان لإرادة الله تبارك وتعالى والإيمان به فإذا أعرضت المجتمعات عن أمر الله أصابتها سنة الإزالة والإبادة ، ومن ثم تحطمت الحضارات الباذخة واحدة بعد أخرى لأنها فسدت حين انحرفت عن سنن الحق إلى الترف والفساد والزنا والاباحة والبغاء ، هنالك كان هلاكها وهذه هى عبارة التاريخ قائمة بالحضارة التى نعيشها اليوم ، فالمسلمون مطالبون بالتماس سنن الله الحق والسير على طريقه المستقيم وتحرير مجتمعهم من العوامل الضاغطة التى تفرضها القوى الاستعمارية واليهودية والشيوعية لاحتواء عالم الاسلام والحيلولة دون تميزه وتفرده بذاتيته الخاصة ورسالته العالمية وبذلك يسقط فى أتون التبعية والاحتواء وينهار مع هذه الحضارة حين تنهار .

وليس غريباً على المسلمين مايمرون به الآن من أزمات تشتد كلما زاد الوعى ، فإن الإسلام لم يترك منذ السنوات الأولى من تاريخه وشأنه ، ولكنه واجه كثيراً من التحديات الروحية والسياسية والثقافية من الغرب ، وكان على الإسلام أن يناضل ويكافح ويخوض المعارك وقد أفلح فى أن يصمد أمام الغزو والاستعمار الأوربى إلى المناطق التى يسود فيها ولكن الإسلام لم يكتف بالدفاع عن نفسه خلال ذلك كله ، بل أخذ المبادرة فى مواجهة الهجوم واستطاع فى خلال القرن الرابع عشر أن يكشف زيف التغريب والاستشراق والغزو الثقافى وأن يؤكد أن منهجه أعظم المناهج ، وأعلن أننا أمة واعية فطنة غير خادعة ولا مخدوعة ، تستفيد من تجارب الآخرين ، وتصهرها فى بوتقة فكرها ولا تخرج بها عن جوهر أصالتها وأمامنا تجربة العلمانية التى ابتدعها الغرب فى مجتمعه وقد فسدت وفشلت وحطمت الكيان النفسى الإنسانى للفرد والمجتمع ، والفكر القومى وقد تزهل بعد أن أجهضت إمكاناته بعد أن استهلك ، وبأن عواره ، وتكشف فساد نظرية الوحدة البشرية .

وتبين أن لكل أمة خصائص خاصة غير خصائصها العامة تستمد منها منهجاً

وأشواقها الروحية وتختلف بها عن الأمة الأخرى ، وتتميز بها وفى مقدمتها العقيدة وأن خصائص الأمة الإسلامية تختلف عن الأمية والنظرية المادية فى مسألة التوحيد والعلاقة بين الرجل والمرأة والتعامل الاقتصادى ، وفى الأساس :

ليست الديمقراطية الغربية هى الشورى الإسلامية .

وليست الاشتراكية هى العدل الاجتماعى .

ولا بد من تحديد مصطلحات كثيرة :

(أولا) : الأمة الإسلامية : حيث ينفرد الإسلام بمفهوم أصيل للأمة الإسلامية ، حيث يرتكز مفهوم الأمة فى الحضارات المختلفة على أسس جغرافية ومنها الأسس القومية ، وفى كل الأحوال يرتكز مفهوم الامة فى الحضارات الاوربية على فكرة المولد كما يفهم من استقامة كلمة (نيشن) بمفهوم الامة فى الحضارات الاخرى يدور حول المنبت أو الاصل البيولوجى أو الامومة والولادة .

أما مفهوم الأمة فى الإسلام فهو مفهوم فكرى عقلى وجدانى عقائدى ، أى أن الامة الإسلامية يدور كيانها حول الهيكل الفكرى والعقائدى للاسلام ويتأسس ذلك النظام ، فالتبليغ أو الدعوة الإسلامية هو وسيلة تكوين الأمة الإسلامية فلابد من إقامة الإعلام الإسلامى على أسس عقائدية وحضارية .

وفى ثلاث أمور يجب أن تقوم الامة الإسلامية :

١ — النظام الإسلامى الاقتصادى والسياسى .

٢ — النظام الاسلامى فى التعليم والتربية .

٣ — النظام الاسلامى فى العلاقات الاجتماعية ومنها مسئولية المرأة فى بناء الاسرة والطفل .

فقد تشوهت مفاهيم المجتمعات الإسلامية فى هذه القضايا الثلاث باستيراد النظم الاجنبية ، مما كان له أثره فى تأخر النهضة ومما قام عقبة فى وجهها .

(ثانياً) الاصالة : إن مصطلح الاصالة يقتضى المفهوم الصحيح الاسلام ورسالته الشاملة للحياة وإحياء الروح الإسلامية الحقيقية فى النفوس وحملها على استكشاف ذاتها وتعلقها بالاصول وترويضها على رفض كل سيطرة أجنبية تفرض سلطتها بالقوة أو ثقافتها عن طريق الحيلة والاستدراج حيث إن مبادىء الإسلام لا ترضى للمؤمن أن يكون ذيلا لغيره فى إفكاره وسلوكه فمعرفة الذات وفهم الواقع هما واجب الفكر الإسلامى المعاصر .

(ثالثاً) : مصطلح الحرية : والحرية فى المجتمع الإسلامى هى حرية مضبوطة، لا تحل حراماً ولا تحرم حلالا ، والحرية فى المجتمع المسلم تضمن للفرد عدم الاعتداء على ماله وجسمه ونفسه وعرضه ، وإقامة الضوابط التى تحفظ هذه الحريات وهى تتمثل فى التمسك بالقيم والاخلاق التى أقامها الإسلام وخوف الله (تبارك وتعالى) وبقواه وأقامة الحدود .

والإيمان بأن الله تبارك وتعالى هو مالك الكون والانسان وإن للإسلام مسئولية فردية والتزاماً أخلاقيا (وإن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) .

(رابعاً) : الإيمان الصادق بأن للإسلام مقاييسه الخاصة ومعاييره والتزاماته فهو صالح لذاته وليس صالحا لانه موافق للديمقراطية أو للاشتراكية أو للرأسمالية أو لان فيه حرية فردية أو لان فيه مصلحة الجماعة أو لان فيه كذا وكذا إلى غير ذلك من المفاهيم المتشابهة مع مذاهب أخرى ، أن للاسلام مقاييسه فى الخير والشر والحق والباطل ، وهى مقاييس مستمدة من مصدر ربانى إلهى أعظم ، فوق كل المصادر ؛ ومن هنا فقد تميزت بالخلود والمرونة والقدرة على العطاء فى مختلف البيئات والعصور، وهي التي أعتصم بها المسلمون فى مختلف مراحل حياتهم وتاريخهم ، وعادوا

إليها فى الأزمات والملمات ففتحت لهم أبواب النصر والتمكين ، ونحن اليوم لا نجد غيرها منطلقا لأمتنا بعد تجربة مع الأيدلوجيات البشرية التى استمرت أكثر من مائة عام أو تزيد .

(خامساً) : إن واقع المسلمين اليوم ليس حجة على الإسلام ذلك إن واقع المسلمين اليوم هو حصاد الاستعباد والاستعمار وما مر على الأمة الإسلامية من دعوات مسمومة . فالاستعمار لم يترك المسلمين يعيشون واقعهم الحقيقى بل ضرب وحدتهم الكبرى وقسمهم إلى قوميات وطوائف وأحيا بينهم العنصرية والشعوبية وزين لهم الرجوع إلى حضارات ما قبل الإسلام أمعانا فى أبقائهم ممزقين ومتخلفين وصرفا لهم عن الدخول فى تجمع إسلامى فالإسلام فى الحقيقة اليوم محجوب بالمسلمين وإن إصدار أى على الإسلام من خلال واقع المسلمين ليس سليما والواقع أن هناك منهج الإسلام الأصيل وهناك التطبيق ، أما منهج الإسلام فهو الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أما واقع المسلمين خلال التاريخ فهو بين التجربة والخطأ وهو ليس حجة على الإسلام ولكنه حجة على المسلمين .

(سادسا) : كان لا ستشراء المفاهيم المادية والماركسية أثر بعيد فى بروز ظاهرة « التسابق المادى والطموح إلى إقتناص المال من أى طريق دون اعتبار لأى مقومات أخلاقية أو دينية وبروز ذلك التنافس حول الولاء والنفاق لذوى النفوذ لا نتهاب أكبر قـــدر من المطامح المادية وغلبه مظهرية الترف والإسراف واختفاء طوابع القناعة والاقتناء والاستعفاف عن الحرام وإن الصدقات للفقراء والمعوزين .

سابعا : هناك أسلوبان لمواجهة الغزو الفكرى :

الأسلوب القومي ، أو الأدبي أو الوطني وهو أسلوب قاصر ضيق

المنطلق لأنه تقف عند جانب واحد ، أما الأسلوب الإسلامى فهو الأسلوب الجامع الحقيقى القادر على المواجهة الصحيحة من منطلق النظرة الجامعة للمادة والروح ، والعقل والقلب ، والعلم والدين والدنيا والآخرة وهو المرتبط بالزمن تاريخا وبالبيئات عرضاً وبمختلف الظروف وحصيلة التجربة التاريخية الإسلامية فى مواجهة الغزو الفكرى والنفوذ الأجنبى فى مجال التاريخ والمجتمع والحضارة .

* * *

إننا اليوم حين نستعرض موقف أمتنا من التحديات الخطيرة التى فرضها علينا النفوذ الاستعمارى خلال هذه المرحلة من الحملة الفرنسية إلى النكسة نجد خطاً واحداً : ذلك هو إصرار القوى الأجنبية على تأخير وصول المسلمين إلى امتلاك إرادتهم وإقامة مجتمعهم واستئناف حضارتهم وأداء دورهم الإنسانى الربانى فى تبليغ الإسلام للبشرية التى هى الآن فى أشد حالات الحاجة إلى هذا المنهج بعد أن اضطربت مسيرتها وفشلت الايدلوجيات الوضعية التى فرضت عليها ، ولقد استطاعت الدعوة الإسلامية أن تشق طريقها رغم كل هـــذه المصاعب وأن توجد لها مكاناً حقيقيا وأن تقدم منهجها وأن تدافع عنه وأن تكشف وجهة نظر الإسلام فى كل ماطوح فى ساحتها من مذاهب ودعوات ، بل إنها قد أعلنت بكل الوضوح بعد تجارب الاحتواء التى فرضت عليها أن كلا المذهبين الغربيين (الرأسمالية والماركسية) لا يتنا سبان معها ، وإن لها مذهبها الاصيل (الإسلام) الذى تشكل عليه وجودها والذى هو قائم فى أعماق وجدانها بالرغم من كل المحاولات التى جرت فى القرن الماضى لا قصائها عنه .

لقد استطاعت هـــذه الامة أن تكشف نفسها وكانت نكسة ١٩٦٧

منطلقا حقيقياً لا انتقالا من مرحلة اليقظة إلى مرحلة النهضة ، ومن ثم فإن « الصحوة الإسلامية » التي يعيشها المسلمون اليوم هي حقيقة واقعية .

واقد شهد الأعداء بهذه الحقيقة ومن أمثلة ذلك ما كتبه المفكر الغربي « جيميس بيسكاتوري تحت عنوان :

« الظاهرة الإسلامية وجدت لتبقى وعلى الغرب أن يتعامل معها على هذا الأساس » .

يقول : إن الفكر الغربي خاضع لما ورثه من عهود الحروب الصليبية إن المحللين راو استحالة نهضوض المسلمين ولحاقهم بالعصر الحديث دون تبنيهم العلمانية (اللادينية) .

لقد ربطوا بين التحديث والعلمانية ربطاً لا فكاك فيه ، كذلك فإن التفكير الغربي (النمطي) قد قاد الغربين إلى النظر إلى الاسلام في إطار الصراع بين الحضارتين الاسلامية والغربية وليس في إطار تعاون محتمل يرتكز إلى قيم مشتركة بينها ، إن على الغربيين أن يتعلموا التعامل مع (الظاهرة الإسلامية) على أنها وجدت لتبقى ، إن الاسلام موجود الآن في صفوف الحكم والمعارضة سواء ذلك إيمانا به أو تظاهراً أمام الجماهير المؤمنة به ، كذلك فقد أصبح الطلاب المسلمين في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية تربة خصبة لتفريخ الحركات الاسلامية وعادة ما يرجع هؤلاء الطلاب الذين يتلقون علوما متقدمة في الغرب ليتسلموا مراكز قيادة في بلدانهم وهذا يتيح لهم نشر أفكارهم الاسلامية » .

ويرى كثيرون أن الصحف الاسلامية ومظاهر البعث الاسلامي هي في جوهرها وفاء عاجل للوعد الإلهي بحفظ دينه والتمكين لأهله ونصر

للمستضعفين فى الأرض (وعد الله الذين آمنو وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض) .

كما أن الصحوة ثمرة للجهود الصادقة المؤمنة التى بذلتها حركة اليقظة الاسلامية ليس طمعا فى مال ولا جاه وإنما هى دعوة مخلصة لتمكين دين الله فى الأرض وإن هذه الصحوة تدل دلالة جلية على فشل الاتجاهات الوافدة التى سادت المنطقة الاسلامية وإن اقتناع الجماهير المسلمة وتعاطفها مع اليقظة بالعودة إلى الاصالة يرجع إلى رفضها الكامل لكل عوامل تزييف هوية الأمة باستيراد المفاهيم والقيم من خارج الحدود . وإن اليقظة عبارة عن حركة إيمان ورسالة لا نقاذ العالم من براثن الحضارة المادية التى دمرت العالم المعاصر .

إن الأمة الاسلامية اليوم فى مطالع القرن الخامس عشر تثق بثقة تامة بأن النظام الاسلامى قادر على أن يقدم للمسلم — بل للبشرية كلها — الحلول الكريمة لكل أزماته ومشاكله سواء فى مجال بناء الفرد أو بناء الأسرة أو بناء المجتمع وفيه كل ما يتوقى به الطغيان السياسى وسوء توزيع الثورة والفساد الاجتماعى . إن الجماهير المسلمة تؤمن بأن الاسلام قادر على أن يقدم الحلول لمشاكلها السياسية والاجتماعية والاقتصادية وإن الإسلام فعل ذلك فى الماضى وأشاع روح الأمن والكرامة والسماحة على العالم الذى أظله الف سنة كامله وإنه قادر على استئناف التجربة مرة أخرى ، وإسعاد البشرية كلها وإخراجها من ظلمات ذلك الليل الذى أحاط بها واليوم يتنادى فلاسفة الغرب يتطلعون إلى الاسلام موقنين بأنه دين المستقبل ، وإنه يمكن بيوتهم وإن الاسلام قادر أن يقدم اليوم منهجه بلغة العصر ومن نقطة الواقع المعاش فى دعوة واضحة حريمة أن تعدل المجتمعات نفسها لتتلائم مع نظام الله فى أصوله الثابتة التى لا تتحول ولا تتغير .

فالاسلام حاكم ومهيمن على المجتمعات وعلى المجتمعات أن تتحرر من الوثنيات والماديات لتسلم وجهها لرب العالمين وتعترف بأنه هو مصدر كل شيء وتحطم بأيديها تلك الأوثان التى صنعتها مما يسمى الطبيعة والحتمية والجبرية وأن تؤمن بالخالق الأعظم وتقبل منهجه فى الحياة والمجتمع والحضارة .

ولن يتحقق هذا إلا إذا إستمسك المسلمون بالذاتية الإسلامية الخاصة التى لا يقبل الانصهار أو الاحتواء أو الذوبان فى حضارات الأمم أو مناهجها وأيدلوجياتها . وإننا نتطلع إلى اليوم الذى يصل فيه المسلمون إلى إمتلاك الارادة لكسر هذه القيود التى تكبلهم فى عبودية قاسية للقوى الخارجية فى مجال الاقتصاد والقانون والتربية ، ولن يكون ذلك إلا باجتماع الأمة الاسلامية فى وحدة حقيقية حول منهج الله الحق والله من وراء القصد ؟ .

الباب الأول

من التبعية إلى اليقظة

الفصل الأول : نفوذ التغريب بعد مرور مائة عام على الاحتلال

الفصل الثانى : أهداف الحملة الفرنسية

الفصل الثالث : محمد على : تغريب النظم والقوانين

الفصل الرابع : إسماعيل قنطرة إلى الاحتلال

الفصل الخامس : جمال الدين وإسماعيل

الفصل السادس : مواجهة الاحتلال البريطانى

الفصل السابع : سعد زغلول : رائد التحول نحو التغريب

الفصل الثامن : التبعية بعد الحرب العالمية الأولى

الفصل التاسع : الخروج من التبعية

الفصل الأول

١٩٨٣ — ١٨٨٢

نفوذ التعريب بعد مرور مائة عام على الاحتلال البريطاني لمصر

ثلاث موجات مر بها العالم الإسلامى فى العصر الحديث تحت أسماء الاستعمار الغربى الزاحف على بلاد المسلمين .

بدأ هذا الاستعمار بالزحف الأسبانى البرتغالى الذى كان يطمع فى الانتقام من العالم الإسلامى على أثر سقوط الأندلس وما أطلق عليه معركة الاسترجاع . وقد تواصل الزحف الأسبانى البرتغالى على شاطىء شرق أفريقيا انتقاماً من الوجود الإسلامى فى الأندلس .

وكانت حرب الثلاثمائة عام بين الجزائر وأسبانيا (١٥٣٠ — ١٨٣٠) تقريباً وعلى أثرها بدأت مرحلة الغزو الفرنسى والبريطانى الذى توزع على العالم الاسلامى فتقدمت فرنسا فى شمال أفريقيا (تونس والجزائر ومراكش) والشام بعد الحرب العالمية الأولى .

كما تقدمت الدول الأوربية فى قلب أفريقيا (١٨٨٠ تقريباً) لاحتلال بلادها وتلك معركة طويلة .

وفى المشرق كانت الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨ مقدمة للنفوذ الغربى وكان مصدر دخول التغريب والغزو الثقافى الذى حرصت فرنسا على إذاعته عن طريق معاهدها وإرسالياتها فى مصر وفى لبنان واستانبول فى هذه الفترة :

هذه هى المرحلة الأولى التى تلتها مرحلة حكم اسماعيل والديون وتغلغل

النفوذ الأجنبي وتصارع النفوذين الفرنسى والبريطانى ثم جاء الاحتلال فسيطر وحول الاتجاه الثقافى والسياسى والاجتماعى إلى العلمانية .

كانت مصر هى القاعدة التى طالما فكر النفوذ الغربى الاستعمارى فى العصر الحديث فى الاستيلاء عليها ، كانت تدور حولها أحلام الحروب الصليبية ورسائل الفلاسفة إلى الملوك بوصفها المركز الاستراتيجى الضخم الواقع بين القارات الثلاث ، وفى العصر الحديث تصارعت حولها القوتان اللتان كانتا تملكان النفوذ والسلطان .

ولذلك فإن نابليون عندما لمع سلطانه فى فرنسا كانت خطوته الأولى هى توجيه الحملة الفرنسية إلى مصر لاخراجها من الدولة العثمانية تمهيدا لتمزيق هذه الدولة التى تحمل لواء الخلافة ، والداعية إلى الوحدة بين المسلمين خارج الخلافة ؛ والتى تمثل تلك القوة التى ظلت تزعج الغرب كله ثلاثة قرون كاملة .

ولقد كان الغرب منذ امتلاك القوة العسكرية الحربية حريصا على تمزيق هذه الامبراطورية والسيطرة على وحدتها وإخضاعها له وإذلالها ونهب ثرواتها وقد انطلقت القوات الغربية للانتقام من المسلمين بعد سقوط طليطله ١٤٠٢ ، انطلقت قوى الأسبان والبرتغال لمحاصرة شوطى المغرب وتحطيم المراكب التى تحمل المسلمين الفارين بدينهم من جحيم محاكم التفتيش وبعد أن تراجع العثمانيون عن أسوار فينا ١٦٨٣ . انطلقت قوى الغرب لمهاجمة عالم الإسلام وتشديد الحصار عليه .

يقول ارسكين تشايلدرز فى كتابه (الطريق إلى السويس) تعود علاقتنا بالعرب إلى نحو ألف ومائتى عام .

فقد اعتبر الزحف التوسعى العربى الإسلامى على الأبواب الشرقية للعالم المسيحى فى القسطنطينيه عام ٧١٧ وعلى قلب فرنسا ٧٣٢ وهى ظاهر طبيعية مرعبة ومخيفة تركت جذورها فى ثقافتها ، وقد امتزجت هذه الظاهرة مع المولد الحقيقى للعصر المسيحى المتوسط ومطلع النظام الاوروبى ، ولم يخلف أى

تغلغل أجنبي مثل هذا الأثر الذى خلفه التغلغل العربى فى تراثنا السياسى والثقافى والأدبى ، ولو تفحص أى غربى زوايا عقلة الباطن بحثاً عن أى فكرة تتصل بالعرب تعلقت به فى غضون الألف عام الماضية لاستمع إلى الأصداء الخافقة التى خلفتها معركة تور — بواتيه (بلاط الشهداء) ٧٣٢ م على نهر اللوار .

وقد أوضح جبيون هذا الأثر قبل نحو مائتى عام إذ قال :

لقد امتد خط الزحف الظافر أكثر من ألف ميل من صخرة جبل طارق ، حتى شواطىء اللوار ولو تكرر هذا الزحف مساحة أخرى مماثلة لحمل العرب إلى حدود بولندة وجبال اسكوتلنده ولأوصل الأسطول العربى إلى مصب التايمز بحراً كما يشاء دون أن يشتبك فى أى معركة حربية ولربما كان من المحتمل أيضاً أن يدرس القرآن فى أكسفورد ولقد ظلت هذه الأصداء منذ أيام تور عن العرب متأصله فى عقول الأوربين يعززها الصراع المستمد مع العرب عند المداخل الجنوبية » أه

وفى ضوء هذه الصورة نرى تلك الجولة التى تدافعت تحت إسم الاستعمار الغربى لبلاد المسلمين تحمل فى أعماقها ذلك الحقد والانتقام الشديد وتخفيه هذا فى قفاز من حرير يتمثل فى كلمات على لسان نابليون بأنه مسلم وإنه يقدر الإسلام بينما كان يحمل فى أعماقه أحقاد الصليبية كلها حين اقتحم الأزهر ، ويحمل الولاء الصهيونى حين دعا اليهود إلى التقدم نحو الشرق لإقامة دولة لهم ولقد كانت الحملة الفرنسية هذه بالرغم من سرعة تقصيها بعيدة المدى فقد فتحت الباب واسعاً أمام النفوذ الأجنبى وكانت ركيزته بل إن التجربة الفرنسية لم تتوقف بعـــد انسحاب الحملة الفرنسية ولكنها توالت واستمرت فى أهاب حكم محمد على وفى الارساليات ونفوذ اللغة الفرنسية وفى التبشير والاستشراق الفرنسى ، وفى نفوذ قناة السويس التى كانت دولة داخل الدولة .

وظلت تواصل عملها حتى اشتركت فى الحملة المشتركة على مصر مع بريطانيا عام ١٩٥٦ .

كانت هذه الجولة بعيدة المدى إلى الحد الذى صوره الشيخ الجبرتى حين قدم الفرنسيون ومعهم تلك الهيئة العلمية التى أخذت تدرس وتجمع المعلومات وتقدم تلك البالونات المثيرة التى خطفت أبصار المشايخ فبهرتهم ، ومن ثم بدأت مرحلة الانبهار بالحضارة الغربية حتى جاء رفاعة الطهطاوى معجبا بحضارة فرنسا يترجم الدستور الفرنسى ونشيد المارسيليز ويدعو إلى تمزيق تلك الوحدة الإسلامية ، بدعوته إلى الإقليمية المصرية إرضاء لمحمد على الذى كان يطمع فى تمزيق الدولة العثمانية وإقامة كيان خاص له تحت اسم عربى أو مصرى ، وليس عثمانيا أو إسلاميا :

كانت الحملة الفرنسية رمزاً على خطة الغزو المرتبه : وهو ليس غزوا عسكريا فحسب ولكنه غزو فكرى ، ومن ثم فقد كان على الأزهر : ذلك الطور الشامخ أن يواجه الحملتين : غزوة السلاح وغزوة الفكر .

إن رفاعة الطهطاوى حين بهره فكر الغرب وحضارة الغرب لم يكن يعرف بعد إبعاد هذه المؤامرة الخطيرة التى صنعها لويس والتى ترمى إلى القضاء على النفوذ الخاص والذاتية الخاصة للاسلام ، ولم يكن يعرف مؤامرة الغرب فى احتواء الفكر الإسلامى وصهره فى بوتقة العالمية والأممية حتى يضيع طابعه المميز وذاتيته المفردة ، ومن ثم ينصهر المسلمون فى حضارة الغرب حتى يصبحوا جزءا من القطيع العام ، وماتزال محاولة صهر المسلمين فى البوتقة الغربية مستمرة منذ ذلك اليوم ١٧٩٨ إلى اليوم ١٩٨٣ بعد قرن كامل ماتزال تعقد مؤتمرات تستقطب بعض الشعوبيين لخداع المسلمين وقهرهم على أن يقبلوا أسلوب العيش الغربى وأن ينصهروا فى بوتقة التكنولوجيا والحضارة الغربية ليصبحوا ذيلا للغرب من أمثال هذا المؤتمر الذى عقد فى روما سنة ١٩٨٢

فالخطة التى رسمها النفوذ الأجنبى لاحتواء الإسلام والفكر الإسلامى والمسلمين ماتزال مستمرة وماتزال تبحث لها عن مخارج ومداخل بالخداع وكلما

سد المسلمون بابا فتح عليهم التعريب أبوابا فى محاولة لخداع مجموعة من الشباب المسلم الذى تعلم فى معاهد الارساليات والذى لايفهم الإسلام فهما صحيحا والذين ماتزال تبهرهم أضواء الحضارة الغربية الغاربة .

ومهما كتب كتاب اليقظة يكشفون عن فساد مفهوم الغرب فى تصوير الإسلام دينا روحيا (وليس دين ودولة — منهج حياة ونظام مجتمع) فإن هناك من تخدعهم الشعوبية وأولياء التغريب والشيوعية عن هذا .

ومهما قيل عن دخول الحضارة الغربية عصر المحاق والسقوط بعد أن فشلت فى تقديم المنهج الذى يجمع بين أشواق الروح وعطاء المادة فإن خداع الحضارة مازال يبهر بأضوائها المادية الخادعة مازال يفعل فعله فى كثير من النفوس التى لم يتحقق لها قدر من الرصيد الإسلامى والروحى والعطاء القرآنى الصحيح الذى يمكنها من الحكم على الأمور .

ومن ثم فإن المعركة ماتزال دائرة بين النفوذ الأجنبى وبين عالم الإسلام منذ ذلك الوقت إلى اليوم ممثلا فى الحملة الفرنسية ؛ ثم الاستعمار البريطانى ثم النفوذ الصهيونى ثم نفوذ الماركسية والشيوعية الزاحف على عالم الإسلام منذ ١٩٦٢ ثم بقاء النفوذ الغربى ممثلا فى بلاد الإسلام بعد انسحاب الجيوش من البلاد المحتلة ممثلا فى المصالح الاقتصادية والتبادل الثقافى والخبراء والقروض والتعامل الذى تسيطر فيه القوى المالية الكبرى بمصارفها ومنتجاتها وقدرتها على طرح هذا القدر الضخم من الأدوات الاستهلاكية عن طريق صكوك شهرية تستنزف الموارد وعن طريق الفوائد تحت تأثير النظام الربوى اليهودى العالمى .

أما أبرز ما كشفت عنه دراسات الحملة الفرنسية (١٧٩٨ — ١٨٠١)

(١) المقاومة العامة والشاملة خلالى هذه الفترة بما أطلق عليه حرب الألف يوم وقد قاد هذه المقاومة الأزهر الذى حمل قيادة الأمة حتى لم يبت جيش الاحتلال ليلة واحدة هادئة طوال ثلاث سنوات ، وكان رفض الوجود الغربى على أراضينا رفضا عاما وشاملا وعنيفا .

(٢) لما رأى قادة الحملة الفرنسية أن الأزهر هو الذى يقود المعركة كان لابد من الانتقام الشديد منه وبذلك دخلت الخيل الفرنسية الأزهر ، « واعمل الجيش الفرنسى السيف فى طلبته وشيوخه ونهبت الكتب ومزقت مخطوطات عمرها عدة قرون ، القتها أرضا ووطئتها بسنابك الخيل ونهبت بعضها اليهود الذى كانوا فى خدمة جيش الاحتلال وأتخذ الجنود من المسجد الجامع اسطبلا للخيل حتى توجه الشيخ الجوهرى إلى نابليون طالبا خروج الخيل من الأزهر وفى هذه الغزوة القى القبض على عدد من الشيوخ وقطعت رءوسهم فى سجون القلعة وكانت هذه هى المرة الأولى فى تاريخ مصر التى يمتهن فيها الأزهر على هـذا النحو ، وذلك لأن أول مرة يحتل فيها مستعمر أجنبى مصر منذ أن كان الأزهر وكان ذلك انتقاما من موقف الأزهر ودوره فى المقاومة التى قادها شيوخه داخل مجالس نابليون وداخل التشكيلات الإداريه إلى المقاومة الوطنية العنيفة وتنظيم الحركات السرية .

ومن ذلك موقف أحد علماء الأزهر الذى وضع نابليون على كتفه العباءة المطرزة فأخذها وألقاها على الأرض وداسها بقدمه أمامه .

(٣) كان هذا فى نظر النفوذ الغربى انتقاما من الأزهر ومنطلقا لتحجيم الأزهر والقضاء على نفوذه ، هذا الاتجاه الذى قام فيه محمد على بدور كبير ثم جاء الاحتلال البريطانى فتوسع فيه وكان من أخطر عوامل المقاومة قيام نظام تعليمى جديد منفصل عنه يسمى وزارة المعارف على أساس النظام العلمانى على النحو الذى رسمه وقادة دنلوب فى عهد كرومر والذى ظل مسيطراً على التعليم حتى اليوم .

يقول جلال كشك فى كتابه (ودخلت الخيل الأزهر) : كان رفض الوجود الغربى على أراضينا رفضا عاما وشاملا وعنيفا وكان لابد أن تصفى قيادة الأزهر ، لاعن طريق احتلاله بالخيل ولا بتسمير أبوابه ، بل بتسمير باب قيادته الفكرية الأمة بتغريب المجتمع من حوله حتى تقطع جذوره أو تذوى ويصبح رمزاً للتخلف ومثار السخرية والتندر ، وهذه هى المهمة

التى تولاها بنجاح رجل الغرب وممثل مصالحه : محمد على باشا الملقب بالكبير مؤسس مصر الحديثة وباعث نهضتها ومسلمها فرنسة عاجزة إلى الاستعمار الغربى ، وبعد ثمانين عاما من تحضير وتمدين وتغريب أسرة محمد على لمصر انتقلت القيادة نهائيا من الأزهر وأصبحت هذه المرة فى الجيش فلما سقط الجيش فى معركة التل الكبير ، سقطت مصر ونعم الإنجليز بهدوء ربع قرن (١٨٨٢ — ١٩١٧) لأن الأمة كانت بلا قيادة لأن قيادتها الضعيفة كانت قد نحيت وضعفت لأن عملية التغريب كانت قد تمت بنجاح .

وآية ذلك أن استطاع كرومر إخراج زعيم علمانى يفتح الطريق أمام التغريب ويحطم كل مقومات الحركة الوطنية الإسلامية ويدفع بالأمة إلى عهد طويل لقبول النموذج الديمقراطى الغربى الزائف ، هو سعد زغلول خريج الأزهر الشريف ومسلم الحركة الوطنية الى الولاء الغربى وقبول الاحتواء الغربى وأن يخرج التغريب من الأزهر عالما آخر هو الذى حمل لواء القول الزائف بأن الإسلام دين روحانى وليس دين حكم ولا نظام مجتمع وهو على عبد الرازق كما أخرج آخر حمل لواء الشك الفلسفى وانكار وجود إبرهيم وإسماعيل وطه حسين :

يقول جلال كشك : كان الإسلام هو السد الوطنى الذى تنكسر عنده أمواج الغزو الغربى لأن الإسلام هو الرفض الحضارى للغزو الغربى وكان الإسلام يمثل فى المقاومة الأكيدة من جانب الجماهير للغزاة الأجانب الذين يهددون وجودنا الحضارى ومستقبلنا ومصالحنا وكان يتمثل أيضاً فى القيادة المتفقة لسلامة (شيوخها وتجارها وأعيانها) .

كان على الغزوة الاستعمارية الغربية أن تفتت مقاومة أمتنا بتجريدها من الإسلام وقد جربت أوربا إبادة الإسلام بقتل المسلمين فى الحروب الصليبية ولكنها اكتشفت فشل هذا الأسلوب ثم جربت أن تخرج المسلمين من

الإسلام بحملات التبشير ولكن (التبشير) لم ينجح فكان (التغريب) أى دفع المسلمين والمسيحيين إلى استبعاد الدين من حياتهم وتفكيرهم وعزل القيادات المثقفة لتصفية دورها فى المجتمع .

(٤) واجه المسلمون عاصفة التغريب مواجهة قوية ، وكان موقفا مختلفا عن الشعوب التى احتواها التغريب وهى الدول التى لم تكن لديها حضارة قادرة على المقاومة :

فقد كان للمسلمين « تراث حضاري ومؤسسة حضارية تشكل رغم تخلفها عنصر رفض ومقاومة للوجود الغربى .

« هذه الشعوب عندما فوجئت بتفوق الغرب الذى عاش قرونا على احتقار شأنه إلى أن روعتها مدفعية نابليون فى عشية القرن ١٨ فى الطرف الغربى من آسيا فكان السؤال كيف نواجه مدفعية الغرب » .

الفصل الثاني

أهداف الحملة الفرنسية

كانت أبرز أهداف الحملة الفرنسية القيام بدور عسكرى حاسم فى مؤامرة الغرب التى ترمى إلى تمزيق الدولة العثمانية والتى قال الوزير الإيطالى (دوجمار) أن هناك مائة خطة وضعت لهذا الغرض :

وكل دعوى تسمى تحضير مصر والعالم الإسلامى فإنها عبارة مزورة ، وكاذبة فإن سمعة الثورة الفرنسية لم تكن قد تكشفت عن مخطط يهودى وأن نابليون كان جزءاً من هذا المخطط فإذا ذهبنا نتابع دور اليهودية العالمية فى المؤامرة على العالم الاسلامى لوجدنا نقاطاً خطيرة جديرة بالبحث والمتابعة .

(أولا) كان لليهود دور كبير فى تقليص دولة الاسلام فى الأندلس ، ففى مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين أخبار كثيره عن دورهم ذاك قبيل العهد المرابطى ثم كان لهم دور فى إنهاء دولة غرناطة وخروج المسلمين من الأندلس نهائياً .

(ثانياً) أثبتت الوثائق المسيحية كما جاء فى كتاب الأميرال (كى) أن الحروب الصليبية لم تكن حروبا مسيحية وإنما كان تدبيرا يهودياً لوضع العالمين المسيحى والاسلامى فى حروب عامة مدمرة دامت أكثر من عصرين تمهيداً للوصول إلى فلسطين .

(ثالثاً) تجول لورنس فى الشرق الأوسط عام ١٩١٤ باسم التنقيب عن الآثار فى قرقيش ثم تحول إلى سيناء ورسم خريطة مساحية عسكرية لسيناء من العقبة حتى العريش وقام باستطلاع رأى قادة العرب فى توطين اليهود فى

فلسطين والتمهيد لوعد بلفور وأغرق أجهزة الأمن المصرية فى مشاكل الأمن لصرف الأنظار عن النشاط الصهيونى الذى كان قد وصل إلى ذروته إلى مصر وتلك دعوى باطلة إن عصر النهضة بدأ عام ١٧٩٨ عندما جاءنا نابليون وحطم ذلك السور العثمانى العظيم الذى حال دون اتصال مصر بأوربا ثلاثة قرون كاملة، فهل كانت مهمة نابليون حضارية وماهى بذور النهضة التى زرعها فى مصر أثناء احتلاله ؟ يجيب عن هذا الكولونيل عبد الله التل فيتحدث عن قصة تسخير الصهيونية لنابليون (كتابة الأفعى اليهودية فى معاقل الإسلام) .

استمر استغلال اليهود للثورة الفرنسية بعد أن حطموا أسس الدولة من نواحيها الاجتماعيه والدينية والاقتصادية والثقافية ، وغدوا القوة الحقيقية التي ترهب الشعب الفرنسى تحت ستار الشعار المزيف : للحرية والمساواة والاخاء .

وحين انتهت السلطة العليا فى فرنسا إلى نابليون انتهز اليهود هذه الفرصة وشرعوا فى الاتصال به والإيعاء إليه عن طريق مستشاريه من اليهود وخاصة رجال الدين منهم ثم تقدموا له بمذكرة عن فتح مصر ومساعدة نابليون فى تثبيت هذه المستعمرة لفرنسا ومدى الفوائد التى سيجنيها نابليون من استغلاله لأموال اليهود وخبرتهم فى التجسس والتخريب ثم يتطرق إلى بيت القصيد فيقول: «على فرنسا إذن أن تمنحهم الارض التى سيقيمون عليها وطنهم وجمهوريتهم ومصر هى لفرنسا ومصر على وجه التحديد هى التى اتجهت إليها آمال أبنائهم لتكون أرض عودتهم بعد تيههم الثانى ، إن مصالحنا ورغائبنا يتفق ومصالحكم ورغباتكم وإنه لحق وسعنا أن نسعدكم فاتجهوا بأنظاركم إلى مصر ، تلك الاراضى الجميلة بعد خلاصها من العثمانيين، وبلغوا اقتراحاتنا إلى إخوانكم التائهين فى الأرض وعرفوهم عن قيمة الفرصة التى نقدمها لكم ، وليجمعوا الأموال فيبتاعوا ذلك الربع من مصر الذى يجاوز برزخ السويس والبحر الأحمر » .

أما الثمن الذى يقدمونه لنابليون — بعد الأموال — فهو أن يكونوا أداة تخريب واضطرب ، فإذا استطاعوا عن هـــذا الطريق الدخول

إلى عقر آسيا فإنهم يحملون معهم الصناعة والفنون والعلوم الأوربية ، هذا وأنهم يقدمون إليك عنصرا استعماريا متينا ثابت الأركان قد يكون ضروريا فيما يقوم فى آسيا مقام الامبراطورية الآخذة فى الانحلال : امبراطورية العثمانيين ويقدم لهم أهم الضمانات لبث الفوضى وإشعال الفتن وإحلال الأزمات للقضاء على الأتراك جملة واحدة » .

وعندما رفع (باراراس) المشروع إلى نابليون استصوب الفكرة واستعان بعلماء اليهود وحاخاماتهم على صياغة النداء ، وقد جاء فيه « إن الأمة التى ينظر أعداؤها إلى موطنهم الوراثى كغنيمة تتقاسم وفق أهوائهم بضربة قلم فى دوائرها تشعلها حربا لاهوادة فيها ولا مثيل لها فى التاريخ للدفاع عن كيانها فتثأر للذل الذى لحق بهم منذ ألف عام تقريبا فإن هذه الأمة (أى الفرنسية) تقدم لكم الآن وعلى الرغم من جميع العقبات مهد إسرائيل ياورثة فلسطين الشرعيين إن فرنسا تناديكم الآن للعمل على إعادة احتلال وطنكم واسترجاع ما فقد منكم ، أسرعوا فإن هـــذه اللحظة لن تعوض قبل آلاف السنين للمطالبة باسترجاع حقوقكم المدنية بين شعوب العالم » .

الأهداف إذن مشتركة والخدمات متبادلة يمنحهم نابليون قسما من مصر يتخذونه قاعدة للوثوب على فلسطين والمقابل هو المال ، وأن يكونوا فى يده أداة فوضى وتخريب وتثبيت للاستعمار الفرنسى .

هذه هى مهمة الإمبراطور العظيم حامل لواء الثورة الفرنسية وشعاراتها الإنسانية وبذور الحضارة إلى الشرق وموقظه من نومه الثقيل ولكى تنجح المهمة وينطلى الخداع فلا بد من القناع ، كان نابليون يعلم علم اليقين أن العدو اللدود والخصم العنيد الذى سيواجهه ، ليس جنود المماليك وإنما هو الإسلام : ذلك الطود الراسخ والجبل الأشم الشامخ التى تكسرت عليـــه موجات الصليبيين وبقى الشرق شرقا ، لذلك رأى من الحكمة أن يتفادى مواجهة هذا الخصم الذى لايقهر والعدو الذى لايدحر ، ولذلك فعندما قرر نابليون استعمار مصر كنقطة إنطلاق لبناء امبراطورية الشرق بدأ بدواسة الإسلام

وطلب الإسلام وصنفه تحت قائمة الكتب السياسية ، وكلما دنا من الساحل الإفريقى استغرق فى دراسة الإسلام ووصل به الأمر إلى حد ادعاء الإسلام وذلك فى محاولة منه لتملق عواطف المسلمين وتنويم الشعور الدينى فقد أصدر إلى المصريين منشوراً جاء فيه « لا إله إلا الله لا ولد ولاشريك له فى ملكه) أيها المصريون قد قيل لكم إننى ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه ، أيها المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد قولوا لأمتكم أن الفرنساوية أيضا مسلمون مخلصون .

تثبت جيوش المماليك ساعات ثم انهزمت وأصبح نابليون وجها لوجه أمام الإسلام المتجسد فى الأزهر فتحمل شيوخه مسئولياتهم وقاموا بتنظيم الثورة التى اقضت مضاجع جيش الاحتلال واستعمل نابليون كل وسائل الترغيب والترهيب لجر شيوخ الأزهر واستعمالهم اداه لكبح جماح الجماهير ولما لم تفلح محاولاته ثار غضبه فأمر مدفعية القلعة المعززة بمدافع الهاويتز والمورتار بأن تسدد المدافع إلى الجامع الأزهر وما حوله من أحياء هى مركز الثورة . وأخيرا دخلت خيله الأزهر مركز القيادة المصرية ورمز سيادتها ، وهذه هى الحضارة .

هذا الجيش الذى فتح لنا نافذة على العصر الحديث كيف عامل النساء واستخدم الوسائل الوثنية فى اغتصاب الأموال وابتزازها وانتهاك الحرمات والإعدام بالجملة بدون محاكمات وكيف أن نابليون كان يصدر الأوامر بالأقتصاد فى الرصاص واستعمال السكاكين وأسنة البنادق والإغراق فى النيل إلى غير ذلك مما يندى له الجبين ويعتبر وصمة عار فى تاريخ الاستعمار .

وعندما تقدم إلى يافا أرسل الله إليه الطاعون الذى فتك بجيشه فتكا ذريعا وارغمه على الانسحاب .

ولما عاد نابليون إلى فرنسا وانكشفت له خطط اليهود الماكرة قال

إن الدنيا تساست من قبل جمعية سرية فلا يجوز لنا أن نكتم هذه الحقيقة ونغش أنفسنا ولقد صدق نابليون ، فإن هذه الجمعية لما تحققت من فشله تخلت عنه وتركته يلقى مصيره المحتوم فى بعد معركة (واترلو) التى لعب فيها المال اليهودى لعبته المزدوجة ، أما الجمعيـة المشار إليها فهى الماسونية وقد أكد الجنرال لودندروف ذلك عندما قال : إن الماسونية هى التى قضت على نابليون .

لقد فشل نابليون وكان الإسلام هو العامل الأساسى فى فشله .

قال مؤرخ عربى : لقد كان الإسلام بالطبع هو الحائل الأكبر دون هذا الجو المنشود من الثقة المتبادلة .

وتعلم الإنجليز الدرس فعملوا على تدمير القواعد وبنو وجودهم .

* * *

الفصل الثالث

محمد على : تغريب التعليم والقانون

كان النفوذ الغربى يرمى إلى السيطرة على المنطقة الإسلامية بالقضاء على مفهوم الجهاد الذى يحمل السلاح فى سبيل مقاومته وتغريب الفكر حتى يفرغه من الإيمان بهذه القوة .

ومن ثم كان يهدف إلى تدمير تلك القوة التى تحمل لواء الجهاد وتحمل لواء للمقاومة الفكرية : هذه القوة هى : الأزهر الذى قاوم الحملة الفرنسية مقاومة شديدة والذى قاوم محمد على عندما تولى نبأ بين علماء الأزهر ثم عمد إلى التصرف الفردى الاستبدادى ، ومن ثم رأى العلماء مقاومة استبداده ، بقيادة عمر مكرم فكان من أكبر أهدافه القضاء على القوتين اللتان تمثلان مصر فى هذا الوقت : قوة الأزهر وقوة المماليك .

ومن ثم سعى إلى التفرقة بين العلماء وإيقاع الخلاف بينهم حتى استطاع أن يعزل السيد عمر مكرم وينفيه ويقيم ولاء جديدا من علماء اصطنعهم بالمال والرشوة حتى تم له ما أراد .

ومن ثم أحس بنفس إحساس النفوذ الأجنبى وهو أن الأزهر حجر عثرة أمام مطامعه ومن ثم بدأت خطة هدم الأزهر بتجميده وإنشاء ما أطلق عليه نظارة المعارف التى جمدت الأزهر وانشأت التعليم العلمانى وجعلته فى حضانة الفرنسيين عن طريق البعثات .

ففى عصر محمد على بدأت ظاهرة الازدواج أى بقاء القديم فى حاله تقريبا وإنشاء جديد من مصدر مغاير إلى جانبه .

(تغريب التعليم فى عهد محمد على وتغريب القانون فى عهد إسماعيل)

لم يتصرف الاهتمام إلى تجديد القديم أو تحريكه ، وإنما انصرف إلى تشكيل مجال آخر يتبنى فيه الجديد الوافد ، استخدمت دواوين قضائية بجوار ديوان القضاء والتزمت تلك المجالس بما يصدره الوالى من قوانين ولم تلتزم بالشريعة الإسلامية ، وما لبث الناس إن رفعوا منازعاتهم إلى تلك المجالس الجديدة التى اتسع نطاق نشاطها بالتدريج اضطراراً مع زيادة ما يصدره الوالى من قوانين وتشريعات .

والمعروف أن الفرنسيين خرجوا من مصر بجهاد القوى الإسلامية وعلماء الأزهر ، الذين قاوموا استبداد محمد على من بعد فأتلف محمد على وفرنسا على مقاومة نفوذ الأزهر والقضاء عليه . وقد أعاد محمد على نفوذ الفرنسيين على نحو لم يكونوا يحلموا به أبان الحملة الفرنسية ومكن لهم من النفوذ فى مختلف الميادين وخاصة فى مجال الثقافة .

ومضى معهم شوطاً طويلا حتى عرف بأنه دبر من أجلهم مؤامرة فى المغرب أما فى مصر فقد بذر لهم بذور الارساليات التبشيرية والثقافية الفرنسية ومنذ ذلك الوقت كانت الهجمة الفرنسية الغربية الأوربية ضاربة لم ينحصر خطرها فى الجانب الاقتصادى والعسكرى ولكنه امتد إلى مجال التعليم والقانون وجرت محاولة لتنظيم المحاكم الشرعية :

وفى السنوات اللاحقة ١٨٧٥ تلقى تطبيق الشريعة الإسلامية أعنف وجهت له فانشئت المحاكم المختلفة لنظر قضايا الأجانب ووضعت لها مقننات أخذت من القانون الفرنسى باختصار مخل وبدأ تفكير الدولة فى إنشاء قضاء وطنى على هذا القرار فشكل محمد قدرى باشا لجنة لوضع هذا النظام ١٨٨٠ وصدرت لائحة المحاكم الاهليه الجديدة ١٨٨١ وجرى وضع التقنينات الرئيسية الستة التى تطبقها هذه المحاكم :

(المدنى والمرافعات والتجارى والبحرى والعقوبات وتحقيق الجنايات) وضعت كلها باللغة الفرنسية ثم ترجمت ، وقد أوقفت الثورة العرابية هذه الحركة ثم عاودت المسير بعد الاحتلال الانجليزى وافتتحت المحاكم الجديدة فى أول يناير

١٨٨٤ وعرف ذلك بحركة الاصلاح القضائى ومن ثم انحسرت المحاكم الشرعية إلى مجال جد محدود كالأحوال الشخصية وهذا النظام الجديد أعد قبل الاحتلال البريطانى وهو مأخوذ من نظام القانون اللاتينى الفرنسى لا النظام الانجليزى السكسونى وقد واجه الفقه الإسلامى تلك الضربة بانبعاث روح التجديد فيه ولكن يلاحظ بطء حركة التجديد فيه عن حركة المجتمع .

أما بالنسبة للتعليم فقد تغرب تماما وتحول إلى تعليم علمانى وبعثات إلى فرنسا وهذا هو الهدف الحقيقى للتبشير والاستشراق انطلاقا من نصيحة لويس التاسع الذى دعا الغرب إلى ترك السيف وحمل لواء الكلمة لتعبير الإسلام والقضاء على مفهومه بوصفه دينا ودولة ونظام مجتمع ومنهج حياة .

وقد كان محمد على يطمع فى هذا لتثبيت أركان حكمه فقد طالب العلماء بالعدل ولم يكن هو متقبلا له .

فأول ما فعل هو أنه جمع جميع عقود التملك للأراضى المصرية وحرقها فأصبح هو المالك الأوحد لجميع الأراضى الزراعية ثم بدأ أبناؤه يوزعونها من جديد ويعطونها لليهود والأجانب الذين استعانوا بهم على القروض وخاصة فى عصر إسماعيل ثم جاء الاستعمار البريطانى فاستولى على أراضى الدائرة السنية (نصف مليون فدان) فوزعها على أوليائه فى مختلف أنحاء القطر المصرى وخطى منها اتباع التبشير والمؤامرة والمتعاونين معه على أكبر قدر منها وقد قام بهذا المهندس ويلسكوكس .

كذلك فقد مضى محمد على فى السيطرة على الأوقاف وهى خطة تواصلت فى عهود اسماعيل وتوفيق وعباس (وكانت موضع الخلاف والخصومة بين الشيخ محمد عبده وعباس) . وعمد محمد على بعد القضاء على نفوذ علماء الأزهر إلى القضاء على القوة المصرية التى تملك صفة الإمارة والوزارة وهى المماليك فأوقع بهم فى تلك المذبحة المعروفة .

ويقول العلامة أحمد رمزى (السفير والعالم المسلم) إن من وراء هذه المذبحة عقلا أوربيا جبارا هو (دوفيتى) قنصل فرنسا بالقاهرة فهو الذى دبرها

وخطط لها وأشار بها بل مولها من ماله ، ففى مذكرات (بوركارت) المكتشف والمستشرق السويسرى إشارة إلى مال كان يحتفظ به فى خزانة القنصيلة الفرنسية وإن (ددوفيتى) استأذنه فى أن يقرضه هذا المال لأن المتآمرين من ضباط الألبان كانوا مترددين حتى بعد أن قبضوا ثمن خيانتهم ، فهذا المذهب قد استعمل لتنفيذ أغراض (ددوفيتى) قنصل فرنسا ، ولم يكن محمد على إذن سوى آلة نفذت أغراض السياسة الفرنسية التى كانت ترمى إلى القضاء على المماليك ثم إلى افناء الألبان فى حروب خارج مصر . وبالنسبة للسيطرة على أوقاف علماء الإسلام ، تقول أحمد رمزى :

كان علماء الإسلام عبر العصور قوة لا يستهان بها فجاء تحطيم هذه القوة تكملة لتحطيم القوة العسكرية المعارضة وهذا تخطيط أوربى . وإن بونابرت خرب وهدم ١١٨ أثراً إسلامياً لبناء حصونه وقلاعه فى مدينة القاهرة وحدها : أما الأوقاف فمنها ما أوقفه السلطان حسن على جامعه المعروف وهو كثير خصص على تعليم أبناء مصر من المذاهب الأربعة وكانت تصرف لهم الكساوى والأطعمة . وكانت أوقاف (جامع عمرو) لاحصر لها . وكان للمسلمين أوقاف على الناس والمساجد والأربطة وبعضها لحماية الحيوان وفقا للتصرف على الاتباع وصغار الكادحين ، إذا كسرت منهم آنية أو خزف فلا يتعرضون لإهانة مخدوميهم .وجاء عهد صلاح الدين فلم يغير منها شيئاً بل زاد عليها وجاء السلطان العثمانى سليم الأول ، ولم يجرؤ على إلغائها ، بل حينما حمل لقب (خادم الحرمين الشريفين) وهو من القاب سلاطين مصر من دولتى المماليك أوقف على الحرمين بمكة والمدينة — مايجبى من خراج مديريتى قنا وجرجا ، وهذا المبلغ بقى يرسل إليها ولم يمسه محمد على وهذا ما كان يسمى « بالصرة » .

أما سلاطين المماليك فقد شملت أوقافهم الحرمين وبيت المقدس ومقام أبرهم الجليل ولا تزال أثارهم باقية فى كل مكان بالحجاز وفلسطين وسوريا إلى اليوم : فلماذا أقدم محمد على على إلغاء بعض الأوقاف والاستيلاء عليها ؛ هذا السؤال يطرحه المؤرخ المصرى « ليشير » بأن القوة المعارضة لمحمد على الباقية بعد مذبحة المماليك والتخلص من الارناؤود — أى الألبان — هى قوة العلماء

ويجب تقليم أظافر هؤلاء وقد كان ، ومرة أخرى كانت فرنسا قد احتلت أجزاء من قطر عربي هو الجزائر وكانت تطمع فى الاستيلاء على الأراضى المنزوعة على الشاطىء وهى حصنة تصلح لا نشاء المستعمرات الاستيطانية ، ولكنها وجدت أن ثلاثة أخماس هذه الأراضى هى من أملاك الحبوس (أى الأوقاف) التى خصصت لأعمال البر وصيانة المساجد والجهاد فى سبيل الله تعالى فماذا تفعل وقد تعهدت لسكان البلاد بعدم التدخل فى شؤون الدين الإسلامى ؟

طوقت الجزائر من مصر حيث لجأت إلى محمد على بواسطة ممثلها ونصحته بأن يحرر بعض الأوقاف وأشارت عليه بالحصول على فتوى بإمكان ذلك ، لمضى الوقت وغيره من المبررات والمسوغات السياسية ونفذ هذا محمد على . هذه الفتوى استغلتها السلطات الفرنسية بالجزائر فنزعت أملاك الأوقاف وتعهدت بأن تصرف على المساجد والأئمة من خزانتها . دفعت من الخزانة الفرنسية ما يكفى لصيانة هذه المساجد بادىء الأمر ولكنها استنت سنة لغيرها من الحكومات الاستعمارية الغاشمة فى مختلف الأصقاع الإسلامية ، فقد انقصت عدد الأئمة ومرتبات العلماء وأنزلت عدد المساجد حتى أنه لم يبق بمدينة الجزائر أكثر من ثمانية عشر مسجداً وهى نفس الخطة التى تكرر تنفيذها فى فلسطين بعد أكثر من قرن ، وكان محمد على بشهادة المؤرخين دمية فى يد المصالح الغربية وقد لعب دوره المرسوم فلما حاول أن يتخطاه أعيد بعنف إلى الدائرة المخصصة له وكذلك كل زعيم من بعد ومضى محمد على فى توسيد الأرض للنفوذ الأجنبى والخروج من دائرة الإسلام ومضى كبير كتابه (رفاعة الطهطاوى) فى الدعوة إلى الاقليمية المصرية وقبول الحضارة الغربية دون تحفظات مع أن كتابات علماء فرنسا فى كتاب (وصف مصر) تشهد بأن مصر كانت تحكم بكتاب الله قبل الحملة الفرنسية وأن مجتمعها كان مجتمعاً مسلماً ملتزماً قائماً على الشريعة ، وهو الهدف الذى أضيف عليه عمل القوى القادمة والمستشارين الذين استقدمهم محمد على من فرنسا من جماعة الماركسيين واليساريين (سان سيمون وغيرهم) الذين حملوا معهم وباء الإلحاد والإباحة معا .

وإن تطاول بعض الكتاب مدعياً أنهم هم الذين قدموا العصرية والتقدمية .

* * *

كانت خطوات محمد على فى سبيل إقامة نظام سياسى مستقل عن الدولة العثمانية قد دفعه إلى التحرر من الوجهة الإسلامية بصفة عامة والالتجاء إلى الأسلوب الغربي ومن ثم فقد وقع فى أخطاء الاستبداد والتخبط فى القانون وخالف الشريعة الإسلامية بالظلم الذى ارتكبه بالاستيلاء على أملاك المسلمين وما وقع من أعمال السخرة والارهاق وكان لمعارضته لأسلوب الإسلام فى الحكم على النحو الذى عرضه عمر مكرم باحتواء بعض العلماء الطامعين فى متاع الدنيا الزائل والقليل مع الاحتقار لهم ، وقد أطلق هذا يده فأضاف إلى الاستبداد ، الاحتكار : احتكار الزراعة والتجارة والصناعة الذى أساء إلى الشعب إساءة كبرى — على حد تعبير عبد الرحمن الرافعى (عصر محمد على) — لأنه ضرب على حجابا من الفقر والجمود ، فضلا عن أنه تجنب وتجاهل وأغضى عن أى نظام للشورى يعود باشتراك الشعب فى الحكم فإذا أضيف إلى ذلك ولائه لفرنسا وعمله على تحطيم القوة الإسلامية الناشئة فى الجزيرة العربية وهى قوة مرتجاه للدعوة إلى التوحيد والاصلاح الاسلامى وفق مفهوم السلف .

كما قضى محمد على على نفوذ علماء الأزهر الذين كانوا موئل الشعب يفرغ إليهم عند وقوع الأزمات وقد قاموا بدور ضخم فى مواجهة الحكام المماليك وفى مواجهة الحملة الفرنسية ووقفوا فى وجه استبداد محمد على ، فعمد بالاتفاق مع النفوذ الأجنبي على عزل الأزهر عن الحركة الثقافية والتعليمية ونقل مركزها إلى المدارس والمعاهد والبعثات) .

أما الطبقة الجديدة التى تخرجت من المدارس الحربية أو المعلمين أو الهندسة فقد كانت فئة علمانية لم تدرس أصول الإسلام ولم تعرف الوجهة الصحيحة لبناء المجتمع الإسلامى ، ولم تمتد يد الإصلاح طوال هذا العصر إلى الأزهر بل تركه محمد على كما كان على نظامه القديم ، وكان محمد على مع هذا منسجما مع وجهته الاستبدادية ومع وجهة النفوذ الأجنبي المتعاظم الذى كان يرى أن نفوذ الاسلام سيقف حتما أمام دخول أنظمة الربا والاحتكار والنظام القضائى الغربى الذى استقدمه محمد على .

لقد عمل محمد على على تحقيق غايات محددة :

أولا — القضاء على نفوذ الأزهر وتحطيم جبهة العلماء القادرة التى تحمل راية الجهاد فى سبيل الله والتى قاومت الفرنسيين ألف يوم وهزمتهم وحطمت وجودهم وقاومت عطرسته واستبداده عندما انفرد بالحكم .

ثانياً — التوسع فى الولاء للغرب وتدمير نظام التعلم والتربية والثقافة الإسلامية ونظام الشريعة الإسلامية المطبق فى المجتمع :

ثالثاً — محاولة خدمة أهداف الغرب بالتغريب .

رابعاً — محاولة خدمة أهداف النفوذ الاسلامى بتحطيم الدولة السعودية التى تحمل لواء تحرير الفكر الإسلامى من قيد التقليد والدعوة إلى التوحيد الخالص

خامساً : القضاء على المماليك : تلك القوة الوطنية الموجودة فى قلب البلاد.

الفصل الرابع

إسماعيل قنطرة إلى الاحتلال

دخل إسماعيل مرحلة الاحتواء الغربى الذى كان يمهد للسيطرة على مصر ، وذهب بعيداً فى الترف والبذخ والاستدانة فقد عرف إسماعيل بالإسراف وعدم تقدير العواقب وضعفة أمام الملذات والشهوات وقد أدت هذه العوامل مجتمعة إلى التبذير فى أموال الخزانة العامة فلم تكفه الملايين التى كان يجمعها من الضرائب بل عمد إلى البيوت المالية والمرابين الأجانب يستدين منهم القروض الجسيمة ، هذه القروض كانت الوسيلة التى تذرعت بها الدول للتدخل فى شئون مصر ووضع الرقابة المالية عليها ، ولقد كانت الديون من الوسائل الفعالة لتدخل الدول الأوربية فى شئون الأمم الشرقية ، ولم يكن إسماعيل فى حاجة إلى من يبصرة بمطامع انجلترا والدول الأوربية فى مصر . كذلك فقد كان ركونه الشديد إلى الأوربيين والدول الأجنبية واعتماده عليهم وثقته بهم ثقة لا حدلها كانت من عوامل تورطه فى القروض الأجنبية ومن مظاهر هذه الثقة أن عهد إلى الأجانب من رعايا الدول الاستعمارية بمهمات خطيرة من شئون الدولة وأطلعهم على أسرارها ، ومكن لهم من مرافقها ، ففى عهده تعددت البيوت المالية والشركات الأجنبية التى تغلغلت فى البلاد وعهد إلى الأجانب بمناصب كبرى (بتعيين صمويل بيكر حاكما لمديرية خط الاستواء وغردون حاكما لها بعده) وفنزنجر محافظا لسواحل البحر الأحمر ، ولستون رئيسا لأركان حرب الجيش المصرى)(١) وقد أدى هذا أن نالت الدول الأجنبية حقوقا ومزايا تشل سلطان الحكومة ، وهذه المزايا أشبه ما تكون بالوصاية على مصر ، ظهرت هذه الوصايه بمظاهر مختلفة : من إنشاء صندوق الدين ، إلى فرض الرقابة الثنائية على مالية مصر ، إلى تعيين وزيرين أجنبيين فى الوزارة المصرية لهما حق النقض أى وقف كل عمل تشريعى وتنفيذى للحكومة » .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى (عصر إسماعيل) .

كما جمع إسماعيل حوالى مليون فدان بنزع قطع الأرض من صغار الفلاحين وهى ماسمى بالدائرة السنية فلما قدم الإنجليز بصفة دائنين ثم مستعمرين وزعوا أراضى إسماعيل على أعوانهم الذين مكنوا لهم من تثبيت أقدامهم فى استعمار مصر وبذلك نشأ الاقطاع فى هذه البلاد واستمر سبعين عاما .

وهكذا كان إسماعيل قنطرة إلى احتلال مصر الذى تم بعد ذلك فى عهد توفيق بعد أن تآمرت بريطانيا على أسهم مصر فى قناة السويس وعلى جيشها بقيادة عرابى فإن هزيمة مصر فى الثورة العربية كانت بعامل الخيانة على النحو الذى قام به الإنجليز بالتآمر مع بعض المصريين الخونة أمثال سلطان باشا الذى دلهم على مواقع جيش عرابى .

وبذلك سقطت مصر فى براثن النفوذ الإنجليزى الذى سيطر عليها أكثر من سبعين عاما (١٨٨٢ — ١٩٥٤) وكانت هناك محاولة أخرى بعد خروجه عام ١٩٥٦ بما يسمى حرب السويس .

يقول الشيخ محمد عبده : إن إسماعيل أفسد الإدارة وأفسد الأخلاق فلما وجدنا ريح الحرية وأردنا أن ننهض بالإصلاح كان فساد الأخلاق هو الذى عاقنا لإفساد الإدارة ، ولولا ذلك لكانت هذه المدة التى اتيح لنا منها ماتشاء من التربية والكتابة والخطابة كافيه لأن نرتقى فيها ونكون أمة » .

وقد كان لإسماعيل باشا دور رئيسى فى فرض القانون الفرنسى وإنشاء المحاكم المختلطة ومحاربة وتشويه كل من يتصدى له من العلماء فكان يقول : لايمكن أن يعمل فى هذا القرن بما وضع للعرب منذ نحو ثلاثة عشر قرنا ،فى هذه المرحلة العصيبة ومطامع النفوذ الغربى تتسع ، كانت كل القوى تعمل على تغريب مصر ، كان نوبار باشا يعد القوانين للمحاكم المختلفة ، وكان الخديو إسماعيل يناور حين دعا رفاعة الطهطاوى ليطلب إلى الأزهريين عمل قانون إسلامى حتى لايصطدم بالغربيين الذين يريدون أن يفرضوا قانونهم بديلا للشريعة الإسلامية.

وتلك مرحلة من أدق المراحل فى تاريخ حركة التغريب :

فقد قدم القانون الوضعى الذى يحجب الشريعة الإسلامية وجاء معه الربا والتعامل الربوى فى ميدان الاقتصاد وجاء معه التعليم العلمانى .

يروى المستشار عبد الحليم الجندى : أن محمد على فكر فى أن يضع قانوناً إسلاميا فى مصر من جميع المذاهب وعهد بذلك إلى فضيلة الشيخ الجزائرلى ، أما إسماعيل فقد سبق سوقا إلى إنشاء المحاكم المختلطة وكان هذا عملا رآه فى وقته عظيما وكان يسود أوربا فى ذلك الوقت القانون الفرنسى ، وكان حتما أن يستورد لها القانون ، الفرنسى ، وانشئت المحاكم المختلطة قانونا للأجانب فلما قامت الثورة العرابية ١٨٨١ جاءت وزارة شريف باشا رأت إصدار قانون مدنى وجنائى مستمد من الشريعه الإسلامية وعهد فى وضعه إلى قدرى باشاوزير الحقانية .

ثم جاء الغزو البريطانى ١٨٨٢ فتألفت وزارة رياض باشا وكان منها شريف باشا وقرر هذا المجلس العدول عن وضع قانون من الشريعة وترجمة القوانين المستعملة فى المحاكم المختلطة فترجمها مجموعة من تلاميذ رفاعة بك ، أما رفاعة بك فترجم القانون الفرنسى بينما ترجم من دساتير فرنسية والنظم الفرنسية ، وأصدر الشيخ العدوى كتابا وقال أن فى قانون نابليون مواقف من مذهب مالك ومذهب أبى حنيفة .

كما نقلت من القانون الفرنسى نظرية الفائدة » .

وهذه هى نقطة تحول خطيرة فى تاريخ مصر الإسلامية ، فقد انفصلت مصر تماما بهذا العمل منذ ذلك اليوم عن الشريعة الإسلامية فى مجال السياسية والاقتصاد والاجتماع .

* * *

فى هذه المرحلة دوت كلمات جمال الدين الأفغانى التى كانت تدعو إلى ثلاث غايات :

١ — التماس مفهوم القرآن . ٢ — الوحدة الإسلامية .

٣ — تقييد سلطة المستبدين من الحكام .

الفصل الخامس

جمال الدين وإسماعيل

طرح جمال الدين خلال عصر إسماعيل مفهوم الإسلام واسعا قويا جهيراً من خلال تلك الصفوة التي التفت حوله . كان مفهومه امتداداً لمفهوم دعوة التوحيد التي حمل لوائها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وجاريا مع ما دعا إليه عمر مكرم وعلماء الأزهر الذين حرروا إرادة الأمة ازاء مظالم المماليك واستبداد محمد على وغيره من الولاه .

كانت القضية الاولى عند محمد بن عبد الوهاب تحرير العقيدة ، وكانت عند عمر مكرم تحرير إرادة الأمة فلما جاء جمال الدين قدم مفهوما إسلاميا واسعاً يمثل قاعدة أساسية لحركة اليقظة الإسلامية ، وإن كان قد اعتمد على أمرين تحررت منها الدعوة الإسلامية من بعد (١) منطلق الفلسفة .

(٢) منطلق الحماسة السياسية ، فقد عادت الدعوة الإسلامية بعد مرحلة من مفهوم الكلام والفلسفة إلى التماس منهج القرآن بدلا من منطلق الفلسفة وأسلوب التربية الإسلامية بدلا من منطلق الحماسة السياسية .

(١) أن أبرز مادعا إليه جمال الدين هو تجمع المسلمين في وحدة جامعة. وكان منطلقه ذلك الخطر الزاحف الذى رأى بوادره فى إيران والهند وأحس بأن النفوذ البريطاني يكثف جهوده للسيطرة على الأمة الإسلامية وقد كشف عن مفهومه هذا بوضوح حين قال : هذه الأمم الإسلامية وإن اختلفت بهم البلدان وتباينت البقاع والميكان وتنوعت الأجناس وافترقت الألسنة فقد وحدتهم وحدة الإسلام وجمعتهم جامعة الدين ، وهى جامعة كبرى تتلاشى أمامها الجامعات الصغرى وتلغى الفروق فيكون جميع المسلمين بها إخوانا ، حكومة إسلامية تأتم بالإسلام وتعاليمه . إمامها القرآن وأساسها العدل والشورى واختيار خير الناس لتولى أمورها .

ولست أعنى أن يكون لهم إمام واحد فإن هذا ربما كان متعذراً وإنما أعنى أن يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذى ملك فى ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخرين ما استطاع فإن حياته بحياتهم وبقاءه ببقائهم .

(٢) حرر جمال الدين العقيدة فى مواجهة جبرية الصوفية السائدة وأنكر دعوى خصوم الإسلام القائلين بأن سبب ضعف المسلمين يعود إلى اعتقادهم بالقضاء والقدر ، وقال أنهم قالوا ذلك نتيجة ما رأوا فى المسلمين من فقر وفاقة وضعف واستكانة إلى الذل ، مع أن العقيدة فيما لو علموا براء مما ينسبونه إليهم وأن عقيدة القضاء والقدر فى الإسلام تحمل معتقدها على التحلى بأكمل الصفات من جرأة وإقدام والتخلق بخلق البسالة والشجاعة واقتحام المهالك واحتمال المكاره والجود والسخاء واحتقار الموت فى سبيل الحق وطلب المجد .

(٣) كشف عن جوهر الإسلام من منطلق مفهوم عميق أصيل حين قال :

إن دين الإسلام فتح أبواب الشرف فى وجوه الأنفس وكشف لها عن غايته وأثبت لكل نفس صريح الحق فى أى فضيلة ، فإذا أخذت نفوس الناس حظها من هذه الصفة ، أعنى الاقبال على وجوه الشرف تسابق كل مع الآخر ، فى مجالات الفضائل وتمادت بها المجاراة إلى محاسن الأعمال .

وإن الدين الإسلامى يكاد يكون منفردا من بين الأديان بتقريع المعتدين بغير دليل وتوبيخ المتبعين للظنون ، هذا الدين يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبرهان فى أصول دينهم وكلما خاطب خاطب العقل وكلما حاكم حاكم إلى العقل .

(٤) رد على الدهريين أصحاب المذهب المادى (الطبيعيين) وأسماهم الدهريين الذين نشروا هذا المذهب فى الهند وقال إن هـــذا المذهب (النيشريه) سيفرق المسلمين هناك إلى طائفتين ، طائفة أصحاب الطاعة والولاء للحاكم المستعمر والطائفة الأخرى المناوئة لنفوذه وولايته ، ودعا إلى مقاومة الإلحاد الدينى بصفة عامة وتوضيح ضرورة الدين للمجتمع الإنسانى .

وأعلن أن أسلوب الاستعمار الغربي في البلاد الإسلامية يتخذ صوراً مختلفة للقضاء على الشخصية الإسلامية التي مصدرها القرآن والتي تجمع بين المسلمين في رباط واحد وإن أخطر صوره من ذلك ، هي الصورة التي تسعى لإفساد عقيدة المسلم ، إما بتشكيكه فيها أو بمحاولة صرفه عنها ، ولذلك عد المذهب الطبيعي وهو ما سماه بمذهب الدهريين سلاحا خطرا ضد المسلمين . قال : لقد وجد الإنجليز أن الإسلام يطلب من اتباعه أن يكونوا أصحاب الشوكة والسلطان في أوطانهم ، ولاحظوا أن ذلك طبيعة الإسلام التي لا يمكن انسلاخه عنها ولا انتزاعها من فطرة أبنائه ففكروا في أمر يضعف هذه العقيدة فرأوا أن أقرب طريقة هي نشر التعطيل بين المسلمين وأن الدعوة إليه أنفذ إلى قلوبهم من التثليث أو التعطيل الذي هو الإلحاد يسمى بالإنجليزية نيتشر ففتحوا مدرسة عظمى لنشر تعاليم البشرية وبث مبادئها في نفوس النشء المسلم ، من أجل هذا ألف رسالة الرد على الدهريين : وقال أن الإنجليز سعوا في جعل المسلمين دهريين ولم يسعوا في جعلهم مسيحيين لأنهم رأوا أن دعوة التبشير لم تنجح .

وليس المهم في هذا الكتاب الرد على دارون ، وإنما إثبات قيمة الدين وضرورته للإنسانية وأثره في ترقيه وأثر الالحاد في انحطاطه .

وخلاصة رأيه أن الدين على العموم اكسب عقول البشر ثلاث عقائد : وأودع في نفوسهم ثلاث خصال كل منها ركن لوجود الأمم وعماد ابناء الهيئة الاجتماعية .

(العقيدة الاولى) : التصديق بأن الإنسان ملك أرضي وأنه أشرف المخلوقات .

(العقيدة الثانية) : تعين كل فرد أن أمته أشرف الأمم وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل .

(العقيدة الثالثة) : جزمه بأن الإنسان ورد هذه الدنيا لتحصيل كمال تهيئته للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من العالم الدنيوي .

أما الخصال الثلاث فهى الحياء والأمانة والصدق .

هذه الأسس التى أتت بها الأديان هى العمران وعليها تتوقف سعادة الإنسان وأن الماديين والدهريين والنيشريين تؤدى تعاليمهم إلى إنكار هذه الأسس فتنزل الإنسان منزلة الحيوان وتفقده الوازع على الخير وتمده لحياة جامدة ضيقة جافة لاقلب لها ولا سمو فيها وفى هذا انتكاس لخلقه وهدم لكيانه ، وفى الإسلام مزايا على سائر الأديان .

(أولها) صقل العقل بصقال التوحيد وتطهيرها من لوث الأوهام فمن أهم أصوله الاعتقاد بأن الله منفرد بتصريف الأكوان متوحد فى خلق الأفعال وأن من الواجب طرح كل ظن فى إنسان أو جماد يكون له فى الكون أثر من نفع أو ضر ، أو عطاء أو منع ، أو إعزاز أو إزلال .

(ثانيا) إن الإسلام فتح أبواب الشرف الأنفس كلها .

(٥) دعوته إلى إعادة التنظيم السياسى فى العالم الإسلامى على أساس الإخوة الإسلامية (بين السنة والشيعة) .

القرآن

(٦) ركز جمال الدين الأفغانى دعائم دعوته على تفهم القرآن والتمعن فى معانيه ومقاصده ، وقال أن من يفهم القرآن فهما صحيحا ويعرف صحيح الحديث يستطيع أن يجد فى القرآن عاصما للأمم الإسلامية من الفرقه والجور والضعف ومصدراً للعزة والمنعة والشجاعة ، كما دعا الناس إلى التماس عقيدة الرعيل الأول من السلف الصالح . تلك العقيدة الصافية التى لم تشبها اخلاط الفرق الناشئة بعد الصدر الأول للإسلام ، التى توزعت أصوله وأخطأت فهمها واتبعت مايبثه الزنادقة والباطنيون من البدع وما وضعه النالحون على الإسلام من الأحاديث الكاذبة التى حورته تحويرا شديدا وأبعدته عن أصوله ففرقت شمل هـــذه الأمة وأضعفت كيانها فتضعضعت أركانها بالتواكل الذى جاءها من أهل الحلول والتصوف وأهل الزهد والاباحة ــ الدين والدولة إحدهما

يكمل الآخر فالدين عنصر هام من عناصر مقومات المجتمع والدولة ولن يتم لها مجتمع لادين له .

(٧) كشف عن زيف دعوى إغلاق باب الاجتهاد : قال مامعنى باب الإجهاد مسدود وبأى نص سد أو أى إمام قال لايصح لمن بعدى أن يجتهد ليتفقه فى الدين ويهتدى بهدى القرآن وصحيح الحديث والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجات الزمان وأحكامه . أن الفحول من الأئمة اجتهدوا وأحسنوا ولكن لايصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن ذلك أن اجتهادهم بما حواه القرآن ليس إلا قطرة من بحر .

(٨) الإسلام والعلم :

إن الدين لا يصح أن يخالف الحقائق العلمية فإن كان ظاهره المخالفة وجب تأويله وقد عم الجهل وتفشى الجمود فى كثير من المرتدين برداء العلماء حتى أتهم القرآن بأنه يخالف الحقائق العلميـــة الثابتة ، والقرآن برىء مما يقولون والقرآن يجب أن لايحل عن مخالفة العلم الحقيقى وخصوصا فى الكليات .

(٩) تغيير المجتمع.

كانت دعوته إلى تغيير المجتمع الإسلامى قائمة على أسس واضحة ودعامتها (إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فقد دعا المسلمين إلى أن يغيروا ما بأنفسهم حتى يغير الله ما بهم وحث على العمل ونهى عن التكاسل وقاوم النظرية الصوفية السلبية فى العزلة عن المجتمع وقال :

فناء الصوفى فى الله وفنائى فى خلق الله :

ودعا إلى اشراب النفوس عقيدة الأمل فى النجاح وإزالة ما حل بها من اليأس والتمسك بالأصول التى كان عليها الآباء والأسلاف وابطال زعم الزاعمين من القول بأن المسلمين لايتقدمون فى المدينة ماداموا متمسكين بأصول دينهم

ودعا إلى تأمين الألفة بين الأمم الاسلامية وتحذير الشرق عموماً والمسلمين خصوصاً من تطاول الأجانب عليهم والإفساد فى بلادهم ، وبيان المظالم التى تعانيها الأقطار الخاصة للاستعمار والاضطهاد الذى تقاسيه الأقطار الخاضعة للحكم الاستبدادى والأمراء الاقطاعيين .

وقوله : إن التفاوت بين الشعوب ، واستعمار دولة لأخرى ليس قانوناً أزلياً لا يمكن تبديله ، بل هو حادث وقتى يزول بزوال مسبباته كغيره من الحوادث التاريخية والاجتماعية الخاضعة لناموس التطور . وإن انقضاء أجل الاستعمار إنما يتم : بزوال الأسباب التى مكنت أهله من التسلط وأكرهت الشعوب على الخضوع لها متى تعلمت واتحدت وتيقظت وقويت وبدأت بالتمرد على الغاصب الدخيل ، ولما كان لحياة الأمم والدول أدوار وآجال ولحدوثها وتكونها وتعاليها ثم ضعفها وانحطاطها أسباب وعوامل فقد وجب أن يكون الاستعمار خاضعا لتلك النواميس الكونية بمعنى أنه يصل إلى حد محدود وأجل معلوم .

١٠ — أعلن جمال الدين أن إصلاح السلطة الزمنية يستدعى قيام حكم الشورى وإن إصلاح السلطة الدينية يستدعى الاهتمام بالتعليم :

« حياة الشرقيين بالعلم الصحيح موت لحكم الغرب فيهم وفك الحجر عنهم والعكس بالعكس .

دعا إلى الرجوع إلى القرآن والبعد عن تفسيرات المفسرين التى دعت إلى الاختلاف والفلاك .

وأعلن أن الدين من المقومات الأساسية للبشر الذين لا غنى لهم عن سلطتين زمنية وروحيه وكلتا السلطتين ترمى إلى غاية فى الجوهر والأصل .

١١ — يرى أن ضعف المسلمين بدأ حقيقة منذ ظهور الباطنية والعقائد الطبيعية والدهرية وليست الحروب الصليبية هى بداية هذا الضعف وإمارته ، بل كانت إحدى نتائج هذا الضعف ذلك أن هذه العقائد هى التى مهدت لهذه الحروب الصلبية وكذا لحرب التتار . وهاجم الخلط والألباس الذى قام به

البعض فانتشرت قواعد الجبر ، ومن ذلك ما أدخله الزنادقة فيما بين القرنين الثالث والرابع ، وما أحدثه السفسطائيون الذين أنكروا مظاهر الوجود وما وصفه كذبه النقل فى الأحاديث ينسبونها إلى صاحب الشرع ﷺ وفيها السم القاتل لروح العزة .

ويقول : مادام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل وأمامهم الحق ، وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولايتهم ومغالبة المعتدين وطلب المنفعة من كل سبيل ، فإننا لا نرتاب إلى عودتهم إلى مثل نشأتهم ونهوضهم إلى مقاضاة الزمان ما سلب منهم فيتقدمون على من سواهم ، أن الأصول الدينية الحقة المبرأة من محدثات البدع تنشىء الأمم قوة الاتحاد وائتلاف الشمل وتفضيل الشرف على لذة الحياة . إن القرآن حى لا يموت ومن اصابه نصيب من حمده فهو محمود ؛ كتاب الله لم ينسخ فارجعوا إليه وحكموه فى أحوالكم وطباعكم ، الاهتمام بقلع مارسخ فى عقول العوام ومعظم الخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها ثم حملهم نصوص القضاء والقدر على معنى يوجب عليهم أن يتحركوا إلى طلب مجد أو تخلص من ذل .

القرآن وحده سبب الهداية والعمرة فى الدعاية وماتراكم عليه وتجمع حوله من آراء الرجال واستنباطهم ونظرياتهم .

(١٢) الأمور التى يتم بها سعادة الأمم أربعة :

أولا : صفاء العقول من كدر الخرافات وصدأ الاوهام ، والإسلام يقتضى ذلك لأن أول ركن بنى عليه صقل القلوب بصقال التوحيد وتطهيرها من لوث الأوهام وخلع كل عقيدة أن الله جل شأنه يظهر للناس بلباس البشر أو أن تلك الذات المقدسة نالت فى بعض أطوارها شديد الالام وأليم الأسقام لمصلحة أحد من الخلق .

ثانياً : أن تكون نفوس الأمم مستقبلة وجهة الشرف طامحة إلى بلوغ الغاية منه بأن يجد كل واحد من نفسه أنه لائق لأية مرتبة من مراتب

الكمال الإنسانى ماعدا رتبة النبوة فإنها بمعزل عن المطمع ، فإذا أخذت نفوس الناس حظها من هذه الصفه ، أعنى الاقبال على وجوه الشرف تسابق كل مع الآخر فى مجالات الفضائل وتمادت به المجاراة إلى محاسن الأعمال .

ثالثا : أن يكون عقائد الامة وهى أول رقم ينقش فى ألواح نفوسها مبنية على البراهين القويمة والأدلة الصحيحة وإن تتحاشى عقولهم مطالعة الظنون فى عقائدها وتترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها والاسلام يكاد يكون منفردا بتقريع المعتقدين بلا دليل وتوبيخ المتبعين للظنون ،

رابعاً : أن يكون فى كل أمة طائفة يختص عملها بتعليم سائر الامة وطائفة أخرى على النفوس تتولى تهذيبها وتثقيف أودها ، لاتنى الأولى عن مكافحة الجهل وتنوير العقول بالمعارف الحقة وتدأب الثانية على الكشف عن الاوصاف الفاضلة وحدودها فإن الشهوات النفسية ليس لها من ذاتها حد تقف عنده ولا لرغائب الأنفس غاية تنقطع عندها فإن فقد الإنسان مقوم النفوس ومعدل الأخلاق طغى سلطان الشهوة واندفع إلى الحيف والاجحاف ، ومن أهم الأركان الإسلامية نصب المعلم وإقامة المؤدب الآمر بالمعروف .

(٢)

لم يبدأ جمال الدين من فراغ فالحقيقة أن هذا العمل الذى اختار له جمال الدين الأفغانى مصر بالذات كان مستمداً من الصوت الذى علا فى قلب الجزيرة العربية : صوت الشيخ محمدعبدالوهاب إلى تحرير العقيدة الإسلامية :عقيدةالتوحيد الخالص من الجبرية الصوفية التى كانت قد اتسع نطاقها فى الدولة العثمانية ، واستطاعت أن تصل إلى كثير من عواصم الإسلام والتى قام محمد على بالهجوم على حكومتها فى نجد والقضاء عليها إلى حين ؛ ومن ثم فإن كل دعوات الإصلاح التى ظهرت من بعد كانت تحمل فكرها ومفاهيمها وإن كانت لا تعلن عن صلتها بالدعوة الأم ،ولقد كان الأزهر فى هذه المرحلة قد غرق فى التقليدوالجبرية الصوفية وإن كانت هناك أصوات ظلت تردد دعوة تحرير العقيدة ، مثل ذلك

الواعظ التركى الذى تحدث عنه الجبرتى ، غير أن جمال الدين ومدرسته التى كونها من رجال الأزهر ومن المثقفين المدنيين خريجى مدرسة الحقوق وغيرها ومن المعلمين كان نواة اليقظة ، وكان جمال الدين قد جاء يحمل معه ذلك التحدى الخطير الزاحف الذى كان قد وصل إلى الهند وفارس ، وكانت مصر تتلوى تحت ضرباته التى كانت تمد للفريسة للاقتناص فى عصر إسماعيل بالديون والتغريب والقانون الوضعى ، كان جمال الدين قد واجه المطامع الغربية وخاصة البريطانية ومن هنا كان تحركه نحو مصر وتركيا وأوربا فى محاولة لما أسماه بحق (تنكيس أعلام بريطانيا فى المشرق) ومن الأسف أنه بعد أن غادر مصر بقليل سقطت مصر فى براثن النفوذ البريطانى . ولا ريب أن الحديث الذى أجراه عبد القادر المغربى مع جمال الدين فى هـــذا الوقت الباكر فى الاستانة (١٨٨٩) يكشف بوضوح وجه اليقظة الاسلامية تماما فى مواجهة النفوذ الغربى والتغريب والغزو الثقافى فقد رفض جمال الدين فكرة أخذ الحضارة الغربية ومدنية أوربا أساسا لبناء الحضارة الإسلامية الجديدة وقال أن هذا الطريق لا يؤدى وهذه هى صيحة الاصالة الأولى :

وهذه عبارته : إننا معشر المسلمين إذا لم نؤسس نهوضنا وتمدننا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير فيه ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا إلا من هـذا الطريق ، أن ما نراه اليوم من حالة حسنة فينا هو عين التقهقر والانحطاط ، لاننا فى تمدننا هذا مقلدون الأمم الاوربية وهو يعلن تحيزنا إلى الإعجاب بالأجانب والاستكانة لهم والرضى بسلطانهم علينا وبذلك تتحول صيغة الإسلام التى من شأنها رفع راية السلطة والتغلب إلى صيغة خمول وضعية واستئناس بالحكم الأجنبى : لابد من حركة دينية : أن الحركة الدينية الصحيحة المبرأة من الزيف هى الأساس الذى تقوم عليه النهضة فالحركة الدينية بما يقوم عليه من تصحيح الاتجاه النفسى ورده إلى الأصول الأولى للدين ، هى الأساس الحق للنهضة بصفة عامة أو لتحقيق التمدن الصحيح .

إن حركتنا الدينية هى كناية عن الاهتمام بقلع ما رسخ فى عقول العوام ومعظم الخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير

وجهها مثل حملهم نصوص القضاء والقدر على معنى يوجب عليهم ألا يتحركوا فى طلب مجد أو تخلص من ذل .

ومثل فهمهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان أو قرب نهايته فهما تثبط هممهم إلى السعى وراء الإصلاح والنجاح فى نظير ذلك مما لاعهد للسلف الصالح به فلا بد إذن من بعث القرآن وبث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور وشرحها لهم على وجهها الثابت من حيث يأخذ بهم إلى ما فيه سعادتهم دنيا وأخرى ، ولا بد من تهذيب علومنا وتنقيح مكتبتنا ووضع مصنفات قريبة المأخذ سهل الفهم فنستعين بتلك الكتب والعلوم التى تضمنها إلى الوصول إلى الرقى والنجاح ، فلا بد إذن من الحركة الدينية وهكذا لخص جمال الدين رأيه بأن الحركة الدينية هى أساس النهضة والتمدن الصحيح ورسم منهاج هذه الحركة فى عدة عناصر واضحة :

أولا : تنقية الإسلام مما علق به من الشوائب .

ثانيا : تأليف حكومة إسلامية رائدها التعاليم الإسلامية الحقة والعدل والشورى واختيار خير الناس لتولى الأمور والجامعة الإسلامية لا تنافى مشاعر ومصالح أهل الديانات الأخرى .

ثالثاً : مناهضة الاحتلال وتحرير الوطن الإسلامى من الاستعمار والاعتماد على استرجاع قوة المسلمين فى تكتلهم وتآخيهم مناهضة الاستغلال بكل قوة والتأليب عليه من غير هوادة .

رابعاً : اطرح ما طرأ على الإسلام من عادات غريبة فى السلوك والرجوع إلى موقف المسلمين الأول من القرآن واستلهامهم التوجيه منه مباشرة لطبع تصرفاتهم بالطابع الإسلامى .

خامساً : محاربة الاتجاه الاستعمارى فى التفكير بالوقوف فى وجه الشبه التى تثار والتخريجات المغرضة لنصوص مصدرى الإسلام : القرآن والسنة الصحيحة الصحيحة وبيان زيفها بالاسلوب العلمى والتاريخى .

سادساً : تقريب مبادىء الإسلام من العقلية الإسلامية الحديثة والتنديد بالمثقفين الذين يصطنعون أساليب الغرب (عن علم أو من غير علم) أداة لتمكين المحتل ، اهـ .

* * *

ولا ريب أن طرح هذه المنظومة الضخمة فى أفق الفكر الإسلامى فى هذه المرحلة الدقيقة من حياة مصر والأمة الإسلامية ، فى فترة ارهاصات الاحتلال وتكثيف الديون والضغط للقضاء على حرية مصر واحتوائها عسكريا وسياسيا كان من أكبر القوى النفسية والاجتماعية والعقلية التى قادت سفينة الدعوة الإسلامية إلى طريق النجاة وكان إيذانا بما جاء بعده من محاولات لتركيز قوى الاصالة الإسلامية فى وجه الحروب التغريبية التى أعلنت فى قوة .

الفصل السادس

مواجهة الاحتلال البريطانى

سقطت مصر فى براثن الاحتلال البريطانى وهزم عرابى بالخيانة وسيطرت قوى الاحتلال على الاقتصاد والحكم والقانون والتعليم وأنشبت أظفارها فيه بقوة ، فالنظام الربوى الذى يقوم على سيطرة الاستعمار على كل مقدرات البلاد قد مضى فى قوة يحصد المزارعين المصريين ويحملهم الديون ويجعلهم عبيداً وخولا للاجنبي وأرض الدائرة السنية يقوم ولكوكس بتوزيعها على ذوى الولاء من الأسر للاستعمار ويخص به عناصر معينة بأكبر قدر منها لأنه يريد استقطابها ، والقانون الذى قامت على المحاكم المختلطة يتحول إلى التطبيق على المصريين عن طريق المحاكم الأهلية ، ودنلوب يعمل فى مجال التعليم لتغريب الفكر الإسلامى كله وحجب كل مقومات الإسلام واللغة والتاريخ الإسلامى عنه فى محاولة جريئة ، وكرومر من وراء ذلك كله يدعو إلى تكوين جيل جديد من المتفرنجين المصريين ذوى الولاء للغرب ولبريطانيا ليسلمهم زمام الحكم فى البلاد ، وخلال ربع قرن كامل مضى كرومر يقاوم الحركة الوطنية ويقاوم الجامعة الاسلامية ويقاوم تعليم عموم الأمة ، ويغرس ذلك الولاء الاجنبي الذى أثمر فى مجموعة من الأفراد ولاهم أمور البلاد : سعد زغلول فى مجال التعلم ولطفى السيد فى مجال الصحافة ، بل أن حركة التحول تمثلت فى جماعة من المثقفين يتكوكبون حول صالون الأميرة نازلى فاضل تحت نفوذ اللوردكرومر ومن هؤلاء أنشأ حزب الأمة التى قاد حركته الفكرية لطفى السيد وكان سعد زغلول — على حد تعبير الخديو عباس حلمى الثانى فى مذكراته — هو الرأس المفكرة وراء هذا الحزب وتلك الجريدة فى مستهل عهدها . فى هذا الصالون : ظهر سعد زغلول وقاسم أمين وكثيرون . عن طريق هذا الصالون وعن طريق حزب الأمة عورضت الحركة الوطنية التى قادها مصطفى

مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش وغيرهم ، وكانوا يديرون الحركة الوطنية من خلال مفهوم الجامعة الإسلامية .

كان هدف بريطانيا إحتواء مصر فى دائرة الفكر الغربى وصهرها وإخراجها من مفاهيم الإسلام ، عن طريق ذلك التحول الذى أحدثه (دنلوب) فى مناهج الدراسة بتقديم اللغة الانجليزيه فى التعليم على اللغة العربية وتاريخ الغرب وبطولاته وكان سعد زغلول يرمى بتقديم اللغة الانجليزية على اللغة العربية إعلاء شأن التحول الغربى ، وكان لطفى السيد يرمى إلى قصر التعليم على أبناء الأعيان وحدهم وكانت الدعوة إلى إحلال العامية فى الكتابة من أخطر الدعوات التى حمل لواءها الاستعمار البريطانى وكان أشد من ذلك خطراً تلك الدعوة الملحة على أن الإسلام دين عبادة ومسجد وأنه لا صلة له مطلقاً بالمجتمع أو قضاياه ، وذلك بهدف تركيز القانون الوضعى وحجب الشريعة الاسلامية التى توقفت فى عهد النفوذ الأجنبى لأول مرة منذ أربع عشر قرنا عن التطبيق . وكان العمل دائبا على تعميق الاقليمية المصرية وفصل المصريين عن العرب والمسلمين من ناحية وفصلهم عن مفهوم الاسلام الأصيل أيضا وذلك باعلاء شأن النظام السياسى الغربى الذى حاولوا تطبيقه تحت اسم الديمقراطيه الغربية ونشات فى أحضان الاستعمار مدرسة سعد زغلول التى آمنت بالتفاهم مع الانجليز وموالاتهم وقبول التعاون معهم وبذلك حولت القوى الفكرية الاستعمارية الممثلة فى مدرسة لطفى السيد وسعد زغلول إلى قطع الصلة والروابط مع الجامعة الاسلامية والخلافة العثمانية وإعلاء شأن التاريخ السابق للاسلام وذلك ببعث الفرعونية ودعوى عريضة بأن لها لغة وتاريخ وثقافة .

وأهم هذه الأهداف هى فصل الدين عن السياسة ، وتحويل العاطفة الدينية إلى عاطفة إقليمية مرتبطة بالعنصر والدم والجنس ، وذلك حتى يغرق العالم الاسلامى فى صراع القوميات .

ومن هنا كانت حملة لروكر على المبادىء الاسلامية ووصفها بأنها مبادىء صحراوية لا تصلح للتطبيق فى هذا العصر ، وإنها تحول دون النجاح والتقدم ،

ولا ريب كان النفوذ الاستعماري يخشى فكرة الوحدة الاسلامية ويحاربها حربا عنيفة ، وكان ذلك يرمي إلى التمهيد لتمزيق الدولة العثمانية وتوزيع أسلابها وهو ماحدث فعلا بعد الحرب العالمية الأولى ، ومن هنا فقد عمد إلى تحويل الحركة الوطنية إلى الصراع الحزبي الذي يقتصر عمله على مواجهة الخلاف بين الأحزاب نفسها وينشغل بها عن القضية الأساسية ويدور في ذلك النفوذ الغربي أساسا .

ومن هنا كانت محاولة النفوذ الاستعماري البريطاني القضاء على الحركة الوطنية التي قامت في مواجهته وتصفيتها وإبدالها بحركة أخرى تتحرك من داخل دائرة نفوذه ، وهي الحركة التي قادها سعد زغلول وجماعة حزب الأمة والتي تفرعت منها الأحزاب السياسية جميعا بعد الحرب العالمية الأولى بعد أن صفيت الحركة الوطنية التي قادها مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش والتي كانت تدعو إلى مفهوم صريح واضح هو مقاومة النفوذ الاستعماري الاجنبي .

ولقد اتجهت هذه المحاولة السياسية الحزبية وجهة الولاء الأجنبي والإيمان بالتفاهم والتعاون والولاء للنفوذ الاستعماري ، وقبوله والتعامل معه وهذه هي الحركة التي ظلت سائدة في مصر منذ ثورة ١٩١٩ حتى نهاية عهد الحكم الملكي .

ولقد عمد كرومر إلى الوقوف في وجه الحركة الوطنية التي قادها مصطفى كامل ومحمد فريد بأمرين :

١ — الأول : الاتفاق مع الخديو توفيق وإطلاق يده في بعض الامور في مقابل أن يدير ظهره للحركة الوطنية ،

٢ — الثاني : التفاهم مع فرنسا وعقد الاتفاق الودي معها عام ١٩٠٤ حيث كانت فرنسا هي منطلق الدعوة لمعارضة احتلال بريطانيا لمصر .

وفي أبان العمل الذي قام به كرومر (١٨٩٢ — ١٩٠٧) استطاعت بريطانيا أن تسيطر على التعليم والثقافة وأن تزيح النفوذ الفرنسي هذا

المجال وفى مجالات أخرى وأن تقيم ركائز لها من أعيان المصريين فى البلاد ومن المثقفين فى السيطرة على التعليم والثقافة والصحافة .

وكان دنلوب أخطر العاملين فى هذا المجال فقد استطاع أقصاء مسيو لامبير رئيس مدرسة الحقوق الفرنسى الجنسية ، كما عمل على إدخال رجال الارساليات البروتستانيه وغيرهم للتبشير فى مصر .

وقدقاومت هذا النفوذ البريطانى طلائع من المؤمنين بأمتهم ودينهم ووقفوا فى وجه النفوذ الغربى وكشفوا عن زيفه وإخطاره ولم يترددوا يوما فى هذه المواجهة بالرغم من كل محاولات النفوذ البريطانى لتثبت نفسه وتأكيد وجوده

لقد حرص النفوذ الغربى (البريطانى) على القضاء على الرعيل الأول الذى واجه الاستعمار وقاومه ورفض التعامل معه فى خطعمل ماكر خبيثدءوب أرادبه تثبت قواعد القانون الوضعى والربا والتعليم العلمانى وفصل الدين عن الدولة وعمد إلى تخريج أجيال مبهورة بالغرب مؤمنة بالتعاون مع الإنجليز ثقافياً وإن كان هناك خلاف من وجهة النظر السياسية الظاهرة ، وكان الهدف هو فصل مصر عن الأمة الإسلامية والخلافة والوحدة الجامعة من ناحية وفصل مصر عن الفكرة الإسلامية التى تقوم على الشريعة الإسلامية والقيم الإسلامية فى المجتمع والاقتصاد والسياسة والتربية .

(٢)

وجاءت مقاومة الاحتلال البريطانى من منبعين :

النبع الأول : النبع الاسلامى الروحى الأزهرى الذى بدأ ينتعس ويتحرر ويخرج من القوقعة ، ويفكر فى تحرير العقيدة وإحياء اللغة العربية وأداء الدور الصحيح لبناء الثقافة الإسلامية ، وقد قاد هذا العمل جمال الدين . ومحمد عبده وتلاميذهم فى الأزهر وخارجه وحسن الطويل وأبرزهم إبرهيم اللقانى وشكيب إرسلان وعبدالقادر المغربى ورشيد رضا والمراغى وعبد السلام المويلحى وعبدالكريم سليمان وحسن عاصم وأبو خطوة وإبراهيم المويلحى .

النبع الثانى : النبع الوطنى ، وهو نبع ملتزم بالوحدة الإسلامية الجامعة يهدف إلى مقاومة الاستعمار والنفوذ الأجنبي وخاصة استعمار بريطانيا ويعارضها معارضة ضخمة واسعة ، وفى مقدمة هذا التيار مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش وأحمد وفيق وأمين الرافعى .

وقد كان هذا التيار أشد على الاستعمار من التيار الأول فى المعارضة ، بينما كان هدف التيار الأول بناء الانسان المسلم بعيداً عن مجال السياسة وتكوينه ثقافيا وتربويا وهذا هو العمل الذى توفر عليه الشيخ محمد عبده الذى كان يرى أن أسلوب التربية هو الطريق الوحيد لتحرير هذه الأمة وبناء غدها وكان هدف الاستعمار القضاء على ثلاثة أمور .

١ — الوحدة الإسلامية : وقد اصطنع لذلك فكرة الجامعة العربية (على يوسف والكواكبي) وفكرة الجامعة المصرية (لطفى السيد) .

٢ — اللغة العربية : وقد اصطنع لذلك ويلكوكس ودعوته إلى العامية وولاء لطفى السيد وقاسم أمين لها ودعوتهما إليها .

٣ — التعليم العلمانى المفرغ من الاسلام : وقد اصطنع لذلك سعد زغلول على خط دنلوب (مع بعض الظواهر الخادعة) .

٤ — الشريعة الإسلامية : وقد ركز فى ذلك على نظام المحاكم الأهلية والقانون الوضعي :

* * *

(٣)

محمد عبده وبناء المسلم تربويا

كانت دعوة محمد عبده . عملية ، بناء على الواقع الذى عاشته مصر بعد الإحتلال فهى ترمى فى الأساس إلى .

(١) تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف هذه الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه من ينابيعها الأولى وهى الكتاب والسنة وفتح باب الاجتهاد .

(٢) إصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرر سواء فى المخاطبات الرسمية والمراسلات بين الناس وتجديد شباب الفصحى والعناية بأمرها .

(٣) محاربة الخرافات والأباطيل التى نسبت ظلما وزورا إلى الدين وتحريك رجال الدين من رقادهم لانهم مصابيح الظلام .

(٤) الاتحاد العام أمام العدو الخارجى ونسيان الحزازات والخلافات الداخلية أثناء الخطر .

(٥) الاعتماد فى نهضة المسلمين على النهوض بالأزهر لأنه حصن الدين ومعقل اللغة .

(٦) اعتبار الدين صديقا للعلم لاموضع لتضادهما ، إذ لكل منهما وظيفته التى يؤديها وهى حاجات البشر لاغنى لإحداهما عن الاخرى .

(٧) أن القرآن يجب أن يكون أصلا تحمل عليه المذاهب .

(٨) العناية بتربية الامة تربية خاصة وأنها مقدمة على العمل السياسى .

الفصل السابع

سعد زغلول: رائد التحول نحو التغريب

خرجت مدرسة الاستعمار البريطاني نموذجا من القادة والسياسيين والحكام يختلف اختلافا واضحا وعميقا عن نماذج القادة والسياسيين والمفكرين الذين عرفتهم الأمة الإسلامية إيمانا بالله وتقديراً للدفاع عن كلمة الله ودفاعا عن العرض والأرض يتمثل فى هؤلاء الذين حاربوه فى مجال الجهاد الحربى أو الكفاح الوطنى الإسلامى ، والمعروف أن هذه المدرسة التى قاومت النفوذ الاستعمارى فى مصر عند دخوله عام ١٨٨٢ قد قاومها الإنجليز وحاربوها أشنع الحرب حتى قضوا عليها من أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش وأحمد وفيق وأمين الرافعى وعلى الغاياتى ومن قبل قاوم الاستبداد عمر مكرم ومحمد السادات وعبد الله الشرقاوى وحسن العدوى وأبو العلا الخلفاوى ومحمد الإمبابى. لقد كان الاستعمار حريصا على صنع طبقة خاصة من المثقفين عمل كرومر على إعدادها ووعدها بأن تتسلم قيادة الأمة بعد خروج الانجليز ووفى لها وكان أبرزها: لطفى السيد الذى قاد عن طريق الصحافة حركة الاقليمية المصرية المنفصلة عن العروبة وعن الوحدة الإسلامية وسعد زغلول الذى قاد حركة التعليم ومكن للغة الإنجليزية ومن قبل عمل على مد امتياز قناة السويس ، وهادن الاستعمار وتتلمذ على كرومر كما تشهد بذلك مذكراته وكتابات المؤرخين المثقفين.

إن شخصية سعد زغلول تكشف عن مدى التحول فى مفهوم البطولة والجهاد والكفاح الوطنى بالنسبة لاولئك الابرار الذين قدموا نبض قلوبهم وعصارة أرواحهم فى سبيل تحرير الوطن وتصحيح الفكر والتماس الاصالة وإعادة بناء الامة على طريق الإسلام والحق أن الحركة الوطنية المصرية قد بدأت فى أول الامر فى إطار الجهاد الإسلامى ومن خلال مفهوم وحدة الامة الإسلامية التى ربطها القرآن وجمعها الإسلام تحت زعامة رسول الله ﷺ .

منذ بدأت محاولة النفوذ الأجنبى السيطرة على هـــذه الأمة فإن صيحتها بالمقاومة كانت تحت راية الإسلام ولواء الجهاد باعتبار أن الأمة الإسلامية أمة واحدة وأن كل أرض هى أرضها .

ولكن هذا الأسلوب الجديد الذى طرحه النفوذ الاستعمارى للزعامة هو الذى حل معه مفاهيم التجزئة الوطنية أو القومية أو الأقليمية التى دخلت مع الزعامات التى صنعها الاستعمار ، فقد واجه الاستعمار أمة مؤمنة وزعامات تكافح فى سبيل تحرير أرضها ووطنها ولكنها تؤمن بالوحدة الإسلامية والارتباط العميق بين الأرض وبين منهج الله .

ولذلك فقد وجد الاستعمار من أمره عسراً فى المرحلة الأولى فقد واجهه قوم من القادة الغير الذين يتحركون فى جهادهم من داخل إطار المفهوم الإسلامى الجامع : وجد فى مصر أحمد عرابى ومصطفى كامل ومحمد فريد ووجد فى تونس عبد العزيز الثعالبى ووجد فى ليبيا السنوسى وعمر المختار ووجد فى المغرب عبد الكريم الخطابى ووجد فى الجزائر عبد القادر الجزائرى ووجد فى الهند أحمد عرفان ووجد فى القوقاز الشيخ شامل ووجد فى كل قطر عربى وإسلامى تلك الصفوة من المجاهدين الصادقين الذين يؤمنون بتكامل الدعوة إلى تحرير الوطن وإلى تحرير المجتمع ، ويرون أن المنهج الإسلامى هو وحدة الكفيل بإعادة بناء الأمة من جديد .

ولما كان النفوذ الاستعمارى يريد تثبيت إقامته وتركيز دعائمه فقد عجز عن التفاهم مع هؤلاء المؤمنين الصادقين بربهم ودينهم وأوطانهم وقاومهم شر مقاومة وعمل على تحطيمهم وتدميرهم ، إما بالسجن أو النفى أو الابادة وأخذ فى نفس الوقت فى بناء زعامات جديدة داخل نطاق دائرة نفوذه ، زعامات تؤمن به وتستجيب له وتلتقى به فى منتصف الطريق وتتحرك فى إطار مفاهيمه أساسا ، ولا بأس أن تختلف معه خلافا ظاهراً ، مادامت هذه الزعامات تؤمن بوجوده وتتعامل معه ، وتقبل سلطانه وتقر بتنفيذ قانونه الوضعى ونظامه السياسى وتخضع لمندوبيه وتنفذ نصائحه باعتبارها أوامر ، هـذه النبتة المسمومة التى صنعها النفوذ الاستعمارى فى أرض الإسلام ، إنما كان يعدها لتحكم هذه الأقطار

طويلا ، ولذلك فقد اختارها بعناية وكونها ورباها ومنحها القدرة على أن تكسب إعجاب الجماهير بالخلاف الفرعى معه ، ولكنها كانت فى مجموعها من صنع يده وصاحبة ولاء أكيد له ، ونحن حين ندرس تاريخ الحركة الوطنية فى العالم الإسلامى نجد هذه البدائل واضحة وقائمة وقد مهد لها الاستعمار واجلى من طريقها رجال الوطنية الإسلامية الحقة ، بالنفى والسجن والتشريد وفى مصر نرى كيف استطاع الاستعمار من دخوله البلاد ١٨٨٢ إلى أوائل الحرب العالمية ١٩١٦ أن يتخلص من هذه الجماعة المسلمة الوطنية الصادقة الإيمان بالعمل عن طريق الجهاد والمقاومة وفق أسلوب الاسلام ، لأنها أخطر عليه وأخطر على بقائه ، وهى حائل دون نشر مفاسده وسوءاته وسمومه وغزوة الفكرى ولذلك فسرعان ما حاصر هذه الجماعة وقضى عليها واستطاع كرومر فى خلال خمسة عشر عاما أن يخرج جيلا جديدا من المتفرنجين أولياء النفوذ الاستعمارى القابلين بالوجود البريطانى الذين يؤمنون بأسلوب المناورة والمفاوضة والتفاهم مع الاستعمار مع التقبل والإعجاب والتقدير لأسلوب الليبرالية الرأسمالية الديمقراطية الغربية ، والنقل من نظامها السياسى والاجتماعى والاقتصادى أى بمعنى أوضح الخضوع لأسلوب العيش الغربى، : الأسلوب الربوى فى الاقتصاد والليبرالى فى السياسية والعلمانى فى الاجتماع والتربية ومن خلال هذا المخطط خرج لطفى السيد وسعد زغلول وعبد العزيز فهمى فى هذا الجو الذى غام على مصر بالاحتلال وفى مواجهة الحركة الوطنية التى قادها مصطفى كامل ومحمد فريد صنع الاستعمار إتباعه ورجاله ، وكان تعيين سعد زغلول ناظرا للمعارف هو إيذان بنجاح خطة كرومر فى تسليم القيادات الفكرية والتعليمية إلى أولياء النفوذ الأجنبى ولقد حارب سعد زغلول الحركة الوطنية منذ يوم أن تولى الوزارة وقدم زعيم الامة (محمد فريد) وهو وزير للحقانية إلى المحاكمة وانسحب من مشروع الجامعة ، وسوغ جعل التعليم باللغة الانجليزية ورفض طلب الجمعية العمومية باستبداله بالعربية وقال : إننا إذا جعلنا التعليم باللغة العربية أسأنا إلى بلادنا إساءة كبرى ، وكانت هذه أولى خطوات إندماجه فى صفوف الاحتلال ، وقال مصطفى كامل : إن الناس قد فهموا الآن بأوضح مما كانوا يفهمونه لماذا إختار كرومر لوزارة المعارف صهر رئيس الوزراء مصطفى فهمى

الأمين على وحيه الخادم لسياسته وفهموا لماذا قامت الصحافة الانجليزية والصحف المتحزبة للانجليز وذرت الدماء فى العيون : قائلة أن الوزير الجديد من الحزب الوطنى فى حين أن كل شىء من أحواله وشئونه يدل على شدة ميله إلى السلطة .

ولقد كان إبراز سعد (فى المعارف) ولطفى السيد (فى الصحافة) على هذا النحو كبتا وحجبا لأولياء الحركة الوطنية الأصلاء الذين كانوا يزعجون الانجليز فى المطالبة بالجلاء وينكرون المفاوضة معهم ، ولقد قدموا هذا الجيل وسمحوا له بالظهور بعد ثورة ١٩١٩ فكان سعد زغلول وأعوانه الذين آمنوا بالتفاهم والصداقة الانجليزية هم الخصوم الشرفاء المعقولون ، وكان سعد الذى حارب الحركة الوطنية أيام محمد فريد بتقديم فريد للمحاكمة وإعادة قانون المطبوعات القديم بعقوباته الشديدة على كتاب الوطنية هو زعيم هذه الأمة .

ومن هنا ظهرت فكرة (الوفد) من أولئك الذين ذهبوا لمقابلة المعتمد البريطانى (سعد زغلول — عبد العزيز فهمى — على شعراوى) فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨ .

لقد كانت تصريحات هؤلاء الزعماء هى جواز المرور لهم إلى الحياة السياسية فقد أعلنوا ولاءهم الكامل لبريطانيا وأعلنوا تبرؤهم من الحزب الوطنى وأكدوا أنهم من جماعة حزب الأمة الذين قبلوا الصداقة مع الانجليز ولقد كان تصريح سعد زغلول هو أشد هذه التصريحات ولاء وخصوعا للإنجليز : وتقديم قناة السويس ضمانة كاملة للإنجليز لها حق احتلالها » .

وبذلك نجح سعد زغلول فى امتحان الزعامة والقيادة وقدم مصر للانجليز لقمة سائغة تحت اسم « الاستقلال » وهو الاسم البراق الخادع الذى استعمل بديلا لكلمة « الجلاء » التى كان يستعملها الحزب الوطنى والواقع أن كل ماقدمه سعد زغلول إلى السادة الانجليز ، لم توكله الأمة فيه ، وما كان للأمة أن تطلب هذا مطلقا ، ولو طالبت هذا لأمكن تحقيقه بأسهل الأساليب وبدون إراقة الدماء وتضحية الشباب ، ومعنى هذا أن سعد زغلول قد

قتل روح النهضة التي أنشأها الرعيل الأول من المجاهدين سواء في المجال الوطني. أو في المجال الاجتماعي وحمل إثما خطيرا فهو أول من حول مفهوم الوطنية في العالم الاسلامي من صيغته الاسلامية متمثلا بالجهاد الذي دعا إليه الإسلام إلى المفهوم الغربي الوافد القائم على المفاوضات والتفاهم وقبول الأمر الواقع والخنوع والذلة للمستعمر وبذلك كان وليا لخصوم الإسلام ومؤازرا للنفوذ الاجنبي وحاميا للمحاذير والمخاطر التي وقع فيها الوطن الإسلامي بتعطيل شريعته وغلبه المصارف الربوية والقانون الوضعي وأسلوب التربية العلماني والتعليم الغربي عليه .

لقد كان سعد زغلول هو الذي كسر منهج المجاهدين المسلمين في مقاومة الاستعمار وحطم خطة المجابهة والمواجهة والاستمساك بمنهج الإسلام في الجهاد والحكم وبناء المجتمع ، فجاء هو — وهو الذي درس في الأزهر — لينحو بالبلاد (نحو التغريب والتفرنج وقبول الأمر الواقع والاستسلام مع المحتل والتعاون معه والانبهار بالفكر الغربي ورفض مفهوم الإسلام في الوحدة الجامعة وتطبيق الشريعة وبناء المجتمع على أساس الحدود الإسلامية . وبذلك فقد سن هذا الاتجاه الخطير الذي قام عليه الحكم السياسي في مصر حتى نهاية عصر الملكية .

إن سعد زغلول يحمل إثم أول من حول الوطنية في العالم الإسلامي من مفهوم الإسلام إلى المفهوم الغربي الوافد وأنه كان وليا لخصوم الإسلام ولاعداء الدين وأنه آزر النفوذ الاجنبي ولاء وصداقه وإعجابا .

سعد زغلول وطه حسين

مقدمتان للماركسية والعلمانية والمذهب المادى

كانت المدرسة السياسية التى قادها سعد زغلول قد حطمت مفهوم الوحدة الجامعة بين الإسلام والوطنية وانبعاث العمل الوطنى من الإيمان بالإسلام ومن خلال مفاهيمه الجامعة وإحلال مفهوم جديد غربى يقوم على أساس تضييق دائرة الوطنية وفصلها عن الإسلام نهائيا وقيامها على أسلوب الصراع والهجـاء والمناورة مع استصغار النفس أمام الغاصب والإعجاب به والتسليم له ، والخضوع لوجهة نظره .

ثم فتحت هذه المدرسة السياسية ، الباب أمام المدرسة الفكرية الخاضعة لأسلوب الغرب فى الثقافة والتعليم والتربيه والإعجاب بأسلوب حضارته وقيام المدرسة على أساس علمانى تفرغ من الدين جملة ومن مفهوم الإسلام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى .

وهو التيار الذى حمل لوائه لطفى السيد وجماعة جريدة السياسة (هيكل وطه حسين ومحمود عزمى وعلى عبد الرازق) ومعهم سلامة موسى والعقاد وهى ماتسمى المدرسة الليبرالية فى الفكر ، والممتدة بعد ذلك فى لويس عوض ومصطفى أمين وهم دعاة الديمقراطية .

وقد وضع دعاة مدرسة التغريب هذه القواعدالتى خرجت بالفكر الإسلامى عن أصوله ومنهجه الواضح وطريقه الأصيل بحيث استطاع الفكر الغربى أن يفتح ثغرة فى جدار الفكر الإسلامى تسرب منها فيما بعد الفكر الصهيونى والفكر الماركسى ونشأت المدرسة المادية الاشتراكية والوجودية والفرويدية وهى نتاج النظرية المادية أساسا وهى التى أفسح لها عبد الناصر وجودا قويا مدعما فى الصحافة والاعلام خلال مدة ١٩٦٠ — ١٩٧٠ .

وقد قامت دعائم المدرسة التغريبية فى الفكر على الأسس الآتية :

أولا : الدعوى الباطلة بين الإسلام دين روحي لاصلة له بالمناهج الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وأنه قاصر على العبادة والمسجد والصلاة والصيام ، أما أنظمة المجتمع فإنها تؤخذ من الغرب ومن الفكر الغربي بدعوى أن الإسلام ليس له علوم سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية وفي تنكر بالغ بالمناهج الإسلامية التي عرفها العرب .

ثانياً : انكار دور الاسلام في بناء الحضارة العالمية وتقديم المنهج العلمي التجريبي بدعوى أن المسلمين أخذوا منهج اليونان وفلسفتهم وأقاموا عليها حضارتهم وهي دعوى مبطلة كاذبة ، كشف زيفها علماء منصفون من الغرب نفسه .

ثالثا : الفصل بين الأدب العربي وبين الفكر الاسلامي وإعطاء الأدب حرية في الانطلاق في البعد عن الجنس والشبق والاباحيات والكشف وإعلاء هذا الجانب من شعر أبي نواس ، وإعلاء روح الشعوبية بإحياء ابن المقفع وإحياء الفكر الوثني الصوفي المتمثل في ابن عربي والحلاج .

رابعاً : الدعوى العريضة الكاذبة بأن المسلمين أقاموا الفكر الاسلامي على مناهج اليونان (أرسطو وأفلاطون) في الماضي ولذلك فلا يمنع أن يقوم الفكر الإسلامي الحديث على مناهج الغرب : دوركايم واوجست كونت وغيرهما .

خامساً : إعلاء مفهوم الغرب في الجبرية التاريخية ، وهي التي تلغي الإرادة الفردية ، وأخلاقية الحياة ، ومحاولة الادعاء بأن الأخطاء تنسب إلى المجتمعات وليس إلى الأفراد .

سادساً : تصور أن الإنسان مجموعة من القوى المادية تحكمه رغبة الجنس والعيش في إطار مذهبي فرويد وماركس ، وأنه خاضع لهذه القوى وأنه يمكن محاكمته على أساس المذاهب التجريبية ، بينما أن العلوم الإنسانية لايمكن أن تخضع لهذا المنهج المادي لأن هناك جانبا آخر لاتعترف به الحضارة الغربية وهي الروح والنفس والمعنويات .

سابعاً : إثارة روح الشك المؤدية إلى الإلحاد ، وروح الاباحة المؤدية إلى الانحراف الخلقى .

ولقد كان التركيز على هذه المعانى مقدمة لسيطرة المذهب المادى الذى حمل لوائه الماركسيون فى عهد عبد الناصر ووجد طريقه تحت تأثير هذا التمهيد الذى قدمته مدرسة طه حسين .

وقد يتبين من بعد أن النظرية المادية مسيطرة على كلا الفكرين : الفكر الليبرالى الغربى والفكر الماركسى أو الاشتراكى .

ومن هنا فقد حرصت القوى السياسية فى عهد عبد الناصر إلى تدريس النظرية المادية للشباب فى نطاق التنظيمات السياسية : التنظيم الطليعى والمعهد الاشتراكى وغيرهما وذلك لتركيز مفهوم الماركسية فى هذه النفوس والعقول ، غير أن عمق الإيمان بالإسلام كان مانعا وحاجزا دون تقبل العقل المسلم والنفس المسلمة لهذه المفاهيم بل ولم يلبث أن انفجر مع نكسة ١٩٦٧ تيار إسلامى قوى تحت اسم « العودة إلى الله » .

ولقد أدى هذا الأسلوب التغريبى الذى بدأه سعد زغلول وعمقه طه حسين وطبقه عبد الناصر إلى جملة أمور :

(أولا) إلى : إزاعة الزيف والخداع والتضليل والاستعلاء بالباطل والإعجاب بالهجاء والتلبيس على الحق وعلى ضوء الإسلام الساطع بمفاهيم زائفة خادعة .

(ثانياً) إلى : خلق جو من « السطو » على الفكر الصحيح وإعلاء أصحاب الفكر الزائف وإفساد أخلاقيات الحياة الجامعية والعقلية .

(ثالثاً) إلى : خلق روح الوصولية والثقافية والحقد وحجب كلمة الحق وتدافع البأس نحو المطامع بوسائل الخيانة والانتقام والخطف حتى فسد المجتمع فساداً عميقا فى جانب المعاملات بين الناس ، وضمرت روح الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وغلب أصحاب الرشوة والفساد والظلم وانسحب أصحاب الخلق والدين من معترك الحياة .

الفصل الثامن

التبعية بعد الحرب العالمية الأولى

جاءت الحرب العالمية الأولى كنقطة تحول فى خطة الاستعمار والنفوذ الأجنبى، فقد كانت الفرصة قد أوفت لتمزيق الدولة العثمانية التى وقفت فى وجه الغرب حامية للعالم الإسلامى أربعمائة عام والتى توالت المؤامرات عليها منذ قرون طويلة بهدف تمزيقها . وقد جاءت الخطة مرتبة على أساس إقامة رأس جسر للصهيونية فى البلاد العربية فى فلسطين تحت اسم وعد بلفور الذى مكن لهجرة شتات اليهود من أوربا إلى فلسطين وكانت الخطة قد عرضت على السلطان عبد الحميد فوقف فى وجهها بشدة وصلابة وكانت من أسباب اسقاطه ، كما كانت الخطة ترمى إلى اسقاط الخلافة الإسلامية وتمزيق شمل المسلمين وإذاعة دعاوى الأقليات والقوميات لاحياء تاريخ ما قبل الاسلام من الفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية وإغراق المسلمين فى نظم إقليمية وإحياء عنصريات قديمة تفصل بينهم .

وقد وضعت الخطة لتقسيم البلاد العربية بين فرنسا وانجلترا .

وقد ظهرت وثائق جديدة أثبتت أن تجزئة البلاد العربية لم تكن وليدة الحرب العالمية الأولى وإنما كانت الدول الغربية قد رتبتها خلال سنوات من قبل ذلك وبالذات من سنه ١٩٠٦ — ١٩١٤ أخبر بذلك رشيد الخالدى فى كتابه (السياسة البريطانية فى سوريا وفلسطين).

وتعود أسباب ذلك إلى ضعف الدولة العثمانية ذلك الضعف الذى دفع الدول الأوربية الكبرى (بريطانيا وفرنسا ألمانيا وروسيا) إلى اقتطاع أجزاء من أراضيها ثم تم التفاهم بينها على مناطق النفوذ التى تختص كل واحدة منها فى الأراضى التى بقيت للدولتين فى آسيا .

كذلك فإن المؤتمر الذى عقد فى بريطانيا ١٩٠٧ المعروف بمؤتمر (بنرمان) كان قد عرض للخطر الواقع على الغرب وسقوط حضارته وبروز وارث قوى هو الأمة التى تسكن جنوب البحر الأبيض المتوسط على قارتى إفريقيا وآسيا وقد اتفقت الآراء على وضع جسم غريب بين القارتين يحول دون وحدتها ومن هنا تركز العمل على تمكين الصهيونية من فلسطين بوصفها الجنس الغريب العازل المعوق لنهضة العرب والمسلمين .

وقد حققت الحرب العالمية للنفوذ الأجنبى عدة غايات :

أولا : القضاء على استقلال هذه الأمة وقدرتها على إمتلاك إرادتها وبذلك حجبت عن شريعتها الإسلامية أساسا .

ثانياً : القضاء على الوحدة الإسلامية النامية تحت لواء الدولة العثمانية (العرب والترك) والتى كانت تتجه إلى جمع لواء المسلمين تحت سلطان الخلافة .

ولكن الحركة الوطنية التى كانت تحمل طابع الإسلام فى الدفاع عن الأرض وعن العرض والتى كانت تستمد مقوماتها من مفهوم الجهاد ومقاومة الغاصب وعدم قبول تعدى الأجنبى ورفض ولاية غير المسلم ، كل هذا كان هو المصدر الحقيقى للثورة المصرية ١٩١٩ التى ورثها سعد زغلول وجماعة السياسيين المحترفين الذين تولوها من بعد ، فقد كانت ثمرة مفاهيم عمر مكرم وأحمد عرابى ومصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش فى الحرية وكان الأزهر هو القائد الحقيقى لهذه الثورات الثلاث : الثورة ضد الفرنسيين وثورة عرابى وثورة ١٩١٩ فهى ثورات إسلامية وإن تلقفها النفوذ السياسى الذى أوجده الاحتلال البريطانى .

ولقد كانت تجربة النظام السياسى الديمقراطى المقتبس من الغرب والتى سبقتها مصر من خلال نظام الأحزاب والانتخابات تجربة فاسدة لم تحقق الأهداف الحقيقية . وكانت البلاد تتطلع إلى العودة إلى أصول فكرها ومنهج شريعتها وحياتها .

وكانت الضربات التى توالت عليها بالغة الخطورة :

(١) الاحتلال وسيطرة النفوذ الأجنبي والحكم عن طريق أعوانه .

(٢) سقوط الخلافة وتمزق الأمة الإسلامية إلى وحدات صغيرة .

(٣) غلبة الدعوة إلى الفرعونية والمصرية وحجب مفاهيم القرآن والتاريخ الإسلامى .

وكان التصور بعد الحرب العالمية الأولى أن تأخذ الدول حريتها وحقها فى بناء مجتمعها ولكن النفوذ الاستعمارى أضعف ظاهريا من سلطانه ، وغير الأسماء من وصاية واحتلال إلى استقلال ذاتى ، وبقى يحكم من وراء نفوذ أولئك الزعماء المتصارعين على السلطان والخاضعين لنفوذه وفى أبان هذه الفترة — فترة مابين الحربين — تحققت بعض الخطوات التى فتحت الطريق أمام الفكرة الإسلامية لتصبح عقيدة يؤمن بها من أحس بهزيمة السياسية والحزبية وفساد النهج الذى قامت عليه ، ولقد كان سقوط الخلافة عاملا هز نفوس المسلمين أزاء هذه الأمانة الغالية ، فلما تآمرت الدول الاستعمارية عن طريق التبشير وإنشاء الجمعيات التبشيرية ومدارس الارساليات وتوسع هذه الخطة كان على المسلمين الغيورين أن يواجهو ذلك ببناء الجمعيات الإسلامية فظهرت الشبان المسلمين والهداية الإسلامية ، والرابطة الإسلامية ومكارم الأخلاق والإخوان المسلمين والأنصار وشباب محمد وعشرات الجماعات التى حملت لواء التوجيه الإسلامى لمقاومة التبشير والغزو الفكرى ، وكانت قد تكشف بعد عشر سنوات من ثورة ١٩١٩ فساد الوجهة التى جرت عليها الأحزاب السياسية بصراعها وتمزقها وأسلوبها فى الهجاء وتقسم ولائها بين القصر وبين الاستعمار ، وتطلع الناس إلى روح جديد ، إلى مفهوم جديد ، إلى هدف جديد هو بناء جيل من الشباب المستقيم على مفهوم الإسلام الصحيح فقد كانت دعوات جمال الدين ومحمد عبده ورشيد رضا قاصرة على النخبة المثقفة ، وعلى مجموعة الصفوة من العلماء ولكن الأمر أصبح مهيأ لخطوة جديدة ، هذه الخطوة التى قامت بها الدعوة الإسلامية فى هذه المرحلة ودعمت أسسها وقواعدها على أساس

« تربية جيل » يفهم الإسلام على أنه دين ودولة وعبادة ونظام مجتمع ، وأول ما يتطلع إليه أن تعود الأمة الإسلامية إلى العمل والحكم وبناء مجتمعها تحت لواء الشريعة الإسلامية التى عطلها النفوذ الأجنبى وحجبها وفرض القانون الوضعى ونظام الربا والتنظيم السياسى الديمقراطى الوافد والتعليم العلمانى وقد نما هذا البناء واتسع نطاقه وضم عشرات من الشباب المثقف المسلم فى ميادين دراسات القانون والتجارة والطب والاقتصاد والأدب والاجتماع حيث مضى كل منهم فى طريقه يبحث عن موقف الإسلام ومفهومه ، ويرد مفهوم الفكر الوافد فى محاولة للبحث عن الاصالة والتماس المنابع ودعوة الأمة إلى طريق الله الحق ، حتى علا صوت الاسلام ونما واقتحم الجامعات ونشر شعاعه إلى إفريقيا والشام والعراق وأسيا فعلا صوت الدعوة إلى الله وحقق نتائج واسعة عميقة فى بناء العقل الاسلامى الجديد واستطاع أن يقاوم حملات التشكيك والتبشير والاستشراق ويرد على الشبهات ويدحض فكرة التغريب ويعمل عمله فى تقديم ما عجزت عنه المناهج التعليمية والمدرسية والثقافية ونشأت صحافة إسلامية جادة تحمل لواء الدفاع عن المقدسات وتحرير الوطن وتصحيح المفاهيم على نحو بالغ الأهمية والخطورة كاشفة عن أوكار الاستعمار والصهيونية والنفوذ الأجنبى مجددة صفحات تاريخ الإسلام ، حتى تهيأت الأذهان إلى إيمان راسخ بأن نهاية الحرب العالمية الثانية التى أعلنت دول الغرب على أنها ستحقق حق تقرير المصير لأهلها ، لابد متجهة إلى امتلاك الأمة الإسلامية لارادتها وازاحة نفوذ المستعمر وأعوانه ، وتقديم تلك الصفوة المؤمنة لتأخذ مكانها فى قيادة المسيرة :

ولكن الأمر كان على غير ما تطلع إليه المصلحون ، فقد كان سقوط الخلافة الإسلامية مقدمة لتوسع النفوذ الصهيونى الذى استطاع بالحرب العالمية الثانية أن يحقق وجوده على رأس جسر فى فلسطين ، وكانت المصادمة الأولى التى كشفت عن قوة الدعوة الإسلامية على نحو دفع القوى الغربية إلى المسارعة بتصفيتها والقضاء عليها .

وإذا كان النفوذ الغربى والاستعمار قد استطاع بالحرب العالمية الأولى :

القضاء على الخلافة الإسلامية وتمزيق وحدة العالم الإسلامى فإنه استطاع بالحرب العالمية الثانية إقامة إسرائيل والقضاء على وحدة العالم العربى ، فى الأولى أزاح النفوذ الاستعمارى قادة اليقظة العربيــة الإسلامية وقدم رجاله وفى مصر أزاح الحزب الوطنى وعبد العزيز جاويش ووضع لطفى السيد وسعد زغلول وفى الشام أزاح شكيب ارسلان ورشيد رضا ومحب الدين الخطيب ودعاة العروبة المرتبطة بالإسلام ووضع قادة البعث ورجال الجامعة الأمريكية (نبيه فارس وميشيل عفلق وقسطنطين رزيق) .

كذلك فى الحرب العالمية الثانية كانت الخطة مرتبة لسيطرة رجال من الجيش على الحكم فى جميع أنحاء العالم الإسلامى وفى مقدمته باكستان وسوريا ومصر والعراق .

ولم يكن هناك خطر على الأمة أبان الاحتلال فقد كانت القوى كلها مجندة للمقاومة ولكن بعد الاستقلال جاءت مرحلة التراخى والترف والاستسلام وهنا تضاعفت حركة العدو ، الذى انتقل من مرحلة الغزو السياسى والعسكرى إلى مرحلة الغزو الفكرى والثقافى ، لقد كان خلال مرحلة الاحتلال يستعد لمرحلة ما بعد الاستقلال بإعداد قواعده التى ينطلق منها :

المدرسة ، الارسالية ، الصحافة ، الثقافة ، المسرح ، السينما و اليوم أصبحت كل هذه القوى فى يده .

والحكم الوطنى بعد الاستقلال كان ولاءه الفكرى غربيا وإن بدا أنه خصم للاستعمار سياسيا ولذلك فهو لم يراجع ما صنعه الاستعمار فى بلاده ولم يغير من سير الاتجاه والتوجيه منها وسلك نفس طريق الاستعمار قبله ، فى إخلاء الواقع الاجتماعى من الإسلام ، فقد أكد العلمانية فى عزل الدين عن الدولة ، فأبعده عن التعليم ، والتشريع ، واضعفه معاهده ومؤسساته والغى المحاكم الشرعية وسوى هذا الحكم الوطنى فى بعض المجتمعات الإسلامية بين الرجل والمرأة فى الميراث وقلد الكثلكة فى قيود الزواج والطلاق وأتاح الفرصة للدولة فى أن تبارك زواج المسلمة بغير

المسلم بينما عمد البعض الآخر إلى رفع القران كلية ووضع مكانه الاشتراكية اللينينية لكارل ماركس وماوتسى تونج وهناك من مسح الأحوال الشخصية فى الإسلام، وأعان الكثيرين منهم تمجيد مصطفى كمال اتاتورك والسير على خطاه، وتقديم فهم خاص للإسلام يختلف عن مفهومه الصحيح.

لقد سار الحكم الوطنى على القواعد التى رسمها المستعمر وتشبث بها ولم يحاول أن يعدل من هذه الأنظمة بما يتفق مع قيم الأمة وتراثها وهويتها وذلك لأن أغلب هؤلاء الحكام لم يكونوا مؤمنين بأن الإسلام له نظام قادر على العطاء.

الفصل التاسع

الخروج من التبعية

بعد الحرب العالمية الثانية ، وفى خلال انحسار موجة الاستعمار الغربى (الفرنسى والبريطانى) عن البلاد العربية ، واجه العرب والمسلمون : الغزوة الصهيونية وتغير نظام الحكم فى أغلب البلاد العربية المواجهة لفلسطين ، وغلب عليها النظام العسكرى ، نظام الحزب الواحد العسكرى ، والذى حمل معه مفهوم القومية العربية المفرغة من الاسلام ، ومزيد من التبعية للعلمانية الغربية ، ثم ظهر ولاء جديد للشيوعية ، وتقاسمت العالم الاسلامى أنظمة مختلفة ، بعضها ذات ولاء غربى ، وأخرى ذات ولاء شيوعى ، وكانت المحاولة تهدف إلى مواجهة الصهيونية ، التى هزمت العرب فى حربين : حرب ١٩٤٨ التى استطاعت بها أن تقيم الدولة وحرب ١٩٦٧ التى استطاعت بها أن تستولى على القدس .

وأفادت حركة التغريب من مرحلة النفوذ العسكرى والثورى واتسعت أمامها الآفاق أكثر مما كانت فى أيام حكم الاحتلال والأحزاب، كانت الضربات الأولى هى الربا والقانون الوضعى والتعليم العلمانى والديمقراطية الليبرالية .

أما الضربات الجديدة فكانت أشد عنفاً : كانت « القومية » ذات المفهوم العلمانى والاشتراكية ذات المضمون الماركسى والحرية ذات المضمون المتحرر من قيم الأخلاق وفى ظل هذه المرحلة لم تكن هناك نافذة واحدة مفتوحة لمواجهة ما تطرحه هذه الدعوات من ماركسية ووجودية والحادية ومادية .

وكان للخلاف التى وقع بين القائمين على الدعوة الاسلامية وبين المسيطرين على الحكيم أثره فى حجب الكلمة الاسلامية وتخوفها وانكماشها . وكان ذلك افساحاً لدعاة الماركسية وأعوانهم ومنظماتهم ، وكانت فرصة النفوذ

الغربي بالماركسية أشد من فرحة الشيوعيين بها فهى عامل هدم للأمة يمزقها فرقا جديدة أكثر مما هى ممزقة .

وتفشت بعد الحرب العالمية الثانية موجهة من الإلحاد والنزعات الاقليمية والقومية المفرغة من مفهوم الاسلام إلى موجات من الاشتراكية والوجودية والفرويدية .

ولكن لم تلبث نكسة ١٩٦٧ أن أعادت الوعى بأن الهزيمة كانت نتيجة الانحراف عن منهج الله وكشفت عن أن كلا المذهبين الغربيين الوافدين : تحرير الرأسمالية والديمقراطية بعد الحرب الأولى وتجربة الاشتراكية والماركسية بعد الحرب الثانية . وفشل كلاهما عندما أعلن الوجدان الاسلامى العربى رفضه لكلا المنهجين بعد أن اكتشف أن كل منهما عاجز عن العطاء الجامع الذى قدمه الاسلام : عطاء الروح والمادة معاً ومن ثم فقد تبينت الامه فى كل أجزاء العالم الاسلامى بأن تحررها وقدرتها على امتلاك إرادتها يتطلب أن تصدر عن منهجها الاسلامى الأصيل وبذلك تكشف فشل التجربتين والمذهبين .

ومن هنا فقد كان لا بد لحركة اليقظة الاسلامية من أن تواجه جميع القضايا والمذاهب والأيدلوجيات المطروحة فى أفق الفكر الاسلامى وأن تكشف موقف الاسلام منها وأن تدخل مرحلة جديدة هى مرحلة الرشد الفكرى والاصالة والقدرة على امتلاك الارادة من أجل بناء الحضارة الإسلامية الجديدة المتجددة على أساس قاعدة القرآن الصلبة الجامعه بين المادة والروح والقلب والعقل والدنيا والآخرة .

. . .

لقد بدأت المواجهة مع الفكر الغربى منذ وقت باكر ، بعد قليل من انبهار رفاعة رافع الطهطاوى وخير الدين التونسى للحضارة الغربية وهو انبهار محدود متحفظ قوامه الاحساس بأن القانون الفرنسى له ملامح من المذهب المالكى والشريعة الاسلامية .

ومن هنا فقد جاءت فكرة أن الاقتباس الاسلامى من الغرب إنما يستمد من مصادر جاءت من الاسلام أساسا ولكن غاب عن هؤلاء حقيقة أساسية وهو أن الغرب حين نقل فكر الاسلام لم يقبله بمفهومه الجامع وإنما فصل فيه من الفكر والتطبيق وبين الروح والمادة ، وثانياً فقد صاغه فى إطار الفكر اليونانى والرومانى وبذلك زالت عنه أكبر علامات استقلاليته وذاتيته الجامعة.

والمعروف أن خير الدين التونسى والطهطاوى — وهما رائدا الفكر الاسلامى إلى الغرب فى هذا الوقت المبكر يدعوان إلى النهضة على أساس غربى محض ، كما هو واضح فى كتاب (أقوم المسالك) الذى يدعو فيه التونسى إلى إنشاء شركات وبنوك على النمط الغربى كما يدعو إلى حياة نيابية بين على نمط غربى وهو فى هذا شبيه برفاعة الطهطاوى .

ولكن هذه التبعية الظاهرة جاءت بسبب غيوم المؤامرة التى كانت تدبر والتى لم تكن قد تكشفت معه ، والتى ظهرت فى المرحلة التالية عندما اكتشف جمال الدين الأفغانى مذهب الطبيعيين (النيشيرية) ومحاولات بريطانيا فى الهند عن طريق أحمد خان ، وقد جاء فى أثرهم القادياتى والقاديانية .

فقد واجه جمال الدين هذا المخطط ولعله لأول مرة فى تاريخ الفكر الإسلامى الحديث بالرد الحاسم ، وهذا هو الخط الذى سار فيه محمد عبده فى معركتين :

هما معركته مع دوق دراكور ، ومع فرح أنطون ومنهما واجه الشبهات التى كان قد بدأ النفوذ العربى أثارتها من قبل التشكيك فى القيم والتاريخ الإسلامى فقد واجه موقف كتابى الغرب فى مهاجمتهم للحضارة والتاريخ الاسلامى فى الرد على داركور ومع فرح أنطون كشف عن مزية الاسلام على سائر الأديان من خلال المساجلة التى دارت حول فلسفة ابن رشد تحت عنوانه (الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) .

ومنها كشف الشيخ محمد عبده عن حقائق الاسلام الأساسية :

أولا : النظر العقلى الصحيح وسيلة للايمان (فى مواجهة الايمان بغير المعقول.

ثانياً : تقديم العقل ظاهر الشرع عند التعارض .

ثالثاً : البعد عن التكفير ، فإذا صدر القول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الايمان من وجه واحد حمل على الايمان .

رابعاً : قلب السلطة الدينية والاتيان علماً من أصلها (وذلك فى مواجهة ما عرضه الغرب من الحكومة الثيوقراطية) .

خامساً : مودة المخالفين فى العقيدة (وذلك فى مواجهة شبهة التفريق بين أصحاب الأديان) .

سادساً : الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة (وذلك فى مواجهة فكرة ترك الدنيا) .

سابعاً : عدم الاحتجاج بحال المسلمين اليوم ، وإن حال المسلمين هذا عارض عرض لهم وطبيعة الاسلام والجمود عليه تزول بالرجوع إلى كتاب الله

ثامناً : الإسلام هو الذى أدخل أوربا فى الحضارة ، وأعلن التسامح مع الدين المسيحى .

ومن مساجلات جمال الدين ومحمد عبده لشبهات الفكر العربي انفتح هذا الطريق الذى سار فيه من بعد محمد رشيد رضا وفريد وجدى ومصطفى الغلاييني وعلى يوسف فى الرد على شبهات كرومر عن الاسلام وويلكوكس عن اللغة العربية وغيرهما عن التاريخ الاسلامى والرسول .

وقد قام بالدور الواسع فى هذا المجال صاحب المنار (رشيد رضا) ومن بعده صاحب الفتح (محب الدين الخطيب) فقد كانت هذه الفترة (فترة ما بين الحربين) من أخطار الفترات التى مرت على الفكر الاسلامى وحملات التبشير والاستشراق والاستعمار وقد بدأ فى أول الأمر أن محمد عبده يقود مدرسة فى اليقظة والاصالة على وضوح الرؤيا أمامه فى منهج يطلق عليه « الاصلاح » ويقيمه على أسلوب التربية وقد بدأ ظاهر الأمر أن سعد زغلول ولطفى السيد هما من تلاميذ جمال الدين ومحمد عبده ولكن الأمور مالبثت أن كشفت عن تحول

واضح فى خطتهما نحو منهج التغريب الذى قاده كرومر والذى وضع للصحافة والثقافة والتعليم منهج جديد مفرغ من الاسلام وهو المنهج الذى صنع ذلك الجيل الذى دخل الجامعة وكله الآداب فى أول افتتاح الجامعة المصرية ١٩٢٥ (وقد قام بالدور الأكبر فيه الدكتور طه حسين) ومدرسة السياسة (هيكل وعلى عبد الرازق ومحمود عزمى) وغيرهم .

ولا ريب أن كتابات لطفى السيد ومخططات سعد زغلول تكشف عن تجاوز كبير للنبع الذى صدرا منه . وعن مفاهيم جمال الدين ومحمد عبده ومهما كانت كتابات كرومر عن محمد عبده وحزبه فإنه ماكان يقر هذا التحول الذى وصلا إليه الرجلان الذين أسلمهما كرومر مقادة الصحافة (لطفى السيد) والتربية (سعد زغلول) ومفاهيمهما هى مفاهيم كرومر وخطتهما هى خطته .

وهما فى هذا يختلفان عن تلاميذ آخرين من نفس المدرسة لم ينحرف بهم الخط : أمثال:رشيد رضاومصطفى عبد الرازق وفريد وجدى،والمراغى وغيرهم

ومن أمثلة ذلك أن طه حسين كان يدعى أنه من تلاميذ محمد عبده ، ولكنه عندما صنع فى فرنسا وعاد أعلن مخالفته لمذهب الشيخ الامام ومعارضته لكثير من مفاهيمه وحمل لواء التغريب الذى شق العصا عن خطة الاصلاح والتجديد الذى كانت مقاليدها قد انتقلت إلى المنار .

ومن هنا فقد حمل رشيد رضا لواء المواجهة والدحض للمدرسة التغريبية الجديدة التى كان وكرها فى جريدة السياسة ودار الهلال والأهرام والمقطم ، والتى كانت تتمثل فى عديد من أمثال سلامة موسى وعلى عبد الرازق ومحمود عزمى ، كذلك فقد حمل فريد وجدى لواء الدفاع عن الاسلام فى مواجهة الموجه المادية الفلسفيه التى كانت قد احتاجت البلاد العربيه والاسلامية .

وعندما ظهرت الفتح عام ١٩٢٦ وجمعيات الشبان والاخوان ١٩٢٧ ، ١٩٢٨ وصحفها (النذير والاخوان — بالاضافة إلى المنار الذى استمر إلى عام ١٩٣٥ عملوا على مواجهة حملات التبشير العاصفة التى اجتاحت البلاد وفى مواجهة جمعية الشبان

المسيحية وإخوان الحرية ونوادى غربية تحت أسماء غربية وماركسية باكره ، وفى مواجهة كتابين خطرين هما الشعر الجاهلى لطه حسين والإسلام وأصول الحكم لعلى عبد الرازق وكانت المواجهة من الفكر الغربى والغزو الثقافى والتغريب قد دخلت مرحلة خطيرة وعرفت الدعوة الإسلامية مسئوليتها الحقيقية فى بناء جيل جديد من الشباب وأقلام جديدة من كتاب الدعوة الإسلامية لمواجهة هـــذه التحديات التى اتصلت على جميع جبهات الفكر : فى الجامعة والصحافة والأندية ، وفى مختلف المجالات ، الاقتصاد والقانون والسياسة والاجتماع والتربية والتعليم.

ووضح أن للإسلام مفهوم فى كل هذه الميادين ، وأنه ليس كما صوروه دين عبادة ومسجد ، وأن له منهجا أصيلا فى مواجهة قضايا المجتمع ، ومن ثم أخذ عبد القادر عوده ، وعيسى عبده ، وسامى النشار ، وعلى على منصور ، وتوفيق الشاوى ، ومصطفى السباعى ، وعمر بهاء الأديرى ، وأحمد بلا فريج وعبد المنعم خلاف ، وعشرات يكتبون فى مختلف جوانب الفكر الإسلامى ويكشفون عن حقائق الإسلام ، وجاءت بعدهم موجات أخرى حملت اللواء ، ولم يقف الأمر عند مواجهة المستشرقين ولكن ما أصبح أخطر من ذلك هو مواجهة التغريبين ركائز النفوذ الأجنبى فى مواقع القيادة فى الجامعات والصحف والثقافة .

وبذلك واجهت الدعوة الإسلامية تلك الحملات المسمومة التى ساقتها مدرسة التغريب من أوكارها سواء فى دار الهلال أو والأهرام أو المقتطف ، أو السياسة وجهرت صحف المنار والفتح والإخوان والشبان بكلمة الحق عالية مدوية وامتد ذلك من مصر إلى مختلف أجزاء الوطن الإسلامى وقامت دعامات حقيقية لتصحيح المفاهيم لترد عن الاسلام وتاريخه وعقيدته ولغته عادية الاتهام وسموم الشبهات التى أثارها التبشير والاستشراق .

الباب الثانى

من النكسة إلى الأصالة

الفصل الأول : تاريخ مصر السياسى

الفصل الثانى : تغريب مصر

الفصل الثالث : النكسة والسبح ضد التيار

الفصل الرابع : النكسة تحول حقيقى نحو الأصالة

الفصل الأول

تاريخ مصر السياسى

يمثل تاريخ مصر السياسى فى العصر الحديث فى قضيتين .

أولا : الدفاع عن الوطن . (ثانيا) بناء المجتمع الحديث .

وقد بدأت قصة بناء المجتمع الحديث منذ عصر محمد على ، بالخروج من أزمة التحلف التى لحقت بالمجتمع الإسلامى كله فى آخر عصر الدولة العثمانية .

وقد حملت نهضة محمد على روح الاقلية وطابع الانفصال عن الدولة العثمانية ومن ثم علا صوت المصرية وخفت صوت الرابطة الإسلامية .

وجرى محمد على فى الخط الذى عارضته مصر : فقد هزمت مصر الفرنسيين وقبل محمد التعامل معهم ، وبدأت النهضة المصرية من خلال التعزيب ، لم تكن نهضة مستقلة الوجهة ولا منبثقة من المفهوم الإسلامى الأصيل .

وكان محمد على قد قضى على الطبقة المثقفة المصرية التى عارضت النفوذ الأجنبى وقضت عليه لأنها كانت معارضة الاستبداد الفردى الذى كان سمة حكم محمد على .

ومن ثم كان أبرز مظاهر هذه المرحلة :

أولا : ازدياد نفوذ فرنسا وهو نفوذ الغرب الذى امتد بعد ذلك فى حكم أبناء محمد على وكان أبرز مظاهره انشاء قناة السويس وسيطرة الدول الأوربية عليها وبيع مصر اسهمها فيها وتوسع مصر فى القروض والاستدانة حتى سيطرت على الدول الغربية اقتصادياً وثقافياً وفرضت عليها القانون الوضعى بديلا للشريعة الإسلامية فى مجال الاقتصاد والحكم .

ثانياً : تقلص نفوذ الطبقة المنبثقة الإسلامية التى كان مبعثها الأزهر

فقد قضى محمد على على عمر مكرم وجماعة علماء المسلمين الذين وقفوا أمام تسلط نابليون ونفوذ محمد على الفردى : وبذلك أفسح المجال أمام طبقة جديدة من اتباع الثقافة الغربية والولاء الأجنبي .

وكان القضاء على الأزهر هدفا مشتركا بين النفوذ الأجنبي والحاكم المستبد وقد ورثت بريطانيا بعد ذلك هذا الهدف واستطاعت أن تسيطر على أوقاف الأزهر وتحول علمائه إلى تابعين للدولة .

ثم جاءت المرحلة الثانية : وهى مرحلة الاحتلال البريطانى لمصر .

وفى هذه المرحلة تمت السيطرة الكاملة على نظام الحكم ، الاقتصاد ، القانون الاقتصاد الثقافى ، واختفى تماماً طابع الاسلام فى المجتمع نهائياً . وتنازع مصر تيارين : تيار وطنى يغلب عليه الاهتمام بالحرية والاستقلال وجلاء القوات المستعمرة من البلاد وهو تيار قوى له خلفية إسلامية وإن كانت أبعاد التنظيم الاجتماعى الاسلامى لم تكن واضحة أمامه .

وتيار علمانى أنشأه المستعمر حمل لواء مصر المصريين ويدعو إلى الانفصال عن العالم الاسلامى والبلاد العربية ، جغرافيا وسياسياً وينفصل عن الإسلام كنظام اجتماعى فى التربية والمجتمع فيقبل القانون الوضعى والديمقراطية الغربية والتعليم العلمانى والاقتصاد الربوى .

وكانت الغلبة للتيار التغريبى لأن بريطانيا كانت وراءه ، وكان النفوذ الغربى فى خلال أكثر من ثلاثين عاماً يعمل على إعداد جيل يتولى الحكم فى مصر ، جيل من المتغربين (المتفرنجين) الذين لهم ولاء ثقافى واجتماعى للغرب وكان على قيادة هذا الجيل سعد زغلول ولطفى السيد وغيرهما ثم ظهرت بعد الحرب الحرية السياسيه المتصارعة ، وإلى جوارها جماعة التغريبيين المسيطرين على الصحافة سواء منهم المارون (الأهرام — المقطم) أو (المصريين) (السياسة) محمود عزمى وطه حسين وسلامة موسى وعصرهم .

وفى خلال هذه الفترة التى أطلق على عصر الاستقلال تكشف زيف

الحزبية وفسادها وظهرت دعوات كثيرة تدعو إلى تصحيح الطريق السياسى والاجتماعى وكان للدعوة الاسلامية دورها الواضح الذى نما نموا واسعاً لأنه كان هو البديل الحقيقى للنظم الحزبية السياسية التى فشلت وعجزت عن تحقيق أى هدف سياسى أو اجتماعى لمصر .

فى هذه المرحلة كانت هناك ثلاث قوى تحكم مصر :

١ — الدولة المحتلة تحت اسم الحاكم الفعلى .

٢ — القصر تحت اسم الحاكم الشرعى .

٣ — الأحزاب : وكلها ذات ولاء لبريطانيا وولاء للنظام الغربى الرأسمالى ولم يكن خلافها إلا فى نوعية الحكم ووسائله وليست فى غاياته فهى كلها تؤمن بالتعامل مع هذا النفوذ ، ولها تقدير له وهيبة لأنها من صنعه فضلا عن ولائها للنظام الغربى الرأسمالى وخضوع تام له وفوق ذلك لها ولاء خالص للحضارة الغربية .

وفى ظل هذه المرحلة تكون جيل من النخبة يؤمن بالولاء للغرب والإعجاب به وقبول أسلوب العيش الغربى بقيادة سعد زغلول ولطفى السيد ، قامت فى ظله الحياة السياسية والاجتماعية خلال هذه المرحلة حياة قوامها الاقطاع وسيطرة السادة الأعيان والسراه الذين كانوا عملاء للمصارف الأجنبية يرهنون القطن وينفقون ثرواتهم تحت أقدام الراقصات فى شارع عماد الدين ويستعلون على العمال والصناع والزراع ، فى عطرسة واستطالة ، ومن ثم عاشت مصر فى ظلهم مقيدة بأغلال النظام الاقتصادى الربوى ، وسيطرة صناع القطن فى لانكشير ، وتصارع الأحزاب على الحكم ، فى سبيل إرضاء ممثل الدولة المحتلة أو القصر ، وأسلوب فى الصحافة مليء بالهجو والاقذاع ، وصراع الزعماء على تقاسم الولاء للنفوذ الأجنبى ، حتى نشأت أجيال جديدة ، وقد أحست بأن ثورة ١٩١٩ قد أجهضت بعد أن تولاها سعد زغلول وزملائه بمفهوم الولاء الأجنبى (وفى الحق أن سعد زغلول لم يكن قائد الثورة ولكنها قامت وهو منفى عن البلاد وقد دهش لقيامها أما قائدها الحقيقى فهو عبد الرحمن فهمى) .

ولقد كانت ثورة ١٩١٩ هي ثمرة الحركة الوطنية التي قادها مصطفى كامل ومحمد فريد على مفهوم النضال في سبيل تحرير الوطن ، ولكن الذين ركبوا موج ثورة ١٩١٩ لم يلبثوا أن تنكروا لتلك المفاهيم واختفت تلك الثروة التي نماها الأزهر والحزب الوطني وماخلفه عمر مكرم وعرابي وقادة الأزهر في مواجهة استبداد محمد على والحملة الفرنسية من قبل ، وكل هذا التراث كانت من ثمرته ثورة ١٩١٩ .

ويقرر كثير من الباحثين المنصفين أن ثورة ١٩١٩ لم تكن الاستجابة الحقيقية للفكر الإسلامي الذي حمل لواء اليقظة فيما بعد الاحتلال البريطاني كما أن حركة الجيش ١٩٥٢ لم تكن الاستجابة الحقيقية للفكر الذي حمل لواء اليقظة بعد ظهور النظام الحزبي الخاضع في التبعية لليبرالية الغربية ، ذلك لأن ثورة ١٩١٩ وقعت حقيقة ولكن القوى التي سيطرت كانت قد أعدت مسبقا الطبقة التي ستتولى القيادة وهي ليست منها بل هي المعارضة لها تماما وذات الولاء لمن قامت الثورة في سبيل التخلص منهم ، ذلك أن الاستعمار كان قد أكد على القاعدة الأساسية لعمله وهي تقديم البديل ضد القضاء على الأصيل أما الأصيل فهو محمد فريد وجماعة الحزب الوطني أما البديل فهو سعد زغلول .

وقد استطاع النفوذ الأجنبي في خلال سنوات حكم الأحزاب بعد ثورة ١٩١٩ وصراع الأحزاب على الحكم ، استطاع وأد هـــذه المشاعر الوطنية الإسلامية ، وحلت محلها مشاعر السياسة الحزبية بصراعها وتمزق المجتمع الإسلامي تحت ضربات حجب الشريعة الإسلامية وإقامة القانون الوضعي وفتح الطريق أمام إفساد المجتمع تحت ضربات القصص الجنسي ومفاهيم التحلل والترف والفساد الذي غرق فيه أولئك الذين اختارهم الاستعمار ليكونوا ركائز له في الأقاليم من أصحاب الأملاك والأطيان بعد تقسيم أراضي الدائرة السنية عليهم.

عندئذ كانت الدعوة الإسلامية قد كشفت هذه المخاطر وحذرت من هذه الأخطار التي ينجرف إليها المجتمع الإسلامي بعد أن فقد هويته باحتجاب تطبيقات الإسلام في السياسة والاقتصاد والقانون التعليم حيث تفشت في ظل

القانون الوضعي بمختلف عناصر الفساد الاجتماعي من ربا وزنا وخمر وتمزق اجتماعي يهدم الأسر ويحطم كيان الأمة ، ولقد مضت الدعوة الإسلامية تعمل عشرون عاما حتى بلغ صوتها كل قرية وصقع، وأحس الشعب فى جماهيره المؤمنة أنه لابد لها من العودة إلى هذا الطريق الصحيح بعد أن غذت القافلة السير فى التيه ، وأنه لابد من عودة إلى الأصالة ، حتى يبدأ عصر جديد ينتهى به النفوذ الأجنبي وتمتلك الأمة إرادتها فتتجه إلى بناء المجتمع الربانى والعودة بالمجتمع إلى نظام تربوى إسلامى أصيل ، وعودة إلى ضوء الشريعة الإسلامية فى الاقتصاد والاجتماع غير أن مخططات الغزو الأجنبي كانت ترتب لتحول أخطر فى هــذا المجتمع تعمق فيه عمليات التغريب وتصل إلى النخاع بغية استئصال جذور الأصالة الإسلامية ومن ثم وقع ذلك الوضع الذى حدث بعد نهاية الحرب العالمية الثانية كان الغرب يعرف أن الثمرة أصبحت دانية القطاف ، وكان هناك إحساس شامل بأن إرادة الأمة كلها تتجمع حول « العودة إلى المنابع » .

ولـكن النفوذ الغربي كان يخطط لتطويق هذا التيار لصالح أمرين خطرين : —

أولهما : سيطرة الصهيونية العالمية على فلسطين وإقامة رأس جسر طامح للاستعمار الاستيطانى واحتواء اقتصاد المنطقة تحت اسم إسرائيل من النيل إلى الفرات بدعوى زائفة عن أرض الميعاد .

ثانيهما : وراثة النفوذ الأمريكى للنفوذ البريطانى والفرنسى فى المنطقة ووضع مخطط لاحتواء البلاد العربية ، على نحو يطوقها فى تبعية خطيرة ثقافية واقتصادية أشد عنفا من الاستعمار العسكرى والسياسى القديم .

وكان أكبر الأهداف هو القضاء على تلك القوة الراشدة التى تـكونت فى أحضان هذا المجتمع وتحطيمها حتى لاتـكون لها القدرة على تحقيق هدفها وإقامة المجتمع الإسلامى .

وكانت الدعوة الإسلامية تهدف إلى القضاء على النفوذ الأجنبي أساسا

وتصفية الوجود الصهيونى فى فلسطين عن طريق الجهاد المقدس ، وبناء مجتمع إسلامى أصيل يقوم على أساس منهج الله ، ومن ثم فإن القوة الجديدة كانت حريصة على أن تفرغ الأمة من هذه الوجهة وتصفيها تماما وذلك بتقديم بديل براق سريع له دوى كالطبل ، ليشغل به جماهير الشعب ، وتحول به مشاعر الأمة إلى الداخل بدلا من أن يتطلع إلى مواجهة القوة الصهيونية النامية والطامعة فى السيطرة على فلسطين والزحف إلى ما بين النيل والفرات .

وقد رأت القوى الأجنبية والصهيونية طلائع هذا الزحف فى حرب فلسطين وكيف كانت على طريقة الجهاد التى رسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف هزت هذه الصورة القوى الأجنبية فعملت بكل ما فى وسعها على وئدها وتدميرها .

وكانت المحاولة ترمى إلى التحول من النظرة القائمة على الوحدة الإسلامية إلى الاقليمية داخل الأوطان تحت أسماء الإصلاح الزراعى والعدل الاجتماعى ، وتأميم الشركات والبنوك ، مع دعوى عريضة بالقومية العربية مفرغه من كل هدف حقيقى ، وصيحات ضد الصهيونية لاتحمل معنى الوجهة الحقيقية ، وكان الهدف هو القضاء على « القوة الإسلامية الشعبية » الجديدة التى تشكلت والتى فاقت أصالة وإيمانا وفداء القوى التى تشكلت أزاء الحملة الفرنسية وأزاء ثورة عرابى وأزاء ثورة ١٩١٩ والتى وأدها الاستعمار أولا بأول بأيدى داخلية لها طابع وطنى .

كانت هذه القوة تتمثل منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم وتود أن تعيد هذه الصفحه الباهرة فى حطين وعين جالوت .

ولكن المحاولات الواسعة التى قامت بها القوى الداخلية للقضاء على هذا المفهوم الإسلامى الأصيل الذى يحمل لواء الدعوة إلى إعادة تطبيق الشريعة الإسلامية وعودة المجتمع الإسلامى إلى الأصالة وإلى مفاهيم الإسلام فى الاقتصاد والاجتماع والسياسة والتربية لم تمت وإن كان قد قضى على الاطار الذى إقامته الدعوة الإسلامية بالتنكيل والسجن والتشريد ، فإن الفكرة الإسلامية التى ملأت القلوب وغمرت النفوس لم تمت ، وإن اختفت تحت ظلال حملات

الاضطهاد ولذلك فإنها سرعان ما تبدت فى قوة أبان إعداد الدستـور الدائم للجمهورية ١٩٧١ فإن مشاعر الشعب قد توالت فى قوة وإصرار لتعلن عن إيمانها بأن تصبح الشريعة الإسلامية مصدراً أساسيا للقانون وهى قوة فى حد ذاتها مؤمنة بالله ذات عقيدة ، لاتتطلع إلى عدوان أو تطرف أو ترغب فى شىء من العنف ، وإنما ترى فى صدق وإصرار أن طريقها الوحيد هو الطريق الدستورى الصحيح ، بأن يتنامى عدد المؤيدين بما يحقق لهم الوصول إلى أن يكشفوا عن ضمير الأمة وروحها الأصيل وإذا كان سعد زغلول قد صنع فكرة التغريب ومبدأ التبعية ، بما أدى إلى التحول عن المنهج الإسلامى فإن عبد الناصر هو الذى وسع دائرة التغريب وعمقها وكان فى خطته قضاء على القاعدة التى أقامتها الأمة للأصالة والتى نمتها حركة اليقظة الإسلامية خلال أربعين عاما كاملة ، ومن هنا كانت قسوته على الدعاة إلى الله ، وقسوته على مواجهة كل مايقع تحت قاعدة الدعوة الإسلامية من مساجد وصحف ومناهج وكتابات ، وكان تسليط مختلف القوى الشعوبية والماركسية والعلمانية وتسليحها بكل ما تملك من قوى لضرب معاقل الفكر الإسلامى ، وكان للمسرح دور كبير فى هـذا العمل ، فقد تسلط الماركسيون على الأعلام بمختلف فروعه وسيطروا على الصحافة والمدرسة والجامعة والثقافة ونفثوا فيها جميعا سمومهم ، وكان للمسرح دور كبير فى هذا العمل ، فقد كان الماركسيون يرون أن المسرح هو كنيسة الشيوعية وبديل المسجد .

ولقد خطا الطغاة بالتغريب خطوات واسعة فى اتجاه إخراج مصر من الأصولية الإسلامية التى عاشتها أربعة عشر قرنا عن طريق ما أطلق عليه التحول الاشتراكى والنظام الطليعى ومناهج المعهد الاشتراكى وبيعت مصر مرتين ، مرة للنفوذ الغربى ومرة للنفوذ الماركسى فى سبيل الاحتفاظ بالبقاء فى سدة الحكم .

وبه كسب النفوذ الأجنبى أرضا جديدة وكسبت إسرائيل صموداً فى وجه القوى الإسلامية العربية التى كان تستطيع أن تزيلها إذ ذاك ،

فقد استطاعت خلال هذه الفترة أن تتقوى وتتكون وتبنى نفسها ، حتى استطاعت أن تضرب ضربتها فى نكسة ١٩٦٧ فتستولى على القدس وسيناء والجولان والضفة الغربية ، وخسرت مصر ذلك الجيل من الشباب الذى خدعته دعايات القومية العربية والاشتراكية وتلك التهاويل من الدعوة إلى العدل الاجتماعى والرفاهية فى نفس الوقت الذى استدانت مصر حتى أعلن إفلاسها ، وأبان هذه المرحلة نشأ جيل جديد تائه لا يعرف له هوية ولا هدفا ، لم تتح له فرصة التربية الإسلامية فى البيت ولا فى المدرسة ، جيل أطلق على نفسه أنه جيل بلا أساتذة ، وهو جيل بلا ورقة ميلاد فقد نشأ على أنقاض الافطاعيين والارستقراطيين ، هـــذا الجيل هو جيل الطبقة الوسطى من العمال والصناع والزراع الذين واتتهم فرصة العصر للاندفاع نحو العمل فى الحياة دون معرفة للحلال والحرام ، وإنما للوصول إلى مطامح الحياة عن أقصر طريق ، طريق النفاق والرشوة والوصولية ، دون أن يكون لهم وازع من خلق أو دين أو عرض يمنعهم من الاندفاع نحو الحرام أو الشر ، فكان هذا الجيل مفرغا من الدين ، فلا وازع يردعه ولا قاعدة إسلامية عامة توجهه ، بعد أن انطوى العمل الإسلامى وأصبح الناس يخافون الذهاب إلى المساجد أو الحديث عن الإسلام حتى فى أصغر أمور الصلاة والصوم ، خوفا بأن يتهموا أنهم من جماعة الدعوة الإسلامية ، من هذا الجيل نشأت الفتاة التى قالت يجب أن نجرب قبل أن تتزوج والتى قالت أين الله ، وهذا العدد من الشباب الاباحى الذى أفسد ، واللاتى سافرن للعمل بالدعارة فى بلاد بعيدة ، الخ .

فى خلال هـذه المرحلة اتسعت الفرصة أمام الشعوبيين والعلمانيين والشيوعيين والاشتراكين لتقديم عشرات من المفاهيم المسمومة ، وقد امتلكوا جميع وسائل الدعوة والكتابة والصحافة والتأليف والمسرح والإذاعة والتلفزيون واعتبروا عبد الناصر أبيهم الروحى وما زالوا يشيدون به لأنه هو الذى فتح لهم هذا الطريق الذى مازالوا يتصدرون به مكانا فى الصحف الواسعة الانيشار ويصدرون الكثيرمنهم إلى صحف البلاد العربية ويكسبون من وراء ذلك المال حتى يتملكون الشقق الفاخرة فى لندن وباريس والأرصدة الضخمة فى بنوك سويسرا ، من أموال البترول فقد كانوا يقصدون

إلى أبو ظبي أو قطر أو دبي فيجدون ترحيبا وهم الماركسيون التقدميون فيكسبون من أموال جماعات النفط وقد أمكنهم بالبث الدائم المتصل لكل ما من شأنه أن يقضى على مفاهيم الإسلام تاريخا ودعوة ولغة ، والايغال فى تحطيم كل مقومات الخلق والإيمان والروح والقيم ، إلى عوامل الاباحة والعرى والكشف والانحلال تحت اسم حرية الفكر ونشأت على أقلامهم مفاهيم مضللة ترمى إلى تصوير الإسلام بأنه ليس إلا قضية الفقراء والحريات على النحو الذى يكتبه من سموا أنفسهم اليسار الإسلامى.

(٢)

هذه الأمة المسلمة : منذ اليوم الأول كانت تتطلع إلى منهج الله . وقد أحست بفشل التنظيمات الغربية الوافدة ونفضت يدها من الأحزاب السياسية الفاشلة ، ولكن ماحدث كان معاكسا تماما لتطلعاتها فقد كان النفوذ الأجنبي بعد الحرب العالمية الثانية خطة واسعة لاحتواء عالم الإسلام والعرب على أساس خطوط عامة :

أولا : زرع نفوذ إسرائيل فى قلب البلاد العربية وقطع صلة المسلمين فى اسيا بالمسلمين فى إفريقيا بجسم غريب فى موضع بيت المقدس ، وفى نفس المكان الذى قامت فيه المملكة الصليبية خلال أكثر من مائتى عام قبل ثمانمائة عام .

ثانياً : قيام أنظمة عسكرية عن طريق إحداث انقلابات فى البلاد العربية تكون لها تبعيتها وولائها وامتدادها للمخططات التغريبية فى نظام الحكم ومفاهيم التقدم والتحديث منفصلة ومتباعدة عن روح هذه الأمة .

ومن ثم كانت التجربة الغربية التالية لتجربة الأحزاب السياسية خلال ما بين الحربين أشد خطورة وعنفا فقد فتحت الباب واسعا أمام :

أولا : السيطرة الفكرية الموجهة عن طريق الحزب الواحد ونفوذ الحكم المستبد

ثانياً : فتح الباب أمام الفكر الماركسى لمزاحمة الفكر الغربى الليبرالى وذلك لتوسيع الشقة أمام الفكر الإسلامى الذى كان يخوض معارك واسعة مع الفكرين الغربى والماركسى فى عشرات من القضايا .

ولقد كانت التجربة : تجربة الحكم العسكرى جديرة بالمراجعة والدرس للتعرف على مدى الأخطار والتحديات التى واجهت بها حركة اليقظة الإسلامية وضربها وإيقاف نفوذها والتى كانت بعيدة المدى .

فقد كانت من وراء هذه التجربة قوى ترمى فى هدفها الحقيقى إلى القضاء على المد الإسلامى وتحويل وجهة نظر الدعوة الإسلامية من العمل لتحرير فلسطين إلى عمل داخلى محدود كالإصلاح الزراعى وكان اداتها فى العمل الخارجى أطروحة القومية على مفهوم الغرب مفرغة من الوحدة الإسلامية ومن قيم الإسلام نفسه فى خلال حكم الفرد: (١٩٥٢ — ١٩٧٠) حيث طرحت دعوات عديدة عالية النبرة لتطفى على الدعوة الصحيحة وعلى الأصالة التى كانت تملأ القلوب والنفوس. طرحت الدعوة القومية ، الدعوة الاشتراكية وقد فشلت الحركتان المتتابعتان وتبين أن الجسم الإسلامى العربى لا يقبل العنصر الغريب ، وكان موقفه منهما هو نفس موقفه من النظام الليبرالى الغربى (١٨٨٢ — ١٩٥٢) وهو الرفض الكامل حيث لم يكن أحد هذه الأنظمة مستجيبا لأشواق النفس العربية الإسلامية ، لم تكن مصر ترضى لسياسة الأمر الواقع ولكنها كانت تتطلع إلى أفق قريب من ذاتيتها وروحها وعقيدتها ، وكانت ترفض باستمرار تلك الدعوة التغريبية إلى تقنين الواقع الكسيح وتقبله والدعوة إلى اعتناقه على النحو الذى كان يقدمه محمد حسنين هيكل ومصطفى أمين ومحمد التابعى. كان فرض الواقع المتقبل للنفوذ الأجنبى بمصطلحاته وأساليبه غريب على الذاتية العربية الاسلامية مهما بدا أنها تقبله .

لقد أعطيت التجربة المريرة صورة ضخمة مجسمة بالدعاية والاعلام والبث اليومى الكاذب المضلل كأنما زيدت إلى مائة ضعف بالكذب والخداع والوهم ثم انتهت إلى لاشىء ، إلى هزيمة كاسحة ، وإلى إحتلال أكثر من ثلاثة أرباع مصر وهى صحراء سينا ، وانتهت إلى خراب اقتصادى ، وإلى تبعية خطيرة ، وتحطمت قلوب الشباب التى تابعت وتطلعت خلال سبعة عشر عاما إلى هذا الطغيان الخطير الذى قدم رموزا وإيماءات كاذبة عن الوطنية والقومية والاشتراكية والتقريب بين الطبقات وعن مثاليات ودعاوى كاذبة لم يتحقق منها شىء ولما خر الشبح صريعا تبين أن ماهنالك ليس إلا خراب شديد الظلمة ومناورة ضخمة لتحويل تيار الأمة إلى سراب خادع وقضاء على كل قيمها ، ومن ثم جاءت المرحلة التالية أشد خطورة فقد تكشفت فيها زقوف حكم الفرد ولكنها ما كادت تكتمل عقدا من حياتها حتى تبين أنها تحت اسم الانفتاح قد دخلت فى تيارات شديدة الخطورة من الاستهلاك والديون والفساد والانحراف كانت التبعية للشيوعية

الماركسية خدعة كبرى لم تنكشف إلا بعد أن انتهت ثم جاءت الجولة التالية فى التمهيد للصهيونية والارتماء فى أحضان الغرب .

(٣)

قامت فى ظل هذا النظام الاستبدادى (٥٢-٧٠) محاولة قاسية للقضاء على ذلك التيار الاسلامى الذى غير الاعراف والمفاهيم والقيم ، وحاول إعادة البلاد إلى صورتها الصحيحة وإلى إصالتها قبل مائة عام من الاحتلال وكان هذا التيار قد استطاع وضع الأمة على الطريق الصحيح بالقضاء فى عشرين عاما على جهد بذله النفوذ الاستعمارى خلال قرن كامل لتحويل هذه الأمة عن مفهومها الصحيح إلى مفهوم علمانى مادى قائم على تلقين الاسلام على أنه دين عبادة وصلاة ، ولذلك فقد كانت قسوة هذه الحركة بالغة فى تعذيب رجال هذه الدعوة والتنكيل بهم وإبادتهم ليكونوا عبره لغيرهم ، وليتوقف هذا التيار الدافق ، ولتقوم المنظمات التغريبية فى مختلف مجالاتها فى الجامعة والمدرسة والصحافة والمسرح والاذاعة والتلفزيون بتحويل الناس مرة أخرى إلى التغريب وتحبيب فتن الجنس والرشوة والفساد الخلقى والنهب والاعجاب بالغربى وحب الحضارة المتبذلة مرة أخرى ،هذا هو تفسير قسوة الطغاة فى التنكيل بدعاة الاسلام وبذلك الحرص المستمر خلال ثلاثين عاما على ألا يرتفع هذا الصوت مرة أخرى ولا يأخذ مكانه ، فلما جاءت موجة الجماعات الاسلامية وصلى مائة ألف فى ميدان عابدين هبت القوى التغريبية فى العالم كله لتدافع عن وجودها ولتقضى على هذا التيار مرة أخرى ، ليس فى مصر وحدها ولكن فى أماكن كثيرة من العالم الإسلامى .

الفصل الثانى

تغريب مصر

بدأت حركة تغريب مصر منذ الحملة الفرنسية وخلال حكم محمد على عن طريق اختيارى فلما جاءت مرحلة الاحتلال خلال (١٨٨٢ — ١٩٥٢) سبعين عاماً تحولت حركة تغريب مصر إلى طريق قسرى ، فقد فرض النفوذ الأجنبى سيطرته فى مجالات ثلاث (القانون — الاقتصاد — التعليم) غير أنه فى مرحلة حركة الجيش بدا كأن خطوات التغريب قد اتسعت فقد كانت الحركة الوطنية التى تقاوم النفوذ الأجنبى تقاوم أيضاً سيطرته فى هذه المجالات ، غير أن الموقف بعد حركة الجيش تغير ففى إطار السيطرة العسكرية النافذة لم يكن فى الاستطاعة مواجهة محاولات التغريب على أنها مضادة للإصالة أو الوطنية .

يقول الدكتور جلال أمين : مع ما أعلنته حركة يوليو منه أنها قامت لتحرر مصر من الاستعمار وقيادة كفاح الأمة العربية من أجل استقلالها بما يحمل معنى السيادة الوطنية وسيطرة الأمة على مقدراتها ، بل كل ما حققق من نجاح فى بعض المجالات لم تستطع قادة الحركة ومنظروها أن يتخلصوا من المفهوم الغربى للنهضة ، بل الأصح أن يقول أنهم تبنوا هذا المفهوم تبنيا يكاد يكون حرفياً ولم يطرح أى منهم تصوراً لما يريدون لمصر وللعرب يختلف فى أى جانب أساسى عن النموذج الغربى . وبقيت الدعوة إلى الاستقلال محصورة فى الميدانين السياسى والاقتصادى وحدهما ولم تتسع لتشمل محاولة تقديم مفهوم مستقل للنهضة بل على العكس تماما من ذلك فقد أصاب هذه المحاولة الانتكاس على يد حركة يوليو . .

« قبل ١٩٥٣ كان دعاة الإصلاح فى مصر يفهمون الإصلاح مفهوما واسعا يشمل مختلف نواحى الحياة الاجتماعية والثقافية والخلقية وكانت قصة موقفنا

من التغريب أبعد ما يكون عن الحسم وكان الخلاف مازال محتدما بين أنصار تبنى النموذج الغربي وأيضا العوده إلى الأصول والتمسك بالتراث مع أو بدون تطويره لملاءمة متطلبات العصر ، فجاءت الثورة فحسمت الأمر لصالح التغريب ، إذا لم تذهب إلى المدى الذى بلغته ثورة أتاتورك كما أنها لم تحسم الأمر على المستوى الفكرى ولكنها حسمته على المستوى العلمى بإلقاء كل ثقلها إلى التغريب واتخذت كل مافى وسعها اتخاذه من اجراءات لترجيح كفته لم يكن عبد الناصر مهما بلغت درجة طموحه طموحا لدرجة أن يتصور أن العرب يمكن أن يقدموا للانسانية نموذجا مختلفا للنهضة ، كان هدفه المساواة مع الغرب وليس التميز عنه ، فمع اهتمامه ببناء المدارس ونشر التعليم لم يثر فى ذهنه تساؤلات كثيرة عن مضمون التعليم الذى يتلقاه التلاميذ فى المدارس لا من حيث كفاءته ولكن من حيث صلته بالتراث والتقاليد ونوع القيم التى يغرسها فى أذهانهم . كان من المهم تخريج عدد كبير من المهندسين ولكن لم يكن من المهم لديه طراز المعمار ومدى اتفاقه مع تقاليد المعمار الإسلامى أو ظروف البيئة أو عادات الناس وفى محو الأمية لم يكن من المهم المحافظة على قواعد اللغة العربية من خطر الاهمال أو الابتذال وفى تمصير المدارس الأجنبية لم يكن من المهم بعد ذلك النهوض بمستوى تدريس اللغة العربية أو الدين أو التراث العربى — المطلوب التنمية وليس الابداع ، المطلوب التخلص من السيطرة وليس محاولة إعادة اكتشاف الذات .

وأوضح مثل لذلك مافعله عبد الناصر بمؤسسة الأزهر ، كان الأزهر يحمل دائما ومازال إمكانيات كبيرة لابتداع نمط من التعلم يختلف جذريا عن النمط الغربى ، ليس فقط من حيث طريقة التعلم ولكن من حيث المضمون ومدى اتصاله بالتراث ، ولكن الحكومة اعتبرت أن أقصى ما يمكن أن يصل إليه تطوير الأزهر وتحديثه هو أن يتحول إلى جامعة رابعة أو جامعة خامسة تدرس الطب والزراعة والاقتصاد ، وأن يكون على رأس كل كلية جامعية عميد يحمل الدكتوراة من جامعة غربية وإن تضاف اللغات الأجنبية إلى المقررات التقليدية من الشريعة وأصول الدين وقواعد اللغة العربية ، وبدلا من أن تخرج

أشخاصا يعتزون بدينهم ويحاولون تفسيره فى ضوء حاجات العصر ، أصبح يخرج أشخاصا أو يضم تلاميذ يعانون من عقده النقص لعدم استطاعتهم المواءمة بين علوم دينية لم تتطور وعلوم عصريه لا صلة لها بالدين ومنها ما يناقضه .

والظاهرة التى تبدو غريبة لأول وهلة . وهى أن الاستقراطية المصريه فيما قبل ١٩٥٢ كانت طبقة ممعنة فى استغرابها وتنقل من الغرب أدق تفاصيل حياته ، فإنها كانت أيضا فى بعض الميادين أحرص على التمسك بالتقاليد من الطبقات الحديثة ، التى فتحت لها حركة ١٩٥٢ الأبواب على مصراعيها ، فهى بسبب اتصالها الوثيق نفسه بالغرب كانت تعى أكثر من غيرها بعض حماقات النمط الغربى فى الحياة ومخافاته كما أنها بحكم ثقتها بنفسها المستمدة من الثراء نفسه تدرك أكثر من غيرها أن التمسك بالتقاليد لا يعنى فى كل حال من الاحوال تخلفا أو بدائية . يصر حديثو العهد أن يحيوا حفلات الأفراح فى الهلتون أو الشيرتون على أنغام الموسيقى الراقصة الغربية ، وكان الوزير المصرى قبل ذلك تخجل من أن يلقى خطابا بلغة عربية ركيكة بينما تجد المسئول المصرى على شاشة التلفزيون اليوم يلقى بالكلمة الانجليزية وسط حديثه ثم يتظاهر بصعوبة العثور على بديل لها بالعربية .

لم يكن هجوم عبد الناصر العنيف على الغرب منبعه كراهيته لنمط الحياة الغربى ، وإنما كان منبعه مجرد كراهية للسيطرة الغربية ومن ثم نلاحظ أنه كلما وجد أنه حقق بعض التقدم فى التحرر من هذه السيطرة راح يقلد النموذج الغربى بحذافيره ، وبقدر ما تسمح به ظروف المجتمع .

مفهوم عن الناصر للاشتراكية هو نفسه المفهوم الغربى لها : مزيدا من الاستهلاك بل على وجه التحديد مزيداً من استهلاك ذلك النوع من السلع والخدمات التى ينتجها الغرب .

وكان المعلقون يدركون أن وراء هذه المداوة للغرب يكمن إعجاب خفى من جانبه لنمط الحياة الغربية . وقد فطن بعضهم إلى المغزى البعيد لما فعله

عبد الناصر «الأزهر كما صفقوا له وأيدوه فى ضربتـــه العنيفة للحركات الإسلامية .

على أن هذا الاتجاه نحو المزيد من التغريب الذى سار فيه نظام عبد الناصر قد ازداد حدة وشذوذاً فى السبعينات ، فإذا كان عبد الناصر قد حمل إعجابا دفينا بالنموذج الغربى لم تسمح له معاركه السياسية بالتعبير الصريح عن ذلك ، فإن أنور السادات لم يجعل أمره سراً فخطاب السادات وتصريحاته بل وسلوكه اليومى لايترك أى مجال للشك فيما كان يكنه من إعجاب بالتكنولوجيا الغربية ونمط الحياة الغربى وخاصة الأمريكى .

وأسوأ ما يتسم به تغريب السبعينات بالمقارنة بما قبله هو أنه كان تغريبا استهلاكيا بينما كان فى السابق يحمل بعض سمات التغريب الإنتاجى .

بل أن اتجاه السبعينات إلى التصالح مع إسرائيل على أنه فى الأساس خطوة هامة فى هذا الاتجاه نحو التغريب . فإسرائيل هى أبنة الغرب وربيبته والتصالح معها هو فى جوهره تصالح مع الغرب والاعتراف بتفوق ما سمى بالتكنولوجيا الإسرائيلية هو فى الأساس تأكيد جديد للاعتراف بتفوق الغرب ، وتردد القول فى السبعينات بتحضر الإسرائيلين وتخلف العرب وهو تأكيد جديد على ضرورة تقليد الغرب وضرورة الاتباع ولا شك أن الاتجاه نحو المزيد من التغريب فى عهد عبد الناصر وضربته العنيفة للحركات الدينية لابد أن يتحمل بعض المسئولية فى نمو هذه الحركات المتزايدة بعد إطلاق صراحها فى السبعينات ولكن التمادى فى التغريب فى السبعينات لا بد أن يتحمل أكبر قدر من المسئولية فى شدة وتطرف ، ففى الوقت الذى كان فيه الشعور الدينى يزداد قوة بفعل عوامل متعددة اصطدم هذا الشعور بما يراه من تسارع الاتجاه نحو التغريب الذى يؤذى الشعور الدينى ويتحداه .

لب الموضوع : أن حركة التغريب فى مصر قديمة ومتصلة الحلقات منذ الحملة الفرنسية وليس ماقعلته حركة يوليو فى هذا الصدد أكثر من إضافة حلقة جديدة إلى سلسلة طويلة .

فتغريب المجتمع المصرى فى القرن الثامن عشر كان متواضعا للغاية ، فلما جاءت الحملة الفرنسية وتجربة محمد على ثم التصنيع فى بواكير الثورة الصناعية الأوربية هبت رياح التغريب على مصر ثم ازدادت حدة فى عصر إسماعيل الذى اتسم من ناحية بارتفاع معدل النمو الاقتصادى والاجتماعى فى مصر ، وواكب من ناحية أخرى بزوغ عصر الاستعمار الجديد .

(الأهرام الاقتصادى ١٩٨٢/٤/١٢)

٢ — هذا عن التغريب فماذا عن التجربة الاشتراكية :

كتب الأستاذ أحمد حسين مؤسس مصر الفتاة وداعية الاشتراكية فى مصر ١٩٤٦ كتب عام ١٩٧٧ فقال : تتلخص التجربة فى أن مصر التى كانت أغنى شعوب الدنيا وقد جاءت شعوب المنطقة تلتمس القمح من مصر ، ولا عجب فى هذا فقد اختص الله مصر بنهر النيل ، مصر أصبحت اليوم أفقر دول المنطقة بلا استثناء ، وبعد أن كانت مئات وألوف من كل الشعوب العربية والأوربية تهاجر إلى مصر فى التماس لا أقول الرزق بل الغنى ، أصبح الأمر على عكس ذلك تماما فراح يهاجر من مصر من يقدر على الهجرة ، يبقى السؤال : ما الذى جعل مصر وهى أغنى دول المنطقة قد تحولت إلى أفقرها .

أول ما يقال هو ما أسموه (الانفجار السكانى) وهى صيحة ارتفعت فى فى البلاد الغنية لفزعها من توقفها على النمو السكانى تقريبا فى الوقت الذى تزيد فيه سكان العالم الثالث ، وحكاية تزايد السكان هذه قد فصل فيها الزمن والتجربة ، فلما تكاثر عدد السكان فى منطقة من المناطق تزايد إنتاجها وارتفع مستواها ، والشعوب تنزوى وتنحل عندما يقل عددها وتقوى وتزدهر كلما تضاعف سكانها ، أن كثرة سكان مصر ليست سبب فقرها ، لم يبق إذن من تغير حدث فى مصر هو فى رأيى السبب فيما تعانى منه مصر إلا حكاية الاشتراكية التى كنت أول داع لها — قد بات من واجب واجباتى أن أحذر العالم العربى الإسلامى منها على ضوء تجربتنا فى مصر وتجربة الدنيا كلها ، والسبب جد مفهوم وواضح فقد خلق الإنسان ليكدح فى الحياة وينتج ويعول أسرته

وكل من يستطيع أن يعوله بقدرته ، وجاءت الاشتراكية فألغت الحوافز الروحية وزعمت أن كل حديث عن الرحمة والشفقة وكل حديث عن الإحسان ابتغاء مرضاة الله ولينال الإنسان الجزاء عليه فى الآخرة ، زعمت الاشتراكية العلمية أن ذلك كله أفيون الشعوب وأنه يقال لتضليل الناس واستغلال الضعفاء ، أما بالنسبة للحافز المادى فقد ازهقوه كذلك رفعوا المسئولية عن عاتق الأفراد ليلقوها على كاهل الدولة ، فالدولة هى المسئولة أن تعلم وتخطط وتوفر العمل والطعام وتستصلح الأرض وتنشىء المصانع وتبنى المساكن ، وماعلى الناس إلا يضعوا أنفسهم رهن إشارتها .

وكانت النتيجة : هذا الذى انتهت إليه مصر فمن دولة مصدرة للقمح منذ سبعة آلاف سنة إلى دولة تستورد القمح ، ومن أشهر دولة فى العصر الحديث فى تصدير القطن إلى دولة أصبحوا يتحدثون أنه من الخير لها أن تستورد قطنا من نوع ما ، والبلد الذى كان يصدر سكرا أصبح يستورد سكرا بل يستورد ذرة ، هذا ما انتهت إليه مصر فى ظل الاشتراكية ، ليس فقط بل الاتحاد السوفيتى الذى أصبح يستورد القمح من الدول الرأسماليه ولكى تخرج الدول الاشتراكية من أخطبوط هذا النظام نادوا بما أسموه سياسية الانفتاح والتى تعنى فى الدرجة الأولى دعوة رءوس الأموال الأجنبية للعمل فى البلاد الاشتراكية ، وليس وراء ذلك إعلان عن إفلاس الاشتراكية وأنها كانت خرافة توهمها الناس فى فتره ما ، ثم اتضحت حقيقتها وهى لاتعدو أن تكون سرابا .

إذا صح ماتزعمه الاشتراكية من أنها تهدف إلى تحقيق العدالة الاجتماعية فقد أثبتت التجربة أنها ضاعفت تعاسة البشر عندما نزعت من قلوبهم الإيمان حيث وصل الإسلام فى التطبيق إلى عدالة اجتماعية تكاد توصف إذا ذكرت اليوم إنها خرافة ، وذلك قول رسول الله صلى الله عليه (وسلم ليس منا من بات شبعان وجاره جائع) .

الحقيقة أن القومية أو الاشتراكية التى دعا إليها عبد الناصر لم تكن

فى سبيل تحقيق هدف الارتفاع بمصر إلى مكانة عالمية أو تصحيح مسارها وإنما كان فى سبيل الزعامة الفردية ، أما مسألة فلسطين فكان الموقف فيها قد تحدد من قبل أن تبدأ هذه الزعامة عملها .

قال اللواء محمد نجيب : لقد دمر عبد الناصر اقتصاد مصر مرتين : الأولى حين أرسل الجيش لحرب اليمن والجندى المصرى لا يعرف من يقاتل وكيف يقاتل والثانية حينما ورط الجيش فى حرب ١٩٦٧ بناء على معلومات وهمية من قادة عسكريين جاءوا بها من صالات الملاهى إلى ميدان المعركة .

لقد تابع العهد ممارسته جهود التغريب السابقة وحقق آمالها ، حقق ماطالب به طه حسين فى أمر تفريغ الأزهر من روحه الإسلامية ، حقق ماطالب به دعاه التغريب فى مجال التعليم من عزله من الدين والخلق حقق ماطالب به الشيوعيون فى المسرح من جعله بديلا لمنازل الوحى ، حقق ما طالب به التغريبيون فى ترجمة ركام الزيف من الفكر الغربى .

ولقد صدق المؤرخون الذين أحصوا على هذا العهد أنه : —

(١) ضرب الدعوة إلى الإسلام (٢) ألغى القضاء الشرعى

(٣) مزق أوقاف المساجد والمعاهد الدينية ومكاتب تحفيظ القرآن بينما لم يضرب أوقاف غير المسلمين (٤) ضرب الأزهر فى مناهجه تحت زعم تطويره (٥) ضرب المساجد بحيث لا تحمل كلمة النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم .

وقد أذاع بعض ذوى الخبرة أن السوفيت حددوا ثلاث مطالب فى سبيل تمويلهم للسد العالى هى : — (١) القضاء على الأزهر (٢) القضاء على أوقاف المسلمين (٣) إلغاء القضاء الشرعى ، ولست أدرى إلى أى حد تصح هذه المقولة ومن يراجع كيف جرى تمرير قانون تطوير الأزهر يكتشف هذه الريبة ويرى كيف فوجىء الناس بإلغاء القضاء الشرعى ولا يلبث طه حسين أن يصيح مطالبا بالخطوة الثانية وهى إلغاء التعليم الدينى .

(٣) وقد صدرت فى هذه الفترة أطروحات ودراسات كشفت كيف

فشلت قوانين الإصلاح الزراعى فى تحقيق عدالة اجتماعية أو نماء زراعى ، وكان الهدف المعلن هو تصفية الاقطاع وتوسيع قاعدة الملاك الصغار ولكن الهدف المضمر لم يكن إلا القضاء على أسماء وأسر حقداً وكراهية لهذه الأسماء والأسر ، نتيجة أغراض من الحقد الطبقى فى أعماق المسيطرين ولم يستطع توزيع الأرض بين صغار الملاك أن يحقق نتائج فى زيادة المحصول ، وكان أكبر آثار الإصلاح الزراعى قيام مشكلة تفتيت الأرض . وقد ظل القطاع العام فى الزراعة محدودا لم يزد عن ١٣ ٪ وتعرض للتصفية بعد هزيمة ١٩٦٧ بل أن هناك من يرى أنه بالرغم من تصفية الطبقات الاقطاعية فإن طبقة المـــلاك الرأسماليين وأغنياء الفلاحين هى التى استفادت ودعمت مواقعها الاقتصادية وسيطرتها السياسية والاجتماعية فى القرية المصرية وتحدث كثيرون عن مخاطر التغيير من أعلى وأن تجربة الحركة من أعلى والاعتماد الأساسى على أجهزة الدولة دون مشاركة جماهيرية من أسفل كان مما عرض تلك التجارب دائما لمخاطر الانتكاس والردة .

وكانت هذه هى أكبر مغامز ماسمى (ثورة يوليو) ، إذ أن مفهوم الثورة يختلف تماما عن انقضاض جماعة الجيش على الحكم فى مصر والسيطرة عليه . يقول دكتور فاروق عبد السلام :

إن حركة ٢٣ يوليو يوم قامت لم تطلق على نفسها ولم يطلق عليها أحد من الناس اسم ثورة وكان أكثر الأسماء التصاقا بها يومها (حركة الجيش المباركة) وإنما كان تسميتها ثورة مما فرض بعد ذلك فرضا فى وقت لاحق . إن الذين يعتبرون ما وقع يوم ٢٣ يوليو فى مصر ثورة إنما يعتمدون فى وجهة نظرهم على معيار (التغيير) أى التغيير الجذرى الذى حدث فميز بين عهدين مختلفين تماما ، كل منهما عن النقيض .

إن معيار الحكم الصادق على تصنيف الحركات إلى ثورات أو انقلابات إنما يكون بالنظر إلى طبيعة الرجال الذين قاموا بالحركة وليس بالنظر إلى التغيير الذى أحدثته الحركة ، فهى إنقلاب إذا قام بها رجال من موقع سلطة كرجال القوات المسلحة ، وهى ثورة إذا قام بها الشعب الأعزل ضد السلطة — كما

حدث فى إيران — حين خرج على الشاه أبناء الشعب بالليل والنهار يحملون أرواحهم وأكفانهم بين أيديهم يتحدون حاكما وقواته المسلحة . أعطوا المسميات أسماءها : جاء يوم سميت فيه الهزيمة نكسة ، والقواعد تسهيلات والاعتقال تحفظا .

(٥) وقد تحدث كثيرون عن حركة الجيش على أنها كانت (ثورة بيضاء) ولكن المتعمق فى الأمور يجد أنها خاضت فى سبيل تثبيت وجودها دماء كثيرة منها الخفى ومنها الظاهر ، وكان أسوأ صفحاتها : صفحات التعذيب والاضطهاد لكل من اختلفت منه وكان أشد عنفها بالنسبة للجماعة الإسلامية التى كانت لها فى أول الأمر صلات وثيقة ، بل أن هذه الحركة حاولت أن تكون بديلا مغايرا للدور الذى كانت الدعوة الإسلامية تمد المجتمع الإسلامى له .

(٦) لم تكن حركة الجيش أيدلوجية محددة ، ولكنها كانت محاولات الاستجابة للواقع وقد تردت فى انحرافات وسلبيات كثيرة مثل الإجراءات الاستثنائية والتدهور الاقتصادى وهزيمة يوليو وتمزق وحدة الصف العربى والسيطرة السوفيتية والتنظيم السرى وحرب اليمن وإبعاد الكفايات ، وغيرها من الانحرافات والسلبيات .

الفصل الثالث

النكسة والسبح ضد التيار

كانت النكسة ١٩٦٧ علامة على هزيمة « السبح ضد التيار الإسلامى » الذى هو الاتجاه « الطبيعى الأصيل » لهذه الأمة ، فقد كانت الخطوات كلها خلال هذه المراحل الثلاث معارضة للاصالة ، ومضادة لطبيعة الأمة ، وكانت بمثابة محاولة خطيرة لتغيير الأعراف الأساسية واحتواء نفسية الأمة وكيانها وعقليتها والقضاء على روحها الحقيقى المنبعث من الإسلام والممتد خلال أربع عشر قرناً .

هذه المراحل الثلاث : هى (١) مرحلة الاستعمار (٢) ومرحلة الاستقلال (٣) ومرحلة حركة ٢٣ يوليو وهى ثلاث مراحل متكاملة يسلم بعضها إلى بعض، ظهر منها تضاؤل النفوذ الأجنبى فى المرحلة الثانية واختفاؤه فى الثالثه ولكن نفوذ التغريب والغزو الفكرى كان يتنامى مرحلة بعد مرحلة فيحطم كل السدود والقيود .

ولقد بزغت أضواء حركة اليقظة الإسلامية فى أشد فترات الظلام فى تاريخ الإسلام فى العصر الحديث وهى المرحلة التى أسقطت منها الخلافة الإسلامية وفرض النفوذ الأجنبى القانون الوضعى وحجبت الشريعة الإسلامية وانطلقت جحافل القوى المختلفة تجوب البلاد لتغير إعراقها ومفاهيمها عن طريق تدمير المجتمع (عن طريق إباحة الخمر والربا والزنا بواقع القانون الوضعى) وتدمير العقل الإسلامى عن طريق إنشاء الارساليات وتزييف مناهج التعلم فى المدارس الوطنية وتفريغها من الدين والأخلاق والتاريخ والإيمان بالقيم الإساسية .

وفى نفس اللحظات التى كان يغرب فيها نجم سعد زغلول أول محطم للمفهوم الإسلامى فى السياسة فى العصر الحديث وداعية العلمانية والتغريب ، بزغ ضوء

الدعوة الإسلامية لأول مرة وارتفع صوتها يحمل صيحة الأصالة والعودة إلى المنابع وتنامى مع الزمن واستطاعت المراحل التى تتابعت وخاصة المرحلة الوطنية أن تفسح الطريق للدعوة إلى التماس منهج الشريعة الإسلامية بعد أن تعالت الأصوات فى مجتمعات الغرب بإقرار صلاحيتها وعظمتها وتساؤلهم المستغرب عن عجز الأمة صاحبة الشريعة عن تطبيقها وتسولها للقوانين الوضعية المضطربة المعطوبة : وفيما تقاوم الأمة النفوذ الاستعمارى لتتحرر منه وتمتلك إرادتها — كان التاريخ يعد للأمة الإسلامية مرحلة جديدة أشد خطورة وامتحاناً أشد قسوة ، ذلك هو زحف النفوذ الصهيونى على قلب العالم الإسلامى فلسطين ، تحت دعاوى باطلة وزائفة ، باسم أرض الميعاد ، ليدخل المسلمون حلقة من أخطر حلقات تاريخهم كله ، فى نفس الوقت الذى أخذت قوى الماركسية والشيوعية تتدفق أيضاً فإذا بالعالم الإسلامى يواجه قوى ثلاث فى وقت واحد : هى النفوذ الغربى الذى كان يحاول التخفى تحت قناع اقتصادى، والنفوذ الصهيونى الذى احتل رأس جسر فى فلسطين وأعلن صحيته من النيل إلى الفرات والنفوذ الماركسى الذى خيل لبعض القادة أنه يستطيع به أن يهزم النفوذ الصهيونى ، دون أن يتنبه للحقيقة الخطيرة التى تؤكد أن الصهيونية والماركسية وجهان لعملة واحدة .

ولقد تبين من مراجعات الباحثين (للنكسة ١٩٦٧) وأبعادها أنها كانت ثمرة حقيقية للسبح ضد التيار الإسلامى ومحاولة التماس منهج آخر غيره لبناء المجتمع الإسلامى فى العصر الحديث ، وكانت المحاولة ترمى مرة إلى اتخاذ أسلوب العيش الغربى وسيلة للتقدم والنهضة ، ابتهارا بصورة الحضارة الغربية وظنا بأن الإسلام هو مصدر التأخر ومرة أخرى فى التماس المنهج الماركسى سبيلا لقيام المجتمع الإسلامى الجديد ، وقد مضت البلاد المرحلة تلو الأخرى تخوض تجربة ضخمة واسعة انتهت إلى تأكيد واضح بأن الجسم الإسلامى لا يتقبل العنصر الغريب ولا يمكن أن يستسلم للاحتواء أو الإذابة ، وإنه ليس فى حاجة إلى أسلوب عيش جديد عليه ولا إلى أيديولوجية بشرية ؛ وهو يملك أصفى المناهج وأعظم النظم التى عرفتها البشرية وطبقتها أكثر من ألف

عام ، والتى كانت مطبقة فعلا فى العالم الإسلامى قبل وصول طلائع الاحتلال الغربى الحديث وتشهد كتابات علماء فرنسا فى الموسوعة الضخمة التى كتبوها تحت عنوان (وصف مصر) إن مصر كانت تحكم بكتاب الله قبل الحملة الفرنسية وإن مجتمعها كان مجتمعاً مسلماً ملتزماً ، قائماً على الشريعة .

وهو الهدف الذى أجمعت على تحطيمه القوى الأجنبية والمستشارين الأجانب من عهد محمد على إلى عبد الناصر ، ومن كان معهم من الخبراء الفرنسين والبريطانين والأمريكين والسوفيت .

وقد تبين أن هناك محاولة ترمى إلى الحيلولة دون استئناف المسلمين حياتهم على أساس الإسلام ، وذلك بإثارة النعرات القومية وتركيز المفاهيم العلمانية والتشكيك فى العقيدة الإسلامية وتشويه التاريخ الإسلامى وإيجاد الفرقة والنحل الهدامة ، ولا ريب كان ذلك كله عملا مرتبا منسقا يهدف إلى تفكيك عروة الأمة الإسلامية أساسا إلى كيانات عنصرية متنافرة وعناصر متعدده متباعدة حتى يمكن ضربها جميعا واحتوائها ويمكن إسرائيل من البقاء والاتساع .

(٢)

وقد توالت عمليات الهدم والتدمير جيلا من جيل عن طريق تقديم مفاهيم زائفة من خلال التعليم والثقافة والصحافة ، ترمى إلى امتهان تاريخ المسلمين ودينهم وبطولاتهم وإعلاء شأن الغرب فى حضارته وإعلامه فى محاولة لإذابة القيم الأساسية التى قام عليها بناء الأمة الإسلامية والمقاييس التى قدمها لهم الإسلام فى مجال الحرب والسلم وبناء المجتمع وإنشاء الحضارة ، وكان من أخطر المحاولات إخفاء الكلمة الإسلامية وإحلال الكلمة الغربية محلها فأصبحت الحضارة عربية والوطن عربى والأدب عربى والثقافة عربية ، والتاريخ عربى ، وذلك كله يرمى إلى إزالة اسم الاسلام من مقومات الفكر الإسلامى الحديث :

فإذا جاءت الدراسة تنطلق من منطلق عربى وجدت الحواجز والسدود

فإذا هي تفتح الباب أمام المارون والأرمن والاكراد وكل فئة وطائفة ، في محاولة لتمزيق وحده الأمة ، وإذا مضينا كان علينا أن نراعي عوامل كثيرة فهناك الفرعونية في مصر والفينيقية في لبنان والبربرية في المغرب .

وهكذا نجد أن ساحة الفكر الإسلامي تتقلص وهكذا فالقومية تفرق والإسلام يجمع والحقيقة أن الثقافة والفكر والتاريخ تنطلق من العقيدة التي كونت حضارة هذه الأمة ، والإسلام هو المكون الحقيقي لفكر الأمة عربا وفرسا وتركا وهنودا جميعا انصهروا في بوتقة الإسلام ،في بوتقة لاإله إلا الله ، فصدروا عنها في هذا الفكر القائم على التوحيد والعدل والاخاء الإنساني .

وكانت تلك أولى المزالق الرامية إلى تدمير وحدة الأمة ، وتتوالى المحاولات في مجال القانون الوضعي والاقتصاد الربوي والتعليم اللاديني في محاولة لإخراج المسلمين من منهج الإسلام الذي ربوا عليه وتكونوا وعاشوا أربعة عشر قرنا حتى ينصهروا في الحضارة الغربية فتضيع ذاتيتهم وينتهي كيانهم ويعجزون عن أداء رسالتهم التي وكل الله إليهم أداءها وهي تبليغ كلمة لله للعالمين .

إن الهدف الذي سار عليه النفوذ الأجنبي هو تفريغ هذه الأمة من معطياتها وقيمها وعقائدها حتى تصبح أمة منصهرة تعتنق أسلوب الغرب وتذهب عنها ذاتيتها ، وهذه هي محاولة تلك القوى ، عهدا بعد عهد ، حتى لاتستطيع هذه الأمة امتلاك إرادتها وإقامة مجتمعها الإسلامي الأصيل واستئناف حضارتها للعطاء بعد أن توقفت هذه الفترة التي سيطر عليها النفوذ الأجنبي ومازال هذه القوى وهذه الايدلوجيات وتلك النظريات التي تبث للعقل الإسلامي وللنفس الإنسانية تعمل عملها لهدم هذا الحائط العالي الذي يحفظ للمسلمين كيانهم الاجتماعي والروحي والخلقي .

وما تزال هذه التيارات تحاول السيطرة،وهي تتخذ في كل مرة لبوسا مختلفا، تحت اسم التجديد أو التقدم أو الانفتاح أو العصرية ، في محاولة مسمومة تحول بين المسلمين وبين إعادة تطبيق شريعتهم ، أو تحديد مناهج التربية والتعليم والثقافة وإقامتها على أساس الإسلام ومنطلق الخطر في ذلك كله هو التعليم والصحافة :

[ولن ترضى عنك اليهود والنصارى حتى تتبع ملتهم]

[ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم أن استطاعوا]

[إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على اعقابكم فتنقلبوا خاسرين]

فالفكر الغربي يرمي إلى فصل الدين عن الدولة والتمويه حول القانون الوضعي في محاولة لحجب الشريعة الإسلامية. والاقتصاد الإسلامي — والماركسية ترمي إلى ضرب التوحيد والعقيدة وفرض مفهوم الالحاد تحت أسماء التقدمية والعلمانية .

والفكر الصهيوني يرمي إلى ضرب العروبة في كل مايتصل بكيانها التاريخي والثقافي وهدم مفاهيم الأخلاق وإشاعة الإباحة ولقد صنع النفوذ الأجنبي هذا التيار المناوىء للإسلام ومكن له وأعطاه القدرات الضخمة : أعطاه النفوذ والصوت المدوي .

وهكذا وجد النفوذ الغربي في هزيمة ١٩٦٧ (النكسة) إحساساً بأن عمله خلال العقود السابقة قد حقق شيئاً يمكن أن ينطلق منه إلى احتواء الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي ، ومن ثم بدأت خطط كثيرة ترسم ومؤتمرات كثيرة تعقد ، للقضاء على الأمة التي سقطت تحت سنابك الخيل .

ولكنهم كانوا غافلين عن معدن هذه الأمة التي تستطيع أن تتجاوز محنتها وتعلو فوق جراحها وتسترد قوتها وتعرف عبره الحدث الكبير : حدث النكسة بعد الهزيمة والنكبة خلال سنوات أكثر من ثلاثين عاما خدعت فيها واستسلمت للأسلوب الغربي وظنت أنه منطلقها إلى التقدم ، وخدعها دعاة التجديد بالاستسلام للتبعية وتوالت الضربات: الربا والقانون الوضعي والليبرالية من معطيات الغرب وقد عجزت جميعها عن تحقيق ماترجو أمه لها منهاجها الأمثل ومعطياتها الربانيه الأصيلة ثم جاءت موجة الشرق ممثلة في القومية والماركسية والوجودية والمادية فلم تستطع أن تحقق شيئاً وفشلت أضخم تجربة للقومية والاشتراكية فقد كانت كلها أسلحة رفعت في وجه الإسلام ولم تزد على أن فتحت الباب للشعوبية والديون والازمات وضاقت دائرة الاحتواء وكادت

أن تقهر الأمة فى بوتقة الماركسيين لولا صدمة النكسة التى استفاقت القوى عليها لتعلن صيحة (العودة إلى الله) .

لم يكن الخطر واضحا أبان الاحتلال فقد كانت القوى كلها مجندة للمقاومة ولكن بعد الاستقلال جاءت مرحلة التراخى والاستسلام ثم تضاعفت فى عصر حركة الجيش تحت اسم الحرية والعدل الاجتماعى وكان النفوذ الأجنبى يختفى وراء مؤسسات التغريب والتبشير والاستشراق ليسمم جميع الآبار : المدرسة والصحافة والثقافة وبدا كأن أتاتورك وتجربة تركيا اللادينية هى المثل الأعلى فى البلاد العربية فقد أعلن بعض القادة أنه هو المثل الأعلى لهم .

وإذا كان النفوذ الغربى والاستعمار قد استطاع بعد الحرب الأولى القضاء على الخلافة الإسلامية وتمزيق وحدة المسلمين فإنه استطاع بعد الحرب الثانية إقامة إسرائيل والقضاء على وحدة البلاد العربية ، فقد أزاح النفوذ الاستعمارى قادة اليقظة الاسلامية وقدم رجاله .

وقالت إسرائيل بعد النكسة : لقد انتقلت أزمة القيادة من عبد الحكيم عامر إلى عبد الحليم حافظ ، وكان معنى هذا أن المؤامرة استمرت فقد أعلن التقدميون أن سبب الهزيمة هو التراث والقديم والماضى وهم يقصدون بذلك الإسلام ، وماشهد الإسلام ، المعركة ولا كان مشتركا فى هذه الجولة : ولقد أعلن ابا ايبان وزير خارجية إسرائيل قال : إننا نعتمد على ثورة المثقفين العرب الواقعيين ، هؤلاء الذين تعتمد عليهم الصهيونية فى حربها النفسية ضد الأمة العربية وفى تشكيك الجيل المعاصر من أبناء هذه الأمة فى تراثه وفى حضارته وفى لغته وفى آدابه ، ونحن نقول إن هؤلاء المثقفين سيسقطون فى النهاية تحت ضربات المعاول.

إن النصر لا يبنيه الفنانون والمهرجون وإنما ينتزعه المجاهدون الذين يضعون طاقاتهم كلها تحت حكم لا إله إلا الله والله أكبر فيحققون من المعجزات مالا تبلغه الأحلام والتصورات .

لقد كان معنى النكسة الاسراع بالقضاء على مابقى من كيان الأمة بتسليط

الاباحيات فى الأفلام والمسرح عليها بحجة صرفها على الواقع المر ولكنه كان بمفهوم الماركسين والتغريبين القضاء على أخلاقيات الأمة نهائيا .

إن نكسة ١٩٦٧ هزت الوجدان المصرى من الأعماق ووضعت الإنسان أمام الحقيقة الخالصة والعارية وهى أن وجوده مهدد ، عاش هذا الجيل منذ النكبة الاولى أسير الرؤيا حالمة ، فضاعت أحلامه ، وقد كشفت النكسة أن كل هذه المطروحات التى قدمها الشيوعيون والتقدميون لا تؤدى إلى شىء ، وأنه لابد من حضارة عربية إسلاميه تقوم على العلم والحق معا ، وإن الاستعمار العالمى والصهيونية العالمية تركز على هدم الدين واللغة والأخلاق والتاريخ ، فإذا تحطمت أمكن السيطرة على هذه الأمة سيطرة كاملة .

٢ — وكان حكم الطغاه أبرز ماحطم أجنحة هذه الأمة .

يقول الدكتور حسين مؤنس : إننا لاننسى أبداً أن (رجال الحركة) أضاعوا علينا فرصة الأبد فيما كانوا يضيعون وقتنا فى هزليات ومسارح ومؤامرات وحروب أهلية بينما كانت إسرائيل تنشىء وتنشىء ، كانت تنشىء المزارع والطرق والمطارات تحت الأرض وتبنى مصانع السلاح ، وكانت تعلم شعبها النظام والقانون ونحن نحارب القانون ، ولم تصدر القوانين الاشتراكية عن حب للعمال أو الزراع وإنما عن حقد من كل من كان صاحب مال ونعمة ، ومصر انفقت قرنا ونصف قرن لكى تنشىء فى بلادها قاعدة من المثقفين والعلماء فجاء عبدالناصر ليعلن الحرب على كل مثقف وصاحب علم. والذين انشأوا المصانع وفتحوا لنا أبوابا للعلم والتقدم عوقبوا ونزعت منهم مصانعهم وأعطيت لمن يخربها ويفسدها ، وما سمى بالمكاسب الاشتراكية أصبح نتيجة للحقد وسوء النية مصائب قومية ، والعامل الذى تهلل عندما سمع إعلان القوانين الاشتراكية وظن أنه تخلص من استبداد صاحب رأس المال وجد أنه تخلص من سيد ليجد نفسه عبدا لمائة سيد .

والنتيجة هى ماترى : دين يصل إلى ٦ آلاف مليون دولار .

كانت الإشتراكية الناصرية عطاء بدون عمل ، عطاء يدفع الآخرون

ثمنه . وعبد الناصر دخل حرب اليمن وهو يقول أنه لسان الحرية ، ثم يتضح بعد ذلك أنه أرسل قواتنا إلى اليمن لكى يعاقب رؤساء تجرأوا على نقده ، هل كان فى صالح شعب مصر أن تسخر قواته وموارده فى خدمة طموح رجل واحد ، أو لخدمة عواطفه والانتقام من خصومة شخصية له فى العالم العربى.

هل كان من اللائق أن يقال أن مصر تدخلت فى اليمن لنقل الشعب اليمنى إلى الحضارة ، وهل كان شعب مصر يتمتع إذ ذاك بالحرية والعدل حتى يذهب برسالة الهيه إلى اليمن لنشر العـــدل والحرية فيه ، لقد أحس عبد الناصر وعامر أن مركزهما قد اختل فى العالم العربى بعد الانفصال عن سوريا فسعيا للدخول فى مغامرة جديدة على حسابنا وحساب قواتنا » .

ويقول الدكتور حسين مؤنس : لقد نادى عبد الناصر بالحرية فى العالم العربى ثم جعلها احتكاراً لنفسه فحسب ، وطالب بحقوق الشعوب ثم انفرد وحده بكل الحقوق ، وقال أرفع رأسك يا أخى ثم عمد إلى قطع رأس كل مواطن حاول رفع رأسه ، ورد الناس بذلك إلى عصر من الذل والخوف هو اسوأ من كل مارات مصر فى تاريخها .

وقال عبد الناصر : أن البلد فى عهده تحكمها عصابة . فقد قصر الحرية وصنع القرار على نفسه ، وجرد الأمة كلها من كل رأى ، وأخافها وافزعها واسكت صوتها وتحمل وحده كل المسئوليات فكان عليه أن يتحمل كل التبعات ولقد تحمل الشعب وحده نفقات امبراطورية عبد الناصر ، وكان بالنسبة للعرب المعلم البلدى الفبيبس الذى ينفق على أصحابه فى المقهى فى حين أن امرأته (مصر) فى البيت تضرب رأسها فى الحائط .

وعبد الناصر ما كان يتوق إلى الانتصار على إسرائيل أبدا ، ورغم هزيمته وما أعقبها لم يتخل عن استبداده أبدا ولا رفع عن المصريين قيدا من القيود التى قيدهم بها .

وإذا كانت حقيقة الامة قد غابت عن عبد الناصر فقد غابت عنه

حقيقة أخرى هى أن الحرية هى القاعدة الأساسية التى لا يستطيع شعب أن ينهض بدونها وأن الحرية قوة للحاكم قبل أن تكون قوة للشعب والحاكم مهما كانت قوته المادية والعسكرية لا يستطيع أن يصل إلى النصر إذا كان شعبه مكبلا بالأغلال . أن كل قوته لا ترجع إلى شخصيته ولكن ترجع إلى إرادة الشعب ، ولأن عبد الناصر لم يكن يؤمن بالحرية فقد عادى كل الذين يحتاجون للحرية من المواطنين لكى يعملوا أو يعلموا أو يقودوا بلادهم وهم المفكرون والقادة والعلماء والفنانون . إن الزعيم لذى يعتمد على تصفيق الشوارع يعتمد على هواء ، لأن جماهير الشوارع طيبة ساذجة ولكن لافيمه لها إلا إذا كانت على نور ، وقد درسه الأجانب وعرفوا مفاتيح شخصيته ، إذا أرادوا منه أن يفعل شيئاً طلبوا منه العكس فيفعل مايريدون .

وعندما وصل عبد الناصر إلى السلطة قرب إليه رجال من الصفوف الخافية واتجه إلى التخلص من كل شخص له شخصيته ، وما فتح الطريق أمام المستبد ليصل بالاستبداد إلى مداه إلا حاشية السوء ، وكان أبرز أعماله تصفية العائلات والتعذيب وكانت التأميمات ترمى إلى حرمان كل مصرى من أى سلطان .

(مجلة أكتوبر — ١٨٨٣)

(٢)

لقد كان من أكبر أخطاء الحكم الوطى بعد الاستقلال أنه لم يراجع ما صنعه المستعمر فى بلاده ولم يفكر من سير الاتجاه والتوجيه فيها وسلك نفس طريق الاستعمار قبله فى إخلاء الواقع الإسلامى من الإسلام ، أكد العلمانية فى عزل الدين عن الدولة ، فأبعده عن التعليم

وفى التشريع واضعفه فى معاهده ومؤسساته وألغى المحاكم الشرعية ؛ وسوى هـذا الحـكم الوطنى فى بعض المجتمعات الإسلامية بين الرجل والمرأة فى الميراث فقلد الطليان فى قيود الزواج والطلاق وأتاح الفرصة للدولة فى أن تبارك زواج المسلمة بغير المسلم بينما البعض الآخر رفع القران كلية ووضع مكانه الاشتراكية الليلينية لـكارل ماركس وماوتسى تونج ، ومن مسح الأحوال الشخصية فى الإسلام من زعماء هذه المجتمعات الإسلامية أو طرد الإسلام كلية يعلن اعتزازه بما فعل ويجحد فهمه الخاص بالإسلام أو بالإضافة إلى فلسفة العصر وهو فى حقيقة أمره أمى يرجو أن يستمر حاكما من غير أن يحاسبه الإسلام على عدم صلاحيته للحكم والولاية العامية . ولم يأت حاكم وطنى بعد الاستقلال . يراجع دستور العمل والحكم فى بلده على هوى من تعاليم الإسلام بل من يشير من الحـكام الوطنيين لو أشار إلى الإسلام فإنه يكتفى من الإسلام بأن يكون اسمياً .

* * *

الفصل الرابع

النكسة : علامة تحول حقيقى نحو الأصالة

لقد كشفت هزيمة يونيو ١٩٦٧ (النكسة) جملة حقائق لا سبيل إلى تجاوزها :

أولا : أن الخط الذى سارت فيه مصر والبلاد العربية كان مضللا ولم يحقق النتائج التى تصورها الذين ساروا فيه ودعوا إليه حين ظنوا أنه الوسيلة لإخراج العرب من الأزمة ، وتحريرهم من التخلف ، وتمكينهم من امتلاك إرادتهم ، بل أن هذه الدعاوى التى حملها دعاة التجديد والتقدم والعصرية والنهضة كانت كلها محاولات زائفة لكى يفقد المسلمون والعرب آخر ضوء يصلهم بقيمهم وعقائدهم ويخرجهم من اطار الإسلام لينصهروا فى بوتقة الحضارة الغربية ، هذا ما كان يدعو إليه طه حسين بدعوته إلى التعليم الغربى مع حجب التربية الإسلامية ، وسلامة موسى من دعوته إلى العصرية وعلى عبد الرازق من فصل الدين عن الدولة وساطع الحصرى من فصل العروبة عن الإسلام ذلك أن صوت الدعاة إلى الوطنية فى إطار الإسلام قد هزمته القوى الاستعمارية حين أنشأت دعاة العلمانية فى مجال السياسة وكان رائدها هو سعد زغلول ولطفى السيد وعبد العزيز فهمى : هذه المدرسة التى أنشأها كرومر ، فاشتغلت بالولاء الغربى والإعجاب بالديمقراطية الغربية فاختفت الشريعة الإسلامية والتربية الإسلامية والاقتصاد الاسلامى وانهار المجتمع الاسلامى تحت ضربات عوامل الانحلال والفساد الذى جلبه الاستعمار .

ثانياً : تنامى التيار الغربى الاجتماعى والاقتصادى والثقافى بعد أن انحسرت عملية الحصار الاستعمارى السياسى والعسكرى فقد وضع المجتمع كله تحت هذه العوامل فكان ذلك مقدمة للتيارين الخطرين الذين ظهرا فى المرحلة التالية وهى التبعية للماركسية وسيطرة الفكرة الصهيونية ،وكان جوله سقوط فلسطين ١٩٤٨

إلى سقوط القدس ١٩٦٧ هى بمثابة الجولة الواسعة التى كشفت فساد هـــذا الاتجاه كله على أيدى سعد زغلول وطه حسين وجمال عبد الناصر .

ولقد هزم ذلك الأسلوب الغربى فى أول الأمر وهزم الأسلوب الماركسى فى آخر الأمر ، وكشف عن حقيقة مذهلة هو أن الطريق الذى فرض على المسلمين والعرب — والذين لم يكونوا راغبين فيه بل كانوا معارضين له — هو الذى أوصلهم إلى هذه الهزيمة الساحقة .

غير أن المحاولات بدأت تجرى على أساس التحول مرة أخرى من أحد القطبين إلى القطب الآخر ، دون القبول بما تعالت عليه الصيحة الخالدة : صيحة العودة إلى الله .

فما تزال القوى الغربية تراوغ حتى لا يحقق المسلمون والعرب إرادتهم وإقامة مجتمعهم على أساس نظامهم الأصيل ومنهجهم الخالد .

وماتزال القوى المسيطرة تثير الغبار فى وجه المد الاسلامى والصحوة الاسلامية ، وماتزال تثير السموم حول الشريعة الاسلامية جملة فى محاولة لاحتوائها وإخضاعها للحضارة الغربية واستخدامها لتبرير الأوضاع المنحرفة والمنهارة من أجل تحقيق هدف واحد هو « التبعية » و « الاذابة » وصهر الفكر الإسلامى والأمة الإسلامية كلها فى بوتقة الحضارة الغربية بنظاميها المتآكلين المضطربين : الرأسمالية والشيوعية .

ثالثا : أن المخططات التى قدمها الماركسيون والغربيون لاحتواء نكسة ١٩٦٧ كانت كلها محاولات باطلة وفاشلة وكاذبة ، وهى فى باب (التمويه) فى محاولة جديدة لدفع المسلمين والعرب إلى نفس الطرق الذى ساروا فيه من قبل وعلى عيونهم عصابة ، واثقين من دعاة ماشين خدعوهم عن الطريق الصحيح .

إن الحقيقة أن المسلمين لم يصابوا بالنكسة إلا من جراء ابتعادهم عن منهجهم ولو أنهم التمسوا منهجهم ما استطاعت القوى الأجنبية أن تهزمهم ولا القوى الصهيونية أن تتكون وتركز وجودها فى قلب العالم الإسلامى .

إن محاولة إعلاء تيار القوميات والاقليميات كان أكبر الأخطار فقد حاولت أن تقضى على الوحدة الإسلامية السياسية وكان التعليم الغربى المفرغ من روح الإسلام هو العامل الأكبر فى القضاء على قوة الصمود وعدم الاستلام للاهواء والمغريات .

ومن ناحية أخرى تراخت القوة العسكرية الإسلامية ولم تأخذ بأسباب المرابطة والاستعداد فاقتحم العدو معاقلها وهى غافلة .

لقد كانت هزيمة التربية الإسلامية مصدر زرع اليأس والخوف والتحلل والاسترخاء وراء اللذات والاهواء ، بحجة أن الاستعمار العسكرى قد ترك البلاد فى نفس الوقت الذى استعصم العدو بالتوراة وبنى شبابه على أساس التعصب والحقد ، وكون قواه العسكرية .

لقد تحرك العالم الإسلامى لمواجهة الاستعمار وجاهد فى سبيل التخلص منه ثم سقط تحت سنابكه فكرياً واجتماعياً بعد الاستقلال فأحيط به فى غزوة جديدة ، ذلك أن المغتصب لم يترك أهل البلاد يقيمون بناءهم بل سلط عليهم عدوا جديداً ، بعد أن فرغ وجودهم النفسى وكيانهم العقلى من روح الاسلام القائم على المقاومة والمرابطة فى الثغور .

يقول الباحث الإسلامى ليوبولد فايس (محمد أسد) .

« رأينا كثيراً من الدول الإسلامية المستعمرة : أصبحت مستقلة ، وربما ظن بعض الناس أن هذا الاستقلال إشارة إلى مستقبل الاسلام ، ولكن ليس كذلك ، رأينا فى كثير من الدول المستقلة أن الناس يفرون من الإسلام يبدلون الأحكام الشرعية بأحكام غير شرعية أخذوها من الأجانب ويظنون أنها أفضل وأرقى من الشريعة الإسلامية ، ليس عندنا أى أحد يستطيع أن ينكر أن الاسلام أكمل عقيدة وأكمل منهج حياة (ايدلوجيه) ظهرت فى تاريخ الانسانية ، وأكبر من هذا أن الإسلام حقق أول مجتمع أيدلوجى فى العالم ، فلماذا يفر الشباب ويتركون هذا الكمال بالنواقص التى يأخذونها من الأجانب .

أرى أن الجواب يكمن فى نواقصنا لفهم الشريعة الإسلامية : إن الشريعة الإسلامية هى دستور حياة الأمة الاسلامية فكل شىء فى المجتمع الإسلامى مؤسس على الشريعة العادلة التى يتساوى فيها كل الناس ولا فضل لعربى عن أعجمى وهذا مالا وجود له فى مجتمعات غيرنا فكل حياتنا كانت من ابتدائها مؤسسة على الشريعة ، والشريعة مفتوحة فاتحة لكل فرد من أفراد المسلمين فيها قوة دافعة لحياة الإسلام ، فإذا أغلقت أبواب فهم الشريعة جفت العناصر ونقصت القوى الدافعة .

الشريعة الإسلامية هى الدستور الخالد لحياة الأمة الاسلامية ، ولا وجود للمجتمع الإسلامى بدون أن نطبق أحكام الشريعة على تكوينه الثقافى والاجتماعى .

رابعاً : يؤكد علماء الاجتماع المسلمون أنه لا بد من بناء الأجيال الجديدة المسلمة على الايمان بالحقائق ، والوعى بالإخطار ، والتكوين النفسى القادر على مواجهة التحديات لقول مالك بن نبى : إن كل تغيير اجتماعى واقتصادى أو سياسى يكون دوما تابعاً لتعبير أولى فى (النفوس) بحيث لا يتصور أن عملية تغيير من النوع السياسى أو الاجتماعى قد تأتى فى جو من الفتور والخمول حتى ولو توفرت من الناحية الفنية المجردة ما يسميه (شروط الانتقال) وربما وجدنا فى هذه الاعتبارات العامة ما يوضح لنا المعنى الذى يشير إليه عز وجل فى قوله المحكم :

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

فعلى هذا الأساس يجدر بنا أن نتأمل بالنسبة للعالم الإسلامى فى إيما شروط يتأتى لها انتقاله من حالته الراهنة إلى حالة أضمن لمصالحه وأسعد لحياته : الأمر يقتضى تغيير الجو النفسى الذى يعيش فيه مسلمو اليوم وهو يتصل بضميره بين كارثة وأخرى مثل كارثة فلسطين وكارثة باكستان ، هذه الكوارث التى أن عبرت عن شىء فإنما تعبر عن فتور وخمول فى حياة المسلم

اليوم ، هذا الفتور لا يمكن تفسيره بدوره الا على أن المسلم لا يجد فى حياته الشخصية والجماعية المبررات الكبرى التى تهز المجتمعات فى الساعات الساخنة لما يؤذن لها آذان الانتقال من حالة استسلام إلى حالة رسالة تخاطب بها نفسها أولا والانسانية ثانية .

القضية اليوم منحصرة فى إيجاد المبررات الجديدة التى تجدد فى المسلم الشعور بالطموح والرسالة ، شعوراً يجعله ينظر إلى نفسه كصاحب رسالة ، وإلى غيره كمنقذ مثلما كان أيام عمر حتى أرسل وفده إلى رستم قائد كسرى فنراه يخاطبه خطاب الند للند بل أكثر : خطاب الانسان الملهم الذى أتى من أجل تخليص خصومه أنفسهم .

رابعاً : علينا أن نحول دون ذوبان الشخصية الإسلامية فى الأمية . حين نقرأ فكرا غربيا ، ونسمع ونشاهد مسرحيات غربية ، وتقدم لنا الصحافة وجهات نظر غيرنا على أنها القدوة والقيادة التى يجب أن نستمع لها وأن نخضع ، حيث يقدم لنا السياسة والتاريخ والاقتصاد على أننا أتباع وفى ذيل القائمة ، مع أننا نملك الثروات والطاقة والتفوق البشرى ، ولكننا تابعون فى هذه المجالات يدار أمرنا بيد غيرنا ولا نملك إرادتنا الحقيقة فى توجيه اقتصادنا أو ثرواتنا .

إن المخطط الاستعمارى المعادى للاسلام والعرب يعمل على تدمير القيم الإسلامية وتفتيت الروح الاسلامية وإدخالنا فى دائرة الاحتواء والتبعية .

إن هناك محاولات لإعادة تشكيل فكر الانسان المسلم للسيطرة عليه إن التفوق الآلى فى الحضارة الغربيه (بشقيهـــا الرأسمالى والشيوعى) قد أعطاها بعض الأسلحة التى تحاول بها (تدجين) المسلمين على النحو الذى يجربه الانسان على عالم الحيوان وإن أسراعنا فى الإعجاب بحضاره الغرب وقبولها واعتناقها عادات الغرب وتقليدنا قشور حضارة يسارع بنا إلى الانصهار فى بوتقته .

إن هناك محاولة لتدمير القيم الإسلامية باقتلاعها من صدور المسلمين حتى تصبح كالمدينة المفتوحة ، هدفا لكل ناهب وغاز .

إنهم غيروا مفهومنا للحرب والسلام ، ولإقامة المجتمع الإسلامى ، ووضعوا مقاييس الفكر الغربى المادى أمامنا كأساوب لقياس الأوضاع والأحداث واختفت وراء ذلك مقاييسنا الحقيقية المستمدة من القرآن والسنة ومن تاريخنا وتجاربنا فقبلنا أسماء ورؤى ووجهات نظر تختلف مع مفهوم الإسلام تحت اسم العصرية والحداثة والتقدم ولكنه لم يؤدى إلا إلى هزيمتنا واندحارنا .

خامساً : لقد تأكد للقوى الغربية منذ وقت بعيد أن هذه الأمة لا يمكن أن تستسلم للاحتواء أو الانصهار فى بوتقة نفوذها ، وأن العرب لن يقعوا فى تجربة تركيا مهما تضافرت القوى للتآمر عليهم .

يقول الكاتب الغربى : (جون سى . بادو) أن الدين قد أخذ ينبعث ويتبوأ مركزا فعالا فى الحياة فى حين كان كثير من الناس قبل الحرب العالمية الثانية يعتقدون أن انبعاث الدين بهذا الشكل أمر مستحيل ، لقد حدث فى تركيا بعد وفاة كمال اتاتورك إحياء للشعور الدينى على أن هذه النهضة لم تكن مجرد إحياء لموروث دين ماضى ، وإنما كانت محاولة لتفسير الدين تفسيرا جديدا وقد حدث نفس الشىء فى إيران . فمنذ زوال رضاشاه والجماعة التى التفت حوله عاد علماء الدين (الملالى والشيوخ) إلى احتلال مراكزهم فى المجتمع كما ظهر من أهمية الحزب السياسى الذى يقوده الملا الكاشانى ، وهكذا عادت المظاهر الدينية القومية تحتل من جديد مكانا بارزا فى الحياة الايرانية .

إن الدين لسبب من الأسباب قد عاد إلى مسرح الحوادث فى الشرق الأوسط منذ ١٩٣٩ وأن الاتجاه العلمانى قد خفت غلوائه وعودة الدين هذه لم تكن بالدرجة الأولى انبعاثا ثقافيا ، هذا الانبعاث الدينى اليوم لايؤلف فى الدرجة الأولى انبعاثا فكريا وليس هو محاولة لخلق فلسفة دينية جديدة كما أنه ليس محاولة أخرى لتعيين موضع الدين بالنسبة للقوى التى تتغلغل فى المجتمع

الآن ، وإنما هو فى الحقيقة عبارة عن إحياء للدين كعامل اجتماعى وكحزب سياسى وكجزء من كيان المجتمع ، وأن بروزه فى الصحف بعناوين ضخمة إنما جاء بصفته قوة من القوى الاجتماعية . ذلك أن الإسلام عبارة عن قوة اجتماعية سياسية فعالة ، أن الإسلام دين وهو فى الوقت نفسه دولة ، على هذا يكون من الحتم أن يستتبع كل إحياء للشعور الدينى إحياء للدين بصفته قوة اجتماعية وسياسية ، تحليل هذه الظاهرة واضح فإنه بعد قيام إسرائيل كان لابد للإسلام أن يندفع بقوة ليغطى منطقة الفراغ وليحدد الوجهة ازاء النازلة الجديدة التى أضافت إلى نازلة الاستعمار الأجنبى الذى كان قد بدأ الانسحاب من مواقعه العسكرية والسياسية الظاهرة وكان هناك تطلع واضح من جانب القوى الوطنية والإسلامية التى ظلت تعمل على أنها ستتمكن من إقامة نظام منبعث من مفاهيم الامة ومنطلق من تراثها وقيمها بعد انسحاب الأجنبى ، غير أن قيام دولة اليهود قد ضاعف الخطر وحمل فى اطوائه محاولة جديدة لضرب هذه القوة الوطنية والإسلامية التى تنامت خلال فترة الحرب وماقبلها والتى كانت مؤهلة لأداء دورها الشرعى والطبيعى بعد الحرب ولقد كان لوجود إسرائيل أثر جديد يضاف إلى الأثر الذى خلقه الاستعمار ونماه طوال تلك الفترة ، فتضاعفت متاعب المسلمين ، وبدأ أن الأمل فى تحقيق هدف المسلمين فى إقامة مجتمعهم وتحقيق إرادتهم قد بدا بعيداً ، ذلك أن الصهيونية أخذت تضرب فى جدار الاسلام ضربات أخرى وعمدت إلى خلق مؤامرات جديدة عن طريق تشويه الثقافة والتعليم والمفاهيم الإسلامية ، وكذلك عن طريق الاحتواء وكسب ولاء بعض الحكام فضلا عن أن تأكيد وتدعيم الأنظمة الغربية فى عالم الإسلام كان من الدعامات الاساسية للبقاء الاستعمارى والصهيونى ، فضلا عن أنها فتحت الطريق للماركسية والشيوعية سواء عن طريق إنشاء الأحزاب الشيوعية أو عن طريق موالاة الروس لبعض الأنظمة تحت تأثير الخروج من قسوة قيود الغرب ، حتى لقد قيل أن هناك قوى تهدف إلى الضغط على الشعوب الإسلامية حتى تلق نفسها فى أتون الشيوعية فإن ذلك جزء من مخطط عرف بمخطط الحكومة الخفية التى تحكم العالم من وراء ستار .

هذا وقد تبين بوضوح أن المسلمين لم يقبلوا المنظومات الغربية أو الايدلوجيات الوافدة ولكن القوى الغربية هى التى فرضتها عليهم وانشأت قادة يقودون أمتهم إلى الهاوية تحت اسم التقدم والعصرية ولو كانت الامور تدار على نحو من الحوار لما قبل المسلمون هذا الركام الزائف من الفكر المادى الوافد بانحرافاته فى مجال الأسرة والمرأة والخلق والمعاملات ، ولكن الأمور كانت ولا تزال تدار بوسائل التآمر والخداع وفرض وجهة نظر الغرب فى مقابل بعض المعطيات ، ومحاولة دعوة بعض العناصر إلى اعتناق هذه الوجهة باغراء السيطرة ، أو استدامة البقاء والنفوذ ، ذلك لأن النفوذ الوافد لايستطيع فى الحقيقه أن يعيش وينمو ويسيطر دون سناد من الداخل .

ولا ريب أن التبعية الاقتصادية والمالية قد فرضت السيطرة فى جميع وجوه الثقافة والتعليم والاجتماع ، ودفعت العرب إلى بيع نتاج حضارته الاستهلاكية واستنزاف ثروات الأمم من أجل كماليات وترف وأسباب تسلية ووسائل انحلال وعبث .

سادساً : لقد فشلت محاولة التقدميين والماركسيين فى اتهام الإسلام بأنه مصدر الهزيمة فى نكسة ١٩٦٧ وتكشف أن مخططاتهم التى سيطرت على المنطقة وكانت وليدة مخططات الرأسمالية هى المصدر الحقيقى فى وصول العرب والمسلمين إلى هذا الموقف الخطير الذى هو علامة تحول حقيقية نحو الأصالة .

لقد صدرت كتابات جلال العظم ونديم البيطار وفؤاد زكريا تهاجم الإسلام وتطالب بالدولة العصرية العلمانية فى مصر وهذا غش فكرى مكشوف ، فمن المقرر أن الإسلام نحى عن المعركة واقصى عن الصراع بين الأمة الإسلامية واليهود ، فعلى جبهات القتال قبل الحرب وأثنائها عام ١٩٦٧ لم نوزع المصاحف على الجنود وإنما وزعت صور أم كلثوم ، ولم يذكر اسم الله وإنما شنت مجلات تابعة لبعض جيوش الجبهة هجوما على

الله تبارك وتعالى وطالبت بوضع الدين فى متحف ولم يمكن المؤمنون الصادقون من قتال عدوهم وإنما سيقوا إلى المعتقلات والسجون فعلى أى منطق يحاسب الإسلام على أخطاء وانحرافات تمت فى غيبته ، وهكذا حاولت القوى التغريبية التابعة للماركسية وللصهيونية وللغرب أن تمنح فكر الهزيمة عمرا جديدا ، قال نديم البيطار :

إن هدف الثوريين فى الغرب هو تحرير المجتمع من الدين . وإن هذه بداية كبداية الثورة الفرنسية عندما وقف أحدهم فى الجمعية العامة وأعلن أن عدونا الأول ليس الاستقراطية وليس الملك وليس الكنيسة وإنما هو أولا الديان ، لقد عانت هذه القوى سواء فى كتبها فى ندوة أو أزمة التطور الحضارى التى عقدت فى الكويت عداوتها للاسلام وهى عداوة مشتركة بين أطراف الصراع : الماركسيون والعلمانيون والرأسماليون وكانت هذه الندوة جهدا منظما لخلخلة العقائد الإسلامية والشريعة الإسلامية ابتداء من الإيمان بالغيب وانتهاءاً بالمواريث . ولا ريب أن الصراع بين الأمة العربية والإسلامية وأعدائها جميعا إنما يهدف إلى التشكيك فى عقائد الإسلام ، وأدواته فى الفكر والثقافة والتعليم .

وقد انحسرت هذه التيارات الضالة وتبينت الأمة الإسلامية حقيقة موقعها وأخذت تتطلع إلى فكر جديد ، وأدركت الأمة أن هزيمة يونيو كانت هزيمة للأنظمة التابعة للشرق أو للغرب ، وهزيمة للإنسان المادى الذى يحارب بلا عقيدة ويدافع بغير إيمان بشىء ما ، وكان لابد للامة أن تبحث عن عقيدتها وأن تختط طريقا جديدا فكان هذا الاندفاع نحو الإسلام ، حيث أصبح المسلمون جميعا على قلب رجل واحد يتطلعون إلى مجتمع إسلامى أصيل قائم على أساس الشريعة الإسلامية .

كما سجل التاريخ انحسار الفكر الغربى والشيوعى أمام المقاومة الإسلامية فكراً وتطبيقا وفى هذه الفترة غزا الإسلام قلب الحضارة الغربية فى أوربا وأمريكا ، وكدا أن الإسلام هو دين الفطرة وأنه لامحالة عائد .

وهكذا كانت نكسة ١٩٦٧ منطلقا جديدا كشف عن هذه الصحوة التى هزت العالم كله وألهمت أمثال موريس بوكاى وجارودى وهما من كبار فلاسفة المسيحية والماركسية الاتجاه إلى الإسلام حتى يقول جارودى :

إن الإسلام له دور منتظر لتغيير كثير من مفاهيم البشر ونحن فى أوربا نطرح دائما جملة (الإسلام القادم) كحل لأزمات نفسية وفكرية واقتصادية وربما سياسية أيضاً .

عصر الاسلام قادم والغرب فى حاجة إليه ، أنا واحد من رواد الحضاره الغربية أقول صراحة أنها قادت الانسان بعد كل هذا التقدم المادى إلى طريق مسدود ، نعم هى حضاره تدعو إلى مزيد من الانماء والانتاج بلا حدود من أجل مزيد من الرفاهية التى وصلت إلى حد الترف ولكنها فى نهاية المطاف ركزت على الانتاج العسكرى وصنع الأسلحة بكمية رهيبة تجاوزت الملايين وما الغرض منها فى نهاية المطاف إلا خراب الانسانية .

وشتان بين معطيات الحضارة الغربية ودورها وبين معطيات الحضارة الاسلامية فى كافة الجوانب الروحية والخلقية والعلمية والعملية ، التى استقى منها العالم والتى لازالت رغم معاول الهدم المستمر تعمل عملها فى الأمم وفى النفوس إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولا .

الباب الثالث

تزييف حقائق الإسلام

(مهمة الاستشراق والتغريب)

الفصل الأول : إزالة التميز الإسلامى الخاص والذاتية الإسلامية .

الفصل الثانى : تزييف حقائق الإسلام .

الفصل الثالث : قضايا الاستشراق .

الفصل الرابع : المدرسة والمناهج التعليمية .

الفصل الخامس : الجامعة وتبعية المناهج الجامعية.

الفصل السادس : (١) تغريب الأزهر .

(٢) قضية التطوير .

(٣) المدرسة الحديثة وانفصالها عن الأزهر .

الفصل السابع : مدرسة الترفيه والتسلية .

الفصل الثامن : (١) مدرسة الصحافة .

(٢) تجاوزات الصحافة السياسية .

(٣) كيف أفسد التغريب الصحافة .

(٤) الصحافة وكتابه التاريخ .

(مدخل)

أربع مؤسسات خطيرة استحوذ عليها النفوذ الأجنبي من أجل تغريب الفكر الإسلامي وإثارة الشبهات حوله وضرب الأمة الإسلامية في مقاتلها وتشويه خطواتها نحو تحرير وجهتها وامتلاك إرادتها تلك هي :-

(١) الاستشراق : المؤسسة الصانعة لكل السموم والشبهات .

(٢) المدرسة عن طريق التعليم .

(٣) المدرسة الموازية عن طريق وسائل الاتصال والتسلية .

(٤) الصحافة بسمومها المبثوثة يوميا في الخبر والقصة والصورة .

* * *

وقد جرى الاستشراق طوال قرن ونصف إلى هدفه عن طريق أساليب مختلفة ووسائل متعددة ، وانتقل من التعصب إلى المكر ، ومن القسوة إلى الخداع وكون أجيالا ، وترك تراثا ضخما ، مبثوثا في شتى مجالات الفكر واللغة والعقيدة ما يزال مرجعا أساسيا في كثير من المدارس والجامعات ، ومصدرا للباحثين من الطلاب الذين يفرض عليهم أساتذتهم مراجع معينة تمثل وجهة نظر معينة فالدارسون في الولايات المتحدة تغلب على مراجعهم الاستشراقية أهواء الصهيونية وسمومها ، وفي الغرب تغلب مفاهيم فصل الدين عن الدولة وفي الاتحاد السوفيتي تغلب نظرية التفسير المادي للتاريخ والحياة والكون ، وكلها نظريات مضادة لمفهوم الإسلام وحقائقه ، فنحن اليوم بين تيارات استشراقية صهيونية وماركسية وغربية رأسمالية بينما لا ينفسح المجال أبدا لوجهة النظر الحقيقية لهذه الأمة الممثلة في مفهوم الإسلام .

* * *

٢ - إن أكبر عوامل التزييف التي تبدو على الساحة الفكرية اليوم هي : عرض القضايا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية من خلال وجهة نظر : إما رأسمالية غربية أو اشتراكية ماركسية مع تجاهل شديد وتآمر صامت على وجهة النظر

الأصيلة لهذه الأمة ، التى تنبع من قيمتها وتراثها فى مسائل تتصل بمجتمعها وعقيدتها : تلك هى وجهة نظر الإسلام .

ففى الجامعات تدرس القضايا من خلال الرأسمالية أو الماركسية . وفى مجال الاقتصاد أو علم النفس أو التاريخ أو الادب لانجد إلا هذه النظريات الوافدة ، تلك التى جاءتنا مع النفوذ الغربى والأخرى التى تسربت إليها فى فترة الظلال الماركسية ، ومايجد شبابنا فرصة أو بادرة تكشف له وجها آخر لهذه القضايا غير هذين الوجهين ، فلا يعلم أن هذه القضايا فى بلاده يمكن أن تدرس بأسلوب عربى إسلامى مستمد من تاريخ يمتد خمسة عشر قرنا ومن حضارة باذخة ومن فهم إسلامى جامع قدم خبرته وتجربته فى مختلف هذه المجالات الف سنة كاملة للبشرية كلها وقامت على أساسه الحضارة الغربية المعاصره .

٣ — ومن الظواهر الواضحة أن الكتاب الشيوعيون المتسمون الآن باليساريين سواء فيهم اليساريون الخلص أم اليساريون المتمسحون بالإسلام ينشبون فى كل مكان وفى كل مؤتمر ، عشرات المؤتمرات تعقد المغرب تحت اسم (التراث والفكر السياسى) وفى أماكن أخرى كثيرة يحضرها أمثال أحمدبهاء وكامل زهيرى ، حسن حنفى وخلف الله . الخ ، ويتحركون فى حرية تامة ويبثون فى هذه المؤتمرات مفاهيمهم المسمومة ويتعرضون للإسلام فى استهانة شديدة .

وترى أمثال محمد جابر الانصارى فى مجلة الدوحة ، وأغلبهم يتحرك فكر ماركسيا ، ومدرسة العلوم الاجتماعية ، ويختفون تحت أسماء ورايات مختلفة وفى مؤتمر المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية الذى يشرف عليه عليه الدكتور أحمد خليفة تراهم ظاهرين بشكل يدهش له القارىء ، فهل لم يعد هناك باحثون اجتماعيون فى مصر غير هؤلاء ذوى الولاء المنحرف ، ومؤتمرات العروبة والمشروع العربى الحضارى فى بيروت نجد اسماءاً كثيرة تتكلم تتحدث وتحاول أن تضفى على العروبة قداسه وإعلاء وخاصة من المتحدثين باسم البعث والناصرين وكتاباتهم ذات هوى ، ومفرغة من الايجابية ، وخالية من نهائى

العلمى ، وهى عبارة عن إمشاح تكشف عن سخرية بكل القيم العربية والإسلامية ومحاولة دائبة تعمل على تحطيم هذه القيم والسخرية بها .

وهناك مؤتمرات ترمى إلى احتواء مصر والعالم العربى فى مجال التكنولوجيا والقضاء على الهوية . .

٤ — ونجد الآن أن دراسات مصر تقدم من وجهة نظر أصحاب المطامع :

فإذاعة إسرائيل تدرس مصر من خلال كتاب صبحى وحيدة (المسألة المصرية) وتعيد كل ما جاء فيه محققا لما تريد أن تذيعه عن تاريخ مصر فى مختلف العصور ، محاولة إعطاء مصر قدراً من التميز وتصوير ماتحمله فى مواجهة التتار بأنه جهد فى سبيل العرب وليس ذلك صحيحا فإن مصر كانت تدافع عن المنطقة باسم الإسلام وليس لحساب العرب ولا لغيرهم ولكنها محاولة خلق المغالطة : نفس المغالطة التى يتحدث عنها أمثال محمد عمارة والماركسيين الذين يتمسحون فى الإسلام .

وهكذا نجد أن محطة إذاعة لندن تقدم كتبا عن مصر والعرب والإسلام تحمل وجهة نظر رأسمالية ، كما أن محطة إذاعة موسكو تقدم كتبا من كتابات اليساريين ، وإسرائيل تقدم وجهة نظر تتفق مع مطامعها ومفهومها عن الصهيونية .

أما وجهة النظر الحقيقية : وهى مصر فى مكانها الإسلامى فهذه الكتب تتجاهلها جميع محطات الإذاعة العالمية لأنها لا تقدم ماتريده أو ترغب فيه .

الفصل الأول

إزالة التميز الإسلامي الخاص والذاتية الإسلامية

هي هدف مخططات الاحتواء والتغريب

لقد خطا الفكر الإسلامي خطوات واسعة في السنوات الأخيرة في طريق الأصالة وتصحيح المفاهيم وتحرير القيم وبناء القاعدة الأصيلة لقيام المجتمع الاسلامي وتجديد الحضارة الإسلامية على الرغم من كل المؤامرات التي تقوم بها القوى الغازية في الغرب في ضرب الصحوة الإسلامية واحتواء المد الإسلامي ، وتأخير انتقال المسلمين من مرحلة اليقظة إلى مرحلة النهضة .

ومع ذلك فقد استطاعت الدعوة الإسلامية أن تخترق التغريب والغزو الثقافي بقوة لأنها على الفطرة ولأنها تدعو الناس إلى الحق وأنها تلتمس نور الله تبارك وتعالى في هذه الوجهة ، ولقد بلغ التغريب غايته في مرحلة مابين الحربين حين أسقط الخلافة وأقام إسرائيل كرأس جسر في قلب العالم الإسلامي ثم حين جاءت الدعوة الإسلامية فنازل المد التغريبي وبدأ عصر جديد من اليقظة ينفذ بضوءه الباهر من خلال تلك الظلمات وكانت عمليات العدوان الضخمة التي قامت بها القوى التغريبية لتحطيم هذا البناء الجديد ومع ذلك بدت عاجزة أن تقضى عـــلى الإيمان العميق والصمود القائم والإصرار على الحق .

وقد تحركت الدعوة الإسلامية في ميادين الفكر في قوة وأصالة فاستطاعت أن تكشف زيف المطروحات المسمومة التي قدمها التغريب والاستشراق ، وتواجهها بصور باهرة من معطيات الإسلام .

ثم جاءت نكسة ١٩٦٧ فكشفت الناس أن طريق التغريب والغزو الثقافي

الداعي إلى أسلوب العيش الغربي من خلال المهجين الغربين الرأسمالي والماركسي كلاهما باطل فإن النفس المسلمة قد رفضت الجسم الدخيل وتبين أن هناك طريق واحد هو طريق الاسلام .

ففي ثلاث ميادين عمل التغريب للقضاء على الروح الاسلامية القائمة على التوحيد الخالص والعدل والرحمة والإخاء البشري :

أولا : تزييف حقائق الاسلام (عن طريق الاستشراق والتبشير والشعوبية).

ثانياً : تدمير المجتمع الإسلامي : وذلك بتزييف مفاهيم السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية .

ثالثاً : تمزيق الوحدة الاسلامية ، وتفتيت الجامعة التي تجمع المسلمين بإشاعة مفاهيم القوميات والاقليميات بمفهومها الغربي .

لقد استطاع النفوذ الغربي عن طريق التعليم العلماني المفرغ من الاسلام وعن طريق دعوة القومية والاقليمية أن يحقق أهدافاً كثيرة :

أخطرها تعميق الفجوة بين المسلمين (عرباً وعجماً) بحيث يبدو وكان المسلمين قد استسلموا لمفهوم القومية الغربية في إقامة حاجز من العداء بين العناصر الاسلامية .

وثانيها : قبول الأمر الواقع والرضا بالحلول الجزئية دون قيام العزيمة التي شادها الاسلام في النفس المسلمة مع أن الخطر لن يتوقف ولن يلبث أن يلحق بأهل الحيدة وذلك معناه غيبة مفهوم وحدة الأمة الاسلامية والمفهوم الأصيل في دعوة الاسلام إلى المرابطة والمواجهة الدائمة لأي مباغتة من العدو للأمة الاسلامية في أي جزء من أجزائها .

ثالثاً : قبول موقف الغرب المؤيد لاسرائيل ضد العرب والمسلمين دون القدرة على اتخاذ موقف النبذ على سواء الذي دعا إليه الاسلام ، والاستسلام للغرب في موقفه التي حدده وأصر عليه من أن تكون إسرائيل مالكة للقوة

المتفوقة على القوة العربيه جمعاً مع أن العرب يملكون من القوه والطاقة والثروة ما يمكنهم من تحديد موقفهم .

إن هدف النفوذ الغربى فى مخططه كله خلال مراحله الثلاث : الاستعمار ، الغزو الثقافى ،التغريب — إنما يرمى إلى تأخير إمتلاك المسلمين لارادتهم وإقامتهم مجتمعهم ، والمحاولة الأساسيه التى يجرى حولها عمل الاستشراق والتبشير هو إزالة التميز الخاص والذاتية الاسلامية وذلك بهدف صهر المجتمعات الاسلامية فى بوتقة الأممية واحتوائها وتغير هويتها وذاتيها ووجهتها حتى تسقط فى دائره الاحتواء والخطة هى إخراج المسلمين معه منهج حياتهم ، فإذا تم هذا فقد وصل النفوذ الغربى إلى غايته .

ولكن الدعوة الاسلامية المستمدة من التوحيد الخالص والقائمة على مفهوم القرآن الحى الدائم القائم الممتد الذى لن يخفت ولن يضعف ولن يزول قادره على أمرين :

أولا : قادره على استعادة أصالتها بعد مراحل من التبعية .

ثانياً : قادره على تقديم نماذج قيادية جديدة تحمل لواء النهضة .

وآية العقيدة الاسلامية هى القدرة على المقاومة وبقاء عامل الحفاظ على الكيان فى مجالات : العقيدة واللغة والتاريخ ، وذلك عن طريق المرابطة والاستعداد لمواجهة أى غزو خارجى ، وتصحيح المفاهيم وكشف زيفها وتقديم مفهوم الاسلام الأصيل والخروج من دائرة التبعية والاحتواء ، والارتفاع فوق أزمات الغزو ، وامتلاك الإرادة ، واستئناف العطاء الحضارى بعد توقفه .

ولما كانت الحضارة الاسلامية تقوم على التوحيد والعدل والرحمة والاخاء البشرى فإنها قد تتوقف عن العطاء فترة ، تحت تأثير متغيرات الظروف ولكن هذا التوقف يختلف كثيراً عن الاندثار والتشتت أو عن الجمود .

ولقد استطاعت الحضارة الاسلامية أن تبقى قادرة على البث والعطاء ، بعد زوال السلطان السياسى للإسلام ، وهذه ظاهرة لا تتمتع بها حضارات كثيرة سقطت بسقوط السلطان السياسى .

وفى العقود الأخيرة من القرن الرابع عشر ضغط التغريب والغزو الثقافى فى ميادين الرأسمالية والصهيونية والماركسية ضغطاً شديداً ووقع العالم الاسلامى فى بعض أجزائه تحت تأثيره ولكن التجربة أثبتت فشل القدرة على الانصهار واستطاعت الأمة الإسلامية أن تقاوم وأن تعلن أن هذه الايدلوجيات والمعطيات التى وضعت فى قوالب علمية زائفة أو حضارية براقة ، ليست هى ماتقبله النفس الإسلامية أو ترغب إليه ، فهى لا تتفق مع طابعها وذاتيتها التى بناها القرآن أربع عشر قرناً وقد استطاعت اليقظة الإسلامية أن تتحرك فى إيجابية وقوة .

فى مجال الثقافة : من التبعية إلى الأصالة .

فى مجال المجتمع : من العلمانية إلى الإسلام .

فى مجال الحضارة : من التوقف إلى العطاء من جديد .

فى مجال بناء الأمة : من اليقظة إلى النهضة .

وإذا كانت هناك ظواهر انحسار جرت فى القرن الرابع عشر ، ومطالع القرن الخامس عشر نتيجة حملات القوى التغريبية ، مثال الدعوة إلى تحديد النسل ، والعلمانية فى الحكم ، وفساد معطيات الفنون والآداب ، وتغليب القانون الوضعى والقومية المفرغة من الإسلام والاقتصاد الربوى والتعليم العلمانى فإن هناك مؤشرات قوية تدل على أن جوانب كثيره من هذا الاظلام يقع تحت دائرة الضوء الكاشف فقد جرت تحولات كثيرة نحو فهم جديد للإسلام .

فهناك تصحيح لأفكار مغرضة تنكر دور الإسلام فى النهضة الحديثة .

وهناك أفكار تكشف عن معطيات القرآن الحقيقية يدل عليها العلم الحديث .

وهناك تزييف واضح لنظرية دارون ولنظرية فرويد ولمفاهيم الماركسية وما كشف فى مجال اللاهوت وما صححه الكثيرون عن معطيات التراث

الاسلامى وسقطت قلاع كثيرة : القومية ، الاشتراكية ، الرأسمالية من وجهة النظر العلمية .

وقد اتسع نطاق المعطيات الإسلامية فى مجال الاقتصاد والتربية والعلوم السياسية والتاريخ وكان أكبر هذا العطاء فى مجال تقنين الشريعة الإسلامية والجهود التى تبذل اليوم فى مصر وباكستان والأردن والكويت وأبوظبى.

وكذلك فى مجال أحياء التراث الإسلامى وأطروحات الجامعات والندوات الإسلامية التى عقدت فى مؤتمر السنة والسيرة والملتقى الإسلامى الجزائرى وندوات جامعة الإمام محمد بن مسعود ومؤتمرات الهند وباكستان وغيرها هذا فضلا عن المؤلفات الإسلامية والمجلات الإسلاميه التى أبرزت عدداً كبيراً من الأسماء الجادة المخلصة .

الفصل الثانى

تزييف حقائق الإسلام

إذا حددت مهمة الاستشراق الحقيقية فى العمل على تزييف حقائق الإسلام وتفريغه من محتواه الحقيقى وجوهره الرفيع . وقد عمل الاستشراق فى جميع الميادين على بث سمومه ، وقد مر الاستشراق بمراحل متعددة ، وحاول أن يغير جلده بعد الحملات المكثفة التى كشفت زيفه ، وتلك طريقتهم فى التحول من أسلوب إلى أسلوب مع الاحتفاظ بالغاية الأساسية والهدف الأول .

ولقد حاول الاستشراق فى العقود الأخيرة أن يعزز وجوده بأن أدخل فى دائرته مجموعة من المبشرين المتعصبين ، الذين حاولوا فى كتاباتهم الاعتدال وأبراز طابع التسامح كما أنهم أدخلوا أساليب جديدة منها : أسلوب الحوار الذى تبنته الكنيسة الكاثوليكية ، ولا ريب أن الاستشراق مرتبط بالاستعمار والنفوذ الأجنبى من ناحية وبالتعصب للمفاهيم الدينية التى يعتنقها المستشرقون وهو لايستطيع أن يخرج عنها أو يكون قادراً لأن يرود افقا آخر أوسع منها ولذلك فهو لايستطيع تفسير الإسلام إلا بالرموز التى عرفها فى عقيدته ، وهو الآن يجرى مع هدف واضح هو تثبت الغايات التى يعمل لها وهى التى توجهه فهو يكون فكرة مسبقة ثم يبحث لها عن أدلة ، فإذا وجد أدلة ، لاتكفى جزئها أو انتحلها أو غالط فى تفسيرها لتكون متفقة مع وجهته ، فهو يصدر عن ثلاث علامات .

(١) تبعية عقيدته الأصلية (٢) الهوى الخاص (٣) الظنون والفروض

ولقد حاولت بعض المؤسسات الاستشراقية فى العصر الحديث بعد أن تعددت كشوف الزيوف التى قدمتها أبحاث الاستشراق إلى محاولة فتح صفحة جديدة تحت أسماء أخرى ، ولكنها كلها محاولات ترمى إلى تغيير الأسلوب دون تغيير المضمون لاستمرار خداع جماعات أخرى .

يقول الدكتور أحمد غنيم « إن ارتباط الاستشراق بالاستعمار أمر لا يمكن إنكاره تاريخياً انكاراً تاماً بمعنى أن الدول الأوربية التي غزت بلاد الشرق غزوات استعمارية استعانت بما لا شك فيه ببعض المستشرقين وكونت جماعات تبشيرية بهدف التعرف على تراث الشرق وتاريخه تمهيداً لاحتلال شعوبه وبلاده ، ولكن كان هناك الكثير من المستشرقين الذين ظلوا بعيداً بين عن التورط في الاشتراك في تحقيق الأهداف الاستعمارية . وبذلوا جهوداً عظيمة في سبيل دراسة الفن والتاريخ والأدب العربي تحقيقاً لأهداف علمية مجردة : إن المستشرق بالنسبة لأي بلد شرقي ليس إلا رجلا أجنبيا يسعى لتحقيق أهداف علمية مجردة ، ويجب أن يمنح قدراً من المساعدة وحرية الحركة في إطار البحث العلمي سواء في الأدب أو الفلسفة أو التاريخ أو غيره من الدراسات » .

وهذا الدفاع من الدكتور أحمد غنيم فيه نظر فإن هؤلاء المستشرقين الذين وصفهم بأنهم لم يعملوا في مجال الاستعمار عدد قليل وإذا كانت لم تصبهم التبعية السياسية فإنهم لا يخلون من التبعية العقديه لأديانهم ، وهي أديان تختلف مع الإسلام في أصول أساسية منها الايمان بالصلب والخطيئة والتثليث وما يتبع ذلك من فلسفة هوينة من شأنها أن تؤثر في فهم الأدب العربي والتاريخ الاسلامي القائم على مفهوم عقيدة أخرى قوامها التوحيد الخالص ، كذلك فإن عدم تبعيتهم السياسية لا يخلي أنفسهم من الايمان بالاستعلاء الغربي الذي يؤمن به الجنس الأبيض ويعتقد أنه صانع الحضارة وإنه ممتاز عن الشعوب الملونة . وإن هذه الشعوب جاءت خادمة له فهو لا يخلو من هذا الإحساس في نظرته إلى المسلمين وتأتي بعد ذلك مساله أخرى لها أهميتها في البحث وهي التجرد للعلم وهذا مالا يقع للباحثين الغربيين الذين يخضعون دائما ـــ وخاصة في الأبحاث الاسلامية ـــ إلى الأهواء وإلى الظنون والفروض وإلى عدم القدرة البيانية التي يفهم بها العربي بلاغة النصوص الاسلامية ولهم في هذا تفسيرات مضحكة .

وهم دائما يعلون من شأن جوانب معينة في الفكر الاسلامي

كاعلائهم للمعتزلة والفلاسفة والتصوف الفلسفى لأنهم يرون أن هؤلاء جميعا كانوا تابعين لمدارس الفكر اليونانى القديم ، وهم كذلك فى البحث عن الآثار يقصدون موازاة التوراة والكشف عن الآثار الصليبية ، والحضارة الرومانية ،وهم فى أعماقهم يرون أن أى (أنصاف) للحضارة الإسلامية يكون بعيد الخطر فى الغرب فهو يقرب الإسلام من أولئك الحيارى الذين سقطت المذاهب والايدلوجيات القائمة فى نظرهم وعجزت عن العطاء . أنهم لايرون تأييد أو إعلان الاعجاب بالتراث الإسلامى لأنهم يخشون انكشاف نظريات مازال الغرب يستعلى بها وهى مأخوذة من العلوم الإسلامية ، أو إعلاء شأن عظمة القوانين الإسلامية التى قدمتها الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامى لأنها تكسب للاسلام فى الغرب انصاراً وهناك غاية مضمرة فى نفوس المستشرقين هى حجب عظمة الإسلام عن الغربيين أنفسهم ، وذلك حتى لايزحفون نحوه ، وقديما عارضوا العائدين من بلاد الإسلام بعد الحروب الصليبية ممن تحدثوا عن عدل المسلمين ولعل ما أورده الدكتور أدوار سعيد فى كتابه الاستشراق الذى صدر قريبا فى الغرب يصدق ما أوردناه : يقول أن عدد الكتب التى تعالج الشرق العربى والتى صدرت بين ١٨٠٠ — ١٩٥٠ تقدر بستين ألف كتاب وأن الاستشراق مدين كليا بالعدوانية كاداة ثقافية — يقول أدوار سعيد : أن مايحدث فى حركة الاستشراق من تغيرات فهو ظاهرى ومصطلحى لا يمس هذا الجوهر الثابت الخالد المستقل ابدا ، أن الاستشراق يخضع مدارسه واتجاهاته ودراساته وتخصصاته : حيث تلتقى بنظرة استعلاء على الشرق وترى فيه الدونية وتدعو ضمنا أو صراحة إلى ازدرائه ولا يقف الباحث عند إعطاء المستشرقين كلهم هذه الماهية التى وصفناها بل يتجاوز ذلك إلى إعطائها إلى الأوربيين كلهم فرداً فرداً دون استثناء ، فمن الصحيح إذن أن كل أوربى هو عنصرى امبريالى شوفينى بشكل عام تقريبا فى كل ما يقوله حول الشرق ويرى أن محاولة الاستشراق هى احتواء الفكر الإسلامى (وهذا ما كشف عنه هاملتون جب قبل نصف قرن حين ألف كتابه وجهة الإسلام عن مخططات تغريب الإسلام) ويرى أن الطلاب الذين يدرسون فى أوربا (والولايات المتحدة) هم ضحايا هذا الاستشراق الذى يسود الجامعات هناك وبما أن الاستشراق يعلمهم فيما يعلمهم أن العقل العربى يتميز بالدونية عند

مقارنته بتفوق العقل الأوربى وبسمات ثابتة جامدة متخلفة خالدة تتناقض مع الحضارة الحديثة فإن معنى هذا أن المثقف العربى يلقح بهذا المفهوم الاستشراقى ويتبلور ويصبح كالاستشراقيين مقتنعا بعجز العربى عن دخول الحضارة الحديثة واستيعابها ».

ولا ريب أن هذه هى إحدى المحاولات التى يقوم بها الاستشراق فى سبيل هدفه الخفى ، وهو خلق روح اليأس من الذاتية الإسلامية على نحو يدفع أصحابها إلى القاء أنفسهم فى أحضان الولاء والتبعية الغربية . وذلك مما يؤكد أن الاستشراق فى غاياته الحقيقية يرمى إلى التشكيك فى قوة المنهج الإسلامى وإضعاف العلاقة بين المسلم وبين الإسلام كدين وكمجموعة من القيم والمبادىء العليا .

ذلك أن سياسة القوى الأجنبية كما أشار إلى ذلك عدد من الباحثين لاترحب بقوة الإسلام فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة ولا ترحب باتجاه الشباب فى هذه المجتمعات إلى الايمان بالإسلام والتمسك به لأن قوة الإسلام تخلق لهذه القوى فى المجتمعات الإسلامية عداوة وعنفا فى سبيل استغلال مافيها من إمكانيات اقتصادية وطاقات بشرية ، ولذلك فهى تروج لمفهوم إسلامى يوصف بالاستنارة والمرونة بقبول الربا وتحديد النسل والزوجة الواحدة والعنصرية الإقليمية والقومية والاستعلاء التاريخى الإقليمى حتى فى مجال الإسلام نفسه ووضع قادة الفكر الإسلامى فى مجال الأبطال الإقليميين مع أن الإسلام هو الذى صاغ فكرهم وليس وطنهم أو قومهم .

ويعتمد الاستشراق فى هذا على الواقع الخاطىء المعاش وتعميقه ، واسوأ مافى هذا الواقع المعاش ماقام به الاستعمار من تمزيق وحدة العالم الاسلامى إلى قوميات وطوائف متناحره ، وزين لهم الرجوع إلى نحل ماقبل الاسلام إمعانا فى إبقائهم ممزقين ومختلفين ، وأغرى بينهم العدواة والبغضاء حتى يحال بينهم وبين الدخول فى تجمع إسلامى يمكنهم من مواجهة النفوذ الأجنبى ولم يتوقف الغرب عند تمزيق وحدة الأمة الاسلامية بل قذفها بعديد من الايدلوجيات والفلسفات حتى لاتلتقى على رأى واحد وجعل لها ولاء أمريكى وفرنسى وبريطانى وولاء ماركسى ورأسمالى . ومن مهمة الاستشراق تخدير الخلق الغربى فلا يتأثر بتشريد شعب فلسطين ولا بمظالم الحكام الطغاة ، بل ينظر إلى هذه المآسى وكأنها

نتيجة طبيعية لعملية تصنيع وتمــدين الشرق والشرقيين بل يدعى مروبرجر المستشرق اليهودى أن منطقة الشرق الأوسط لاتشكل قوة سياسية وليس هناك مايشير إلى أنها ستصبح قوة سياسية ذات أهمية .

هذا فضلا عما يحشو به الاستشراق لكتب التاريخ التى تدرس فى الثانوية فى أمريكا وأوربا من معلومات خاطئة حيث يتعلم الطالب أن الاسلام دين وثنى صحراوى . . الخ .

يقول الدكتور فؤاد سيزسكين أن الاستشراق يقوم بمهمتين خطرتين :

الأولى : الافتراء على التاريخ الاسلامى وغمط الإسلام حقه والتقليل من أهميته وفعاليته .

الثانية : إنكار فضل العرب والادعاء بأن نهضة العلوم كانت نتيجة أخذها من اليونان وهم بهذا ينكرون المنجزات العلمية العربية وينكرون تأثيرها المباشر عليهم

ويقول : إن الغرب بدأ يأخذ ويتمثل العلوم العربية منذ القرن العاشر الميلادى واستمر الأخذ حتى القرن الخامس عشر الميلادى واستطاع خلال ذلك أخذ ما أنتجه العرب والمسلمون .

وتحدث الكثيرون عن خطة الاستشراق وآثارها المدمرة :

(١) القاء الشك والحيرة فى نفس المسلم المثقف .

(٢) نقد جوانب معينة فى الإسلام فى إلحاح مرتب حتى يثبت فى الأذهان مفاهيم مشوشه .

(٣) نقد مبدأ تعدد الزوجات .

(٤) قيام مدرسة فكرية ترمى إلى تبرير واقع الحضارة الغربية والمجتمع الغربى وما ينتظمه من أفكار ونظريات وذلك بمحاولة تفسير الإسلام تفسيرا عصريا يلائم الفكر السائد وتقديم نظريات مضللة فى قضايا الجهاد ، الحدود ، الربا ، التماثيل ، الطلاق ، تعدد الزوجات وأخطر ما فى ذلك هو إنبعاث الفكر التغريبى على لسان المسلمين أنفسهم تحت اسم (التيار الإسلامى المستنير) ليكون أكثر تأثيرا من كتابات المستشرقين .

(٥) إشاعة قصص الجنس والكشف التى يشجع على المسكرات والمخدرات والقمار والشذوذ والمراقص والتمثيل الماجن وقيام الصحافة على تبرير

الفساد وتشجيع طرقه وفتح الثغرات والأبواب مما يؤدى إلى كسر الحواجز النفسية وهدم الفضائل الخلقية التى كانت تمسك الناس وتشكل مظلة عامة للآداب الإسلامية .

(٦) المناهج العلمانية الدراسية التى ترمى إلى تخريج أجيال مقطوعة الصلة بدينها العظيم ، تقوم على خلق مثل أعلى غربى باعلاء شأن الأبطال الغربيين والاعتزاز بالتاريخ القديم كالفرعونية والفينيقية والطورانية مع الترويج للغات الأجنبية فى الهند والجزائر واندونيسيا .

(٧) الممتازون يسافرون إلى أوربا وأمريكا لتشكيلهم وتوجيههم :

ويستعمل فى هذا الخطط سيل المطبوعات والكتب التى تمجد الغرب والصحافة الوافدة التى تشمل على أحاديث الجنس الفاضحة والصور العارية والنقد الجارح .

وأخطر ما فى مؤامرة الاستشراق أن هناك ثلاث تيارات : غربية وماركسية وصهيونية وأن كل واحدة لها أهداف وغايات : وكل منها تعمل فى مجال خاص وهى فى جملتها تعمل على إضعاف الروح المعنوية بين المسلمين وأبعادهم عن معتقداتهم وتغذية أفكارهم بالشك فى دينهم وإغراء المسلمين بالمفاهيم المادية وتسريب الفلسفة المادية المنمقة إلى عقول ومفاهيم المسلمين من الجيل الجديد حتى يتراءى لهم أن المفاهيم والتعاليم الإسلامية أصبحت بالية عقيمة ولا تستطيع مسايرة العصر الحاضر وإحياء تراث ما قبل الإسلام للاعتزاز به وتأييد كل الذين يكتبون لاحياء النزعات والدعوات التي قضى عليها الإسلام .

الفصل الثالث

قضايا الاستشراق

توزع المستشرقون فى ميادين مختلفة بحيث صنعوا تغطية كاملة لآفاق الفكر الإسلامى وقد زرعوا الشوك فى هذه الميادين جميعاً ، وترمى الشبهات المثارة إلى ضرب هدف واضح أساسى فى الفكر الاسلامى وأثارة الشبهات حوله :

ومن هنا نجد جولدزيهر يوجه شبهاته نحو القرآن الكريم والشريعة الإسلامية وهو فى كتابته التى ترجمها مسلمون دون العناية بالرد على ماجاء بها :

مذاهب التفسير الإسلامى : والإسلام عقيده وشريعة :

نجد عديداً من هذه الشبهات وهو فى مختلف مايعرضه من قضايا متعصب يهودى الهوية يحرف القول ويرمى القرآن بسهام مسمومة . قد حاد عن الجادة وتنكب الصراط السوى وجانبه الترفيق فيما تورطفيه من أخطاء كما أشار الشيخ عبد الفتاح القاضى فى كتابه القراءات وفى رده عليه فهو يحاول أن يصف النص القرآنى بالاضطراب وعدم الثبات ولا ريب أنه ضال مضل فى افترائه هذا فإن النص القرآنى لم يعتريه ومحال أن يعتريه اضطراب أو ينزل لساحته قلق لأن معنى الاضطراب والقلق وعدم الثبات فى النص القرآنى أن يقرأ النص على وجوه مختلفة وصور متعددة ويكون بين هذه الصور تناقض فى المعنى وتعارض فى المراد وتضارب فى الهدف وهذا منفى عن القرآن قطعا فإن الروايات المختلفة والوجوه المتعددة التى تواردت على النص القرآنى لا تناقض فيها ولا تعارض فى معانيها ولا تضارب فى المراد منها بل كلها يظاهر بعضها بعضا ويشهد بعضها لبعض .

ولا ريب أن ما كتبه الشيخ محمد الغزالى والدكتورة بنت الشاطىء فى الرد على جولدزيهر عن كتابه الذى نشره له بالعربية الدكتور طه حسين (العقيدة والشريعة) يدحض هذه السموم الناقمات .

وقد ركز الاستشراق على علم أصول الفقه وعلى الفقه نفسه ، فقد تعرض هـذا العلمان للمد الاستشراقى فى الحاقد المغرض ، باعتبارهما الركائز الأساسية للإسلام ، وهم فى هذا المجال عمدوا — كما يقول الدكتور عجيل العشمى إلى إبراز كتب الخلاف وبنوا علماً مرونه الشريعة إلى حد وصل فى نهايته إلى أن أحكام الشريعة بنيت على الهوى أو يمكن أن تبنى على ذلك ، فهم :

(أولا) قد صوروا الخلاف بين علماء الأمة على أنه خلاف فى الأصول لا فى الفروع .

(ثانياً) أدعو أن الاستنباط الفقهى قد توقف لأن أحكام الاسلام كانت صالحة لفترة معينة أغلق باب الاجتهاد بعدها والغاية من هذا الأدعاء المضلل الوصول إلى القول بأن على المسلمين أخذ أحكام الحوادث المستجدة وفق منظور الفقه الغربى .

كذلك فإن كتاباتهم فى أصول الفقه مع قلتها تحمل من الخطورة مالا يقل عن خطوره كتاباتهم فى العلوم الاسلامية الأخرى ، فإن إرائهم المشوشة فى العقيدة الفكر الاسلامى — على حد قول الدكتور عجيل العشمى — إنما بنيت على نظرتهم وتصورهم الحقيقى لمصادر التشريع الاسلامى التى تكشفها كتاباتهم فى أصول الفقه وهم فى هذا يصدرون عن (١) سوء النية المبيت المكشوف (٢) الفصل بين الأدلة والأحكام وذلك مسلك خاطىء علمياً ، ذلك لأن علم أصول الفقه عنوان للأدلة الموصلة للإحكام أو للاحكام المبنية على الأدلة فهما فى لا زم الأمر وحقيقة شئ واحد ، وقد أدى مسلكهم هذا فى الفصل إلى الجهل بعلاقة صلة الاحكام بالأدلة مما أوقعهم فى استنتاجات خاطئة لا يقرها منطق علمى سليم ، ذلك أن الأدلة مقصودة لذاتها للتوصل إلى الأحكام الشرعية خاصة فينبغى النظر لكليهما فى آن واحد .

كذلك يؤخذ عليهم تلون كتاباتهم باللون السياسى الاستعمارى الحاقد وأخذت الكتابات حول واقع المجتمع الاسلامى تبرز بصورة براقة على أنها هى الاسلام والاسلام هو المشكلة .

وقد ساعدهم على ذلك ما كان يعيشه المجتمع الاسلامى وقتها من مشاكل

كبيرة فقد كانت الاضطرابات والثورات متلاحقة فى العالم الاسلامى الممزق وهى فى جملتها متأثرة بالعاطفة الدينية وبالسياسة وتنطلق من منطلق العداء للاسلام ، وهى فى أغلبها تدور على سوء الظن بالإسلام والمسلمين والتقليل من شأن الحضارة الاسلامية والتشويش المتعمد على العلوم الشرعية الاسلامية وتشكيك المسلمين فى دينهم بإثارة الشبهات المختلفة عن العقيدة أو الشريعة أو الفقه أو التاريخ وعموم العلوم الاسلامية ، فقد بدأ الاستشراق فى أحضان التبشير وبعد ١٨٨٠ بدأ الدس والطعن المكشوف والمعلن وتخصص لهذا كثير من المبشرين وغيرهم .

أما ماقيل عن موضوعية المستشرقين فقد انقلبت ناراً حامية على الاسلام والمسلمين عند ما حمى صراع الاوربين على مايسمى بالمسألة الشرقية مع بداية القرن التاسع عشر ويعنون بها مسألة دولة الخلافة مع استانبول ولكن لانه عدو للعلم والتقدم والحضارة فأخذوا يصفون بالاسلام بأنه رجعية وأخذت كتاباتهم تصور الاسلام فى هذا الثوب الرجعى .

بالنسبة لكتابات المستشرقين عن القرآن فقد اتسمت بإبراز المتشابه منه والقراءات الشاذة وتأويل الآيات وتحميلها أكثر مما تحتمل موافقة للرأى والهوى ، كما أبرزوا اختلاف وجهات النظر بين المبشرين وما إلى ذلك من منهج يرمى إلى التشكيك والتشويش فى مجال لدراسات القرآنية ولم يكن حظ الحديث وعلومه بأقل من ذلك بل أن مجالهم فيه أكبر وأوسع رحابه ، الأمر الذى مكنهم من إغراق المكتبة الاستشراقية بوافر من الكتب التى تشكك فى السنة شكلا وموضوعا فطعنوا فى طريق جمع السنة وفيما تحمله من تصورات تخالف ما جاء فى القرآن بزعمهم .

وفى نفس الوقت جعلهم ذلك جاهلين بصفة الفقه بالاصول الذى هو الثمرة العلمية التطبيقية للأدلة ، إذ الاستنباط الفقهى وليد الأدلة التى بينها أصول الفقه ، كما بين طريقة استخدامها للوصول إلى الاستنباطات الفقهية وأخطر أخطائهم استنتاجاتهم المبنية على عملية الفصل بين الأدلة والأحكام هذا الفصل خاطىء علمياً ومنطقيا .

(٢) وفى مجال آخر لا يقل خطورة نرى دعوى عريضة لايقاع الخلاف بين العرب والموالى اصطنعها فلوتن وآخرين وجعلوها قضية كبرى بهدف إثارة شبهات لم تكن موجودة فى حقيقتها ولكن أريد بها فى العصر الحديث ضرب المسلمين فرسا وتركا وعربا بعضهم ببعض ، وقد تمادى فلوتن عن النصوص وجرى وراء أهوائه فهو يسوق رأيه فى الفتوح الإسلامية وأثرها فى المجتمع مؤكدا أنها كانت بالدرجة الأولى من أجل الغنائم فأدت إلى ثراء فاحش فأفسدت المجتمع وأترفته وأغرت المسلمين بالمزيد من الفتوح للمزيد من الغنائم . ويستند فى هذه المعلومات إلى كتب تاريخية قديمة وقد استند فى ذلك إلى نصوص مجزأة جمعها ولوى اعناق نصوصها وأوغل فى فهمها وتفسيرها على نحو غريب . وهو يحاول أن يورد عبارة خاصة ليستخرج منها حكما عاما على نحو ساذج وماكر فى نفس الوقت فهناك عبارة فى الطبرى تشير إلى حوار بين سعد بن أبى وقاص وخازن المال عبد الله بن مسعود بشأن قرض لم يتم ، فإذا به يأخذ هـــذه العبارة ليصور منها معنى بعيدا كل البعد عنها ، فيقول أن حالة الترف المتصاعدة الجأت بعضهم إلى الاستدانة بطريقة فذة من أجل إشباع رغباتهم . وكيف يفهم من نص الطبرى أن هناك ظاهرة للاستدانة فى المجتمع وأنها أصبحت وسيلة لاشباع الترف الذى شاع وأى نوع من الترف كان فى مجتمع الكوفة عام ٢٦ هجرية . ونحن إذا نظرنا إلى الخبر بانصاف وجدنا فيه فخر للاسلام إذ لا يستطيع والى الكوفة أن ينال من مال الجماعة الإسلامية إلا قرضا ثم كانت أمانة خازن بيت المال الذى لم يسعه السكوت وأن الحاجة أو الفاقة هى فى الحقيقة التى الجأت سعد إلى الاستدانة .

ومعنى هذا خطير بالنسبة لفهم النصوص فهو ليس فقط يمثل العجز عن فهم النص ، أو عدم الاحاطة بالنصوص الواردة فى القصة الواحدة ، أو الخطأ فى التفسير والتحليل ، ولكن هناك سوء نية وخدمة أغراض تنصيرية واستعمارية .

(٣) ويطرد الهدف الاستشراقى ويبدو واضحا : أنه يرمى إلى تشويه الإسلام دعوته ونبيه وتاريخه تحت ستار البحث العلمى واعتساف التأويل والإستنتاج للوصول إلى النتيجة التى يهدفون إليها باسم البحث العلمى والعلم منها براء .

يقول جولد سيهر عن الرسول صلوات الله عليه وسلامه : فمنذ ترك مكة تغير الزمن ولم يعد واجبا بعد الاعراض عن المشركين أو دعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة كما نزل القرآن بذلك فى مكة بل حان الوقت لتتخذ سيرته لهجة أخرى [فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم] ويحاول بخبث منه أن يدعى أن منهج الدعوة الإسلامية تغير من اتجاه إلى اتجاه وتناسى هذا المستشرق الحاقد أن الجهاد الذى أعلنه الإسلام آنئذ وأن الغزوات التى قام بها النبى صلى الله عليه وسلم كانت ضرورية لبقاء الإسلام وبقاء المسلمين ، وكان لابد بعد المعاناة من المشركين وما كابد المسلمون من المشركين وهذا الظلم الذى أوقعه الكفار بالمسلمين . وأن الهلاك والموت الذى كانت تحمله قلوبهم وأيديهم يطاردون به الإسلام ، كان لابد أن يأذن الله للمسلمين بالقتال بأنهم ظلموا فى الدفاع عن عقيدتهم [أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير] .

أما عن منهج الدعوة فانه لم يختلف لحظة واحدة من الزمن ، كيف والذى رسمه هو العلم الحكيم من فوق سبع سماوات ، أن سمات المنهج الإسلامى فى دعوة الناس إلى الإسلام ثابتة لا يمكن بحال من الأحوال أن تتغير من مكان إلى مكان ولا من زمن إلى زمن لأنها صالحة لكل زمان ومكان .

(٤) وفى ميدان آخر هو « رسائل النبى صلى الله عليه وسلم » إلى الملوك :

فقد حرص المستشرقون على ظاهرة التشكيك المتعمد لواقعه إرسال الرسول ﷺ كتبا إلى ملوك وحكام الدول المجاورة للجزيرة العربية وقد وردت هذه الكتب فى صحيح مسلم وتاريخ الواقدى وفى سيرة ابن هشام وابن سعد فى طبقاته الكبرى وأضاف ابن القيم إلى ذلك أسماء رسل رسول الله إلى أولئك الحكام وما حشد لهم مع من أرسلوا إليهم : إلى المقوقس حاكم مصر : الصحابى حاطب بن أبى بلتعه إلى العلاء بن الحضرمى ، إلى قيصر : دحية الكلبى ، إلى كسرى : عبد الله بن حذافة السهمى ، إلى النجاشى : عمرو بن أمية الضمرى ، كما أرسل كتابه المنذر بن ساوى البحرى إلى العلاء الحضرمى .

وقد أشار إلى تلك الرسائل المؤرخ الانجليزى ويلز واعترف ادوارد جيبون بواقعة إرسال هذه الرسائل إلى هرقل فى كتابه اضمحلال الإمبراطورية

الرومانية وبعد أكثر من ألف وأربعمائة عام شاء الله سبحانه وتعالى أن يكشف أكاذيب المستشرقين ويفضح أساليبهم الملتوية بعد أن ظنوا أن افتراءاتهم قد إنطلت على الناس فقد عثر البعض فى الأردن سنة ١٩٧٧ على النسخة الأصلية للرسالة التى بعث بها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هرقل قيصر الروم .

وثبت من فحص المادة التى كتبت بها الرسالة وهى رقعة من الجلد وكذلك من تحليل الحبر الذى كتبت به ومن دراسة الخط الذى استخدم فى كتابة الرسالة والأقلام التى كتبت بها أنها جميعا أصلية لم يلحقها أى زيف فالرقعة من نفس النوع الذى كان مستعملا فى التاريخ الذى أرسلت فيه.

وقد جاءت فرية إنكار الكتب من المستشرقين التى أرسلها الرسول مقدمة لانكارهم وادعائهم بأن الإسلام ليس دينا عالميا ودعواهم الباطلة من أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يرسل للناس كافة وإن الإسلام دين محلى خاص بالعرب فقط دون غيرهم ، كذلك قال لامانس ، وكاتيانى ، وسيديو ، وجولد سيهر الذى يزعم فى كتابه (العقيدة والشريعة فى الإسلام) أن القرآن من وضع الرسول وليس كتابا منزلا ويزعم أن رسالة الإسلام قومية محلية .

(أحمد على المجذوب)

(٥) وهناك مؤامرة المستشرقين بالنسبة للطفل حيث يقول زويمر فى كتابه عن الأطفال فى الشرق : أن العرب عنوا بفروع العلوم والآداب كلها ووضعوا منها عشرات ومئات الألوف من المؤلفات ولكنهم مع وفرة ما ألفوا وترجموا ، أهملوا أطفالهم وصغارهم وأحداثهم فلم يضعوا كتبا لتعليمهم أو مطالعتهم . وقد نشر كتابه ١٩١٤ ولم يجسر أحد من أدبائنا على تزييف ما قاله ولم يأتنا أحد بكتاب واحد وضع فى صور الأدب الذهبية للصبيان والنبات ووضع المرسلون الأمريكيون كتبا للاحداث وأهتم بالأمر فى العصر الحديث كامل كيلانى ومحمد الهراوى مع أن الإسلام عنى بتربية الطفل على آيات القرآن وأحاديث النبى ووضع المنهج الصحيح لذلك وهو منهج يختلف اختلافا واسعا عن الصورة قدمها الغرب للطفل كما جاء فى حكايات السوبرمان وجيمس بوند والكرة وأفلام الجنس وأفلام

الجريمة ، فإن مجلة السوبرمان مجلة صفراء تبحث عن مسكنات مختلفة يتلقفها الأولاد فتفسد وجهتهم العربية والإسلامية حيث يقدم لهم (طرزان) الرجل الأوربى القوى الذى يعيش فى مجاهل وغابات إفريقيا وهو بطل آلاف القصص والأفلام التى تخدم الاستعمار .

والطعم الشهى الذى يقدم جيمس بوند بخلقه عالما زائفا يبعد الناس عن واقعهم الحقيقى ، رجل مؤامرات لايتحلى بفضيلة ما لأن الغاية عنده تبرر الواسطة ، وغرور القوة وغرور الثراء وأن من أسوأ الآثار فى نفوس أطفالنا المسلمين ما تتركه مجلة سوبرمان وغيرها من مجلات .

الفصل الرابع

المدرسة والمناهج التعليمية

كان الاستشراق هو مصنع الشبهات . وكانت المدارس والارساليات والمناهج التعليمية التى فرضها النفوذ الغربى على البلاد هى الحقل الذى اختبرت فيه هذه السموم وادخلت إلى القلوب والعقول الإسلامية لافسادها وتسميمها وتشويه وجهتها من الفطرة النقية إلى المادية والوثنية والاباحية بهدف تشكيل أجيال جديدة منقطعة الصلة عن دينها وأخلاقها وتراثها ولغتها وقيمها .

هذا الخطر الذى بدأ فى مرحلة الاحتلال الأجنبى مازال ممتدا فى مرحلة الاستقلال وفى مراحل التبعية التى تلت بعد ، والتى كان من المفروض أنها ترمى إلى تحرير الأوطان من التبعية ، ولكن الظاهرة الخطيرة أن صيحات الزعماء كانت تجرى للتحرر من النفوذ الأجنبى السياسى والعسكرى فى نفس الوقت الذى تزداد التبعية للفكر الاجتماعى والاقتصادى والتربوى الغربى .

ذلك لأن الذين تصدروا القيادات كانوا قد نشأوا فى إطار الأسلوب الغربى فى التعليم فهم أوليائه المعجبون به .

وفى العهدين التابعين للاستعمار ظلت تبعية النظام التعليمى للغرب والفكر الوافد وبقيت فيه جميع محاذيره وخاصة ازدواجيته بين المفهوم الإسلامى للعقيدة والمفهوم المادى للعلم وفى مقدمة ذلك نظرية دارون التى تخالف مفهوم الإسلام ، ونظرية فرويد فى علم النفس ونظرية دوركايم فى الاجتماع ونظرية الماديين فى تفسير التاريخ ونقد الأدب وتاريخه .

وقد كان حرص النفوذ الأجنبى على أن تبقى الأساليب التى وضعها ذنلوب لبناء عقليات ذات ولاء فكرى غربى يركز على الإقليمية والوطنية وتعزز مواقف الزعماء الذين كانوا أولياء النفوذ الأجنبى من رجال الأحزاب

السياسية الذين تصارعوا حول المطامع ، وقبلوا الاحتلال ونفوذه الثقافى والاجتماعى على بلادهم .

وقد حدد الأستاذ سيد قطب أهداف هذا النظام التعليمى الغربى الذى وضع أساسا فى مدارس الارساليات التبشيرية . ثم نقل إلى المدارس الوطنية فى عدة أهداف :

الهدف الأول : تخريج أجيال مجردة من العقيدة الدينية أو مزعزعة الإيمان على الأقل بالقيم الإسلامية ، وقد صاغ المواد الدراسية فى التاريخ والمطالعة بروح معادية للوجدان الدينى وبطريقة تخرج منها التلميذ والطالب وهو يعادى روح الدين وينفر من كل مايذكره به حتى إذا طالب دعاة الدين فى الزمن الأخير تقرير دراسة الدين فى المدارس اصطدمت حصة الدين بكل رواسب الروح المعادية للدين فى المنهج كله ذلك أن روح المناهج والخطط المدرسية ماتزال إلى هذه اللحظة تسير على نفس الخط الذى رسمه دنلوب فى هذا الاتجاه ، لقد تخرجت أجيال كثيرة وفى أعماق مشاعرها هذا الشعور المعادى للأديان جميعا ، روح مادية مجردة من المشاعر الروحية . ولم يكن دنلوب يقدر أن الشيوعية ستزحف وأن المادية هى التربة الخصبة لبذور الشيوعية ، لقد كان الرجل مشغولا بتحطيم القوة التى يمكن أن يتماسك بها الشعب فى وجه الاحتلال الإنجليزى والتى تماسك بها أخلاقه من مغريات الاستعمار الغربى على وجه العموم ، وقد كان طبيعيا أن الرجال الذين تتلمذوا على خطة دنلوب هم الذين يوجهون وزارة المعارف .

(الهدف الثانى) : من أهداف دنلوب وهو متصل بالهدف الأول — هو تخريج أجيال مجردة من الاعتزاز القومى ، أو مزعزعة الإيمان على الأقل بالقيم المصرية والشرقية على العموم ، ومن هنا جعل كتب التاريخ ودروسه محلا لتمجيد انجلترا على وجه خاص وأوربا بصفة عامة ، وفى الجغرافيا اهتم باغفال كل مايذكر الطالب بوطنه أو بالشرق كله . وتخرجت على هذه المناهج عشرات الاجيال مؤمنة بأوربا كافرة بمصر والشرق تحس بالضآلة إلى جوار ذلك العملاق الضخم . — الرجل الأبيض — لقد بنى دنلوب امبراطورية الرجل الأبيض فى وجدان الالوف وعشرات الألوف من المصريين دون وعى وشعور وظل الشعور بعظمة بريطانيا وأوربا قائما فى وجدان الزعماء وبقى الفتى والفتاة يمجدون

انجلترا وفرنسا وأمريكا بإيمان العابد الذى يلحد فى الله ولا يلحد فى عظمة هذا العملاق الموهوم الذى دسته عصرية دنلوب فى إخلاد الألوف.

(الهدف الثالث) : إقصاء كل الشخصيات التى يمكن أن تفسد عليه خطته الرهيبة فى مجال التوجيه بل فى مجال التأثير فى وزارة المعارف ومن هنا حكم على جميع الذين لم يتثقفوا ثقافة أوربية — أيا كان علمهم وأيا كانت كفايتهم — أن يكونوا منبوذين من الوظائف الرسمية فى الوزارة . أولا لكى لا يكون لهم رأى فى توجيه سياسة التعليم وثانيا لكى تمتهن فيهم الثقافة العربية والصفة الدينية فتظل محتقرة فى مشاعر تلاميذهم فقد كان يرمى أساسا إلى تحقير الثقافة العربية الدينية وأبعاد من يمثلونها عن مراكز التوجيه

(الهدف الرابع) : تخريج أجيال مجردة من المشاعر الشعبية منعزلة عن كتلة الشعب لكى يبقى القادة وهم المتعلمون فى جهة وتبقى كتلة الشعب فى جهة فلا يتفق القادة والشعب فى مشاعر واحدة وأهداف واحدة فى مقتبل السنين .

ومن ذلك عمد إلى إقامة عقبات السن والكشف الطبى والمصروفات فى وجوه الكثير وكلما كثرت الحوائل شعر الذين يجتازونها بأنهم طبقة ممتازة وشعر العاجزون عن اجتيازها بالضآلة .

(الهدف الخامس) تخريج أجيال مجردة من الثقة بالنفس ومن الشجاعة فى التبعية ومن القدرة على الابتكار والتعبير ، ولقد وضع النظام المدرسى ونظام الديوان كما وضع المناهج والكتب وحدد العلاقة بين الرؤساء والمرءوسين وبين الأساتذة والتلاميذ بطريقة معينة يحقق له تلك الأهداف الرهيبة ، .

وجاءت الموجة التالية من المصريين لتحمل أهداف كرومر وتمضى بها إلى غاياتها فدعا لطفى السيد إلى منع التعليم عن الشعب وقصره على أبناء السراة لأنهم هم الذين سيحكمون مصر ، وأعلن سعد زغلول الاصرار على بقاء التعليم باللغة الإنجليزية ورفض صيحات الوطنيين فى استعمال اللغة العربية ، ثم جاء طه حسين ففتح الطريق واسعاً إلى تغريب التعليم تغريبا كاملا ، ومهد السبيل

أمام مختلف الثقافات والعلوم والترجمات وفرض تعليم اللغتين اللاتينية واليونانية بغير حاجة إليهما على الجامعات وقدم مناهج تعليمية تغرى بإعلاء شأن الفنون اليونانية كالخطابة وغيرها على العربية ثم دعا إلى منهج التعليم الفرنسى فى صراع ضخم بينه وبين إسماعيل القبانى الذى كان يحتضن منهج ديوى والأسلوب الأمريكى ومن قبل استمر الصراع بين الثقافتين الفرنسية والانجليزية أمداً طويلا .

ثم فتح طه حسين الطريق إلى الفكر الصهيونى والفكر الماركسى جميعاً مع أنه كان داعية الفكر الليبرالى الغربى وهذا هو الذى مهد للعصر الذى غلبت فيه الشيوعية بكل سمومها وسوءاتها .

ولقد كانت خطة الغزو الثقافى والتغريب فى مجال التعليم هى أشد الخطط دهاء ومكراً من حيث أن احتواء المسلم عقليا وثقافيا هو العمل الأكبر الذى يتطلع الغرب إليه من أجل صناعة أجيال تابعة مستسلمة ، منهرة . ولقد عمد صناع هذه المناهج على الفصل بين التراث الإسلامى وبين الثقافة العصرية وأقاموا بناء التعليم على هذا الفصل بعد أن كان التعليم يرتبط بالدين والتراث ، فالمدرسة العصرية فى مصر والبلاد العربية منفصلة عن التراث الإسلامى تستمد أصولها الفكرية من العلم الأوربى والثقافة الأوربية ، وفى كل مواد الدراسة تبدأ عادة بأصولها من الفكر الإغريقى ثم الفكر الرومانى ثم يشار إلى العصور الوسطى كفترة جهالة وظلام ثم يجرى إغفال ما بعد ذلك إلى ظهور النهضة الأوربية ويجاهل الضياء الإسلامى الكاسح الذى عم العالمين حتى لا يعرف الطلاب بلادهم ولا أمتهم ولا تاريخهم ، وهكذا يجرى بنشئته أجيال الشعوب العربية فى ظل التبعية للفكر الغربى بعد انتهاء السيطره الاستعمارية ومن ثم تنشأ هذه الأجيال منفصلة عن تراثها العريق فلا يحيط الطالب المسلم بالفكر الاجتماعى الإسلامى (المتصل بالاقتصاد والتربية والسياسة) عندما يدرس العلوم السياسية أو الاقتصاد أو الاجتماع لأن المراجع الأساسية التى تقدم له ويدرسها ويمتحن فيها تسقط من أصولها نهضة الإسلام وتسدل عليها ستار العصور الوسطى . ومن شأن هذا أن يوقع أبنائنا فى خطأ الاعتقاد بأن العلم الحديث إنما نبع من تراث الإغريق

والرومان قبل العصور الوسطى ومن الفكر الأوربى فى عصر النهضة وفترة ما بعد النهضة وهذا ما يسمى بالتأصيل أى إعطاء الفكر المعاصر فى عالمنا الإسلامى عنصر الأصالة بربطه بجذوره التاريخية لتكون هذه الجذور أصوله الفكرية النابعة من التراث .

وإذا استمرت الأمة المسلمة مفرطة فى تراثها وفى أصالتها بمفهومها الخاطىء للعصرية عن طريق التقليد الأعمى فإنها تربط نفسها بذلك مع سفينة على وشك الغرق ولا بد أن نغرق معها » .

وإذا كان لنا أن نتحدث عن أخطار المنهج الغربى فى التعليم لقلنا أن أخطار ما هنالك أن مفاهيم السياسة والاجتماع والاقتصاد التى تقدمها هذه المناهج تختلف مع مفاهيم الإسلام ، وهى مفرغة من الإيمان بالله ومن البعد الالهى لحركة الحياة ومن أخلاقية الحياة .

ومنها خطر توحيد مناهج التعليم بين الرجل والمرأة ، وقصور التعليم على المفهوم المادى مع استبعاد المفهوم الروحى والمعنوى ، وعدم بروز الوجه العربى الإسلامى لمختلف المناهج ودور الإسلام فيها وكذلك فى محاولة إخضاع العلوم الإنسانية لمناهج العلوم التجريبية المادية .

الفصل الخامس

الجامعة وتبعية المناهج الجامعية

خضعت الجامعة فى مصر والبلاد العربية للتبعية الغربية فى مناهج التعليم فأصبحت لا تدرس المفاهيم الإسلامية بل المذاهب الغربية (الرأسمالية والماركسية) والتى ثبت فشلها سواء أكانت اقتصادية أم تربوية أو اجتماعية .

ومن هنا فإن الضرورة أصبحت تحتم إعادة النظر فى فروع الثقافة والعلوم التى مازلنا ندرسها فى جامعاتنا ومعاهدنا وينعكس أثرها على طلابنا وطالباتنا فى مختلف مراحل التعليم ، هـــذه الفروع التى تشمل العقيدة والتربية والنفس والاجتماع والأخلاق والأدب والفن والتاريخ والفلسفة والاقتصاد ، وسياسة المال وكل ما يتصل بالجانب النفسى والاجتماعى والأخلاقى ، هذه الفروع للأسف الشديد ما تزال تدرس حتى الآن من وجهة نظر الثقافة الأوربية الاستعمارية والمسيحية إلى حد كبير .

وما نزال نترك أبنائنا ضحية التبعية للحضارة الأوربية المنهارة أو بوقالها وإن جامعاتنا لا تزال تقوم بدور (التغريب) بدلا من التعريب (عدنان زرزور).

ويعنى تعريب التعليم الجامعى (الذى هو ضرورة لوصول المسلمين إلى مرحلة الرشد الفكرى) إنما يعنى الانتقال من مرحلة التعليم للفكر الغربى أولا وباللغة الأجنبية فلابد من إسلامية التعليم وتحرير مناهجه وأن يقوم ذلك التعليم باللغة العربية مع المحافظة على تعلم واتقان لغة أجنبيه أو أكثر من أجل العودة إلى المراجع الأجنبية . وتأتى خطوة بعد ذلك هى القيام بالأبحاث العلمية الحقيقية المناسبة التى تساير تطور الركب العلمى والتى تعتبر مساهمة حقيقة فى بناء حضارة هذه الأمة عندما تكتب هذه الأبحاث باللغة العربية ، فلابد

من إستيعاب الطالب للمادة العلمية بلغته حتى تتحرك فى مزاجه وروحه وكيانه الإسلامى .

ومن هنا فإنه لابد من تحرير الجامعات ومراكز البحث العلمى ومناهج التعليم من رواسب التبعية الثقافية والمؤثرات الأجنبية، حتى ينكسر هذا الإطار الايدلوجى الغربى المسيطر على العلوم والثقافات ، فإن هؤلاء الذين تسكونهم الجامعات اليوم إنما هم قادة الأمة فى المستقبل القريب ومن أجل هذا يجب أن تكون عملية الانبهار بالغرب ومدنيته قد تضاءلت تماماً وحل محلها نقد علمى واع لتجاوزات المناهج الغربية البشرية التى هى من صنع الانسان لمتغيرات الزمن والبيئة ، على النحو الذى كشفه علماء الغرب أنفسهم من فساد تلك النظريات والفروض التى قدمت فى مجال العلوم والفلسفات ومناهج الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، ولابد من غرس الولاء والوعى الإسلامى لدى الدارسين وتوجيه نظرهم إلى بدائل إسلامية فى كل هذه المجالات من منهج الله الأصيل الجامع ، الذى عاشت عليه الأمة أربع عشر قرنا وبنى كيانها ورد عنها عدوان خصومها ، ورتب لها أسباب نصرها ونهضتها وخروجها من المحنة والأزمة كلما حاقت بها، فالمسلمون هم الذين صنعوا المنهج التجريبى التى بنى عليه هذا التقدم وما زال المنهج الغربى عاجزاً عن الاجابة عن تساؤلات النفس الإنسانية ، عاجزاً عن العطاء الذى يحقق أشواق الروح .

والواقع أن الوقت قد حان لإعادة النظر فى برامج التعليم بعد أن مضينا زمناً طويلا قابعين فى قنوات مظلمة : للنقل من مناهج التعليم الأوروبى ، بدلا من العودة إلى الأصالة .

ولقد كان المستشرق جب صادقا عندما قال أن المدارس الاجنبية فى العالم الاسلامى كانت مفسدة لقومية التلاميذ لأنها أدت إلى تمزق الأواصر التى كانت تحفظ تماسك المجتمع الاسلامى ، وهو يقصد تمزيق الوحدة الاسلامية ونحن نضيف أنها كانت مفسدة أيضا لأخلاق التلاميذ فقد حالت دون حملهم أمانة حماية الأمة من عمليات احتوائها والقضاء على كيانها وتحطيم ذاتيتها .

وقد أجمعت الآراء الناضجة على أن المهمة التى تقع على عاتق الجامعيات الاسلامية أن تبطل تأثير التيارات الوافدة التى ترمى إلى تصفية ثقافتنا بوصفنا أمة واحدة والقضاء على مصادر الطاقة التى عليها المعول فى بقاء حياة المسلم وقدراته

ومن العجب أن الجامعات فى مختلف أنحاء العالم نشأت فى يؤره التراث إلا جامعاتنا التى نشأت بعيدة عن الأصل الأصيل فهى لم تنبثق من الأزهر وإنما أنشئت لتواجه الأزهر وتعارضه وتوجه الثقافة وجهة أخرى يصبح فيها الأزهر مجمداً منطفىء الانوار داخل دائرة التجميد ، فإذا قبل أنه التعديل والتغيير ومطاولة العصر ضرورة قلنا فإن ذلك لايكون على حساب القيم الأساسية ، إن التعليم أساساً يجب أن يبنى الشباب على الايمان بأمته وعقيدتها وفكرها والدفاع عنها ومحاولة دفعها إلى الامام دون أن تخرج عن أطرها وقيمها ومقوماتها الأصيلة . أن أساس الجامعات هو الاستمداد من المنابع والحفاظ على طابع الأخلاقية العلمية ، وهو ماحاولت تلك القيادات التى فرضت على الجامعات أن تحول دونها .

كذلك فإن هذه الجامعات اعتمدت مناهج الجامعات التى أنشأتها الارساليات التبشيرية فى البلاد العربية وكان فى مقدمتها :

أولا : الدعوة إلى العلمانية فى أوساط المسلمين وأبعاد المسلمين عن حقيقة دينهم .

ثانياً : تفسير التاريخ الاسلامى تفسيراً مادياً .

ثالثاً : الدعوة إلى العامية وأن يحل الحرف اللاتينى محل الحرف العربى وأحياء اللهجات وقد دعت الجامعة الامريكية إلى شعار « تسهيل اللغة » وألف أنيس فريحة كتابه تبسيط قواعد اللغة العربية وقد تلقف هذه الدعوة الدكتور طه حسين ونصارى لبنان.

وتجلت الدعوة إلى هذه الفكرة المسمومة فى مؤتمر أزمة التخلف الحضارى الذى عقد فى الكويت وحضره غلمان المستشرقين.

رابعاً : دعم اللغات الأجنبية وإحياء اللغة اليونانية القديمة .

خامساً : إحياء الولاء الغربي والبطولات الغربية ، وتهوين شأن النفوذ الأجنبي فقد استهدف التعليم العلماني إنشاء أجيال من المثقفين منسلخة عن الإسلام وجاهلة به ، تسخر منه وتعاديه ، مع التعلق برجال في التاريخ الأوربي من أرسطو وأفلاطون إلى رسل وسارتر معظمة للقادة الفتوح من الساسة الغربيين من أمثال هانيبال إلى بونابرت إلى جورج وشنطون .

سادساً :محاولة تصوير الإسلام في دراساتهم عائقا بوصفه دون التقدم الحضارى الذى وصل إليه الغرب (فكما أن الغرب لم يبلغ هدفه إلا بعد حصر المسيحية داخل جدران الكنيسة وأبعادها عن التعليم والمجتمع والحكم) فإن الشرق الإسلامى لن يتمكن من النهضة إلا بحصر الإسلام داخل جدران المسجد إذ لم يتم الاجهاز عليه نهائيا وبذلك ينفتح الطريق أمام التقدم والتحضر .

سابعاً : عزل المسلمين عن تاريخهم وماضيهم (الذى يمثل فترة الازدهار الحضارى علما وعمرانا وقوة) جعلت المسلمين فى الصدارة بين العالمين .

ثامناً : محاولة محاكمة الإســـلام إلى طبيعة المسيحية ومفاهيمها فى مغالطات واضحة .

(١) فالإسلام لايعيق التقدم العلمى بل يدعمه ويجعل العلوم والصناعات من فروض الكفاية بينما كانت النصرانية المحرفة فى الغرب تقف أمام جهود العلماء وتمنعهم من إعلان الحقائق العلمية وتضطهدهم .

(٢) يمثل الإسلام شمول العبادات والمعاملات والسياسة الشرعية فى الداخل والخارج فهو ليس كالمسيحية علاقة بين العبد والرب تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله بل ترى أن الكل لله . ومن هنا لايمكن حصر الإسلام فى المساجد كما حصرت المسيحية بين جدران الكنيسة الذى هو طبيعتها ونظامها من حيث أنها دين رهبانية .

(٣) أن جميع حركات المقاومة للاستعمار انطلقت فى مطلع هذا القرن من داخل المساجد وتحت شعار (الله أكبر).

وهذا يعنى أن حجب الإسلام عن المناهج الدراسية يحرم المسلمين من أعظم القوى المعنوية المؤثرة فى جماهيره والدافعة إلى البذل والتضحية والتى كانت سند المسلمين فى المحن التاريخية منذ مواجهة القوى الصليبية قديما والقوى الاستعمارية والصهيونية والماركسية الجديدة .

وهكذا نجد أن التعليم كان عاملا خطيرا فى تأخير النهضة وأن احتواءه وتغريبه كان له أثره البعيد فى النتائج التى ترتبت على ذلك مما لحق بالأمة الإسلامية من إستهانة بالقيم الإسلامية والتمسك بالالتزام الأخلاقى فى بناء المجتمعات الإسلامية .

طه حسين (التعليم كالماء والهواء)

يقول الدكتور فتحى حوده :

إن إثارة موضوع تدهور التعليم والثقافة فى مصر يحرك اللواعج الكوامن حول غاشية الجهالة المقنعة التى رانت على أبناء هذا الجيل كله أو جله منذ أن فتحت أبواب المعاهد على مصاريعها لكل واغل أو وارش وبغير تحديد أو تمييز أو أهبة مناسبة من المعلمين الصالحين وأدوات التعليم فى مختلف الفروع ، والعجيب أن يكون المسئول الأول عن هذه المحنة هو (طه حسين) رمز الثقافة الرفيعة ومحاميها وأن تبدأ هذه المحنة كلها بلعبه بيانيه منه حين طاب له تشبيه العلم بالماء والهواء اللذين لايستغنى عنها مواطن من حيث هو مواطن ، أو إنسان من حيث هو إنسان .

وقد كان لعميد الأدب العربى على حصافته وفطنته ولع غريب بالتعميم وإطلاق الأحكام ثم الانطلاق وراءها إلى أقصى غاياتها ولا سيما فى المجالات الإصلاحية التى تهمه منها النتائج القريبة العاجلة والظاهر الخاطف والوامض دون كبير تدبر أو تفكر فى آثار التطبيق على الزمن الممدود ، أما العقاد المولع بالتحقيق والتدقيق فقد أجاب بأنه إذا صلى القول بأن التعليم كالماء والهواء فإن من غير المجحود أيضاً أن هذا التعليم المشاع كالطوفان الداهم المغرق المجتاج إلى كل اليقظة فى كبح جماحه وتوقى إخطاره والتأهب له قبل موعده بالحواجز والسدود والقناطر التى تضبط مساره وإثاره . ثم أضاف العقاد قولته المشهورة : أن تشبيه العلم المباح بالطوفان يقل بلاغة عن تشبيه بالماء والهواء وقد قصد العقاد من ذلك أن ينبه إلى أن هذه المسألة أخطر من أن يقطع فيها بفنون البيان والبديع ولا مندوحة فيها عن تحكيم العقل والمنطق .

وفى الزحام ضاع صوت العقل وساد حكم الهوى والعاطفة لاسيما بعد

أن قامت الثورة ورفعت شعاراتها التى ركبت بها الجماهير موجه طه حسين وتركت فلك العقل والروية التى فيها النجاة من هذا البحر المسجور .

وهكذا فتحت مدارس وجامعات غير محدودة كلها بالمجان وهو أمر لانظير له حتى فى الاتحاد السوفيتى . واستعين بألوف من المعلمين وغير المؤهلين وغير الملتزمين ممن ضنوا على هذه الحشود المحشودة بما لديهم من قشور وولوا وجوههم شطر الدروس الخصوصية أو دنانير البلاد العربية وإنساهم ذلك كله رسالتهم بل أنساهم أنفسهم وبلغ بهم الاستحقاق أن ينقلوا الطلاب بجهلهم وعبلهم إلى الصفوف الأعلى وأن يعطوا فى تصحيح الشهادات العامة مئات فى المائة لعباقرة زائفين تنكشف عوراتهم فى الجامعة ، ولم يعد الغش والفساد مقصورا على الطلبة بل شارك فيه المعلمون والمتعلمون جميعا وذلك بشهادة (طه حسين) نفسه فى (مستقبل الثقافة فى مصر) ولقد كان كاتب هذه السطور أول القطر فى جميع الشهادات العامة وكان بينه وبين من يليه فى شعبة الآداب بالشهادة التوجيهية (الثانوية العامة) ثلاث عشرة درجة ومع ذلك لم يزد مجموعة الكلى عن ٨٥٪ وكان ذلك رقما قياسيا غير مسبوق فى أيام اعتدال الموازين وانضباط المقاييس واستقامة الضمائر فى تلك الأيام الخوالى كان المعلم معلما حقا ، يستحق أن يقام له وفاء لتبجيله وعرفانا بأياديه وثقافته فى آداء واجبه وتبليغ رسالته وصبره على الاعادة والافادة حتى يصل إلى إفهام أغبى وأعدى تلاميذه الماثلين ، وكانت الدروس الخصوصية (نزاكة) لايطلبها ولا يقبل عليها إلا الأغنياء الموسرون الذين يتخذون منها مادة للتباهى وكان آخر ما أقل ما تقرأه هو كتب الوزارة المقررة ، إذا كانت الدراسة فإذا كانت العطلة فقد كنا نقرأ المنفلوطى والعقاد وطه حسين والرافعى ومنا من كان يقرأ عيون التراث ويحفظ المعلقات السبع ، وكنا نقرأ أيضاً لشكسبير وديكنز وستيفنون ووالترسكوت فى أعمالهم الأصلية أو الميسرة ونحن لم نزل فى المرحلة الثانوية .

وقد بلغنا هذا المستوى لأننا درسنا فى المرحلة الأولية الأساسية القراءة والكتابة والحساب وحفظنا القرآن ، فكان لنا نورا هاديا مرشدا وكان نعم الزاد لأرواحنا وقلوبنا وألسنتنا ومازال رأيى أنه لن ننجب

أبدا فى اللغة العربية أى إنسان لا يكون أساس تكوينه القرآن ، ثم بدأنا تعلم اللغة الإنجليزية منذ أول صف فى المرحلة الإبتدائية ، وكان مقرراً علينا فى الصف الرابع روايتان كاملتان بتلك اللغة يتم منها الامتحان الشاهد لمن يختاره بالاتقان فليس بغريب إذن أن يقف تعليم العقاد عند الشهادة الابتدائية فى تلك الأيام ويتفق له منها هذا الرسوخ والتمكن فى اللغة الانجليزية التى كانت لغة ثقافته الأجنبية ، كذلك كان يتحقق لنا إتقان اللغه الفرنسية على امتداد خمس سنوات .

ولن يصدق هـــذه (الأساطير) أحد من أبنائنا وأبناء مدارس الماء والهواء من لاحظ لهم فى معلم كفء أمين مخلص أو فى معهد منظم مجتهد متأهب ومن كتب عليهم أن يتثقفوا على يد ذلك الصندوق الأمين المعروف بالتلفزيون فى حلقات الهارب والرجل الأخضر والفتاة الخارقة وغيرها من مواد الهلوسة الأمريكية والذى تطلع علينا إحدى مذيعاته المثقفات بأنه غير صحيح مايشاع من أن أبا العلاء رهين المحبسين فنسب إلى معرة النعمان وإنما وإنما هو أبو العلاء المصرى المنتمى إلى مصر لحما ودما ، وقد يكون هـذا من فرط الغيرة الوطنية عند هذه المذيعة ولكنها سقطة ثقافية بشعة تعطى مؤشرا للثقافة المتاحة لجيل الماء والهواء وهى ثقافة لن تبلغ الافهام ولن تتجاوز مواطىء الأقدام إذا صح أن هناك ثقافة أصلا .

ولا شك أن المصيبة أعظم فى الكليات العملية وعلى رأسها كلية الطب التى يتهافت عليها الجميع . اين خريجو الطب اليوم ومنهم من يتخرج ليمارس الجراحة وهو لم يجرب التشريح قط على امتداد دراسته ومن الذى يثق بهم أو يأمن لهم أو يطمئن إلى رأيهم ورأى أساتذتهم فيهم معروف ونسبة نجاحهم فى امتحان المعادلة الذى يجرى لهم فى انجلترا اثنان فى المائة على أكثر تقدير .

الفصل السادس

تغريب الأزهر

منذ جاء النفوذ الاستعماري الغربي كان حريصا على احتواء الأزهر فقد شهد موقف المقاومة التي أثارها علماء الأزهر وكذلك ما قام به الأزهر من مواجهة الاستبداد الداخلي وقد كان له موقفه مع الأمراء المماليك في مواجهة ظلاماتهم فقد اشتكى الناس من مظالم الأمراء فاتجهوا إلى الشيخ الدردير في الجامع الأزهر ، الذي أمر بدق الطبول على المنارات إيذاناً بالاستعداد لمهاجمة بيوت الأمراء ونهبها فلما بلغت أخبار الجماهير الثائرة الأمير ابراهيم بك وبلغه تصميم الشيخ الدردير على قيادة الشعب ضد الأمراء ، خشى أن يستفحل الأمر فأرسل يعتذر عما حدث ووعد بأن يكف أيدي الأمراء عن الشعب وكتبوا كتابا بذلك احترم فيه الحاكمون إرادة المحكومين (حسبما أورده الجبرتي في الجزء الثاني من تاريخه) .

وكان للأزهر موقفه من الحملة الفرنسية ومن محمد علي حين دخل مرحلة الاستبداد ، وعرف الاستعمار البريطاني مدى خطورة الأزهر على وجوده منذ احتل مصر سنة ١٨٨٢ ولذلك نجد أن كرومر المعتمد البريطاني في مصر يقول في تقريره :

إن التعليم الوطني في قبضة الأزهر الشديد التمسك بالدين والذي يقف حاجزاً في طريق أي إصلاح تعليمي ، وكان الطلبة الذين يتخرجون منه يحملون قدراً عظيما من غرور التعصب الديني فلو أمكن (تطويره) لكان خطوة جليلة الخطر فليس من اليسير أن يتصور أي تقدم لنا ، طالما ظل الأزهر متمسكا بأساليبه وإذا بدا أن مثل هذه الخطوة غير متيسر تحقيقها فحينئذ يصبح الأمل محصوراً في التعليم اللاديني الذي ينافس الأزهر حتى يتاح له الانتشار والنجاح»

وهكذا بدأت حملة انتقاص دور الأزهر الخطير على الاستعمار والاستبداد جميعاً على أكثر من محور .

(أولا) تقليص دور الأزهر بالتوسع فى التعليم اللاديني .

(ثانياً) إنشاء الجامعة الأمريكية التى أريد بها تحويل الأنظار عن الازهر .

(ثالثاً) إنشاء الجامعة المصرية التى حملت منذ اليوم الأول مخطط التعليم العلماني والتى قام عليها طه حسين وأمين الخولى وأحمد أمين ، وهكذا وضع الاستعمار البريطاني خطة تطوير الازهر التى امتدت حتى حققت غايتها عام ١٩٥٦ عندما وضع القانون الذى ألغى المحاكم الشرعية وحول كلية الشريعة إلى كلية لدراسة القانون الوضعى وتخريج قضاة ومستشارين أزهريين يحكمون بقانون نابليون إلى جانب قضاة كلية الحقوق .

ويشير الدكتور محمد البهى إلى خطة احتواء الأزهر فيقول أنه فى عام ١٩١٥ وردت رسالة من المستشار الإنجليزى (دنلوب) إلى شيخ الأزهر تتأسف فيه وزارة الخزانة لأن المبلغ الذى خصص للازهر قليل وقد وعد أن تصرف وزارة الخزانة مبلغ ثمانية آلاف جنيه للأزهر بشرط أن تنتقل أوقاف الأزهر إلى وزارة الخزانة ثم أنشئت وزارة الأوقاف التى استمرت بميزانية مستقلة حتى جاءت حركة الجيش فى يوليو ١٩٥٦ حيث صدر قرار بضم الأوقاف إلى الحكومة.

فأصبح رجال الدعوة الإسلامية ورجال الأزهر غير مستقلين وانتهى الأمر بأن أصبح رجال الأزهر ورجال الدعوة موظفين لدى السلطة وأصبح رجال الأزهر يتحدثون عن (الاشتراكية) وهى (ماركسية) من أجل أرضاء الأحزاب والسلطات كما تسلل الروتارى إلى الحركات قبل حركة تحرير المرأة فى بلاد المسلمين ويستقطب العلماء والمفكرين والصحفيين ، ثم أنشىء فى جمعية الشبان جمعية للتقريب بين الأديان .

كذلك فقد أنشئت الكلية الإنجليزية الأمريكية فى الأزهر لتجارب الأزهر وأنشئت فى استانبول لاسقاط الخلافة ولأن القائمين على هذه الكليات يعتقدون

إنه لا بد من تقويض الأزهر ولابد من هدمه وكذلك الخلافة الإسلامية والتركيز على القوميات لزرع العداء بين المسلمين .

ولا ريب أن تقليص التعلم فى الأزهر وتفريغه من عوامل قوته التى أعطته القدرة على الجدل مع المستشرقين ، ومقاومة المستعمرين . والمستبدين هى العامل الأول فى هذا المخطط الذى قضى فى المرحلة الأولى على تكامل المعرفة الإسلامية حيث كان عالم الإسلام جامعاً للجوانب الفقهية واللغـــوية والعقايدية جميعاً على طريقة الأزهر الأساسية وهذه هى ما افتقدها بالتقسيم التى تم عام ١٩٢٦ ثم كانت المرحلة الثانية بعد ثلاثين عاماً لنفقده جوهره الأصيل فقد كان قانون تطوير الأزهر بمثابة تمكين التيارات المعادية للإسلام من تجريد هذه الجامعة الفريدة من كثير من مقوماتها الأساسية حيث فرضت عليها ألواناً من المعرفة التى قد تصطدم أصول بعضها مع التصورات الإسلامية وخاصة فى مجال الشريعة الإسلامية والقانون الوضعى حيث تقلصت العلوم الإسلامية والعربية فى الأزهر وفرضت المواد القومية والاشتراكية وهى مواد بتجاهل الإسلام فى أسسها وتحاليلها وغاياتها وذلك لكى يسدوا بها الفراغ العقائدى التى سببه تجريد الأزهر من رسالته وإبقاء المدارس والجامعات على مناهج كرومر ودنلوب الاستعماريين .

وكان من أخطر المحاذير دخول طلبة الأزهر المعاهد الدينية دون حفظ القرآن حفظاً كاملا ، حيث لا يتصور أن يتقدم عالم إسلامى للناس ليؤمهم ويفتيهم ويقضى بينهم وهو لا تحفظ القرآن وهذا أخطر ما فى عملية تطوير الأزهر بل هى فى نظر البعض كارثة ، فلن يكون عالما صالحا الشىء مالم يستطيع أن يعرف أحكام القرآن .

وقد كشفت الأحداث عن أن علماء كلية الشريعة والقانون أصبحوا يصدرون أحكاما فاسدة لأنها قامت على جهل بالشريعة ، هذا الجهل راجع إلى سوء ماوصل إليه العلم فى الأزهر ونتيجة القشور التى تدرس فى كلية الشريعة أو غيرها .

وشهد بذلك بعض من تركوا المحاماة الشرعية بأنهم وجدوا القضاة لا يعرفون البسائط من الشريعة الإسلامية . ومن المعروف أن الدكتور طه حسين هو أخطر من دعا إلى تطوير الأزهر حين كتب مقالاته (الخطوة الثانية) وهى إلغاء المعاهد الدينية بعد إلغاء المحاكم الشرعية ، والمعروف أن تخصص القضاء الغى فى كلية الشريعة قبل التطوير عام ١٩٥٥ فلم تعد تخرج قضاة ، ولما أدمجت المحاكم الشرعية فى المحاكم الوطنية لم يعد لها من يغذيها أوجدت كلية الشريعة مثل البحر الميت على حد تعبير الدكتور سعاد جلال . وقال انصار التطوير أنهم أرادوا به اللحاق بالحياة مع المحافظة على الاصالة الإسلامية ، وفى كلية الشريعة تمزقوا بين دراسة القانون ودراسة الشريعة وفى كلية اللغة العربية تاريخ دون نحو وأدب دون لغة أو دون دين وضاع تكامل الدراسة الذى عرفت فى كتب المتقدمين بعد إلغائها .

ولما كان الأزهر — كما يقول الأستاذ محمد عطية خميس — أمانة الفصل فى الخلافات الشرعيـــة التى تنتظم حياة الامة كلها أفراداً وجماعات ، حكاما ومحكومين ، فإن استقلال الأزهر كقوة شعبية هو من أهم الضمانات لتحقيق التوازن الدستورى ، وفى النظام الإسلامى يعتبر العلماء هم أهل الشورى الذين يمثلون الإرادة الشعبية ، وهكذا عملت القوى المختلفة على تجريد الأزهر من جميع أوقافه ونهبها منذ عصر محمد على وهم يحتالون الأمر حتى أمكنهم بالمكر والخديعة أن يستولوا على أوقاف الأزهر ويعطوه مالا من خزانة الدولة . وقد استولى الانجليز أبان ثورة ١٩١٩ (بعد أن أزعجهم دور الأزهر فى مقاومتهم) على اقتحام مكتبة الأزهر والاستيلاء على حجج أوقاف الأزهر للقضاء على قوته ولاضعافه وتدمير استقلاله ، وخاصة أوقاف الطعام والانتقال .

وفى خلال الاستعمار البريطانى أصبحت تبعية الأزهر للسلطة الوطنية ، وصدر القانون ١٨٩٥ ، ١٨٩٩ ومابعدها ، وبعد وفاة الشيخ أبو الفضل الجيزاوى ١٩٢٧ تدخل الإنجليز وتقدم اللورد جورج لويد المندوب البريطانى وطلب ترشيح الشيخ المراغى لمشيخة الأزهر .

وهكذا نرى كيف نفذت خطة احتواء الأزهر والسيطرة عليه :

أولا : مصادرة أوقافه .

ثانياً : القضاء على الروح الوطنية التى قادت ثورة القاهرة على الفرنسيين وثورة ١٩١٩

ثالثاً : القضاء على زعامة الشعبية التى فرضت على أمراء المماليك اتفاقية حقوق الإنسان .

رابعاً : تسلط الفرنسيين ومحمد على والاحتلال البريطانى على الأزهر لتفريغه من قوته الذاتية بعد أن أشارت توصيات مؤسسى التبشير والاستشراق إلى خطر الأزهر وإنشاء الجامعة الأمريكية فى مرحلة ثم الجامعة المصرية فى المرحلة التالية للوقوف أمامه وخداع الناس بأسماء طه حسين وعلى عبد الرازق وأحمد أمين وغيرهم بأنهم من ثمرات الأزهر .

خامساً : تفريغ الأزهر من قواه فى عهد حركة الجيش ، وإنزال شيخ الأزهر إلى درجة وكيل وزارة والسيطرة عليه وعدم تمكينه من أداء واجبه ثم احتواء الأزهر بالسيطرة على رجاله حتى لايكونوا قادرين على تمكين الأزهر من أداء أى دور فى مواجهة النفوذ الاجنبى ثم الزام علماء الازهر بالتقبل للمفاهيم الاشتراكية دون تبيين أخطارها ومحاذيرها .

غير أن هذا الوضع بدأ يتغير قليلا فقد أجمعت الآراء على ضرورة إعادة النظر فى تجربة قانون التطوير الصادر ١٩٦١ بعد مرور عشرين عاما على ذلك بما يحفظ على الازهر شخصيته العلمية الإسلامية ويمكنه من أداء دوره الكامل فى المجتمع الإسلامى وتحقيق حريته واستقلاله فى اختيار قياداته ونظام دراسته والمادة × المخصصات التى كانت حقا للأزهر منذ مئات السنين ، وقد تمكن علماء الازهر من تحقيق سلطتهم التشريعية ونجاحه × بعد اعتبار الشريعة الإسلامية هى المصدر الاساسى للتشريع واعتبارهم قناة شرعية لتأييد الصالح من المشروعات ومعارضة غير الصالح منها ، بوصفهم الجهة الوحيدة المتخصصة

التى يستطيع الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص شرعى ، وإبداء الرأى فى المسائل الخاصة بالمعاملات المالية الجديدة .

• • •

وكان المفروض أن يجمع دراس الشريعة الإسلامية والقانون الوضعى ما يمكنه من أن يظهر عظمة شرع الله وسموه ومكانته . أن الدراسة بالكلية قبل التطور كانت قاصرة على الدراسات الإسلامية والعربية مما أتاح الفرصة لتخريج علماء أكفاء فى الدراسات الإسلامية والعربية ، أما بعد التطوير فقد إتخذت الدراسة منحى آخر حيث ضمت إلى مناهجها دراسات القوانين الوضعية وأصبح نصيب المواد الشرعية من حيث الكم تقريباً ثلث المناهج الدراسية وضاعت فكرة المقارنة بين القانون والشريعة التى من شانها أن تكشف عن عظمة الشريعة ، وتحولت إلى تبعية للقانون الوضعى . وهزيمة للشريعة ، هذا ما يقوله أساتذة الكلية .

ولما كان من الضرورى أن تشترك كلية الشريعة والقانون فى مجال تقنين الشريعة فيقول الدكتور جعفر عبد السلام أستاذ القانون العام أن لجان التقنين بدأت من منطلق قانون وضعى أساسى وعرضت على لجان الشريعة للنظر فيها على ضوء أحكام الشريعة لكى يزال منها مايتعارض مع الشريعة ويعدل بالشكل الذى يتمشى معها فالذى حدث من وجهة نظرى ، كأستاذ فى القانون ليس تقنينا للشريعة وإنما هو تطوير للقوانين القائمة بجعلها لا يتعارض مع الشريعة فالتقنيين يكون باستطلاع أحكام الشريعة من مصادرها الشرعية ، وحسبما وجدت لدى رجال الفقه الإسلامى وهو جهد الإسبق إلى القيام بعض العلماء .

أما ماتم تحت اسم تقنين الشريعة فقد انطلق من التقنينات الوضعية ، وطورها لكى لا يتعارض مع الشريعة وشتان بين نتائج كل منطلق .

(٢)

قضية التطوير

مرت قصته تطويراً الأزهر فى ثلاث مراحل :

أولا : كانت خطة محمد على - بعد أن أحس بخطر القيادة الشعبية على نفوذه بقيادة عمر مكرم ، يقوم على أساس تجفيف المصادر التى تمد الأزهر بالرجال ولهذا أنشأ المدارس الجديدة فى مصر وأخذ يرسل طلابها لاكمال دراستهم فى أوربا بينما أهمل الأزهر فقل الاقبال عليه وزاد الاقبال على المدارس العصرية ، فلما رجع الذين سافروا إلى أوربا أصبحوا سفراء للحضارة الغربية الماديه فى بلادهم ولم يعد الأزهر حامل لواء الدعوة الاسلامية بل أصبح معهداً لتخريج الائمة والوعاظ ولا يؤمه غير الفقراء .

ثانياً : فى عصر الاحتلال البريطانى رفع الانجليز من شأن المدارس والجامعات وزادوا من عددها واوافدوا طلابها لإكمال دراستهم فى أوربا وجعلوا وظائف الدولة وقفا على خريجى هذه المدارس ، كما قلدوهم المراكز الاجتماعية الهامة فى مصر بالإضافة إلى الرواتب العالية .

أما طلاب الأزهر فكانوا لا مستقبل لهم ، ولهذا عزف المصريون عن إرسال أولادهم إلى الأزهر وأخذوا يرسلونهم إلى المدارس الحكومية :

وبدأ خريجوا الأزهر يبحثون عن التبعية . وإرضاء أصحاب النفوذ ليأكلوا لقمة العيش بالفتوى لهم .

ثالثا : تمت فى عهد التبعية الاشتراكية حيث تبنى القائمون على البلاد الاشتراكية العملية منذ أوائل الستينات وتركوا أحكام الشريعة وراءهم ظهرياً على اعتبار أنها رجعية يجب الابتعاد عنها ، وتصدر الشيوعيون العرب المراكز الحساسة فى مصر وغيرها ، ولهذا فقد شن هؤلاء حملة شعواء على الاسلام والمسلمين عامة وعلى الأزهر بشكل خاص على وأن تكون خطتهم

اللاحقة فى القضاء على الأزهر بمثابة استمرار للمرحلتين .

وقد استطاعوا ضرب الأزهر ضرب قاصمة بدعوى تحويله إلى جامعة علمية وتطويره وإصلاحه فحولوا الأزهر من جامعة إسلامية ترسخ العقيدة فى نفوس طلاب العلم ليكون الأساس القديم الذى تقوم عليه العلوم والمعارف الأخرى إلى جامعة تشككلك الطلاب فى دينهم وتدرس لهم الاشتراكية والماركسية والميثاق أكثر من تدريس العلوم الاسلامية والقرآن .

وكانت عملية تطوير الأزهر التى قام بها الشيوعيون تهدف إلى تحويل الأزهر بالتدريج إلى جامعة علمانية تهتم بشكل رئيسى بالعلوم الدنيوية وبشكل فرعى وثانوى بالعلوم الاسلامية . والهدف من هذا أن يتخرج الطالب الأزهرى وهو عاجز عن تأدية الرسالة المنوطه بها فلن يكون الأزهر بعد ذلك من المنارات التى يهتدى بها الناس ويقتدون .

ومن ثم فإن عدم اهتمام المناهج الاشتراكية بالأزهر بالطلاب من الناحية الخلقية والالتزام العلمى بتعاليم الاسلام والسماح باختلاط الشباب والشابات فقد سهل على الشيوعين الدراسة فى الأزهر ليتخرج منه شيوعيون فى ملابس أزهرية فيكون دورهم فى الدس على الاسلام وتشويه تعاليمه وتاريخه أحظر مما لو كانوا فى جامعات أخرى .

يقول الأستاذ نبيه عبد ربه الذى لخصنا عنه هذا الفصل : لقد نقلت هذا حرفياً عن المخطط الشيوعى فى العالم الاسلامى الذى يهدف للقضاء على الإسلام وإحلال الاشتراكية مكانه ، فالشيوعيون ينظرون للدين على أنه العدو الاول للاشتراكية العلمية ولذا فإن الصراع بين الدين والشيوعية صراع مستمر حتى تطغى الشيوعيه على الدين . وعندهم أنه لن يستقر التحول الاشتراكى الصحيح إلا بسيادة الاشتراكية على الدين وسبب هذا أن الشيوعية ترى فى العقيدة الدينية خطراً على مخططاتها،لأن فى هذه العقيدة من القوة المعنوية ما يعطل المخططات النوعية ، والاشتراكيون يعلمون أن للأديان شعارات قوية وللجماعات الدينية قوة ضخمة ، ولكنهم لا يكشفون هذا العداء علناً حتى لا ينفر

المسلمين منهم ، ولكنهم يعملون للقضاء على الدين بطرق غير مباشرة ، الهدف منها زعزعة العقيدة فى نفوس المسلمين كخطوة أولى نحو ابتعادهم عن دينهم كليه، ومن الوسائل الشيوعية لمحاربة الإسلام والتى استعملت فى الأزهر ما يسميه المخطط الشيوعى [تنقيح الدين] وقد أوصاهم لينين منذ البدء بأن إعادة التنظيم الفكرى العقيدة الدينية وميراثها ومفاهيمها إنما هو بمثابة التنقيح للدين وتحدياته للاشتراكية العلمية .

والغريب أن الغرب والشيوعية يشتركان فى مسألة واحدة يسمونها (تنقيح الدين فى الشيوعية) ويسمونها فى الغرب (تطوير الشريعة) فلا نفع فى هذه الدعوة بالقول بأن (الإسلام دين الاشتراكية) إذا لم يتبعها تحطيم للمنظمات الدينية وصهرها فى بوتقة التحويل ، فالتنقيح للأديان كما أوصى به لينين يجب أن يصاحبه الهدم لكل قاعدة يمكن أن يتخذها الدين سبيلا إلى البحث والتضامن والتماسك .

ومكافحة الدين وروابطه لا يكون بنسف الدين ، وإلغائه كليا من حياة الناس ولكن بالترويج لشعار الثورة وخلق وعى مادى فى نفوس الجماهير ليفروا من الدعوة الروحية التى فى جبهة الأديان ، وليس المهم إزالة طقوس العبادة وهدم الكنائس والمعابد وإنما المهم هو تغيير الوحى الروحى وخلق وعى مادى فى الفرد ووعد الجماهير برفع الإنتاج والمنجزات الصناعية والزراعية والقوة العلمية ويجب أن يجنبه بعض رجـال الدين وبعض النصوص الدينية أن أمكن للدعوة الاشتراكية ولابد أن تخضع المعاقل الدينية بالجامعات والمؤسسات والجمعيات بالمساجد لسيادة الحزب الاشتراكى فى الدولة الاشتراكية وتصبح جهازاً يصلح ضبطه واستعماله عند الحاجة ومن أجل ذلك عقدت أمانة الدعوة والفكر فى الاتحاد الاشتراكى اجتماعات عدة من مشايخ الأروقة فى الأزهر وعلماء الدين وأئمة المساجد ، وذلك بهدف تسخير الأزهر للدعوة الاشتراكية . فقد حدد القانون ٤٤ سنة ١٩٦٢ مهمة المسجد بأن يقدم لنا الفرد الصالح الذى يشارك فى بناء النهضة الثورية التقدمية الجديدة وأن مهمة وزارة الأوقاف هدفها التطبيق الاشتراكى السليم فى المجتمع العربى كله وأن مهمتها اشتراكية بحته ، وأن تتصرف بشكل يؤدى إلى تعميق جذور الاشتراكية فى المجتمع

العرفى وهكذا وجد من الأزهريين من يدعى بأن الإسلام هو دين الاشتراكية وأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو إمام الاشتراكية وأن خديجة هى أم الاشتراكية وأن أبو ذر الغفارى أول الاشتراكيين ، وأن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم نابعة من حياته الاولى المتأثرة بالوضع الطبقى الشاذ فى مكة وقال محمد حافظ سليمان (مجلة الأزهر — منبر الإسلام — يوليو ١٩٦٦) لاشك أن للصراع الطبقى فى كل زمان ضراوة وأشار إلى ماتقوم به الرجعية العربية دفاعا عن هيمنتها الرأسمالية وعن المصالح الاستعمارية التى تسندها ، وقال محمد أحمد خلف الله : أن القرآن يدعو إلى ماتدعو إليه الاشتراكية من الاعتماد على العلم فى ممارسة الحياة ومن هنا لايزعجنا شعار (اشتراكية علمية) وهذا هو نتيجة المخطط الذى استهدف رجال الأزهر وقال أحمد كمال أبو المجد (منبر الإسلام) أن الخطة الجديدة لرسالة المسجد فى مرحلة التحويل الاشتراكى : أن يخضع كل مسجد فى مصر لمجلس إدارة تشرف عليه اللجنة الفرعية للاتحاد الاشتراكى على أن ترتبط هـــذه اللجان بادارة عامة لصياغة البرامج غير الدينية للتثقيف الاشتراكى فى فى الوسط الدينى وسيلقى على الخطباء محاضرات فى الدين والاشتراكية والعلم والاقتصاد الإسلامى » . ا . هـ

(٣)

المدرسة الحديثة وانفصالها عن الأزهر

تقول الدكتورة بنت الشاطىء : حين كانت المدرسة الإسلامية فى أوج عزتها تنفرد بالتعليم الأصيل وتنشئه أبناء الأمة فى المرحلة الأساسية على منهج موحد وبرامج وكتب مماثلة من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب قبل أن يخرجوا إلى ميادين العمل أو يتابعوا الدراسات العالية لعلوم الإسلام والعربية أو علوم الرياضيات والطبيعيات نظرية وتجريبية . وفى العصر الحديث عزلت المدرسة الإسلامية عن مكانها المرموق وعطلت رسالتها الكبرى فى التعليم الأساسى الأصيل الموجه وصرف عنها أكثر التلاميذ إلى المدارس الحديثة محلية وتابعة للبعثات التبشيرية والارساليات العلمانية وانشئت الجامعات الحديثة ، فما لبثت

أن خطفت الأضواء بجاذبية عصريتها وبخافة مؤسساتها ودرجاتها وألقابها المؤهلة للوظائف الراقية والمناصب المالية والمهن المربحة . وقد ضعت الكليات العلمية مقابل كليات الآداب والحقوق فشبه للناس أن ما يدرس فى الكليات العلمية هو العلم ولا علم غيره فكيف بما يدرس فى الجامعات العتيقة . لكن التيار العصرى بما ضج فيه من أصوات دعاة التجديد والتطور والتقدم لم يقو على مقاومة النفوذ الروحى لشيوخ الاسلام : علماء الدين وكان معلمونا الشيوخ على تواضع معيشتهم وزهدهم ملء القلوب والأبصار مهابة وجلالا ، فهم قضاة شريعته وملاذ عباده فى عصيب النوازل والمحن والكروب يعصمونهم من الضلال والقنوط وعنت جباه السلاطين والحكام لورثة الأنبياء وتواضعوا لهم تقربا إلى الله أو خوفا من نفوذهم الروحى واستجلابا لرضى الشعب . إلى ذلك الماضى القريب بقى لطالب العلم فى الجوامع العتيقة : الأزهر والقرويين والزيتونة ومعاهدها الدينية من دمياط وطنطا والاسكندرية إلى مراكش وفاس وفى المعاهد الإسلامية من الهند إلى نجد وأم درمان والبيضاء ، بقى لهم سمتهم الأصيل المميز يضفى عليهم فى أعين الناس حرمة العلم الدينى بما يكشف بريق الطرابيش والقبعات ومن الاحترام ما يغض من زهو الأفندية المتفرنجة .

حتى جاء المد الثورى فتغيرت الأوضاع والمنازل والقيم ، واشتدت الحملة على السلفية المناوئة أو المعوقة للتغيير ، واتجهت المؤسسات الدينية العتيقة تهز صروحها ، وما كانت لتتجاسر أو لتقوى على النيل منها لولا أن أعان عليها رجال من هذه المؤسسات كانوا مرجون لحمايتها والدفاع عنها ، وأول ما كان من ذلك إلغاء المحاكم الشرعية وتذويبها فى المحاكم المدنية وتقرر منح رجال القضاء الشرعى ألقاب نظرائهم المدنيين ومرتباتهم ، فما أصبح الصبح غداة القرار حتى سعى نفر منهم إلى القصر الجمهورى فوقعوا فى سجل التشريفات التماسا برفع أصدق الشكر والامتنان لما حظوا به من رعاية كريمة ثم مالبث أكثرهم أن خرجوا على الناس فى أزياء عصرية ملائمة لمجتمعهم الجديد وذابوا فيه لا يتميزون ولا يعرفون ، واستبدلت الثورة بهيئة كبار العلماء شيخونا الراسخين فى العلم : « مجمع البحوث الإسلامية » جمع تشكيله الأول خليط من العلماء والشيوخ ودكاترة فى الجغرافيا والآداب والطب تخرجوا من جامعات أوربية ، وزفت

الاقلام والأصوات الموكب الجديد بأزيائه وصوره المتنافرة إعلاما بتجديد كيان الهيئة العتيقة واحتفالا ببث الحيوية فى خلايا شيخوختها . وطورت الثورة جامعة الأزهر التى استكثرنا عليها أن يتخصص — إلى جانب عشرات الجامعات والمعاهد الحديثة — فى علوم الإسلام والعربية ، مناط مجدها التاريخى العلمى ورسالتها الكبرى فى الأمة لأكثر من عشرة قرون ، واستحدث التطوير (كليات علمية) تضفى عليها صبغة العلمية وطابع العصر ، وما كان يدرس فى كلياتها العريقة (الشريعة وأصول الدين واللغة العربية) لاينميها إلى وجودنا المعاصر . وليس من (العلوم التى تخضع لمناهج البحث العلمى) ؛ خلع كثرة من الشيوخ زيهم التقليدى ولبسوا أزياء عصرية مجاراة لزملائهم الجدد فى كليات الطب والعلوم والهندسة بالجامعة الأزهرية والتمسوا من أى سبيل درجة الدكتوراه المؤهلة للتدريس فى جامعاتهم المتطورة يستوى فى ذلك من نالها من معهد الدراسات بجامعة الدول العربية ومن جاءوا بها من جامعات غربية فى تخصص الشريعة وفقه اللغة وتاريخ الإسلام باشراف أساتذة أجانب ليسوا عربا ولا مسلمين . واستبدلوا بالمشيخة لقب دكتور وبلغ من شذوذ الوضع أن لو رشحنا لفحص رسائل جامعية فى علوم القرآن والحديث شيوخا من كبار علمائنا الشيوخ الراسخين فيها لقيل أنهم ليسوا من حملة الدكتوراه وخرجت رسائل جامعية فى فقه الائمة الاربعة وتراث أعلام السلف لقبوا فيها بلقب دكتور لم يتصور شباب الدارسين أن هؤلاء العلماء الائمة لم يكونوا دكاترة .

واختلط الامر على الناس ، تصدرت صور الدكاترة الازهريين بأزياء عصرية واجهات التلفزيون ومنابر الصحف فما عادوا ينتمون فى الرؤية العامة إلى علماء الدين ولا يتميزون عن غيرهم ، ومكنوا بذلك للدخلاء من اقتحام الموقع الدينى يقدمون بضاعتهم من العلمانيات الفجة الشائهة ليكسب الدين بها صفة العلمية فلا غرابة أن راج القول بأن الدين (سلوك المتدين وطرائق عبادته) مما تقدمه البرامج والصحافة الدينية ، والكثرة الغالبة من رجال الدين فى المجتمعات الإسلامية هم مقرئو القرآن فى الإذاعة والمآتم ، والموائد والسرادقات الشعبية والخطباء والوعاظ فى الجوامع والمساجد والزوايا ومأذونوا الشرع :

وقد أوفدت نخبة من شباب الجامعات فى بعثات للدراسة العليا إلى دول حلف وارسو أو حلف الأطلنطى لتشغل المراكز القيادية لتوجيه الرأى العام بدعاة من الماركسيين أو المتآمركين ، وإذا كان من المنتمين إلى علماء الدين من وظفوه لخدمة مواقف سياسية متغيرة ومآرب فردية عارضة ، فغير مستغرب أن يوظف الماركسيون التاريخ الإسلامى لخدمة ايدلوجيتهم فخرجت فى هذه المرحلة كتب جامعية أعطت الصحابى الجليل أبا ذر الغفارى رضى الله عنه لقب زعيم المعارضة والداعية الأول إلى الاشتراكية ، وفسرت حركة الخوارج بتمرد مبكر على الأوضاع التقليدية اسقط هيبة الخلافة وأرخص دماء الصحابة رضى الله عنهم فدية للتغير وضريبة للتطور . واعتسفت توجيها ايدلوجيا بالغ الغرابة والفحش لحركات المغامرين السفاحين الذين خرجوا على الدين والأمة فى العصر العباسى وعاثوا فى الأرض فساداً وظهر (على محمد) قائد الزنج وقال : اجعلوا كل عامر قفرا وكل دار قبرا فوطئوا البصرة وقتلوا فى يوم واحد أربعةوعشرين ألفا من أهلها ، وحركة الزنج تفسيرها الايدلوجى ثورة على الوضع الطبقى والاوتوقراطى قامت على إهاجة الفتن والحروب بين الطبقات قبل الثورة الشيوعية بأكثر من عشرة قرون ، وفى أواخر القرن الثالث كان ظهور القرامطة بالبحرين ثم اكتساحهم ديار العراق والشام والحجاز ، وانتزع الحجر الأسود ، وهذه الحركة يفسرها الايدلوجى : حركة تقدمية رائدة لتحرر الناس من أفيون الشعوب ، وهكذا فى سبيل خدمة متغيرات متلاحقة ومذهبيات طارئة يسقطون مصطلحاتها على تاريخ مضى من قبل أن تسمع الدنيا بلفظ واحد مما يقولون ، يتمركسون ويتأمركون فى يوم وآخر وما كان شذوذا صار هو الغالب على البضاعة الحاضرة لايشذ عليها إلا قلة غير ميسرة » ا . ه

الفصل السابع

مدرسة الترفيه والتسلية

ثلاث مدارس شكلت المزاج الذى يعيشه الناس اليوم : —

(١) المدرسة . (٢) والمدرسة الموازية (مدرسة الترفيه والتسلية)

(٣) والصحافة .

وقد كانت مدرسة الترفيه والتسلية القائمة على المسرح والسينما والمراقص والأغانى وأدواتها الإذاعة والتليفزيون من أخطر التحديات التى تواجه بناء الأمة على الإسلام ، وهى تكمل حلقة الخطر الذى يبدأ بالمدرسة وينتهى بالصحافة ، حيث لم تعد المدرسة هى المؤسسة الفعالة الوحيدة فى مجال التربية ، بل أن آثار هذه المؤسسة الإعلامية أشد خطورة إذ أنها هى التى تسيطر على ساعات الراحة وعلى البيوت والأمهات والآباء جميعا ، بما تفرضه على أبنائنا وبناتنا من قوة التأثير لدخولها كل بيت ولساعات طوال وبمثيرات تجتذب أكبر عدد من الحواس على حد تعبير الدكتور إسحق أحمد الفرحان ، هذا التحدى يكمن فى ناحيتين على الأقل .

(أولا) فى البرامج التى تستورد غالبها من مجتمعات لاتتفق ومجتمعاتنا فى قيمها ونظرتها إلى الحياة وتأتى معها بمشكلات قد لانعانى منها فى كثير من الأحيان تنبيه أذهان أبنائنا إليها ومن هنا بدأنا نسمع ونقرأ عن مشكلات انحراف الشباب وارتكابهم بعض الجرائم نتيجة تقليد فيلم أو مسلسل أجنبي معين يتسم بالإجرام والعنف ، والاغتصاب والسرقة كما رأوه .

(ثانياً) : عدم وجود أجهزة تنسيق بين المسئولين عن الاعلام والمسئولين عن التربية وعن الشئون الدينية فى بلادنا العربية والإسلامية والتحدى يمكن أن ينظر إليه من زاويتين .

الأولى : هذه الهجمة الغربية الشرسة التي تحاول اقتلاعنا من جذورنا وتغزونا في مدارسنا ومؤسساتنا الإعلامية المختلفة .

الثانية : أزمة المثقفين عندنا والمربين من حيث عدم تبنيهم للإسلام صراحة وفكرا وممارسة ، ليكونوا على مستوى التحدي فيثقفوا أبناءنا في الإطار الإسلامي في سائر حقول المعرفة . وليس التربية الدينية فقط من منطلق إسلامي وتصورات إسلامية ، وليكونوا هم أنفسهم قدوة علمية صالحة للاقتداء بهم لأن التعليم عن طريق القدوة هو خير أنواع التعليم .

(دكتور إسحق أحمد الفرحان)

ولقد اتسع مجال مدرسة الترفيه والتسلية بانتشار أجهزة الراديو والتلفاز التي وسعت في عصر الاحتواء الماركسي بثها على نحو خطير حطم كل القيم وأشاع روحا من الاباحية واللامبالاة الميوعة والغثيان حيث حشدت فيها كل المطروحات الوافدة سواء غربيه أم شيوعية بهدف تدمير النفس المسلمة وإفسادها ولما كانت مرحلة هذه المدرسة أوسع وقتا من المدرسة الأولى فقد عكفت جماعات الشباب والأطفال والآباء والأمهات على هذه المسرحيات والمسلسلات المملوءة بالبذاءة والاباحية والكلمات النازلة التي يتحدث بها أحط الطبقات ، وهذا هو ما يسمى بالدور العظيم الذي قامت به الثقافة في رعاية الآداب والفنون والمعروف بأن الماركسيين هم الذين استولوا على كافة أدوات الإعلام (الصحافة والمسرح والسينما ومنابرها) وعلى حد تعبير الدكتور لويس عوض أن المسرح المصري خلال السنوات العشر الماضية في عهد عبدالناصر سقط في يد عصابة شيوعية وقد أدى ذلك إلى عدة عوامل خطيرة .

أولا : النزول بالحوار إلى أدنى مراتبه على النحو الذي يسمع في أشد الأحياء الشعبية .

ثانياً : نشر العامية في أدنى مراتبها .

ثالثاً : تحطيم الضوابط والحدود بين الأب والابن والزوج والزوجة بحيث تحول الحوار إلى سفاهات هجاء نازل منحرف .

رابعاً : خلق أعراف جديدة تحتقر الدين وتمتهن الأخلاق و تدعو إلى الرزيلة وتحرض على الفجور ، وتدعو إلى استغلال الفرص بالسرقة والنهب وتعلى من شأن الجنس والجريمة .

خامساً : أعلت مدرسة التسلية والترفيه التفاهات والكلمات الهابطة والاباحيات وحطمت الاعراف الإسلامية الدينية والاخلاقية .

ويظهر ذلك جليا فى مسرح توفيق الحكيم ونعمان عاشور والفريد فرج ويوسف إدريس وسعد وهبه وصلاح عبد الصبور وميخائيل رومان ونجيب سرور .

سادساً : أعان الغناء والرقص فى إشاعة روح الاباحة بل كانت بعض الأغانى الحماسية التى كانت تلقيها أم كلثوم وعبد الحليم عاملا فى خديعة الجماهير ومصدراً للنكسة وقد تأثر بهذا التيار كثير من الشباب الذى لم يكن له خلفية دينية أساسية فى بيته وظهرت عشرات الجرائم والأحداث التى قلد فيها طلبة المدارس مايرونه فى المسرحيات والأفلام ، ولما كان المسرح فى نظر الدول الغربية والشيوعية عامل من عوامل شغل الجماهير عن القضايا الهامة والهائها عن الأزمات وتحويل أبصارها عن التحولات فقد تحول المسرح فى مصر إلى خمارة تعج بالجنس والسكارى على ما وصفه المؤرخون للمسرح فى تلك الفترة ووصف بأنه المسرح الأحمر وأن الفنون التى قدمتها الشاشة البيضاء كانت فنونا ساذجة تخاطب الغرائز ، وقد حاول البعض إعطاء كلمة الفن قداسة وجلالا فى حين أن هذا الفن كان سوقيا .

ذلك أن هذه الفنون جميعا لم تعالج قضايا مجتمعنا وإنما نقلت أشد ما فى مطروحات الفكر الغربى والماركسى إظلاما وسواداً وفحشا وفساداً وطرحته فى أفق المجتمع الإسلامى واقتحم على الأسر البيوت ، ومنها أطفال وعذارى وآباء وأمهات يعملن على تشكيل بناتهم وأبنائهم على الحصانة والخلق والصلاة ومعرفة الله فأفسد ذلك كله .

ولم تعمل هذه الوسائل بالطرق التى كان عليها أن تعمل بها وهى تقديم

التسلية والترفيه فى أسلوب هادىء برىء ، ولكنها كانت من ورائها أهواء الذين يرغبون إلى تحطيم المجتمعات الإسلامية فانتقل الضحك الهادىء المتزن إلى قهقهات الحشاشين ، وما أسماه لويس عوض (التقصيع وتلعيب الحواجب والضرب على القفا والتزحلق على قشر الموز وإختفاء العشاق تحت السرير أو فى الدواليب) وكان هذا الفن يخدم هدفين :

هدف عقائدى وهو إفساد إيمان الناس بالله وبالقيم .

هدف اجتماعى وهو بذر بذور القلق والحقد والتمزق فى عقول الناس وأفقدتهم وظهر [أن هيئات المسرح وشركات السينما فى سباق حاد لقتل روح الأمة وتشوته شخصيتها فى الأقطار العربية بما ينتجه من فن رخيص مورج داعر يسوق البقية الباقية من أخلاق الشرف والقوة فى الأمة ويفسد ذوقها ويحطم رجولتها ويزيل عفاف نسائها ولا يرتفع بها إلى مستوى أعلى ولا يشيرها وينبهها إلى أوضاعها السيئة] .

وبدا أن هناك تجارة ضخمة هى تجارة الأغانى النازلة والافلام الهابطة لها مراكزها وعملائها وخططها الذى يهدف إلى إفساد عواطف الشباب فى هذا الجيل وأن هذه المسرحيات والأفلام إنما تقدم فكراً أسوداً زائفاً له وجهته وأهدافه وهو معارض تماما لكل قيم المجتمعات الإسلامية ، يرمى إلى تدمير الشباب الغض وإفساده وتزيف إرادته وعاطفته .

وفى هذا يقول (حمد السعيدان) أن مافيا السينما تستهدف الأحداث والمراهقين والشباب والطلبة لأن عقولهم هشه قابلة للتأثر ، وترقى فى فى عقليتهم التفاهة وتولد لديهم البلاهه لأن الافلام المصرية بمواضيعها ووضاعتها تعتبر طعما للشباب فهم أكثر رواد السينما بينما الكبار مشغولون بعائلاتهم وهموم أرزاقهم .

وفى المركز القومى للبحوث الاجتماعيه تسائل الباحثون إلى أين نقود سينما الجنس والعنف ، وكشفوا عن آثارها الخطيرة حيث أن سينما الجنس

والعنف والحلم الوهمى ، سينما الخيال العلمى المزيف فى الغالب حول تفوق الإنسان الأوربى ، هذا العالم المنسوج بمهارة لتحطيم نفسيات الأجيال الجديدة ووضع الاغلال والقيود على عقولها وعواطفها لتكون خاضعة للتبعية وللنفوذ الغربى .

ولقد ازدادت مخططات الافلام الهابطة انحرافا حيث أصبحت تقدم سير الراقصات فى حلقات متصلة تكشف عن حياة الكباريهات والاسواء التى تتصل بحياتهن الخاصة ، كما وضعت أفلام عن تجار المخدرات (الباطنية) وجاءت قصص أحياء البغاء التى كانت قائمة فى الماضى ، واتسعت دائرة افلام الجنس والمخدرات والافيون إلى حد يلفت النظر ويدعو إلى التساؤل : ومن الاسف أن تدور هذه الأفلام فى بيوت الدعارة والكباريهات وأنها تتصل بتاريخ سياسى أو وطنى زائف .

* * *

أخطار السينما

يقول الأستاذ حسين عبدالقادر : (٢٠ / ٧ / ١٩٨٣ - جريدة النور) تقوم السينما المصرية فى الوقت الراهن بهجوم سافر ومكثف على تقاليد مجتمعنا فالذى يرمق اللافتات فى الشوارع هذه الايام سيجد أن السينما فى مصر تعانى من طغيان ألوان السفور والتبرج عليها بصورة تقشعر منها الابدان و تسخر فيها الإمكانيات الفنية لارضاء النزوات وإشعال نار الشهوات مما أدى إلى وجود صورة سيئة فى ذهن كل مسلم عن السينما .

يقول الشيخ صلاح أبو إسماعيل : إن الوضع الحالى للسينما يجعلنا نتهم القائمين عليها بأنهم يريدون تدمير النشء وإضاعة الشباب ، فمنذ عهد قريب كانت الجدران فى الشوارع حافلة بمثل هذه الموضوعات السينمائية (زوجة وخمسة رجال) ، بدون زواج أفضل ، فى الصيف لازم نحب .

وهكذا تتمثل هذه العربدة جريمة نكراء تصرخ بسببها الفضيلة وتتأذى الاخلاق والقائمون على السينما يتفننون فى إثارة الغرائز والشهوات بالكلمة والصورة والألوان المفاتن والعرى والمفروض أن لكل مجتمع قيما ومقدسات ولكن السينما هدمت أكثر من ٩٩ فى المائة من قيمنا ومقدساتنا وامتلأت بالغرائز والشهوات فى وقت غاب فيه صوت الدين الصادق عن بعض المساجد وعن الجامعة وعن برامجنا ومن أهم عيوب السينما أنها تعتمد على الشباك فهى جرى وراء المال مهما كان مشبوهاً ولو ضحت عنه بالعرض والشرف والمقدسات .

* * *

الفصل الثامن

مدرسة الصحافة

لقد كانت الصحافة من أخطر المدارس التي عمقت التغريب وعوقت النهضة وحالت بين الوصول إلى غاياتها في إمتلاك إرادتها ، فهي من حيث قيامها على قادة علمانيين أساسا فهم خصوم الداء للفكرة الإسلامية ويحاربون لها وعاملون على حجبها بقدر المستطاع عن قراءهم ، ولما فرضت الأحداث وجود الصفحات الدينية أو الملاحق الدينية أو الصحف الاسلامية فقد وضعت كتابات كل هذه الأعمال في إطار مفهوم ضيق وافد هو الإسلام بوصفه الدين اللاهوتي المتصل بشئون الصلاة والصوم والحج أو عمل الخير وإصلاح الأخلاق مع حجب مهمته الأساسية ودوره الحقيقي في بناء الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتربية .

ولقد كان موقف الصحافة من أكبر قضية في حركة اليقظة الاسلامية في في السنوات العشر الأخيرة وهي مسألة تطبيق الشريعة الإسلامية وتقنين القوانين كان موقفها غاية في المعارضة والكراهية والتجاهل ، ذلك لأن القائمين على الصحف يكرهون أن يخرجوا من حياتهم القائمة على الاتصال بدوائر الفن والمسرح وحياة الفنانين والراقصين والمغنين وهو مجال واسع للمتعة المحرمة ، وللثروة الطامعة ، وللجرى وراء الشهوات والأهواء .

ومنذ وقت بعيد كشف المستشرق هاملتون جب عن تبعية الصحافة للنفوذ الغربي في مجال السياسة ودورها العلماني في مجال الاجتماع على النحو الذي يؤيد وجهه القوى المسيطرة التي تريد دائما أن تفسد ذوق الأمة عن طريق الكتابات الإباحية من القصص والجنس والجريمة والكورة والمسرح والسينما وإعلاء شخصيات الفنانات وجعلهم مثلا أعلا

وإفساد الأسر والبيوت بما يدخل عليها من صور عارية وكلمات عارية ومن وجهة خطيرة تعارض تمام المعارضة مفاهيم الإسلام وأخلاقياته وتناقض معانى الخلق والعرض والعفاف وإفساد المجتمعات وبما يطرحه كتاب علمانيون أباحيون ، وقصاصون مفسدون ، إلى صور وحوادث وإعلاء وتزكية للفساد الذى تقوم به مدرسة التسلية والترفيه فهما متعاتقان على هدف واحد والصحافة هما بمثابة مرآه للبث الإذاعى والتلفزيونى الخطير الذى يهدم القيم والتركيز فى هذا كله على الشباب والفتيات وعلى البيوت التى تتطلع إلى تكوين أبنائها على مسكة من الدين والخلق .

وإن أى مراجعة يسيرة للميثاق الثانى عشر من بروتوكولات صهيون يكشف عن مهمة الصحافة ووجهتها حيث يقول :

« الصحافة تثير العواطف التى تقتضيها غايتنا وتهيج الاحساسات التى تخدم أنانية الأحزاب وغاياتها والجمهور لا يعلم ولا يفهم ماذا يخدم الصحافة بين الاعراض الحزبية السخيفة التافهة الباردة ، نحن نسرج الشعب ونلقى على ظهره البردعة وكذا نفعل بحاصلات المطابع والصحافة » .

ومن وراء أهواء الصهيونية نجد أهواء النفوذ الغربى والنفوذ الماركسى وكل منهم يسعى لبعض أهدافه . والشباب المثقف الذى يقرأ الصحف فى حيرة من أمره ، فإن الحرف المطبوع له سحره وله تأثيره .

ولكن هذه الاهواء جميعا تتجمع فى هدف واحد هو إشاعة التفاهة وتزييف الحقائق والسخرية بالناس ، وحبسهم فى مجال السذاجة والبلاهة ، حتى لا يخرجوا إلى نطاق الثقافات العالية الكاشفة لأهداف الغزو الثقافى والتغريب العقائدى .

وإننا من منطلق الفهم الاسلامى نعرف أن ارتفاع توزيع الصحيفة ليس دليلا على وفاء الصحف لحاجات الناس أو للأمانة المنوطة بالصحافة تجاه الأمة ، أنهم يقصرون رسالة الصحافة فى تقديم النواحى الترفيهية ووسائل

التسلية ولكن ليس ذلك صحيحا فى الحقيقة ، فإن مهمة الصحافة أكبر من ذلك وأكرم ، وليس كون صحيفة ما توزع مليونى نسخة الآن بدليل على سلامة وجهتها . أن الصحافة لا تعطى الشعب مايريد ولكنها تفرض عليه ما يريد هو ، وهى ليست بأداة تسلية وترفيه حتى يقال أنها تشبع رغباته ، ولكنها أداة توجيه وبناء لشخصيته على أساس أن يكون مواطنا صالحا فاهما للتيارات التى تجرى من حوله ، وليست زيادة التوزيع دليل على رضا القارىء .

لقد استطاعت الصحافة أن تفسد فطرة الجماهير ، وأن تعتمد على الإثارة وأخبار الجنس والجريمة ، ونشر قصص الطلاق والفضائح ، وأن تستطيع أن تشغل الجماهير بقضيه تافهه عن قضاياه الحقيقية .

هناك من لا يتوقف يوماً عن تقديم أخبار الفراعنة وقبور الملوك ، وفلسفة ما وراء الوثنية وعبادة الأصنام ، وهناك يوميات السحرة والأساطير والخرافات ، وهناك دعوات موجهة إلى الإباحية والأفلام الجنسية وأفلام الجريمة ، هناك صحافة دفع المرأه إلى الشطط ، بهدف هدم الأسرة وتدمير المجتمع ، حتى أصبحت الصحافة إداة لافساد الذوق والانحطاط بمستوى التفكير وإشاعة التحلل والفضول والتفاهة ، فهى اليوم مدرسة للاثارة والفضول والمبالغة .

ولقد كانت أوليات هذه الأسماء اللامعة أوليات منفرة ولكنهم عادوا تحت ضغط ظهور مفاهيم اليقظة الإسلامية إلى شيء من المناورة الماكرة ، كان زكى عبد القادر يكتب بطريقة العلمانين المنفرة ولكنه عدل طريقه فى آخر أيامه ليتمكن من كسب أكبر قدر من القراء بالتحرك فى إطار عبادات براقة مثل (القوة العليا) ومثل هذه المصطلحات التى تخدع القراء عن مفاهم الماسونيه وقـــد تم تعيين زكى عبد القادر فى يونية ١٩٨١ حاكما للمنطقة الليوتريه فى مصر والتى تضم سبعة أندية لليونز وسافر إلى الولايات المتحدة بدعوة من مؤسسة الليونز الدولية فى أمريكا ، وقد عمل فى الاخبار

منذ ١٩٥٠ ومنذ صدرت أخبار اليوم ١٩٤٤ وصدرت الأخبار ١٩٥٢ امتداداً لهذا التيار كان ذلك بداية تغير شامل فى الصحافة المصرية قاده (مصطفى أمين) فقد بدأت فى احتواء جميع الصحفين اللامعين فى مصر ثم الكتاب المنشئين .

وقد تم ذلك بسرعة فائقة ، فانضم إليها على فترات : العقاد وتوفيق الحكيم والمازنى وهيكل وطه حسين وسلامة موسى ، وكان أغلب هؤلاء يكتبون فى مجلة الرسالة بأسلوب أدبى رفيع ، وقد تغير هذا الاتجاه ، فقد تم تحويل هؤلاء الكتاب البلغاء إلى صحفين ، وامتد الاحتواء إلى الصحفين البارزين فضمت التابعى وزكى عبد القادر والصاوى وكامل الشناوى وجلال الحمامصى ، وبذلك سيطرت أخبار اليوم على هؤلاء الكتاب وجهات وجهتهم هى وجهتها فى مختلف القضايا التى يقدمها مصطفى أمين أو الهدف الذى هو سائر إليه ، فقد أصبح هؤلاء الكتاب جنوداً للحضارة الغربية الرأسمالية ، ومبررون لتبعية البلاد العربية ومصر إليها .

وكان مصطفى أمين قد بدأ عمله الصحفى بخطة محدودة وبأهداف واضحة : منها تأييد حرية المرأة ومحاربة اللغة العربية الفصحى ، وإبراز عنصر الإثارة فى عرض الحوادث ونقل البيان العربى من مستواه الذى وصل إليه إلى مستوى صحفى ، يبدو هذا واضحاً فى أحاديثهم مع عباس خضر وغيره كما كان لاحتواء هؤلاء الكتاب تأثير واضح فى أضعاف تيار المجلات الأدبية والثقافية التى كانت تدفع مكافئات قليلة بالنسبة لما أخذت تدفعه أخبار اليوم نظير تحول هؤلاء الكتاب أمثال العقاد وتوفيق الحكيم إلى أسلوب أقرب إلى العامية : وبذلك نشأت مدرسة صحفية رخيصة فى مضمونها وفى آدائها أيضاً ، وتركزت قاعدة أساسيه تغريبية فى دار أخبار اليوم التى كانت تصدر آخر ساعة ، ومجلة الجيل وغيرها) . وفى مقابل جريدة الأهرام التى كانت فرنسية النزعة مارونيه الهدف ولم يكن لديها كتاب بارزون (بعد خروج زكى عبد القادر والصاوى) وإن كانت قد إنتعشت بتولى محمد حسنين هيكل لها ١٩٥٦ الذى قادها إلى منهج غربى صحفى مختلف فى مظاهرة عن صحافة أخبار اليوم ، وإن كان فى بعض صوره أشد عنفاً فقد احتوى مجموعة التغريبين وغلمان

المستشرقين أمثال توفيق الحكيم ، ولويس عوض ، وكمال الملاخ ، وزكى نجيب محمود ، وحسين فوزى ، ورشاد رشدى وغيرهم ، ولقد كان هيكلا كما كان مصطفى أمين يصدران من نبع واحد هو ولاية التبعية الغربية عامة والأمريكية خاصة وأن اختلفت الوسائل والأدوات .

ومن ثم بدا من العسير أن يستطيع أى كاتب أو أديب إصدار مجلة أدبية أو ثقافية فقد ارتفعت أسعار الطباعة والكتابة ، وقد كان هذا محاضرة واضحة لكل فكر يختلف عن الفكر التابع الوافد السائر فى هدف التغريب وفى خلق (مزاج) ثقافى وفكرى وأدبى واجتماعى فى المجتمع المصرى والعربى خلال هذه السنوات الأربعين (١٩٤٣ — ١٩٨٢) مما يمكن دراسته دراسة موسعة على أنه غير كثيرا من الأوضاع الروحية والنفسية والاجتماعية وقد أفرزت هذه المدرسة أنيس منصور وموسى صبرى وعلى الجمال الذى كان من تلاميذ هنرى كيسنجر .

وهناك المدرسة الصحفية الماركسية التى اشتغلت فى عقود التبعية السوفيتية وسيطرت على الصحافة حتى عام ١٩٧٤ حينما فرض السوفيت نفوذهم على مصر أبان حكم عبد الناصر ، هؤلاء الكتاب لايعرفون شيئا من شرف الخصومة وعداوتهم للإسلام واضحة وهى أشد من خصومه كتاب التغريب وهم يعلمون حق العلم أن الإسلام هو ضمير الأمة وأن القرآن حامى مقوماتها ورمز وحدتها ولن يكون لهم ظهور ماظل هذآن .

وفى خلال أكثر من أربعين عاما عمدت الصحافة إلى تشويه الفكرة الإسلامية وإبرازها فى قالب مخالف للحقيقة ، متعمدة تشويه وجهة نظرها وإعلاء وجهة نظر خصومها فهى تنشر مرافعات الخصم وتتجاهل مرافعات الدفاع ، وتفسح الطريق للاتهام وتزوى علامات البراءة ، بما يؤكد تبعيتها الغربية وولاءها الخارجى فى نفس الوقت الذى يكشف زيف دعواها بأنها تؤدى واجبها أمام جموع الشعب بأمانة وثقة .

وتحول الأدب والفن وصفحات السينما والمسرح إلى سلعة استهلاكية رابحة

أكبر منها رسالة إنسانية ينساق فيها الكاتب وراء إغراء النجاح الهين والكسب السريع ويسمونه دخل الشباك .

ولقد لقيت الصحافة عن طريق الأساليب الخادعة التي هي إعلانات مزورة، دوراً رئيسياً في تضليل الجماهير وكسب ثقتها وانسياقها وراء التفاهات السهلة، وهناك الأبواب الصحفية التي يقدمها حملة الأقلام وباعة الضمائر من أخبار وتعليقات مفجعة في إثارتها لأنهم يغطونها دائماً بأكاذيب مفضوحة وهناك ما هو شر من ذلك : أبواب البخت وطوالع النجوم .

(٢)

تجاوزات الصحافة السياسية

كانت الصحافة السياسية في العصر السابق خادمة للأحزاب ، وهي في هذا العصر خادمة لنظام الحكم القائم بتقديم وجهة نظره في مختلف القضايا الخارجية والداخلية ، هذا في ظاهر الأمر ولا ضير في هذا ولكن وراء الصحافة قوة أخرى تعمل في الخفاء هي التغريب، وهذه مبثوثة في صفحات المسرح والسينما والألعاب الرياضية وصحيفة الجريمة والقصص والمرأة وغيرها .

فالصحفي يتبع الحكومة ويرضيها بالواجهة السياسية التي تتمشى مع وجهتها ولكنه فيما وراء ذلك يخدم أهدافا أخرى ترمي إلى تغريب الذوق والمشاعر والاحاسيس وفي عصر الاحتلال عندما كانت الزعامات الوطنية تحارب النفوذ البريطاني السياسي كان كتاب السياسة أنفسهم يصدرون عن إعجاب وتقدير وتبعية للنفوذ الغربي الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ويعلمون أن النظام الرأسمالي والليبرالي هو أصلح الانظمة للبلاد العربية ، ومعنى هذا أن الحركة الوطنية ، كانت مدخوله لأنها كانت تحارب الاحتلال السياسي والعسكري وحده ، وهي تقبل من النفوذ الأجنبي كل ما سوى ذلك وهو ما حققه الاستعمار عندما جلى عسكرياً وترك النفوذ السياسي الظاهر لقادة الاحزاب السياسية الذين كانوا مع ولاء للوجهة الغربية منكرون تمام الانكار للاصالة العربية

الاسلامية التى تتمثل فى النظام الإسلامى فى مجال الاقتصاد والاجتماع والقانون والتربية .

فلما جاء عصر سنة ١٩٥٢ بدا أن الخلاف ينحصر فى مسألة الجلاء والنفوذ العسكرى .

أما بالنسبة للنظام الاجتماعى فقد كان هناك إعجاب وانبهار بالأنظمة الغربية وخاصة النظام الامريكى الذى كان قد طفا على السطح بعد تهدم نفوذ الامبراطوريتين الانجليزية والفرنسية .

ومن ثم فقد كانت الصحافة ذات ولاء طبيعى لحركة الجيش ولمفاهيمها السياسية ولكنها فى مجال الاجتماع والفن والمسرح والتعليم والرياضة وغيرها كان هناك تبعية واضحة للنفوذ الغربى وإعجاب به وقبول له .

ولكن هل كانت الصحافة السياسية أمينة فى تقديم الصورة الكاملة للمجتمع وتحولاته وما يموج به من دعوات وتطلعات فى هذه الفترة . تستطيع أن نجيب بأن الصحافة قد غشت الامة فى هذا الجانب وكانت كاذبة ومخادعة فكم صفحات من حركة المجتمع نحو الاصالة ومواقف حجبتها الصحافة ومنعتها وحالت دون تقديمها للناس ، بل لعلها كانت دائما فى صف الحكومة فى وجهة النظر عما تود الحكومات أن تعلنه أو تحجبه ، تؤيده أو ترفضه .

ومن ثم فإن صفحات كثيرة من حركة المجتمع سقطت من الصحافة ، ولم يكن سقوطها إهمالا وإنما كان عن أصرار. بل لقد حاولت أكثر من ذلك أن تصور هذه الايجابيات فى صوره سلبيات وأن تنقدها وتزيفها وتسخر منها .

فهى لم تكن فى الحقيقة أمينة على تقديم الصورة الحقيقية ، أو صادقة فى الكشف عن تحركات المجتمعات نحو أهدافه ، ومن ثم فإنها لا تصلح لتكون مصدراً تاريخياً فإذا اعتمدت كانت مصدراً زائفاً .

كان القائمون على الصحافة علمانيين ومن جماعة الهجان المعروفة ، التى

لم تبرز أسماؤها إلا لأنها استطاعت أن تقدم خدماتها فى مجالات كثيرة .

وكانت ذلك ولاء مع نفوذ المغنيات والراقصات والممثلات اللائى جاء يوم أن قدموا فيه للأمة على أنهم مثل أعلى فى ملابسهن وحركاتهن ووجهات نظرهم القاصرة والمخدوعة ، وعاشت صحافتنا على تقديم تاريخ يومى لميلاد أحداهن أو وفاتها بينما بقى أعلام الأمة مجهولى الميلاد والوفاة ولا يهتم بهم أحد .

هؤلاء الذين تصدروا للصحافة من تلاميذ مصطفى أمين وروز اليوسف ، لم يكن فى الإمكان أن يقدموا للأمة صورة صحيحة لما يتحرك فى إحشاء المجتمع ولذلك فقد حجبت تماماً جميع الخطوات الخاصة بالشريعة الإسلامية .

ولم يتوقف الأمر عند الكتاب والصحفيين دائماً امتد إلى أصحاب الأعمدة وأصحاب الكاريكاتير وأصحاب الأبواب الثابتة فقد تصدر هذه كلها تغريبيون شعوبيون يولون اهتمامهم إلى التاريخ الفرعونى ، وإلى الأساطير القديمه ، وإلى السخريات التافهة ، وإلى نقول من كتب غربية فاسدة ، حول الجنس والجريمة . على حد ما يكتب أنيس منصور وأحمد بهاء وكامل زهيرى ومصطفى أمين .

وهناك تلك الرسائل الزائفة التى برع فيها مصطفى أمين وحاشيته والتى تخترع رسائل بأسماء زائفة فى مناسبات معينة لتقول أشياء هى من أهواء هؤلاء الناس التى يحاولون أن يطرحونها على الناس وكأنها قادمة من الناس أنفسهم.

• حجيب الصحافة أحكام المحاكم التى طبقت الشريعة :

• حجيب الصحافة أحكام ألغت اتهامات ظالمةفى المصادرة والسجن وغيرها

• حجيب الصحافة مخططاً كاملا لدراسة وتقنين الشريعة الإسلامية .

وعن طريق هذه الاعمدة التى سيطر عليها ماركسيون ووجوديون وشعوبيون يجرى البث اليومى لمفاهيم منحرفة ، تغريبية فى الأساس ، تعارض مفهوم الإسلام سواء فى الحديث عن الحب أو المرأة أو العمل أو الزواج أو أى شأن من شئون الحياة .

ولما اختفى عصر الماركسية تخفى هؤلاء الكتاب وراء أقنعة جديدة ، تحمل طابع للغش والمداخلة فى شأن الإسلام أو إرضاء مشاعر الناس ولكن الدس مازال مستمرا والسموم مازالت تبث يوما بعد يوم .

بينما لا تستطيع وجهة النظر الأصلية والمسلمة أن تجد طريقا لتقدم وجهة النظر الصحيحة ، أو تتابع يوما بعد يوم مايقدم من سموم وأكاذيب ولعل السياسة ترضى عن هذا الاتجاه ، لأنه يشغل الناس بأشياء كثيرة من تفاهات المعارك والجرائم والأحداث ولعلها توظف هذه الأبواب كلها ، من رياضة ومسرحية وغيرها فى شغل الناس عن حركات السياسة ولكن يبقى بعد أن هذه الصحافه لاتستطيع أن تقول أنها تمثل واقع الأمة المختلف تماما والذى نجحت منه وقائع كثيرة وجوانب كثيرة لأنها لاترضى وجهة نظر الصحافة القومية .

(٣)

كيف أفسد التغريب الصحافة

فى عصر تتطلع فيه مصر أن تبنى مكانتها على طريق الله نجد أن يوميات الاخبار تهدم كل محاولة للبناء بما يعرضه كتاب هذه اليوميات من سموم : فيقدم إسماعيل يونس (ضيف فى بلاط الملك شمهورش) حيث يتحدث عن فتح الفنجان ، كأنه انجاز ضخم أو حدث كبير أو اختراع جديد، لماذا هذا التغرير بعقول الشباب ، هل هو عمل مقصود أم أن المحررين لايجدون إلا هذه النفاهات، أم أن سياسة الصحافة الآن قد أصبحت قائمة على مثل هذه التغريرات التى يراد بها تدمير شباب هذه الأمة وشغلهم بهذه الأمور الفارغة ، والنزول بمستوى الكتابة والثقافة إلى هذا الدرك .

ولماذا يستشترى هذا اللون من الكتابة عن السحر ، وماسمى عالم الجن والأرواح والعفاريت فى أمة يعلمها دينها تفاهة هذه الامور وفسادها ، فإذا لم يكتب عن السحر كانت الكتابة عن تلك الأفلام السينمائية القذرة من أمثال (درب الهوى) الذى هو فيلم أريد به احياء حى البغاء الذى كان قائما منذ عصر

مضى فى حى كلوت بك والشهير باسم (درب طياب) حيث عاشت جماعات البغا وحول هذا تدور أفلام ينفق عليها من المال ماينفق ويغرى الشباب البرىء بحضورها وتتفتح أمام عقولهم وغرائزهم تلك الصور القذرة ، حيث يسمى الكاتب هؤلاء بنجوم الدعارة ولماذا نعيد إحياء هذة الصفحه السوداء التى طويت من تاريخ الاستعمار البريطانى فى مصر .

فإذا لم تجد هذا وجدت فنونا أخرى من التفاهات تخصصت فيها أبواب المسرح والسينما وكرة القدم .

وإذا كان السحر من متخصصات اليهودية العالمية منذ فجر التاريخ فنحن نعرف كيف يراد بإذاعة هذه القصص وهذه الأحاديث تحويل أنظار الناس عن القضايا الأساسية فى أوطانهم وأمتهم إلى الأساطير وعالم الجن والعفاريت.

وليس السحر وحده ولكن هناك قضية الفرعونية التى لاتتوقف ، كأنما أصبحت جزءاً من السياسة أو الاقتصاد ، فلا يمر يوم دون حديث عن تلك القبور المكتشفة والجبانات المستصلحة ، وذلك الرتل المتصل من الخبراء القادمين من جميع أنحاء العالم يبحثون عن التماثيل والاصنام .

ولا يقف الامر عند هذا بل هناك أحاديث عن ذلك التاريخ وعن فلسفة الوثنية وعبادة الآلهة يذاع ويردد ويعاد على أنه نوع من المجد القديم ، فهل هذا كله من أجل ترغيب السائحين أم من أن تحويل وجهة الامة عن دينها وعقيدتها .

أن مايقوله الدكتور أحمد قدرى عن الفرعون غير دقيق وفيه تكذيب للقرآن الكريم فليس صحيحا قوله (فالفرعون لم يكن كما يتصوره البعض فى العصر الحديث ظالما متجبرا ، هذا تصوير بالغ الظلم . الفرعون كان هو الراعى الخير الذى يحافظ على انتظام الظواهر الطبيعية حتى الفيضان وقد وصل الفراعنة إلى هذا المفهوم من للعدالة من خلال ثورة فكرية وشعبية بالغة الخطر» .

وهذا الكلام لايثبت أمام ماعرفه التاريخ الصحيح من مظالم الفراعنة وماسجله القرآن فى هذا الصدد وأن هذه المحاولة من الدكتور أحمد قدرى لاتستطيع أن تثبت أمام الوقائع المعروفة .

وهذا مادفع الكاتبة (حسن شاه) أن تكتب مقالا عنوانه (انقذنا يا آمون) وهى بذلك تعرض نفسها للاستعانة بغير الله تبارك وتعالى تحت تأثير الاحساس بما سموه عظمة الحضارة الفرعونية حتى تتحدث عن تماثيل الفراعنة العظام .

كذلك فقد كان للكاريكاتير دوره فى السخرية بالمفاهيم الإسلامية ولا يزال ، ومن الشبهات المثارة قصة الحب الإلهى التى اتخذوا من شهر رمضان مناسبة للحديث عنها . ومايتصل بها باستقصاء الشعر الذى يتناول هذا الأمر ، وخاصة مايتصل برابعة العدوية ، والحقيقة أن للإسلام موقف من هذا الشعر ومن هذا الاتجاه الدخيل على مفهوم الإسلام الأصيل الجامع بين الخوف والرجاء من الله تبارك وتعالى ، أما هذا الاتجاه التى ظهر من خلال نزعات التصوف الفلسفى فإنه ليس اتجاها إسلاميا أصيلا ، وهو يستمد من الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية ، وليس كل مايتصور الكتاب من شعر تحت اسم الحب الإلهى ، هو شعر مقبول فى مفهوم الكتاب والسنة . فقد أغرب هؤلاء الشعراء وخرجوا على مفهوم الإسلام إلى مفاهيم أخرى منحرفة عن الإيمان بالتوحيد الخالص .

وليس كل الكتابات الموسومة بالتصوف هى فى ذاتها صحيحة ، إلا إذا التمست مفهوم الكتاب والسنة ، أما إذا خرجت عنه إلى مفاهيم الاتحاد والحلول ووحدة الوجود وغيرها فهى ليست من الإسلام فى شيء . ومن هنا نرى كيف أن الصحافة تحاول بهذه الانحرافات أن تخدم مفهوما مغايرا للفطرة وللمفاهيم الآسلامية الصحيحة ، وهى محاولات ترمى إلى توهين العقيدة الإسلامية وضرب المفهوم الإسلامى الاصيل ونحن نعرف أن كتاب اليوميات اليوم هم جماعة من الشباب العابث الساخر ، العلمانى الوجهة ، المنحرف الاتجاه نحو الإعجاب بالفنون العابثة والولاء للقائمين بها تلقاء تلك السهرات والضحكات وتلقاء أشياء أخرى فإن عدداً كبيرا من هؤلاء الكتاب يحصلون على عطاءات وهدايا من أصحاب الأسماء اللامعة في ميدان الفن ، ومن صويحبات هذه الأسماء .

(٤)

الصحافة وكتابة التاريخ

إذا سأل سائل هل يمكن أن تكون الصحافة القائمة فعلا خلال الثلاثين عاما الماضية مصدراً صحيحاً لكتابة التاريخ : تاريخ مصر والعالم الإسلامى لكانت الاجابة حاسمة صريحة : لا ، لا ، لا .

ذلك لأن الصحافة بطبيعتها خاضعة لوجهة نظر الدولة ، وهذا ليس منه بأس ولا خلاف ما دامت قادرة على أن تقدم وجهة نظر الأمة فإذا لم يكن ذلك فى مقدورها فهى تمثل فى كتابة التاريخ إحدى وجهات النظر التى لا يكتمل العمل التاريخى معها إلا بعرض ألجوانب الأخرى وهذا ما نراه اليوم من تحقيقات وذكريات وأحاديث يكتبها كثيرون ممن شاركوا فى الحياة السياسية قبل ١٩٧٠ تكشف عن بعض الجوانب التى كانت غامضة أو لم يكن من اليسير نشرها فالمعروف أن الصحافة كانت حتى هذا التاريخ تمثل وجهة نظر واحدة سواء بالنسبة لقضايا المجتمع أو السياسة . لقد كان كتاب الصحف مفسرين لوجهات النظر الحاكمة ، ولم يكن لهم رأى واضح صريح ، ولم يكن فى مقدورهم تقديم تحفظات على تصرفات الحكام ، وقد جرت الصحافة فى إتجاه القومية ثم فى اتجاه الاشتراكية ووالت وعادت وغيرت وجهتها حسبما كانت تجىء التوجيهات وكان يحدث كثير من التناقض فى معاداة من والته الصحافة ومجدته فإذا هى تنتقصه وتهجوه ، أو يحدث العكس تماما ، هذه هى الواجهة العامة لصحافة مؤممة أساسا وتملكها الدولة وليس فى مقدرتها أن تستقل بوجهة نظرها ، وهى مرحلة تالية تماما وشبيهة للمرحلة السابقة التى كانت الصحافة فيها موظفة لدى الأحزاب والملاحظ فى هذا الصدد أن أحداثا سياسية ذات أهمية كبيرة لم تكتب عنها كلمة واحدة،وأن أحداثا ضخمة كهزيمة ١٩٥٦ صورت على أنها انتصار ، أو كهزيمة ١٩٦٧ التى صورت على أنها نكسة وقد كانت الصحافة تعبر عن وجهة نظر معارضة تمام المعارضة لإحدى القطبين الكبيرين مع ولاء للقطب الآخر ، وكانت وجهة نظر السوفيت السياسة

العالمية هى الغالبة ، ووجهة نظر الماركسية فى الأدب والاجتماع والاقتصاد والتربية هى الظاهرة وذلك خلال سنوات ١٩٦٣ إلى ١٩٧٢ مع عرض مختلف جوانب النقص للمجتمع الغربى عامة والمجتمع الأمريكى بصفة خاصة .

وفى نفس الوقت لم تستطع الصحافة أن تعلن وجهة النظر الصحيحة ازاء قضايا المسلمين فى العالم الإسلامى وخاصة فى الحبشة وقبرص والفيليبين ، وقد وقفت الصحافة فى الصف المعارض للمطالبين بالحرية فى هذه الشعوب مع التأييد الكامل لوجة نظر هيلاسلاسى ومكاريوس وماركوس حاكم الفيليبين ، مع نشر صفحات كاملة عن بلاد الفيليبين فى جريدة الأهرام الاجر تأييدا لحكومتها ازاء جهاد مسلمى الفيليبين الذين كانت تدمر قراهم ويقتل مجاهدوهم كذلك فقد اغفلت الصحافة موقف الأمة من المطالبة بتعديل الدستور وإضافة مادة الشريعة الإسلامية ١٩٧٠ وماحدث من مظاهرات قادها شيخ الازهر الدكتور عبدالحليم محمود فى هذا الشأن ومايتصل بالقوانين التى أعدتها لجان الأزهر وناقشتها لجان مجلس الأمة ، ولم تستطع الصحافة المصرية أن تقول كلمة صريحة وحرة عن كثير من النظم والتنظيمات وخاصة مايتعلق بالبعث والنصيرية واتفاقية أديس أبابا مع السودان واستشهاد بعض حكام إفريقيا المسلمين .

وهناك مسئولية الصحافة المصرية من الناحية الاجتماعية التى كانت تعمل فيها الأقلام لحساب قوى التغريب والعلمانية وخاصة ما تقدمه الإذاعة والسينما والمسرح من أعمال تمثل وجهة نظر النفوذ الأجنبى ، أو الماركسية ، وخاصه فى مسائل ما يسمى بالانفجار السكانى أو تحديد النسل ، وعلى كل حال فإن وجهتى النظر الغربية والماركسية جميعا لاتقدم الحقيقة التى تهم العرب والمسلمين وإنما تقدم وجهة نظر الايدلوجية التى تخضع لها الأقلام .

وهكذا عاشت الصحافة بين هذا التناقض فى المواقف والتقلب فى الآراء والتحول من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ثم العودة ، فى صفوف الرأسمالية ثم المناداة بالاشتراكية والتمهيد للشيوعية ثم مطاردة الشيوعيين وتبرير الدكتاتورية والترحيب بالحزب الواحد والرأى الواحد ، والترحيب بالنفوذ السوفيتى

وتأييد انغلاق مصر على العالم ، ثم هى نفس الأقلام التى رحبت بالانفتاح على العالم ، ومهاجمة الاقطاع والمطالبة باعدام أصحاب الثروات ومباركة فرض الحراسات ثم معارضة ذلك كله عندما تتغير السياسة من النقيض إلى النقيض بلا أدنى خجل .

وكان من عمل الصحافة تألية الحاكم ورفعه إلى مرتبة كبرى فإذا رحل عن الدنيا أخذت الفؤوس والمعاول تنهال عليه تشهيرا وتمزيقا وتجريحا وتشويها ، وتشويه الدول التى يختلف معها الحاكم والافتراء عليها وهناك الكتاب الذين لايكشفون عن هويتهم الماركسية ويدعون أنهم علمانيون أو يساريون وهم أشد خطورة من الماركسيين أنفسهم . ولم يكن فى استطاعة الصحافة وهى بين العمل للتيار الحاكم والولاء التغريبى الأساسى المختفى وراء صفحات الفن والمسرح والسينما والكاريكاتير والجريمة والجنس والقصص أن تمثل وجهة نظر الجماهير وتستجيب لنبض الجماهير وإنما هى تعرض عليه وجهة نظرها مختفية وراء قاعدة مسمومة فاسدة وهى الاستجابة لاهواء القراء ونزواتهم وغرائزهم والوجهة الصحيحة هى الارتقاء بالقارىء إلى الشخصية الإنسانية الاخلاقية وإلى الثقافة الوافرة التى تفهم وجهات النظر المختلفة لبناء وطن قادر على العطاء الصحيح .

الباب الرابع

تمزيق الوحدة الإسلامية

الفصل الأول

المؤامرة على الوحدة الإسلامية

أخطر الحركات التى واجهت العالم الإسلامى ومزقته إلى قوميات وإقليميات تحت أسماء مختلفة ، فى ردة خطيرة من وحدة العقيدة إلى فرقة العناصر ، فهناك الاجناس : العرب والترك والفرس ، وهناك الاوطان : العراق وسوريا ومصر ، وهناك المذاهب : السنة والشيعة والدروز وهناك الاديان: الإسلام والمسيحية ، كل هذا إثارته حركة القوميات وفتحت أبوابه لصراع رهيب ضخم كان النفوذ الاجنبى يستهدفه لتفكيك وحدة المنطقة فلم يكن المسلمون قبل هذه المؤامرة يعرفون إلا أنهم مسلمون قبل أن يكونوا عربا وغير عرب أو ذوى أطان كأن يكونوا مصريين أو سوريين أو عراقيين ، وكذلك كان شأن المسيحية فى هذه الامة ، لهم مكانهم وحمايتهم وأعمالهم ، فى أمن للعقود التى عقدها الرسول مع بنى نجران وعمر مع المسيحين فى القدس ولكن المؤامرة كلها كان لابد أن تبدأ من هذه النقطة ، لانها النقطة الاولى القادرة على تمزيق هذا الكيان الموحد ، وغرس كيانات أخرى فى المنطقة كالصهيونية وإثارة الاجناس والعناصر إلى المطالبة بأوطان مستقلة كالنصارى فى لبنان ، والاكراد فى العراق ، وعناصر أخرى كثيرة تحركت تدعو إلى أن يكون لها كيانات منفصلة .

وبعد أن مرت هذه التجربة بذلك المخاض الطويل الذى وصل ذروته فى أبان الحركات الناصرية والبعثية وغيرها ، والفشل الذى منيت به ، والنتائج التى وصلت إليها هذه الدعوات التى استعملت بالعنصر تحت اسم القومية ، لصب الاحقاد بين أبناء الامة الإسلاميـــة وتمزقها ، نجد أن هناك ماتزال محاولات لايقاد النار فى ذلك الهيشم وقد ما كان من أخطر نتائج تناحر القوميات تلك الحروب بين العراق وإيران ، وذلك الصراع الرهيب بين القوى فى لبنان

أن هاتين المعركتين هما ثمره طبيعية لتلك النار التى أوقدتها دعوات القومية والاقليمية والعنصرية ، والتى تردى فيها المسلمون تحت اسم القومية العربية بينما كان مؤججوها هم المحنقون وراء المسرح من خصوم العرب والمسلمين الذين يطمعون فى أن يظل الصراع قائماً بين العناصر ، وحتى لا تلتئم الجراح وحتى لا تعود الوحدة الإسلامية بأى صورة مرة أخرى .

لاريب أن تلك الصراعات الشعوبية الدفينة التى تأججت منذ مطالع تسلط النفوذ الاستعمارى على البلاد الإسلامية ، هى التى يعزى إليها هذا القدر الهائل من الكراهية والتعصب الذى تدار به معارك القتال الوحشية بين شعبين أو دولتين أو نظامين تجمعهما رابطة الإسلام ليست الحضارية والتاريخية فحسب ولكن والعقائدية أيضاً .

« ومهما تكن الأحقاد التاريخية القديمة التى إنبعثت من جديد بين إيران والعراق أو بين الفرس والعرب أو بين الشيعة والسنه فإن الحرب الدائرة تتجاوز هذه البواعث القديمة ولا تتناساها .

وقد وجدت هذه الخلافات البسيطة من يكبرها الف مرة ومن يوقظها لتحدث أثرها فى النفوس والقلوب (ومن قبل قام اليهود بمثل هذا العمل بين الأوس والخزرج أيام النبى بعد أن جمعهما الاسلام حتى كادا يعودان إلى القتال مرة أخرى) .

ويرى كثير من المطلعون أن هذه الحرب المشتعلة منذ ثلاث سنوات بين العراق وإيران هى فى التحليل النهائى تمثل حلقة من حلقات الحصار الذى أحكمت حلقاته حول المنطقة العربية فى الشرق الأوسط بسبب اهميتها الاستراتيجية والاقتصادية سواء بالنسبة لأمريكا أو الاتحاد السوفيتى أو بالنسبة لاوربا الغربية واليابان وآسيا .

فهناك رغبة على الإبقاء على حالة عدم الاستقرار فى المنطقة وضرب كل محاولة للنهوض أو إمساك زمام مصيرها وثرواتها بأيديها — على حد تعبير الأستاذ سلامة أحمد سلامة — فكان الصراع العربى الأسرائيلى وحده لا يكفى لإبقاء

شعوب المنطقة فوق نار لا تخمد ، كما أن احتمالات التقارب بين إيران الثورة والبلاد العربية بعد إزاحة الشاه ، اقضت مضاجع الكثيرين من العرب وإسرائيل ومن ثم كان طبيعيا أن تستخدم كل الوسائل فى سبيل الايقاع بين الثورة الايرانية والبلاد العربية وخاصة دول الخليج وسقطت الدول العربية وعلى رأسها العراق فى مصيدة عداء سافر مع إيران الثورة لم يستفد منه طرف عربي واحـــد ، واستفادت منه كل القوى الكبرى الطامعة فى المنطقة ومعها إسرائيل ، كانت هناك مخاوف من بعض الدول العربية ، لها مايبررها ولكنها تضخمت وانتفحت بفعل تأثيرات خارجية يهمها أن تتسع دائرة العداء وأن تلتهم آله الحرب كل ما تملكه هذه الدول من قدرة على الاستمرار والاستقرار والأخذ بأسباب المنفعة والقوة وقد تحولت الحرب العراقية الايرانية لسوق هائلة للسلاح تشارك فيها كل الدول الكبرى بدون استثناء بما فى ذلك الاتحاد السوفيتى والصين وفرنسا ، وتستهدف مقدرات مجموعة من الشعوب الإسلامية والعربية على رأسها العراق وإيران ، أما القومية فلم تقف عند إعلاء العرب على الإسلام أول محاولة الخداع بجعل الإسلام عنصرا من القومية ، بل هم يذهبون إلى أبعد من ذلك ؛ إلى علمانية حاقدة تحارب الدين وتسعى لاقتلاع جذوره ، على النحو الذى قام به أتاتورك فى تركيا فأصبح المثل الأعلى لكل الدعاة إلى القوميات ، وكان مخطط الاتحاديين فى تركيا هو مخطط البعث والناصرية وغيرها من هذه الثورات .

وليس الهدف سلخ العرب عن أصولهم وتاريخهم وماضيهم ولا عن الأمة الإسلامية العريضة فى حاضرها وإقامة السدود والقيود ، والخصومات بين العرب وبينها ولكن إلى أبعد من ذلك : إلى محاربة المنهج الإسلامى نفسه ، على أساس القول : بأن الإسلام كان مرحلة ، وإنه ولى وأدبر ، وإنه لا نهضة إلا بالخلاص منه فهو لا ينهض أساسا كأساس لوحدة ، ولا نظاما لدولة .

فهم ينتظرون إليه بوصفه (دينا) بمفهوم الغرب اللاهوتى لا بمفهوم الإسلام الجامع (الذى يربط بين العروبة والإسلام) .

لم يتوقف الهدف عن تجزئة العرب عن المسلمين أو فصل العرب عن الإسلام بل سعيا إلى تجزئة عالم العرب نفسه فجاءت نداءات الفرعونية والفينيقية ، وغيرها .

ولم يكن الإسلام جزءاً من العروبة بل أن العروبة لم تكن شيئا بغير الإسلام أو قبل الإسلام فقد شرفهم الله برسالة الإسلام وبظهور النبي من بينهم ونزول القرآن بلغتهم فقام مفهوم العروبة فى إطار الإسلام .

(٢)

ولقد قدم النفوذ الغربي القوميات والوطنيات بديلا للاسلام ، ومن أجل هذا حجب كلمة (العالم الإسلامى) بمعناها الجامع الذى يتحدث عن وجود عام شامل للمسلمين فى أمتهم الكبرى بالعمل على إشاعة مفهوم القوميات والوطنيات التى أحييت من جديد مفهوم ما قبل الإسلام ، ولا ريب أنه بعد هذه الجولة الواسعة للقومية التى قام بها البعث والناصريه وفشلها الذريع ، فقد كان على المسلمين أن يأخذوا العبرة من هذه التجربة التى لم تحقق هدفا لأنها انطلقت بغاية معينة مضمرة هى أن تحل محل الإسلام وأن تلغى روابط الأمة الربانية: القارة الوسطى ، ولكن بعد مرور هذه التجربة الضخمة ، تعاود بعض فلول القوميين العرب العودة إلى تجديد الحديث عن مفهوم للقومية مفرغ من الإصالة والإيمان ولا يتلاءم مع روح الأمة الحقيقى وبعيد كل البعد عن مفهوم الإسلام الأصيل الجامع الذى لا يتعارض مع قيام الروابط الوطنية والقومية شريطة ألا تنتمى إلى العنصرية والدم والاستعلاء بالأعراق ، فذلك مفهوم قضى عليه الاسلام حين جاء منذ أربع عشر قرنا .

إن محاولات القوميات الجديدة هى محاولات مضببة تحمل نفس مصطلحات ساطع الحصرى وميشيل عفلق وغيرهما فهى تحاول أن تحاكم المنطقة على أنها كيانات مجزأة ، ومن وراء ذلك عصبيات قبلية وعرقية وعقدية تريد أن تثبت وجودها ، وما هذا إلا دليل على الخطر الكامن وراء الدعوة أساساً التى بدأت فى أحضان المارون وفى الارساليات التبشيرية ، وكانت تصريحات دعاة التبشير القدامى واضحة فى الهدف المبيت لها .

ونحن إذا أعدنا النظر الآن فى التصريح الذى أدلى به دكتور زويمر قبل خمسين عاما عن القومية تستطيع أن نستشكف تلك الخطوات التى مرت بها الدعوة إلى اليوم .

يقول : « إن انتصار الاستعمار الحقيقى ، هو هدم الوحدة الإسلامية وإحلال القومية محلها ، وما علينا ألا ننفخ فى بوق القومية فتنقاد لنا الشعوب . وهذا هو الانتصار العظيم » .

وليست القومية هنا بديلا للوحدة الإسلامية ألا خيط من نسيج واسع هو فصل الدين عن الدولة فى نظام الحكم ، وإقامة التعليم الغربى العلمانى بديلا عن التربية الإسلامية ، وبناء الاقتصاد الربوى .

فإذا ذهبنا وراء الاقليمية وجدنا :

الحضارة عربية بدلا من الحضارة الإسلامية ، والثقافة عربية بدلا من الثقافة الإسلامية ، ونجد التاريخ عربيا بدلا من التاريخ الإسلامى والأدب مصريا بدلا من الأدب العربى .

ومن ثم استطردت البرقيات والكتابات فى الصحف والإذاعات فكانت كلمات : أزمة الشرق الأوسط ، والاقليميات ، وحرب الخليج ، بديلا من فلسطين والرابطة بين العرب والفرس . وحتى تظل كلمة (العالم الإسلامى) محجوبة ، وراء العروبة والاقليمية ، ويستطرد هذا حتى يشمل جميع وقائع التاريخ الإسلامى فسميت الحروب الصليبية بين المسيحيه والاسلام، معارك عربية ، ودعوة إلى السيطرة الاقتصادية للغرب .

ومن ثم نجد تلك التفريقات بين المصطلحات : ونجد الخلاف بين القيم الخلاف مختلق بين الجنسية والدين ، وبين الدين والعلم . وبين العروبة والاسلام ، فهذه كلها قوى مترابطة ومتكاملة ، وما جاء الفصل بينها تتجه لهجر منهجنا الإسلامى الجامع بين القيم واعتماد مذهب الغرب الانشطارى،

ومن فهم الإسلام فهما حقيقيا لم يقع فى ذلك الخلاف المزعوم بين الجنسية والدين أو بين الدين والعلم ذلك لأن الاسلام منهج حياة ونظام مجتمع

جامل لكل القيم والمقومات ، ولكنها القوى التى تريدان تفرق الصف وتصدع الوحدة ، وتريدان أن تعلى من شأن الجنسية على الدين ، بينما هما قوتان مترابطتان فى الإسلام ، فإن العروبة والإسلام يتكاملان أبداً ، كما يتكامل العلم مع العقيدة .

ومن شأن تصحيح هذا المفهوم أن نعلى من شأن الفكر الإسلامى كوحدة متكاملة ، تجمع السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية .

ولقد كان الصراع فى الغرب بين القوميات والدين لأن الدين كان مفهومه قاصراً على اللاهوت ، أما فى الاسلام فإن « تعارف الأمم » وتلاقيها أمر قائم واضح .

ولقد ارتبط الفكر بالعقيدة قبل ارتباطه بالجنس ، إذ أن مصدر الثقافات والحضارات هى العقيدة أساسا فالقول بأن هناك فكر مصرى أو فكر عربى قول غير محدد .

الفكر الاسلامى هو جملة المفاهيم التى قدمها الاسلام فى مختلف مجالات الحياة والفكر الاسلامى عربيا كان أو تركيا أو فارسيا فهو مرتبط أساسا بعقيدة التوحيد الخالص وإن كان مكتوبا بلغة من هذه اللغات ولكنه فى الأساس يصدر عن منبع الإسلام ولقد كتب هذا الفكر أتراك وفرس وهنود ومن كل الاجناس وظلوا هم مسلمين لأن الإسلام هو الذى كون عقليتهم وبنى نظرتهم إلى الحياة :

أما تلك الصيحة القومية والاقليمية السائدة التى ترمى إلى جعل الفارابى تركيا والغزالى فارسيا . الخ فهذه صيحة باطلة ، نتجت عن أثر التغريب ودعوات الاستشراق والتبشير الضالة التى ترمى إلى تمزيق الأمة الواحدة كذلك فإن التاريخ الإسلامى فهو تاريخ الأمة الإسلاميه كلها ، وليس منذ ظهور الإسلام لأمة من الامم التى انضوت تحت لواء الإسلام تاريخ قومى أو اقليمى منفصل عن الاسلام ، فقد صنع الاسلام عقل هذه الأمة وقلبها فأصبحت منذ نهر اللوار إلى حدود الصين تصدر عن عقيدة واحدة وعقلية واحدة ماعدا بعض خلافات يتعلق بالاقاليم لا يمكن أن تغير القاعدة العامة أو تؤثر فى النظرة الكليه

كذلك الحضارة فإن هذه الحضارة صنعتها كل العقول الإسلامية التى انصهرت فى بوتقة الإسلام فليس هناك حضارة عربية أو تاريخ عربى ، له طابع خاص مختلف أو متميز عن مفهوم الحضارة الإسلامية العام أو التاريخ الإسلامى أو الفكر الإسلامى .

(٣)

يرجع بعض الباحثين ظهور كلمة القومية إلى بدء التجمع اليهودى الصهيونى فى سالونيك عندما تجمعوا فى أواخر الدولة العثمانية وكونوا مايعرف بالمحفل الشرقى العثمانى ، يقول الأستاذ عبد الله العاقل : ولما عجزوا عن احتواء السلطان عبد الحميد تقرر أن يقضى عليه بالغزو الفكرى حيث أوحى إلى كتابهم وعملائهم ترويج فكرة القومية التركية الطورانية فتأثر بها الكثير من المستجيبين لدعوة القومية ، ولقد كون العرب قوميتهم فى مواجهة القومية التركية وتناطحت القوميتان ، وأسدتا إلى الصهيونية جميلا لن تنساه لهم لأنهم برفضهم العلاقة الإسلامية المتمثلة فى (عبد الحميد) باعوا فلسطين فى سبيل القومية حين رفض السلطان بيعها مقابل ملايين الليرات الذهبية » .

ويرى دعاة القومية إلى (أولا) فصل العروبة عن الإسلام ، ويريدون أن تحل القومية محل الإسلام ، والقومية تخمد دعوة الإسلام (إنما المؤمنون إخوة) فهى تمزق الأجناس ، (ثانيا) والقومية تنادى بالعلمانية وهى تنص على فصل الدين عن الدولة ، أى ابعاد الشريعة الإسلامية عن واقع الحياة . (ثالثا) والقومية تمجد حضارة الإسلام فهم ينسبون الحضارة الإسلامية إلى العرب فقط ، والإسلام ينص على أن كل من آمن بهذا الإسلام عقيدة وعبادة وتشريعا فهو مساهم فى بناء الحضارة الإسلامية عبر التاريخ ومشارك فى إقامة مجد المسلمين خلال العصور سواء كان عربيا أم أعجميا .

ولكن الإسلام مع ذلك لا يمنع المسلم أن يعمل لبلده وأن يتعاطف مع قومه وعشيرته ، كذلك يدافع عن أرضه ؛ لانها أرض إسلامية لا أرض قومية .

وكلمـــا ذكر اسم الله فى بلد عددت ارجائه من لب أوطانى

ويتساءل الباحث : لماذا لا يكون النداء لفكرة الجامعة الإسلامية التى تحقق للمسلمين العزة تحت لوائها وقد شهدت لصلاحيتها وخلودها المستمر على مر الزمان والايام .

(٤)

لقد بدأت بذور الاتجاه القومى العربى فى أحضان المارون ومع فتح الابواب لنشاط الارساليات التبشيرية ، وحمل بذور الاتجاه العلمانى (بعثات البروتستانت الأمريكية والكاثوليك الفرنسية) . وكان للمبشرين الأمريكيين الأثر الواضح فى انتشار القومية وقد اعتمد الامريكيون فى هذا على اثنين من العرب نصيف اليازجى وبطرس البستانى :

وفى هذا الاطار ظهرت مجلة الجنان ١٨٧٠ تدعو إلى الوطنية ونشر

رزق الله حسون : مرآة الأحوال فى لندن

لويس صابونجـــى : جريدة الخلافة فى لندن

وأصدر نجيب عازورى كتابه المسموم (يقظة الأمة العربية) ١٩٣٣ وهناك موقفان يقدمهما الأستاذ طارق عبد المنعم محمد يكشفان عن مراحل الخطة :

(الاول) فى مفاوضات تركيا بعد الحرب الأولى وهزيمة الدولة العثمانية :

يقف كرزن موقف المتصلب فى المفاوضات ويقول لعصمت اينونو مندوب مصطفى كمال : إننا لا نستطيع أن ندعكم مستقلين لأنكم حينئذ تكونون نواة يتجمع المسلمون حولها مرة أخرى ، ولكن مصطفى كمال يقبل شروط كرزون الاربعة :

١ ـــ قطع صلة تركيا بالإسلام . ٢ ـ إلغاء الخلافة .

٣ ـــ يقوم باخماد أى حركة يقوم بها أنصار الخلافة .

٤ ـــ يختار دستوراً مدنيا بدلا من الشريعة الإسلامية (مذكرات الحاج أمين الحسينى) .

وقد رفع مصطفى كمال أعلام وشعارات القومية الطورانية وشعارات العلمانية واستخدم الرصاص فى إسكات أى صوت ينادى بالإسلام أو الرجوع إليه .

(الثانى) فى الوقت الذى اتفقت فيه بريطانيا مع الشريف حسين ١٩١٦ ضد الخلافة العثمانية لإقامة دولة عربية ، كانت بريطانيا تقوم بأعمال عسكرية ضد السنوسيين وضد السلطان على دينار فى السودان وكان كلاهما من أبرز دعاة الفكرة الإسلامية المحاولين إبعاد المستعمرين عن بلادهم والمجاهدين فى سبيل البلاد الإسلامية جمعاء .

ومن ثم انقسم العالم الإسلامى إلى قسمين : عربى وإسلامى .

أما القومية الطورانية فهى قومية لادينية حمل لواءها (ضياء كوك الب) وأحمد أفادين ويوسف اشتورا وكانت تدعو لمجد (طوران) ، ثم أطلت القومية الفارسية برأسها وهى تنادى بالسير على خطى (قورش) .

والقومية العربية صنعها لورانس عميل المخابرات الإنجليزية وصاحب الاتجاهات اليهودية . وأيد الاستعمار الفكرة العربية المستبعدة لمزج العروبة بالإسلام فالقومية العربية فى الحقيقة أفرزها الاستعمار ووضع مفكروها أصولها من اقطاره وحمل لواءها فى نشأتها نصارى الشام والرهبان وحين أثمرت وحققت أهدافها ونما نموها حمل لواءها المسلمون . وهناك الصلات واضحة بين القومية والقوميين والعلمانية والعلمانية وبين الاستعمار والصليبيين ، بل لقد رأى الاستعمار أنه ليس ثمة مايمنع أن تعلن القومية والقوميون الحرب على أوربا والاستعمار تحت أعلام الوطنية والتحرر والثورة على الاستعمار الأجنبى .

والخلاصة ان القوميين العرب هم الذين نشأت أفكارهم ونبتت وترعرعت فى حجر الاستعمار والتبشير وليس فى مقدورهم أن يخفوا حقيقتهم ، والتنظير للقومية بدا بعازورى وبطرس البستانى وانتهى إلى ميشيل عفلق وزكى الارسوزى .

وفى ندوات عبد الناصر فى بيروت وندوة التراث فى المغرب ١٩٨٣ حشد القوميون كل جهودهم فصنعوا مهرجانا لمواجهة الإسلام ودعوا إلى حسم

علاقة الدين بالدولة والأخذ بمبدأ العلمانية ، بل وبلغوا أشد من ذلك جرأه عن دعوا إلى تقييم الإسلام علميا والبت فى أمره ، هل يصلح لأن يتخذ أساس بناء أو منهج صلاح لمواجهة التحديات والمشاكل ، أم ثبت عجزه وتجاوز العصر له ، وقد جاء فى البيان الختامى فى ندوة التراث بالمغرب تؤكد على العصرية وتجاوز العصر للتراث (أى الإسلام كما عبروا عنه)

والواضح أن تيار القومية ، وأن تحول عن مخالفة الاستعمار ، فإن ولاءه مازال معقوداً للحضارة الغربية والعلمانية والمفهوم المادى ، فهو يرى فى الحضارة الغربية هى الحضارة الوحيدة وفى طريقها طريق التحديث وحده .

ولقد كانت دعوة القوميين واليساريين والثوريين بعد نكسة ١٩٦٧ التى أوقعها بالعرب والمسلمين القوميون وحدهم ، تتحدث عن ضرورة تحديث الدولة وبنائها على طريق العصرية بعيداً عن الدين من أجل النهوض من السقطة والمضى فى الطريق . ولكن أحاسيس الشعوب كانت أعمق وفطرتها كانت انقى فقد عرفت أنها ضلت وأنه لا يوجد طريق الآن غير طريق الإسلام. أن قولهم أنه لامجال اليوم لوحدة على أساس من الإسلام ، إحساس بالفزع لزحف الإسلام فى صحوته ومده الجديد ، وأن هذا الأسلوب الذى يصنعه أمثال محمد عمارة فى استعمال القومية والعروبة فى خدمة العلمانية والشيوعية ساقط ومنهزم ولن يحقق شيئا أمام أضواء الإسلام الباهرة التى يخدع الناس بالتمحل بها .

(٥)

يقول الدكتور فاروق عبدالسلام أن المسلمون لم ينكبون فى حياتهم السياسية منذ بعثه النبى صلى الله عليه وسلم وإلى يومنا هذا بقدر ما انكبوا فى ضياع الخلافة ولم ينجح أعداء الإسلام فى النيل من المسلمين بقدر مانجحوا فى تسديد الضربة لهم فى مقتل ، فى رمز وحدتهم وقوتهم حتى يسهل التسلط عليهم والتمكن منهم على مبدأ « فرق تسد » والخلافة رأس الأمر كله وهى تعنى ببساطة . وحدة المسلمين تحت رئاسة عامة من أجل حراسة الدين وسياسة الدنيا وتحت اعطافها

كان المسلمون أمة واحدة تمتد من المحيط إلى الخليج يرهبون عدو الله وعدوهم ، وبعدها وفى غيابها أصبحوا غثاء كغثاء السيل ودويلات مبعدة تداعى عليهم الأمم كما تداعى الاكله الى قطعتها فرادى كالغنم الشاردة فى الليلة الشاتية ، واستمر عطاء الخلافة ثلاثة عشر قرنا من الزمان يحمل شعلتها ويرفع رايتها شوامخ الرجال من فرسان الإسلام فى سباق التتابع الدائر بينهم وبين أعوانهم المتربصين لدين الله ورسوله . وفى أيامها لم تسلم بلاد المسلمين من مثل هذه الشرور والانحرافات من جانب الحكام ، وليس كل الخلفاء على مستوى النجوم الزاهدة من صحابة رسول الله فى خلافتهم الرشيدة ، وإلغاء الخلافة إنما فرض علينا فرضا ، وكان دور مصطفى كمال اتاتورك فى ذاك لايتعدى دور العميل المطيع والمنفذ لأوامر أسياده من الحلفاء وتشهد بذلك وثيقة بروتوكول معاهدة لوزان المعقودة بين الحلفاء والدولة التركية عام ١٩٢٣ والتى تتضمن شروطا أربعة اشتهرت باسم شروط كرزن الأربعة ونصها :

— قطع كل صلة بالإسلام .
— إلغاء الخلافة .
— إخراج أنصار الخلافة من البلاد .
— اتخاذ دستور مدنى بدلا من دستور تركيا القديم المؤسس على الإسلام

ولم يعد المسلمون بعد ضياع الخلافة دولة كبرى تتحدث باسمهم فى السلم وتدافع عنهم فى الحرب ، ففى السلم أصبح القرار النهائى والتحكم فى المشاكل الدولية بين الدول الخمس الكبرى صاحبة العضوية الدائمة فى مجلس الأمن والتى تملك حق الاعتراض . وفى الحرب دخلت البشرية عصر الصراع النووى وتم تفجير الذرة وتمكن أصحاب كل ملة من وضع أيديهم على أسرارها والحصول عليها إلا المسلمون .

وأصبح اللحاق بالركب الدولى فى المجال النووى يتطلب توافر عاملين هامين :

(١) عقلية علمية رائدة .

(٢) وإمكانيات مادية باهظة .

وتوافر العقلية العلمية الحديثة فى البلاد الإسلامية معدمة وفقيرة واقتصادها تحت الصفر كمصر وباكستان وتركيا وفى نفس الوقت تنفجر ينابيع النفط وتنهمر الثروة بغير حساب فى بلاد إسلامية أخرى ، حيث لايجدون مكانا يحفظون فيه أموالهم وعوائد ذهبهم الأسود إلا فى بنوك الأجانب وبشروطهم الخارجة عن شرع الله ، ومايحفظ أقل بكثير مما ينفق بغير حساب تحت أقدام البغايا وفوق موائد السكارى .

وما كان لمثل هـذا أن يحدث لو كانت للمسلمين خلافه تجمعهم وتوحد سياستهم الخارجية والحربية والاقتصادية والمالية ، ولا يمنع أن تسمى الخلافة بالاتحاد الإسلامى إذ الولايات الإسلامية المتحدة أو اتحاد الجمهوريات الإسلامية فالمعنى مقدم على الدعوى والأهداف والغايات أهم من المسميات والخلافة وظيفة ومضمون قبل أن تكون شكلا من أشكال نظام الحكم : العلمانية ، القومية ، الطبقية تحول دون ذلك .

لقد أصبح كل شيء يقام على أساس الدين محل اتهام ، قام الاتحاد السوفيتى على أساس الإلحاد وإنكار وجود الله ولا يقام اتحاد على أساس توحيد الله والإيمان به. أن ما اعترفنا به من قيام إسرائيل هو مارفضه آخر حلفاء آل عثمان فى اباء وشمم وكان إلغاء الخلافة وتدمير الوحدة الإسلامية هو الرد المقابل لهذا الرفض .

(٦)

لقد تصدى باحثون غربيون وشرقيون لبحث هذه المؤامرة الخطيرة :

مؤامرة تمزيق الوحدة الإسلامية وإعلاء دعوات الاقليميات والقوميات ومن هؤلاء ليونارد بانيدر فى كتابه (الثورة العقائدية فى الشرق الأوسط)حيث جعل هذه الدعوات بمثابة عقائد جديدة وتبين له بعد الدراسة المستفيضة مايلى :

أولا : أنه مهما صنع الاستعمار للقضاء على الوحدة الإسلامية وإقامة الوطنيات والقوميات والإقليميات فإن حركة النضال من أجل مقاومة الاستعمار كانت تستمد قوتها الأساسية من مفهوم الإسلام الأصيل فى الجهاد ومقاومة الغاصب .

ثانياً : أن القوميات التى فرضتها القوى العسكرية فى المنطقه لم تنجح بالرغم مما بذل فى سبيلها من مال وانفق من دعاية وماجرى من كتابات لاقناع الأجيال الجديدة بها .

ثالثاً . أن العالم الإسلامى لم يقبل الديمقراطية بمفومها الغربى المخالف لمفهوم الشورى ، ولم يقبل القومية بمفهومها الغربى المخالف لمفهوم العروبة ، ولم تكن القومية أحسن أشكال الحكم بل كانت وسيلة لاخفاء الأيدى المخضبة بالدماء والأنياب والأظافر المسيطرة باسم الاستبداد والدكتاتورية .

رابعاً : الجيل القديم من السياسيين كان يعارض النفوذ الغربى الاستعمارى على الصعيدين السياسى والعسكرى ولكنه كان يتسامح مع تأثير الغرب على الصعيد الفكرى والثقافى العام .

خامساً : أن التعارض بين الدين والقومية فى الغرب مستمد من مفهوم الدين فى الغرب أما الإسلام فإنه لايعارض القومية بل يهذبها ويضعها فى صيغة أخوية مفتوحة .

سادساً : مازالت العقيدة الإسلامية قادرة على أن تغير كثيرا مما يفرض عليها من الخارج وتحطم كثيرا مما يقيد ، وتحول دون القوى الاستعمارية وبين تحقيق كل مآربها .

سابعاً : تبين للغرب أن محاولته فى تحويل المسلمين من الدين إلى القومية وهو ماتسمى التبدل العقائدى غير ممكن ، كما أن محاولة إقامة حواجز عالية بين الأقطار العربية والأقطار غير ممكن لأن روح الإسلام وثقافته العالية تجمع قلوب المسلمين جميعاً وتجعلها تخفق للحدث يحدث هنا أو هناك .

ثامناً : أن الدول الكبرى هى التى رسمت التجزئات الإقليميه فى الشرق الأوسط والكيانات الوطنيه لسد حاجاتها هى وتحقق أهدافها ومتطلباتها . وكان التركيز الاستعمارى أولا على مصر وتركيا وإيران .

تاسعاً : حاول الاستعمار الاعتماد على جماعات من الإقليميين والقوميين وأثارت نزعات ونحل قديمة بين أهل الدعوة الإسلامية ، الذين كانوا فى مجموعهم الأكبر وأغلبيتهم الساحقة يجمعون خير ما فى ذلك المذاهب ويؤمنون بمفهوم السنة الجامعة ، وبالبناء على الأساس ، لايرفضون الغرب ولا القديم وإنما تحاكموها وفق مفهوم الاصالة والميراث الإسلامى الصحيح فالمسلمون يقبلون من الغرب على قاعدة (البناء على الأساس) ويرفضون من الغرب كل ما يعارض مفاهيمهم الأساسية ويقبلون من الغرب تنظيمات وليس نظما ، ويرون أنهم يستطيعون الانتفاع بمنجزات الغرب المادية دون أن يقبلوا تأثيراته الروحية والثقافية والقانونية لأن لكل أمه ثقافتها الخاصه .

عاشراً . فشل القوميون العلمانيون الذين يفرقون بين الدين والدولة ، وهم الذين كانوا معجبين بنظام الغرب وحضارته التى تميل اليوم إلى الغروب ، وقد فشلت محاولاتهم فى إقامة نظام منافس للنظام الإسلامى .

* * *

إن المفهوم العلمانى الذى صنعه الاتحاديون فى تركيا هو المفهوم القومى الذى صدر للبلاد العربية على أيدى ساطع الحصرى وزكى الارسوزى وميشيل غفلق وقد قامت الاقليمية على الأرض وقامت القومية على العرق ، والقومية تعزل العرب عن المحيط الواسع (العالم الإسلامى كله) والعلمانية تعزل العرب عن الفكر الواسع (التراث الإسلامى) وقد تبين فساد نظرية الدم فى البلاد العربية وفساد نظرية القومية المستندة على أساس العنصرية وحرم الإسلام التفاضل بالأجناس والانساب والطبقات وأنكر فوارق الجنس واللون واللغة .

الفصل الثانى

تآمر الغرب (بشقيه)

على الإسلام والأمة الإسلامية

إن محاولة تمزيق الوحدة الإسلاميه هى إحدى العوامل التى اختارها النفوذ الغربى للسيطرة على الأمة الإسلامية واستدامة هذه السيطرة ، وحرمانها من القدرة على امتلاك إرادتها ، أو إقامة مجتمعها الإسلامى الأصيل أو إعادة بناء حضارتها وتلك خطة مرسومة ومرتبة منذ وقت بعيد وقد مرت بمراحل عديدة كانت آخرها هذه المرحلة: مرحلة الاحتلال الغربى ، ثم انتهاء هذا الاحتلال العسكرى السياسى إلى نوع من الاحتواء الكامل عن طريق السيطرة الاقتصادية والثقافية .

ولقد عملت القوى المسيطرة التى تنوعت بعد الحرب العالمية الثانية إلى قوى غربية وقوى صهيونية وقوى ماركسية إلى وضع مخططات مختلفة ، ترمى كل منها إلى تحقيق غاية خاصة لها بينما هى فى مجموعها ترمى إلى غاية واحدة :

هى ، صهر المجتمع الإسلامى الواسع فى اتون التبعية ، وذلك عن طريقين :

أولا : عقليا وثقافيا وروحيا ، عن طريق الفلسفات والمذاهب والايدلوجيات المادية الاباحيه الوثنية العلمانية التى تدعو إلى الانطلاق وخلع رداء القيم الأخلاقية والاندفاع وراء اللذات والشهوات عن طريق القصة المكشوفة والشعر الاباحى ، والمسرح والسينما وكل هذه العوامل مع التخفف من روح العقيدة والأخلاق فى المناهج الدراسية والجامعية .

ثانياً : تدمير المجتمع الإسلامى عن طريق تغذيته بكل مطروحات الحضارة المدمرة من رقص وزنا وإباحة وفساد خلق وترف وانحلال وأدوات استهلاك تقدم بسهولة عن طريق الربا .

ويهدف ذلك كله إلى السيطرة على اقتصاد الأمة الإسلامية والحيلولة دون قدرة هذه الأمة على امتلاك إرادتها أو تصنيع خاماتها ومنتجاتها بل لكى تبقى دائما مصدراً لخامات يصدرها الغرب وبضائع استهلاكية يستوردها من الغرب وعندما انبعثت الصحوة الإسلامية فى السنوات الأخيرة من القرن الرابع عشر الهجرى كانت خطة القوى الغازية خارقة فى تطويق هذه الصحوة والحيلولة بينها وبين تحقيق غاياتها وحصرها فى دائرة ضيقة وفصم مراشيها التى تطيرها .

ولقد جرت المخططات فى كل اتجاه ، من أجل السيطرة والاحتواء فكانت هناك محاولة تزييف الانتماء العربى الإسلامى وتغيير الهوية الثقافية وجرت محاولة احتواء العقل العربى والسيطرة على المعلومات . وعمقت هذه القوى الهوة بين المسلمين وبين قضية فلسطين .

كما عملت لتذويب المسلمين فى مجتمع الاستهلاك وتقديم النموذج الغربى بديلا للنموذج الإسلامى الأصيل . ومن ثم أصبح الغرب يفرض النموذج على المسلمين اليوم بقوة متزايدة وهو نموذج يفتقر إلى الأخلاقية وإلى الإنسانية وإلى الإيمان بالله .

فالإنسان الغربى لايعمل حسابا للقيم الخلقية والروحية والحضارة الوافدة لاتعترف بالله تبارك وتعالى وتتحدث عن قدرتها الخارقة فى صلف وجهالة .

ومن ناحية أخرى فإن ثروة العالم الإسلامى كلها موجهة لخدمة الاقتصاد الغربى ، الذى يعمل على استنزاف الثروات المذخورة من بترول وكوبالت ومنجنيز ، دون مراعاة لمقاييس أساسية وإنما من خلال الإسراف والترف والتدمير العالمى لمعطيات الأمم ، ومن خلال هذه التبعية المفروضة على المسلمين والعرب حيث يتبع المسلمون والعرب نمطا استهلاكيا مدمرا لاينظر إلى الغد ولا يحسب حساب الأجيال القادمة .

وفى نفس الوقت يقف الغرب موقف التحريم الكامل دون إعطاء العرب والمسلمين علوم التكنولوجيا ويصر على أن تبقى مفاتيح المعرفة فيها بأيديهم مع التحايل على المسلمين ليتصوروا فى بوتقة الحضارة الغربية ولقد تكشفت

فى السنوات الأخيرة حقائق عجيبة فى هذا الصدد أهمها وقوف الغرب فى وجه كل جهد حقيقى لبناء قدرات العرب والمسلمين العلمية والتكنولوجية حتى يجبرهم على الركوع أمام أصحاب التكنولوجيا واستخدام مناهجهم والتبعية لهم

١ ـ محاولة فرض انتماء زائف

حاولت القوى الغربية تمزيق وحدة الوحدة الاسلامية ، وعزل المقومات الجامعة التى تشكل الشخصية الاسلامية إلى عناصر هى الدين والجنس والوطن واللغة ثم يجرى ضرب هذه العناصر بعضها ببعض بينما أن الإسلام يجمع بينها ويشكل منها وحدة جامعة فالانتماء فى مفهومه الاسلامى ، ليس انتماءا . قومياً ولا لغويا ولا وطنياً وإنما يكون الانتماء للعقيدة الجامعة القائمة على هذه المقومات جميعا . من خلالها . وقد جعل الإسلام الانتماء الوطنى قائماً فعلا ولكنه جعله تابعاً للانتماء العقدى أى أن ارتباط المسلم بالوطن وحبه له ودفاعه عنه واستشهاده فى سبيله يكون ـ كما يقول الدكتور زكريا سليمان بيومى ـ نتيجة لمدى ارتباط المجموعة البشرية المقيمة فيه . بمجموعة القيم الاسلامية ، فإذا لم يستطع المسلم الالتزام بهذه القيم فى الوطن الذى نعيش فيه وأصبح من الفرض عليه أن يهاجر إلى أرض جديدة يستطيع فيها أن يكون ملتزماً .

وهذا الأمر تؤكده هجرة النبى ﷺ إلى المدينة :

والانتماء إنما يكون إلى مجموعه عقائدية ، إلى مجموعة من القيم والمبادىء التى تنظم سلوك الإنسان وتحدد له العلاقة مع أخيه لانشاء أرقي أنواع الانتماء ، وإن وحدانية الله والتقاء كافة القيم والسبل عنده يشجع هذا الانتماء مهما اختلفت السبل إليه .

هذا وإن الانتماء إلى مجموعة من القيم والمثل أوجدت دورة تقوم على نصرتها والدفاع عنها وهذا هو دور الانسان الثابت إلى نهاية وجوده فى الكون وإن معيار حسابه فى الآخرة سيكون بمدى التزامه واقترابه من هذه القيم وجهوده لنصرتها .

والانتماء العقائدى إنما يعنى انتماء الإنسان لمجموعة من القيم والمثل تنظم سلوكه وحياته ، وبالتالى لمجموعه من بنى جنسه تلتقى معه على الانتماء بغض النظر عن أهلها أو جنسها أو لونها أو أى مقاييس أخرى .

والانتماء العقائدى فى الإسلام يرفض الانتماء العرقى بكل أشكاله ولكنه لا يرفض الانتماء الوطنى فقد اعتبر الإسلام حب الوطن من الإيمان وارتقى بمن يموتون فى سبيل الدفاع عن أوطانهم إلى مرتبة الشهداء » .

* * *

وبعد فإن هناك محاولات متعددة ترمى إلى تغيير مفهوم الانتماء ، وهى تطرح مفاهيم مختلفة من أهمها مفهوم الوطن ، وهناك مفهوم القومية والعروبة، وتمتد فروع ذلك إلى دعوات تريد أن تبتعث تاريخا قديما قبل الإسلام ، كأحياء الفينيقية فى لبنان والفرعونية فى مصر ، فى محاولة للدعوة إلى جعل هذا التاريخ القديم انتماء متجدداً، بينما نعجز هذه المطروحات القديمة البالية المتصلة بالأوثان والقبور ، عن أن تشكل لها معطيات حقيقية تجمع حولها بقلوب والمشاعر، وليس غير العقيدة الأساسية مصدراً للانتماء ،بتراثها الضخم ، وميراثها الوافر ،وتاريخها العظيم وجماع قيمها ذات العطاء أكثر خلال أربع عشر قرنا ، ولما كانت العقائد والأديان هى مصدر الحضارات التى شكلت هذا البناء الاجتماعى الباذخ سواء فى الأديان السماوية أو البشرية ، فقد جاء الإسلام ليقدم للبشرية أعظم النماذج فى بناء الحضارات وإنشاء المجتمعات ، ذلك لأنه حرر العقل البشرى من عبادة الأصنام والأوثان ونقلها إلى عبادة الله الواحد الأحد مالك الملك ، كما أنها حررت الإنسان من عبودية الإنسان وهما السمتان اللتين قامت عليها حضارة اليونان والرومان والفرس والفراعنة وإذا جرينا وراء أهواء الانتماء الوطنى كان انتماؤنا قاصراً محدوداً فى الأرض وحدها ، بينما يجب أن يكون الانتماء حضاريا عميقا جامعا ، متصلا بكل مقومات الإنسان .

ولقد كان من أكبر محاذير النهضة ، وعقباتها هو قدرة النفوذ الغربي على حجب مفهوم الانتماء الأصيل ، وأضفاء مفهوم جزئى إنفصالى إقليمى على النفوس العربية المسلمة .

ولا شك فإن المسلمين تخلفوا عندما فقدوا الادراك لحقيقة هويتهم وإنتمائهم وفقدوا الإيمان بذاتيتهم المميزة لهم بوصفهم « خير أمة أخرجت للناس » وتقاس حضارة الأمم وأصالتها بدرجة صمودها أمام المتغيرات الحضارية الأخرى وثباتها على أصالتها وذاتيتها .

ولا شك أن هذا الامتحان الذى تواجهه (الذاتية الإسلامية) فى احتكاكها وهى فى مرحلة الضعف بالحضارة الغربية (بشقيها) هو من أخطر التحديات وإن صمود المسلمين ضرورة فى هذا الامتحان الحضارى الذى لم تمتحن بمثله أمة أخرى .

ولقد حرص الإسلام منذ أجياله الأولى على تربية اتباعه على قاعدة حماية الذاتية الخاصة وثبات مفهوم الانتماء العقدى الأصيل ؛ حتى لا تنصهر شخصيتهم فى الأممية أو العالمية وهم الذين يحملون لواء رسالة الإسلام العالمية والمدعوون إلى إذاعتها ونشرها :

ولقد كان المسلمون طوال تاريخهم أكثر الناس حفاظا مخافة أن يقعوا فى التبعية أو الاحتواء ؛ وكانوا قادرين دوما على التماس مفهومهم الذى يميزهم عن الآخرين ؛ وقد كانوا دائماً يأخذون بالأساليب والتنظيمات العصرية ، ولكنهم ما كانوا يقبلوا أن ينصهروا فى النظم أو الايدلوجيات ، وقد واجهوا حضارات الأمم منذ وقت بعيد واتخذوا منها موقفا حاسما ؛ إنهم لم يرفضوا حضارة الغير ولاعلومهم ولا تجربتهم ، ولكنهم لم يقبلوها أيضا ، وكانوا منها على أسلوب من الرصانة والقدرة على الأخذ والرفض ، وما أخذوه منها أساغوه وأضافوه إلى شخصيتهم وصهروه فى بوتقتهم ولم يقبلوا أن يغيروا أى معلم من معالم ذاتيتهم ، لقد حولوا كل ما أخذوا إلى مادة خام يشكلونها فى إطار مفهومهم تشكيلا خالصا . وإنهم فى إتصالهم بحضارات الأمم فرقوا

بين نوعين منها : ما يتصل بالعقائد والتشريع ومن حيث الحل والحرمة وما بينهما من درجات وما يتصل بالعلوم العقلية والطبيعة والانسان ومناهج البحث والتدوين ، وقد جعلوا حدود الله قواعد راسخة تحت اسم الثوابت ومن خلالها تحركوا فى دائرة المتغيرات .

فقد صمدوا أمام ضوابط الربا والزنا والخمر والميسر وغيره ، فهذه من الثوابت والحدود التى لا سبيل إلى الكلام فيها تحت اسم التطوير أو غيره من العبارات الضالة .

كذلك فهم قد رفضوا (أولا) الانتساب إلى غير الله ، أى أنهم رفضوا كلمة الطبيعة والجبرية والحتمية (ثانياً) وضعوا أساس الالتزام الربانى فى المجتمع والحركة .

(٢)

ومن ناحية أخرى فإنهم قد رفضوا مقولة أن الانتقال من مجتمع الزراعة إلى مجتمع الصناعة من شأنه أن يغير الأخلاق ، فقد أقر المسلمون ثبات الأخلاق لأنها جزء من العقيدة الربانية الإلهية ، كذلك رفضوا كل ما يقال من أن التقدم التكنولوجى له تأثيره على عالم الحياة الاجتماعية وإنه يفرض تغيراً فى السلوك والأخلاق والمعاملات الاجتماعية ، والمسلمون لا يقبلون الخضوع لما يفرضه هذا التقدم التكنولوجى ، وإنما يرون أن تنتقل هذه العلوم إلى بوتقة قيمنا الإسلامية ومجتمعنا على أنها مواد خام وأن يصوغ المسلمون حضارتهم من جديد فى إطار التوحيد والرحمة والعدل والإخاء البشرى ولا يقبلون أن يكونوا جزءاً من هذه الحضارة يخضعون لقيمها الخارجية بعيداً عن الإيمان بالله ، ذلك لأن الغرب قد بنى هذه الحضارة خارج محيط الضوابط الأخلاقية والقيم الروحية وبذلك أصبحت أداة من أدوات التدمير سواء للمجتمعات فى السلم أم فى التهديد بالحرب الذرية النووية التى تواجه العالم لأن بخطر دائم متجدد .

وفى مفهوم الإسلام أن العلوم والتكنولوجيا يجب أن يقدم ثمارها

لتتحرك فى إطار الثوابت الإسلامية والقيم الإسلامية التى ترمى إلى حماية المجتمع من الانهيار والتى تجعل هذا النتاج العلمى والتكنولوجى أخلاقيا إنسانيا لا يحرم منه أحد، ولا يكون تهديداً لاحد، فهو وسيلة لاثراء الحياة ولتقديم أكبر قدر من العطاء المادى . دون أن يفقد المسلم فيها أى قيمه من قيمه أو يخرج عن الحدود التى حدها الله تبارك وتعالى أو الضوابط التى هى بمثابة صمام الأمان لحماية شخصية من التمزق وحماية مجتمعة من الاضطراب .

٣ — أزمة الهوية

إن هناك محاولة لتغيير الهوية الثقافة والاجتماعية الاسلامية من أجل إخضاع المجتمعات الإسلامية لمفاهيم غربية ترمى إلى إحتوائهم فى دائرة الحضارة الغربية بكل قيمها وانحرافاتها وأزماتها ، وهذه واحدة من أخطر التحديات التى تواجه المسلمين فى هذه المرحلة من تاريخهم ؛ ويكون لها أثر بعيد فى ضرب طريق الصحوة وإخضاعه للتبعية الغربية بحيث لا يستطيع أن يقيم منهجاً إسلامياً خالصاً للحياة والمجتمع ، متحرراً من فساد واضطراب وأخطاء المنهج الغربى .

وما دام العرب الآن قد أصبحوا يملكون الطاقة والثروة ويعملون على بناء حضارتهم من جديد فإن القوى الغربية الماكرة المسيطره على مصادر ثروتهم ترمى إلى إخضاعهم ، سواء بالإغراء أو بالاقناع إلى تقبل الانصهار فى الحضارة الغربية حتى يصبحون جزءاً منها وهـــذا هو أخطر ما يواجه العرب والمسلمين اليوم .

لقد عقدت فى السنوات الأخيرة اجتماعات واسعة فى الغرب عن طريق مؤسسات مختلفة تحت اسم العلم ترمى إلى إيجاد ما يسمونه حواراً ثقافياً متبادلا بين العرب والاوربين يرمى إلى ماذا ؟

• يرمى إلى تضيق الفجوة بين العرب وبين العالم المتقدم ، والوسيلة إلى ذلك كما يدعون إليه :

« تغيير المفاهيم الحقيقية التي ترسبت في العقل العربي » ، والهدف هو « أن يصبح العرب مشاركين الحضارة بدلا من أن يظلوا قائمين بدور المتلقي .

ومن ثم يكون « للعرب دور في عملية التغيير الحضاري » وهم يرون أن الأزمة في البلاد العربية تكمن في عدم القدرة على التغيير نتيجة غلبة الاتجاه التقليدي أو سيطرة التراث على الاتجاه التجديدي وهذه العبارات المنمقة المكتوبة بعناية والتي تجري دعاة واتباعا من هنا وهناك لاشراكهم في هذه المؤتمرات ، ترمي إلى الخداع ، ترمي إلى إخراج المسلمين من ذاتيتهم الخاصة وصهرهم في بوتقة الحضارة الغربية ومن ثم يفقدون هذه المرة وجودهم نفسه ، وهي إحدى المحاولات التي تشترك فيها قوى كبرى ، ترغب إلى هدم ذاتية العرب والإسلام القائمة على قيم أساسية في مختلف مجالات الاقتصاد والاجتماع والسياسة والتربية لا يمكن التنازل عنها .

وهذه المؤامرة هي حلقة جديدة من حلقات « صهر » المسلمين والعرب في الحضارة الغربية بداعي (التقدم) ومعنى هذا أن التقدم الذي سيحصل عليه المسلمون ، والشرف الذي سيصلون إليه ، هو أن يكونوا تابعين لهذه الحضارة ، لابد أن يدفعوا إذاءه ثمنا غاليا هو ذاتيتهم الخاصة ، التي يجب أن يتجاوزوا عنها وأن ينصهروا في الحضارة العالمية والفكر الغربي . فإذا لم يفعلوا ذلك وصفوا بأنهم حجر عثرة في سبيل القدم ، وأنهم لا يريدون أن يكونوا مشاركين في الحضارة يؤدون دور المبدع في مجالات الحياة المختلفة .

ولا ريب أن هذه الخطة ، هي حلقة جديدة في مؤامرة قديمة ، تحت اسم التطور والتقدم وإدخال التكنولوجيا ونحن نعرف أن الغرب لن يسمح بإعطاء العالم الإسلامي التكنولوجيا ولا العلوم العسكرية والحربية أبداً لأنه يضع في تقديره أن يظل المسلمون على هذا النحو الذي هم عليه الآن مصدراً للخامات وسوقا لمنتوجات الغرب .

ولكنها محاولة جديدة أو متجددة ، لخداع العرب والمسلمين عن غاياتهم الحقيقية وعن منطلقهم الحقيقي في بناء حضارة إسلامية أصيلة قائمة على

منهج الإسلام ، وهى جزء من المخطط الذى يرمى إلى وأد الصحوة الإسلامية وإجهاضها وتفريغها من منطلقاتها الحقيقية .

وأن هذه الأسماء المستخدمة لهذه الدعوى هى أسماء مجولة ، لاقيمة لها فى البلاد الإسلامية ولا وزن لها فى مجال الفكر الإسلامى مهما أعطاها الغرب بريقا أو لمعانا خادعا ، إن منطلق هذه العبارات التى يرددها دعاة الحوار العربى الأوربى لاتدل على شيء أكثر من أنها تجهل حقيقة مفهوم الإسلام من العلم ، والذاتية الخاصة التى يرسمها الإسلام للعلم وللحضارة وللنهضة ، وهى خطة تختلف اختلافا عميقا وواسعا عن خطة الحضارة الغربية المنهارة التى تلتقط الآن آخر أنفاسها والتى قامت على أساس تجاهل الصلة بالله تبارك وتعالى وعلى أساس الاستعلاء العنصرى وعلى أساس الاسراف فى استهلاك الطاقات التى أعطاها الله تبارك وتعالى للناس تحت اسم الترف والفساد والتحلل والجنس والخمر والعطور .

وهذا مفهوم لا يرضاه المسلمون والعرب ولا يقبلون أن ينضموا إليه أو يكونوا جزءاً منه ، ومن قبله منهم فإنما يمثل نفسه ولا يمثل الإسلام .

والمسلمون لا يستعجلون قيام المجتمعات الصناعية أو الصناعات الثقيلة ، لأنهم يعلمون أن الغرب لن يعطيهم ذلك وأن أعطاه لليابان ولأقل دول العالم حضارة ومدنية ، فذلك قدر المسلمين وذلك موقف الغرب الذى لايريد أن تقوم حضارة إسلامية ، والذى يعمل بكل مايملك من مطروحات صهيونية وماركسية وعلمانية ووثنية على تأخير نهضة المسلمين وعلى أن لاتقوم الأمة الإسلامية التى تملك الآن مقدراتها من الثروة والطاقة والتفوق البشرى .

أما الحديث عن الهوية العربية فهو حديث يجرى فى نطاق العلمانية والاقليمية ، والهويه العربية فى حقيقتها ومضمونها هى هوية إسلامية لأنها تستمد مفهومها الثقافى والروحى والاجتماعى من القرآن الكريم .

وإذا كان هناك حوار حول لقاء عربى أوربى فإنما يجب أن يقوم هذا الحوار على أساس الاعتراف الكامل لهذه الأمة بمقوماتها الحقيقية . وبقدرتها على إقامة مجتمعها الربانى وحضارتها الإسلامية ، أما أن يعمد اللقاء الأوربى

العربي إلى احتواء المجتمع الإسلامى العربي فى إطار التبعية الغربية والحضارة الغربية ومفاهيم الحضارة الاستهلاكية وتحرير المرأة حتى تكون أداة للجنس والعلمانية وفصل الدين عن المجتمع فذلك مرفوض تماما ، وأن اعتماد أعمال وكتابات طه حسين وتوفيق الحكيم أساسا لهذه الهويه الثقافية فإن ذلك كله لا يغنى شيئا ، وان يكون هناك إنكار للمورثات الإسلامية بل ستكون هى الأساس الحقيقى لأى نهضة وليس بين موروثات الإسلام أى خلاف مع العقل والعلم أو الفطرة ، وإنما هذا الخلاف هنالك بين اللاهوت والعلمانية فى الغرب ، وأن تقل هذه العبارات فى إطار الحديث عن هويه عربية هو خداع وسخرية بالمستمعين الذين يعرفون أن معنى كلمة : (الموروثات أصبحت مقدسة) هو هجوم مباشر على القيم الأساسية لهذه الامة وأن هذه الأمة لا تملك موروثات فلكورية كما تملك بعض الأمم ، وإنما تملك القران هداية السماء الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأن قداسته لن تغلق الطريق أمام التقدم وأمام النهضة وأمام بناء الحضارة بل هى التى تفتحها بشروط المسلمين نفسهم للتقدم والنهضة وبناء الحضارة وليس بمفهوم الماركسيين أو الماسونيين أو العلمانيين أو الوثنيين الذين يضعون هذه الكلمات على ألسنة وأقلام التافهين والتافهات .

إن مثل هذه المحاولات لاحتواء المسلمين لا يمكن أن تنجح ، ولا بد لدراستها من دعوة التافهين ، ودعوة التابعين ، الذين لا يعرفون أبعاد القضايا والتحديات ومن الذى يستطيع أن يصف الهويه العربية (الإسلامية الاتجاه) بأنها تعانى من الركود ، وأن هذا الركود مرده إلى طبيعة اللغة العربية الفصحى لأنها لغة التراث ، وما هكذا تساق الأمور ، فاللغة العربية لغة القرآن الكريم لا يمكن أن تقاس باللغة اللاتينية المقدسة التى أدخلت إلى المتحف ، ولن تخضع اللغة العربية لمناهج الغرب اللغوية ، لأنها تختلف اختلافا واضحا عنها ، إن دعوة العرب والمسلمين إلى العامية — لا يقوم لأنها دعوة قديمة بأن كذبها ، ولكن نقول أنه بأنها خيانة الدعاة إليها لأوطانهم ، ولن يستطيع دعاة الحوار العربي الاوربي ، أن يتحدثوا عن منهج عقلانى يقصدون به المنهج العلمانى أى اللادينى ، فهذا منهج لا يصلح للمسلمين والعرب وقد جربت المحاولات

خلال أكثر من قرن من الزمان على فرضه على العرب والمسلمين فلم يفلح ، ولن يصلح مع المسلمين والعرب غير منهجهم : الذى هو مصدر المنهج العلمى التجريبى الذى قامت عليه الحضارة المعاصرة ، ولن تخضع موروثاتنا للمنهج الغربى لأن موروثاتنا المتصلة بعقيدتنا هى فوق كل نقد ، ولن يكون للمنهج الغربى أى تبعية على الفكر الإسلامى الأصيل المستمد من منابع القرآن والسنة والذى سيظل المصدر الأول والأخير لكل نهضة ، صحيحة ، لايقوم على الزيف والخداع أو الخيانة . ونحن نرفض الحضارة الغربية فى جوانبها الاباحية الفاسدة ونتطلع إلى استشناف بناء حضارة التوحيد .

٣ ــ أحتواء العقل العربى

وهذه محاولة أخرى من محاولات تآمر دول الغرب على الإسلام ، هى محاولة جمع المعلومات عن البلاد الإسلامية وتخزينها خارج هذه البلاد بحيث تصبح سلاحا فى أيدى أعداء المسلمين يستطيعون به توجيه المجتمعات والسيطرة عليها . وأن اشتراك الخبراء الاجانب فى أبحاث تتعلق بالاقتصاد أو الاجتماع فى البلاد العربية من شأنه أن يجعل كل بيانات البلاد ومدخراتها وثروتها مكشوفة .

وقد أشار كثير من الباحثين إلى أن سياسة جمع المعلومات هي إحدى الوسائل العملية التى تلجأ إليها الدول الكبرى للتغلغل والسيطرة : يقول دكتور حامد ربيع « لقد أصبحت المعرفة الدقيقة والواضحة بمقومات الجسد الذى يراد تطويقه عنصراً أساسيا من عناصر التعامل مع الواقع السياسى » .

ومن رأيه أن مايتفق من ملايين حول بحوث مشتركة مع جهات أجنبية له محاذير هى إطلاع الغير عن خفايا الوجود القومى سواء على مستوى الفرد أو الجماعة ، ليس فقط من حيث الخصائص السلوكية العالمية بل وتطور تلك الخصائص السلوكية واحتمالاتها المستقبلة ، وأن هذا بمثابة غزو فكرى تخضع له البلاد العربية والإسلامية وأنه يحول بين أى قطر من الاقطار

الإسلامية أن تصبح قوة ضاربة فى المنطقة ، وأنه يمكن عن طريقه عزل أية قطر عن المنطقة ، وهذا العزل يؤدى إلى تحطيم إرادة التكامل مع الأجزاء الأخرى فهو إذن يحول دون التقاء الأقطار العربية الإسلامية فى وحدة متكاملة اقتصادية أو سياسية ، وأن من شأن ذلك أن يخدم أهدافا للقوى الاستعمارية المتطلعة إلى السيطرة .

٤ — عزل قضية فلسطين عن العالم الإسلامى

إن العالم الغربى يعالج قضايا التحدى الموجه إلى العالم الإسلامى على أنه وحدة جامعة فتضرب ضرباته هنا أو هناك ثم يفرض على المسلمين أن يعالجوا القضايا معالجة إقليمية ومن أخطر هذه المحاولات محاولة فى أبعاد قضية فلسطين عن مكانها الإسلامى العام بجعلها قضية عربية وقضية جوار ، وقضيه لاجئين فى البلاد العربية بينما تمتلىء مشاعر المسلمين بالاحساس بأن قضية فلسطين هى قضية المسجد الأقصى وأرض الاسراء والجزء الغالى من أرض الإسلام وعتبة الجزيرة العربية ، ولقد أبدى العالم الإسلامى دائما مشاعره للاشتراك فى الجهاد من أجل استرداد فلسطين واسترداد بيت المقدس ولكن العرب الذين تطوقهم سياسات تضعهم فى نطاق إقليمى تحول دون ذلك فيرفضون العون ويصرون على العزلة .

والمعروف أن الغرب عمد منذ اليوم الأول لسيطرته على الأرض الإسلامية والعربية على تجزئة هذه البلاد إلى وطنيات وقوميات بهدف تفتيت المنطقة والتهامها جزءا جزءا والسيطرة عليها والحيلولة دون عودتها إلى وحدتها الأولى .

ثم عمد إلى الوقوف فى وجه محاولات الوحدة والتوحيد والتضامن ، وذلك هو أكبر خطر فى وجه مقاومة النفوذ الغربى عامة والنفوذ الصهيونى بالذات ، وهو ما أفاده العدو من تجارب معارك الحروب الصليبية وحروب الفرنجـة فى الجناح الغربى ، فإذا أضفنا إلى ذلك مؤامرته المتوالية فى استنزاف الثروات ، وتشجيع فكرة تحديد النسل بإشاعة ما يسميه باطلا الانفجار

الكانى وحرص بعض الحكام العرب على إبعاد العنصر الإسلامى ومحو الصبغة الدينية عن هذه القضية . فى نفس الوقت الذى اعتبر فيه اليهود أن قضيتهم دينية أساسا وأنها مستمدة من التوراة ؛ كل هذا يستدعى إعادة النظر فى هذا الموقف وتصحيحه ، ذلك أن تحطم العامل المشترك الذى يربط الشعب العربى مع الشعوب الإسلامية الإفريقية والآسيوية وأجزاء من أوربا ينتشر فيها الاسلام ويسيطر على ملايين المسلمين هو من المسائل الحاسمة ، وهو من أعمال القوى القومية والاقليمية التى تعمل على أبعاد الاسلام عن أخطر قضية إسلامية والحكام القوميون والناصريون والماركسيون كل أولئك يصدرون عن مفهوم علمانى تحطم فى نكسة ١٩٦٧ وكشف عن زيفه وفساده ، وعدم قدرته على العطاء ، وما يزال القوى الموالية للغرب تتعاون مع قوى الصهيونية وقوى الشيوعية على الحيلولة دون قيام عوامل الوحدة عن خلال أخطر قضية فى الأمة الإسلامية اليوم : وهى (استعادة القدس وفلسطين) ولا ريب أن هذه الفلسفة الاقليمية العلمانية إنما قامت أساسا لترسى قواعد التقسيم والتمزيق والفصل بين أجزاء الوطن الإسلامى الواحد الذى تجمعه عوامل الثقافة والعقيدة ووحدة الفكر والعواطف والمشاعر التى رسمها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا .

وقد قام اليهود بدورهم الطبيعى فى ازكاء الخلاف بين العرب أنفسهم ، وبين العرب والمسلمين ، وبين الدول العربية والدول الاسلامية ، وكانت حكومة الجيش تساند مكاريوس ضد مسلمى قبرص الاتراك ومع الامبراطور هيلا سلاسى ضد مسلمى الصومال وارتيريا ومع الهند ضد باكستان ، ومع جوليوس نيريرى ضد زنجبار .

وكانت مصر ـ إذ ذاك ـ تهاجم دعوة التضامن الاسلامى وتصورها بأنها حلف استعمارى واستسلامى .

وقد أشار إلى هذا المعنى الأستاذ أبو بكر القادرى حين قال :

إن الدعوة إلى أبعاد الإسلام عن معركة تحرير فلسطين والقدس الشريف والقضاء على أية روح إسلامية ويقظة إسلامية وبعث إسلامى صحيح ، لقد آن للمسلمين أن يعرفوا مايراد بهم ، فالأمر ليس أمر قضية فلسطين فحسب ، إنها قضية الصحوة الإسلامية ، قضية الوجود الإسلامى ، قضية الوقوف ضد كل تحرك إسلامى لتستطيع إسرائيل أن تحقق دولتها التى تتحكم بها من النيل إلى الفرات .

* * *

الباب الخامس

تدمير المجتمع الإسلامي

الفصل الأول : فساد المجتمع .

الفصل الثانى : المؤامرة على المرأة المسلمة .

الفصل الثالث : احتواء الأجيال الجديدة .

الفصل الأول

فساد المجتمع

إن القوى الأجنبية عملت فى سبيل حرمان الأمة الإسلامية من إمتلاك إرادتها ، وذلك عن طريقتين :

(أولا) عن طريق تزييف الفكر والثقافة .

(ثانياً) عن تدمير المجتمع وضربه بمختلف الموجات المسمومة عن طريق التعليم وعن طريق الفنون (المسرح والسينما) وعن طريق الصحف وعمدت إلى إفساد أمرين :

١ — العلاقة بين الرجل والمرأة . ٢ — العلاقة بين الآباء والأبناء وطرحت فى المجتمع عشرات الأسواء التى عملت على تحطم الشباب كالخمر والمخدرات وألوان الفساد والانحلال المتعددة .

وعملت هذه القوى على احتواء الأطفال عن طريق قصص منحرف ، وتفريغ لهذه العقول من الايمان والوطنية وصياغتها على الترف والإنحلال .

إن تدمير المجتمع الإسلامى كان هدفاً أساسياً للنفوذ الاجنبى منذ سيطرت القوى الاستعمارية على بلاد المسلمين وعلى مصر وقد تنامى هذا العمل حتى وصل إلى مراحل خطيرة ، وكان الهدف هو حجب الإيمان بالله ونعمته ومسئولية الإنسان والتزامه الاخلاقى ، ودفعه فى طريق الشهوات ولذلك فإن أخطر ما نعانى منه هو الأزمة الأخلاقية ، وجاءت حكومات الاحزاب والاستبداد فعمقت هذه المفاهيم ودعمت النفاق والفساد والطمع فى مالا يحل الله .

وجاءت الأفكار اليسارية المسمومة فخلقت جواً عاصفا من الطمع والخداع والتدليس والاختيال والتدافع نحو امتلاك مالا يحق لهم ، وكان من وراء ذلك

خطة النهب العالمى الذى قامت به الدول الكبرى فى سبيل استنزاف خيرات هذه الأمم .

واليوم تمر المجتمعات الإسلامية : بحالة من القلق الاجتماعى والفكرى تغمر كل جوانب المجتمع ويبلغ هذا القلق ذروته عند الشباب وطلاب العلم ، ومن مساوىء العصر الحيلولة دون انتفاع الأجيال الجديدة بتجارب الأجيال السابقة والاستهانة بها والنظر إلى الآباء نظرة انتقاص ، مع أن بناء المجتمعات على الزمن لا بد أن يقوم على تلاقى الأجيال وانتفاع الجديد بخبرة من سبقه .

وهناك البيت الإسلامى وفساده واضطراب علاقات الرجل والمرأة ، واضطراب القدوة فى الأب والقدوة فى الأم ، وأثر التعليم العلمانى — المفرغ من قيم العقيدة والأخلاقية وإخطار وسائط الأعلام : السينما والمسرح والإذاعة والتلفزيون والصحافة ، وهناك المنظمات السياسية والاجتماعية المناهضة للاسلام ، والحركات التبشيرية .

وأخطر ما فى ذلك كله صدور الأجيال الجديدة عن مناهج نفسية وجتماعية وتربوية ليست إسلامية المصدر ، وليست إنسانية المستوى ، حتى يمكن أن تكون ذات قيمة مجردة ، ولكنها مناهج أما مرتبطة بالمجتمعات الرأسمالية أو المجتمعات الشيوعية ، فهى إما من هذا النتاج أو ذلك ، فإذا بنا حين نواجه موقفا أو أزمة نضطرب فى تصرفنا لأننا لا نلتمس الحلول الأصيلة التى يقدمها لنا الإسلام ونخضع تارة للتيار الرأسمالى الغربى أو التيار الماركسى وبذلك نخسر كثيراً كما خسرنا فى مواقف حاسمة ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، وما بعدها ، إذ كيف نستطيع أن نعالج سموم حياتنا المحتواة من النفوذ الوافد والتى تضطرب فى مقومه ، كيف نعالجها بأساليب العدو نفسه ؛ ونحن نعلم أن الغرب كله يشقيه يعلن أن مناهج الايدلوجيات القائمة الآن قد فسدت وإن البشرية تتطلع إلى منهج جديد .

ومن أخطر وجهات مجتمعنا الإسلامية دعوة الناس إلى علاج مشا كلهم بالرقص والسينما والغناء . وفى دعوات الأغانى المنحلة دعوة إلى عبادة الحياة

وأن يترك الانسان شبابه لطبيعته ليأخذ نصيبه من الحياة ، أو أغانى اللا أدريه التى تنكر كل شىء ، أو تلك المسرحيات التى توجه الشباب إلى أن الكون طبيعى لا خالق له أو تلك التى تحمل أسوأ صور الحوار بين الابن وأبيه أو بين الزوجة وزوجها مما يهدم كل قيم الإسلام فى إقامة العلاقة بينهما .

(٣)

أن هناك ثلاث مظاهر خطيرة فى المجتمع الإسلامى .

أولا : الهزل فى الفن .

ثانياً : الترف فى المجتمع .

ثالثاً : الإسراف فى الاقتصاد .

إن المجتمع المصرى يمر بمرحلة خطيرة تفقده جميع مقومات السلامة والصلابة والقدرة على مقاومة الأحداث فقد أصيب بالتراخى والتحلل نتيجة هذه الأجهزة العصرية المبثوثة فى السوق التى تدفع إلى تهديم الشخصية الانسانية والقضاء على قدراتها .

فهناك الاسراف فى الانفاق حتى لا يبقى فائض أو احتياطى .

وهناك الانفاق ليس فى الضروريات بل فى الكماليات . هذه الملابس الغالية الرفيعة ، وهذا الطعام الكثير الذى يؤكل بإسراف ، وهذا الهزل فى الفن والهبوط ، وهذا الاسراف فى السهر وفى النوم ، وهذا التراخى فى النظرة إلى الحياة كأنها ليست دافع قوة وحيوية وخشونة وإصرار وصمود ، وإنما عكس ذلك تماما تراخ وانحلال .

ولقد نذهب بعيداً بل نسجل ما ذكرته الصحف : الأخبار ١٩٧٨/٧/١٥ الأموال الضائعة فوق المائدة الخضراء ، يقول إبراهيم سعده .

إن ملايين الجنيهات تدخل خزينة الدولة سنويا عن طريق أرباح أندية

القمار فى بعض فنادقنا الكبرى . دخان كثيف يملأ صالة القمار فى فندق ... نساء كثيرات يحمن حول شاب صغير السن يجلس أمام مائدة خضراء ويقامر بآلاف الجنيهات فى الدور الواحد ، الخسائر لا تهمه الذى يهمه هو نظرة الإعجاب الزائف التى تنهال فوقه من العيون الجميلة التى ترقبه وتشجعه وتعرف فى وعودها الصامتة ، وقام الزبون محاطا بالحسناوات والجميلات ليقضى فترة الشروق فى مكان آخر ، ثم تبين أن الشيكات بدون رصيد ، كيف يمكن أن يحدث هذا فى بلد مسلم، والأنكى من ذلك أن يقول المحرر أن دولا عديدة حصلت على الآف الملايين من الجنيهات من القمار واستخدمته فى تنمية بلادها صناعياً واقتصاديا ، أنها تنمية من المال الحرام الذى لا ينفع هذه واحدة من مفاسد المجتمع : القمار .

وهناك موضوع آخر (الأخبار ١٩٧٨/٦/٢١)

تحت عنوان (الدولة تخسر وتجار الوسكى يكسبون) والقضية هى أنه رغم إرتفاع رسوم الجمارك والضرائب الكبيرة على الخمور فإن طوفان الوسكى يغمر الفنادق والملاهى الليلية والمحلات ، وتحدث عن ملوك تهريب الويسكى الذين ربحوا ملايين الجنيهات .

لقد عثرت الجمارك على ١٢٤٠ صندوق وسكى فى ملهى « ... » الخاص بالفنانة « ..... » وأكتشفت الجمارك أن هذا الويسكى لم يسدد عنه الرسوم الجمركية ويقدر بمبلغ ٤٠٠ ألف جنيه والويسكى موجود وبكثرة شديدة — هكذا يقول التحقيق الصحفى — فى كل ملاهى شارع الهرم .

وعندما ارتفع استهلاك الوسكى الذى وصل فى فندق واحد عام ١٩٧٧ مايساوى ٨٣ ألف جنيه ، وهناك الأنواع الأخرى من النبيذ والبيرة والعصير ، ومن وراء ذلك أرباح الفنادق من هذا الحرام .

وهناك المخدرات : والتحقيق الذى قدمته الاهرام فى ١٩٨٣/٤/٢ يكشف عن حقائق خطيرة حيث يقول العناوين : مصر تخسر سنوياً مليار جنيه - من نقد مهرب مهدر وتكاليف مكافحة المخدرات ، إن هناك مبلغ ٧٠٠ مليون جنيه

يتم شهريا إلى الخارج بالعملة الصعبة كل عام لشراء مخدرات بالاضافة إلى ٤٠٠ مليون جنيه يدفعها المصريون ثمنا للمخدرات التى يتعاطونها ويحولونها إلى سنة أفيون يمضغونها تحت الدرس أو إلى دخان يتلوى بنار الجوزة بعد أن يكون قد أكل المخ وهد الجسم ، وفى تقرير لمجلة الأهالى ١٩٨٣/٥/٢٥ يكشف عن مجموعة من الحقائق الخطيرة : يقول إن عصر الانفتاح انتهى بزيادة عدد كباريهات شارع الهرم بنسبه ٣٧٥ ٪ وارتفاع عدد الشقق المفروشة لأغراض الدعارة عشرة أمثالها وزيادة جرائم خطف القاصرات بنسبة ٤٠٠ فى المائة وظهرت أنماط جديدة من الجرائم كتهريب الفتيات للخارج وتحول المرأة إلى سلعة تقاس قيمها على أساس جمالها ودلالها لا على أساس إمكانياتها ومواهبها وقد ساعدت الظروف التى نشأت فى عصر الانفتاح إلى زيادة حالات الطلاق وأهم الأسباب غياب الزوج فى الخارج أو غياب الزوجة ، وقد طالعتنا الصحف بالحوادث والقضايا بالطلاق نتيجة شكوى الزوجة من غياب زوجها فى دولة أخرى وإنها تخشى على نفسها الفتنة .

كانت ظاهرة سفر المصريين إلى الخارج كإحدى الظواهـــر المصاحبة للانفتاح ، وقد أدت إلى تدهور العلاقات بين الرجل والمرأة داخل الأسرة، بل وأصبح من الصعب قيام الأسرة أصلا ، وخاصة مسألة الاسكان التى أصبحت حائلا دون مسألة الزواج . حيث لا يستطيع المجتمع أن يوفر السكن لكل أسرة .

ومن النتائج الخطيرة لهجرة المصريين إلى الخارج : تأنيث العائلة المصرية ، إلى أن حوالى نصف المصريين المتزوجين النازحين إلى البلدان العربية يتركون أولادهم وأطفالهم فى الوطن الأم وهـذا ما يؤدى إلى أن الزوجة غالباً ما تتولى وحدها إدارة الأســـرة المصرية بصورة كاملة بما فى ذلك تربية الأطفال فى أخطر سنوات النشأة ، إن جيلا كاملا من ناشئة عصر تنمو الآن فى ظل عائلات وحيدة الوالد ، فالوالد الآخر لا يعد كونه زائراً يعود إلى العائلة ، بين فترة وأخـــرى ، والخطر فى سفر المرأة وحدها فى مجموعات غالبا ما تكون من فئات مهنية وشبه مهنية وعائلات من ذوى

الياقات البيضاء ومديرات للبيوت ومربيات وخادمات ، والسيدات المهاجرات إما أنهن غير متزوجات أو متزوجات دون صحبة أزواجهن .

هذه الظاهرة مظهر من مظاهر زعزعة استقرار العاملة المصرية بسبب البحث عن المال .

كذلك فقد تشكلت لدى هذه الفئة من النساء قيم جديدة نتيجة للهجرة والحصول على الأموال ، ظهرت بصفة خاصة فى نمط الاستهلاك ابتداء من السيارة إلى الأجهزة الكهربائية إلى الملابس والمأكولات .

وأشارت الصحيفة إلى أثر الإنفتاح على العلاقات بين الرجل والمرأة ، فقالت أن هناك ظاهرة انتشار البغاء والاتجار به سواء فى داخل البلاد أو خارجها وتزايد أمر هذه الظاهرة فى سنوات الإنفتاح . وقد أشارت الأهرام ١٩٧١/١٢/١٣ إلى ازدياد نشاط تجارة البغاء فى الخارج فكتبت تحت عنوان (لكى لا يقع فى المصيدة فتاة واحدة ، ونشرت أيضاً :

(٨٢ فتاة مصرية دفعة واحدة وقعت فى شراك الخداع) .

ونشرت أيضاً : شبكة رقيق ، ٣ فيلات تديرها عصابة للرقيق الأبيض ، تهريب ١٧ امرأة فى مطار ، أكثر من ٣ آلاف جنحة آداب بين دعارة وتحريض ، كالفسق وإدارة منازل الدعارة ، ٨٩١ قضية آداب بين ممارسة البغاء كعادة واستغلاله والاتجار فيه ، بين عامى ١٩٧٠ / ١٩٧١ ثم يقفز الرقم فجأة إلى ٩٧٨

إن المرأة والفتاة المصرية تعيش تناقضا صارخا بين نموذج المرأة ، نصف العارية المعلن عنها فى الإعلانات والتى تتعطر بالعطور الفرنسية وترتدى الأزياء المستوردة وتدخن السيجارة الأجنبية وتركب السيارة الفارهة ، هذا النموذج يطل من الإعلانات خاصة من شاشة التلفزيون على نسائنا وفتياتنا ، ليل نهار ، فتتمثله المرأة وتحاول تقليده ، ولو باعت نفسها .

ولم يقتصر الأمر على هذه القصة الجديدة فى نوعها على المجتمع المصرى

بل الخطورة تكمن فى ظهور فتيات جديدة كالطالبات والفتيات وزوجات بعض الفئات المحافظة فى المجتمع وإنضمامها إلى قائمة المتهمات فى قضية دعارة هزت الرأى العام نجد أن فيها ثلاث طالبات وزوجة ضابط وأستاذ بالطب وزوجة منتج سينمائى .

ونجد هناك أيضاً شكل التصدير المقنع للدعارة وذلك عن طريق الزواج القانونى (غير الشرعى) الذى يأخذ شكل الشراء على النحو الذى كان معمولا به فى عصور الرقيق والجوارى . خاصة للبنات الصغيرات فى السن » .

هذه العوامل كلها تكشف صورة الاستهتار الاجتماعى الذى يمر بها المجتمع ، نتيجة الانحراف عن المفهوم الإسلامى الأصيل القائم على التقوى والرحمة والقناعة ، والتماس مصادر الحلال فى العمل وأخطر من ذلك كله اعتماد الخمور والمخدرات والقمار والسياحة كمصادر رئيسية للاقتصاد بينما هى من الأموال القذرة التى لا تصلح لبناء أى مشروع حقيقى .

ويأتى البغاء السرى ليرسم سحابة سوداء فى المجتمع المصرى .

فهناك ظاهرة بيع الأجساد . وترى فريدة النقاش فى بحث لها تحت عنوان (نساء بلا ريش) وهى ماركسية التفكير : أن المصدر الدافع لاتجاه بعض الفتيات إلى البغاء هو قلة الحيلة وقلة الخبرة والجوع وانتهاء بظروف عمل الخادمات الصغيرات فى بيوت الأغنياء أو موت عائل الأسرة وتشردها ، وترى أن الموقف تطور فى السنوات الأخيرة بأن أصبحت هناك أعــداد من النساء المتعلمات تعلما عاليا واللاتى جئن من أسر مستورة وميسورة ، يقول : يقول : وجدت فى سجن النساء مجموعة طالبات من الجامعة ، ومهندسة ديكور وسيدتين بدرجة مدير عام فى وزارتين هامتين وزوجة مستشار وخبيرة جيولوجيا .. »

أى أن معنى هـذا أن التفسير المادى لجريمة الزنا ليس كما يصوره نجيب محفوظ ويوسف إدريس من أن نتيجة السقوط هى عدم وجود لقمة العيش وهو تفسير باطل ومضلل ، والحقيقة أنه لا يوجد هناك إيمان بالله يحول بين النفس وبين الاندفاع نحو الشهوات وأن الحرة المؤمنة لا تأكل بثدييها .

أن الفساد اليوم يتمثل فى صورة إغراء الحضارة الغربية التى تتطلع إليها بعض الفتيات والرغبة فى الوصول إلى المتاع والثراء والانفاق الجنونى فى وسط خلا تماما من التربية الإسلامية أو من معرفة حق الله ، أو من بناء رادع يحول دون السقوط ، مما يدفع الفتيات إلى المتاجرة بأجسادهن بغية الوصول إلى المال ومنه إلى السيارات الفاخرة والغرف الوثيره .

وإذا كان السجن هو الرادع الوحيد اليوم فإنه رادع واه ، فإن هاته الفتيات سوف ينتظرن الأيام الباقية حيث يعدن مرة أخرى إلى نفس الحياة القذرة ، ولو كان المجتمع إسلاميا لفتح لهن صفحة جديدة من معرفة الله والتوبة والاتجاه إلى العمل الصالح .

إن هـــذا المفهوم المسيطر على هذه العقليات من العمل فى تجارة البغاء للوصول إلى الثروة الطائلة ، وإلى الفساتين والعطور هو تصور فاسدا نتيجة اضطراب الحياة الاجتماعية واستعلاء مفاهيم الثراء الفاحش الذى يتحقق للرجال عن طريق الرشوة والخطف ويريد أن يحققه بعض النساء عن طريق البغاء .

إن بعض مصادر ذلك هو السعار الذى جرى بين الطبقات وانطلق من البضائع الأجنبية الفاخرة ، وهذه الفنون المسمومة التى تطلق للغرائز الدنيا العنان .

« إن ظاهرة المرأة المتعلمة التى تنغمس فى تيار تجارب البغاء » ظاهرة جديرة بالتعرف عن مصادرها وآثارها الخطيرة على المجتمع .

* * *

وهناك ظاهرة أخرى من ظواهر انحلال المجتمع هى ظاهرة الرقص المتفشية الآن بشكل واضح فى كل مشاهد التلفزيون ، كأنما هى دعوة صريحة إلى الرقص موجهة إلى كل فتاة وطالبة وطفلة .

وقد تعالت الأصوات بالمطالبة بمنع الرقص من لوحات التلفزيون ومن المسارح والفنادق . وكيف تكشف الراقصة عن جسدها على هــذا

البحر المهين ، حين تقف أمام الرجال مستعرضة أنوثتها وهي شبه عارية تتثنى وتتلوى كالأفعى بل هي أشد فتكا من الأفعى وتأتي بركات جريئة ، ومع ذلك فإن هناك دعاية مضللة تنتشر في كل مكان . عن الفن وقداسة الفن. وكيف يحتمل شبابنا في سن المراهقة هذا المنظر وكيف تحس الفتاة أن ذلك وما وراءه أمراً مشروعا .

والعجيب أن التغريبيين الظالمين يدعون بأن الرقص في الأديان القديمة ، أي في أديان الوثنية التي عارضت دين الله الحق ، وهي صناعة التلموديين على مدى العصور .

ويقول الفريق سعد الدين الشريف : أليس الرقص عيبا في مجتمع يؤمن بالله وبرسالات السماء ، ويقول . هل نضحي بأخلاق الأمة خوفا من ضياع بعض دولارات السياح التي تعتمد على الرقص والخلاعة . وهل نحن نضحي أخلاق أمتنا ازاء السماح بالخمر أو بالوسائل المؤدية إلى الأباحية ؛ ما أظن أن ذلك يرضى عنه الغيورون .

الفصل الثانى

المؤامرة على المرأة المسلمة

منذ بدأت سلاسل الاستعمار الاجنبي وأغلال النفوذ الأجنبي تسيطر على المجتمع الإسلامي وتطوقه وقد كان فى تقدير كرومر وغيره من دهاقنة الاستعمار أن تكون مسألة المرأة من الأسلحة النافذة فى هدم الأسرة وتدمير المجتمع الإسلامى وكانت من بين أربع دعوات عمل كرومر على إنفاذها فى مصر خلال مصر احكمة فى مصر (١٨٨٤ — ١٩٠٦) هى :

(١) الماسونية التى تهدم القيم الأخلاقية والاجتماعية وإثارة روح الإباحة .

(٢) تحرير المرأة .

(٣) إفساد التعليم وتفريغه من القيم الإسلامية .

(٤) ضرب اللغة العربية وإعلاء اللغة الأجنبية والقاميات والكتابة بالحروف اللاتينية .

وقد استطاع خلال فترة حكمه - التى إمتدت ربع قرن كامل - أن يضع القواعد التى تحقق هذه الأهداف ، وكانت قضية تحرير المرأة من أبرز ما عمل له النفوذ الأجنبى بازاحة الحجاب وإشاعة روح السفور ، وخلق روح الاستهانة بالقيم الأخلاقية . ذلك أن الاسلام فى الحقيقة هو الذى فتح للمرأة باب حريتها بعد عصور من الظلام والظلمات ، ولكن ما كانت تطمح فيه القوى الغازية هو هدم الأسرة وإفساد الأجيال ، إيماناً بأن هذا هو منطلق إفساد المجتمع كله .

وقد نشرت وثائق كثيرة من علاقة قاسم أمين بصالون نازلى هانم فاضل التي كانت تعمل لحساب الاستعمار البريطانى وكيف استدرج إلى كتابة هذا البحث

وقد ظهرت فى السنوات الأخيرة أبحاث كثيرة تكشف هذه الغايات البعيدة الخطيرة وقد أشارت السيدة صافى ناز كاظم فى كتابها (فى مسألة السفور والحجاب) إن هناك علاقة بين الماسونية والصهيونية فى الاستراتيجية مع الاختلاف فى التكتيك للقضاء على الإسلام وترى أن الذى ساعد على تحقيق هذه الأهداف أن قضية تحرر المرأة (بمعنى رد حقوقها الشرعية التى كفلها لها الاسلام) لم تأخذ اهتماما من الطليعيين من رجال الدين الثوار فى مطلع القرن العشرين ، وتقول إن غياب هذه المبادرة الاسلامية دفعت قضية تحرير المرأة إلى أيد لا تنطلق من أرضية إسلامية أو تصور إسلامى (من جانبى الثقافة الغربية) ، ومعها نماذج المرأة الأوربية والأمريكية ، كذلك أمكن الفصل بين قضية تحرير المسلم وقضية تحرير الوطن المسلم ، وتقول الكاتبة بعد مناقشة كتب قاسم أمين إن دعوة قاسم أمين خدمت أهداف الماسونية الرامية إلى إضعاف سيطرة الاسلام الايدلوجية باعتباره دينا ودولة .

كما تخرج من المناقشة بأن دعوة قاسم أمين لتحرير المرأة هى فى حقيقتها دعوة لمحاكاة أوربا . وتتهم الكاتبة قاسم أمين بسوء النيه رغم إراته التى أوردها فى كتابه «تحرير المرأة» «المرأة الجديدة» هذه الآراء التى تتفق تماما مع الشريعه الاسلامية ، كما تعترف هى نفسها بأنه «يناقش هذه الامور دينيا بوقار وتركيز وسعة إطلاع فقهى (وهناك قول بأن الأجزاء الاسلامية لم يكتبها قاسم أمين بل كتبها الشيخ محمد عبده) وخلاصة القول إن الاستعمار يستهدف ضرب الاسلام وضرب أية صحوة إسلامية ، ومن أجل ذلك ركز على اللغة العربية (لغة القرآن) وعلى المرأة المسلمة ؛ ولقد كان تمسك المرأة الجزائرية بحجابها سلاحا حاداً ضد فرنسة الجزائر وضياع شخصيتها الاسلامية . وبالجملة فقد كان عمل قاسم أمين دعوة إلى محاكاة أوربا والخروج من الاصالة الاسلامية .

ولقد كانت التجربة الخاصة بالمرأة حين ينتظر إليها الآن بعد أكثر من ثمانين عاما تكشف عن سقوطها وفسادها وأنها كانت على حساب الاجيال

الجديدة وأنها تتعارض مع تركيب المرأة الفسيولوجى ، والعقلى والروحى ، وإن هناك دعوة واسعة عريضة اليوم إلى عودة المرأة إلى المنزل . هذه الدعوة ليست فى مصر وحدها ولكنها فى الغرب ، لقد تبين للمرأة فى الغرب أن التجربة كانت خاسرة وأن أعظم إنتاج المرأة فى الحقيقة وهو الطفل فقد ضاع تماما ولقد عادت الكلمات الجادة إلى القول بأن الطفل هو أروع عمل قومى وهو تربية مواطن صالح بل إن الدعوة امتدت إلى إلزام المرأة بأن تعطى ثديها لطفلها ولا تطعمه الألبان الجافة . إن هناك تصعيداً شديداً فى أوربا والغرب كله اليوم نحو رعاية الطفل ، وإلى ولادة الطفل نفسه بعد أن انخفضت نسب المواليد فى الغرب كله .

والحقيقة أن وراء هذه المؤامرة بالنسبة للمرأة سواء فى الغرب أو فى العالم الإسلامى قوى اقتصادية تلموديه تريد هدم المجتمعات وتدميرها ، وقد تابعنا نحن فى مصر والعالم الاسلامى هذه العملية تحت ضربات الطبول باسم التقدم ، وقد أخفى عنا هذا المفهوم ، وتولى قادة فكرنا وزعمائنا دفعنا معصوبى الأعين إلى هذه التضحية الشديدة الخطورة تحت اسم الحرية ثم تبين أنها عملية خطيرة أريد بها إيصال الأمة الإسلامية إلى عصور الاستسلام والانحلال والانصهار فى الحضارة الغربية بحيث أصبح المجتمع الاسلامى على وشك إلقاء نفسه فى بوتقه العلمانية والأممية ، التى يفقد معها أعظم ما لديه وهو ذاتيته الإسلامية .

ولقد وجد فى كل عصر ومرحله دعاة يكشفون مدى هذا الخطر ويذكرون المسلمون بحقائق الأمور وبضرورة الالتزام بالاصالة والرشد الفكرى .

ولكن قوى التعريب والغزو الثقافى لا تتوقف عن نب سمومها عن طريق من يتسمون باسمائنا ويتكلمون لغتنا ، أمثال طه حسين ولويس عوض وغيرهم من اليساريين والشعوبين الذين يهدفون إلى هدم قيم الاسلام ، بل إن هناك فريق من النساء السفوريات يعملق على إثارة هذه الشبهات فى مقدمتهن حسن شاه ونوال السعداوى وفاطمة سعيد تلميذات أمينه السعيد .

ولما كان النفوذ الاجنبى وأوليائه فى الداخل يعملون على أن لا يتحقق

قيام المجتمع الإسلامى الصحيح ، فإنهم دائماً يوقدون النار وفى أيديهم جميع الوسائل وأهمها الاعلام لخداع الأجيال الجديدة .

ولما كان من أكبر منجزات الصحوة الإسلامية هو عودة المرأة إلى الحجاب وإلى مفاهيم الإسلام فى رعاية الأسرة وحماية الطفل ، فإن هناك محاولات ترمى إلى الإساءة إلى هذه النهضة ووضع العقبات أمام خطواتهن الصحيحة .

(٢)

لقد حاولت دعوة التغريب أن تفسد الرؤيا لدى المرأة المسلمة حين طرحت عشرات من المفاهيم المسمومة فى قضايا للاسلام فيها موقف واضح ، إستطاع التغريب أن يثيرها من خلال المسرحيات والافلام ونحن اليوم نرى أمثال حسن شاه ونوال السعداوى وغيرهما يندفعون وراء هذه المحاولات الباطلة الذى مايزال العلم وواقع حياة المجتمع والفطرة تكشف يوما بعد يوم فساد هذه الدعاوى وبطلانها وأخطر هذه القضايا .

(١) المساواة بين الرجل والمرأة . (٢) مهمة المرأة الحقيقية .

(٣) مسئولية الأسرة (٤) عمل المرأة . (٥) حرية المرأة فى عواطفها وجسدها ـ فقد أندفعت المرأة وراء هذه الأهواء فكن ضحايا للأهواء ، ولم يتبين حقيقة الموقف إلا بعد أن تحطمت الأسر ، وحملت المرأة أوزار الخطأ ولو أن المرأة استأنست بمفهوم الاسلام الذى أهداه الله تبارك وتعالى وهو العليم بها والرحيم بها — لما هوت فى مهاوى الشقاء والانهيار والتحطم . وقد جاء كثير من الباحثين — حتى الغربيين منهم — فى السنوات الأخيرة فاستطاعوا عن طريق العلم أن يؤكدوا هذه الحقيقة التى لا سبيل إلى تجاوزها أو إنكارها (وفى مقدمتهم الدكتور الكسى كاريل صاحب كتاب : الانسان ذلك المجهول) .

وقد أكدت هذه الأبحاث أن تركيب المرأة مختلف عن تركيب الرجل من جميع النواحى التشريحية والعقلية والنفسية ، وإن المرأة قد خلقت وخلق كيانها على نحو يمكنها من أداء رسالتها التى خلقها الله لها ، فإذا تجاوزتها اضطرب كيانها العصبى والنفسى . كما أكدت الأبحاث أن المساواة بين الرجل والمرأة لا سند لها من علم أو فكر سليم فى أى ناحية من النواحى .

إن هناك فروقا بين الرجل والمرأة من النواحى الاربع البيولوجية ، والفسيولوجية ، السيكولوجية ، العقلية — وأن العالم إذا أراد أن يحل مشكلاته فلا بد أن يعود بالمرأة إلى وظيفتها الأولى وهى تربية الأجيال — يقول الدكتور الكيس كاريل الحائز على جائزة نوبل عن الفرق بين الرجل والمرأة من الناحية البيولوجية : أن الامور التى تفرق بين الرجل والمرأة لاتتحدد فى الأشكال الخاصة بأعضائها الجنسية والرحم والحمل وأن هذه الفوارق ذات طبيعة أساسية نابعة من اختلاف نوع الأنسجة فى جسم كليهما ، كما أن المرأة تختلف عن الرجل كليا فى المادة الكيماوية التى تفرز فى الرحم داخل جسمها فكل خلية من جسمها تحمل طابعا انثويا — وهكذا تتكون المضادة المختلفة بل وأكثر من هــذا ، فهو هو حال جهازها العصبى وتوجد فروق أيضاً كثيرة بين الرجل والمرأة فى الوزن وفى النظام وفى القوة البدنية وفى غير ذلك ، أما الفروق الفسيولوجية (الوظيفة) فإن أعضاء الجسم تتخذ شكلا يتناسب والاختلافات ، فهنا فروق من الكبد وفروق فى الدم يقول فروسيه فى دائرة معارفه : أنه بنتيجة لضعف دم المرأة ونمو مجموعها العصبى فإننا نرى مزاجها العصبى أكثر تهيجا من مزاج الرجل فتركيبها أقل مقاومة لأن تأديتها لوظائف الحمل والأمومة والرضاعة تسبب لها أمراضا قليلة أو كثيرة الخطر .

يقول الدكتور درفاينى فى دائرة المعارف الكبيرة : إن المجموع العضلى عند المرأة أقل منه كما لا عند الرجل واضعف منه بمقدار الثلث والقلب عند المرأة أصغر وأخف منه بمقدار ٢٠ جراما فى المتوسط ، فالرجل أكثر ذكاء وإدراكا والمراة أكثر انفعالا وتهيجا . كما يقول بكولم دبلين فى دائرة المعارف الكبيرة : إن الحواس الخمس عند المرأة أضعف منها عند الرجل .

٢ — أما الفروق السيكولوجية فهناك فارق بين الرجل والمرأة فى العاطفة ، والمرأة أكثر حساسية وتأثرا بالظواهر الطبيعية ، والمرأة لاتستطيع حفظ الأسرار والمرأة تجذب انتباهها حادثة ما أكثر من فكرة .

وانفعالات الرجل أعمق أثرا من انفعالات النساء ولكنها أقل بعكس

النساء اللائى تظهر عليهن الانفعالات الحادة الفجائية من غير كظم أو إخفاء ، وقد لوحظ أن جرائم الشباب هى التشاجر والقسوة و التشرد ، أما البنات فإن جرائمهن من الأمور الحسية ، والكذب ومحاولة الانتشار .

٣ — أما الفروق العقلية فقد ثبت من الدراسات أن هناك فروقا فى النواحى العقلية بين الرجل و المرأة ، وفى كتاب الذكاء وقياسه ، للدكتور جابر عبد الحميد لوحظ على الدوام أن الذكور يمتازون فى نواحى القدرة الميكانيكية كذلك يتفوقون على الأناث وفى الاختبارات التى تتطلب الاستدلال ويتفوق البنات فى اختبار الدقة وفى استخدام الأصابع من الادراك الكافى للتفاصيل .

٤ — وهناك فترات خاصة تمر بها المرأة ولا يمر بها الرجل وتظهر فيها أمراض كثيرة ، تكون خلالها مضطربة قلقة ، لا تتمكن من أن تسير سيرا طبيعيا وهى حالة الدورة الشهرية والحمل والولادة والنفاس . يقول ذى فلد فى كتابه الزواج المثالى : أما الأعراض البدنية الشائعة فى المرأة قبل الحيض وخلاله فهى الشعور بالتعب والضيق الغامض ويظهر الصداع غالبا ويزداد تدفق اللعاب ويتمدد الكبد ويتضخم ويحدث نقص فى الكبد الصفراوى ويضطرب الهضم كما تضطرب شهوة الأكل إلى آخره .

هذا الذى يقوله العلماء قال به القرآن قبل أربع عشر قرنا وأبان الإسلام فى محكم كتابه وفى أحاديث رسوله ، أن هناك فروقا عميقة بين المرأة والرجل ، وأن هذه الفروق تتبعها فروق فى مهمة المرأة الحقيقية ، وهى مدعاة لنوع من العلاقة بين الرجل والمرأة تكون فيه القوامه للرجل ؛ ولكن المطروحات المسمومة كلها عن طريق القصة والمسرح والتلفزيون ؛ تحاول أن تضع للمرأة موضعاً مختلفاً ، ومن ثم تفسح الطريق لحوار بذىء تستعلى فيه المرأة على الرجل ، ويشاتم الابن أبيه ، دون أن نراجع أنفسنا فى أن هذا ليس مفهوم ديننا ، وأن هذه الكلمات الهابطة وهـذا الحوار المهين مدسوس علينا لهدم مجتمعنا ، ولو أن المرأة عرفت حدود علاقتها بالرجل ، وعرف الابن حدود علاقة بأبيه ، وأدى الزوج دوره بأمانة وأدي الأب دوره بإخلاص لما وجدت عندنا هذه الأزمة الاجتماعية الخطيرة

ويحق لنا أن نقول لحسن شاه وفاطمة سعيد ونوال السعداوى أن هذه الأفكار التى تدور فى رؤسكم وكتاباتكم ليست أفكار أصيلة فى مجتمعنا ولا فى عقيدتنا وإن هذه الصور التى تقدمها كاتبات فى مجال القصة لا تمثل أصالة مجتمعنا وإنما هى مترجمة من قصص أجنبية ثم غيرت فيها الأسماء والأماكن ، وأن للمسلمين والعرب قيم ومفاهيم وأخلاقيات واضحة فى التعامل والحوار . وأن هذه الكتابات كلها لا قيمة لها وهى لن تبقى لأنها لا تمثل حقيقة جوهر هذه الأمة ولا ضميرها ، مهما أتيح لها فى الوقت الحاضر من بروز أو لمعان وأن هذه الصيحة المضللة عن معاناة المرأة وما يسمونه الارهاب الفكرى الذى يمارسه الرجل على المرأة المتحررة ، كل هذا كلام لا قيمة له ، فإن مهمة المرأة الحقيقية ليست هى تلك ، وإنما مهمتها واضحة مفهومة وأن المرأة الناشزة التى تجد مثلها الأعلى فى مدام بوفارى لا يمكن أن تجد حياة زوجية طيبة ، لأنها تتطلع إلى أوهام من الشذوذ والجنس والتحرر لا يقبلها المجتمع المصرى العربى الإسلامى .

(٣)

نحن نعرف جيدا أن ما سمى حركة تحرير المرأة هو عمل من أعمال الماسونية وأنه بدا فى أوربا تحت لواء إذلال المرأة وتحطيم بكارتها ودفعها إلى سوق النخاسة بأيدى القوى العالمية التى كانت تخطط لها بروتوكولات صهيون وأن الاستعمار والنفوذ الأجنبى حاول أن ينقل هذه الصورة إلى مجتمعنا وأنه ليس هناك ذلك الوهم الذى يرى أن المرأة انتزعت حريتها من أنياب الرجل فليس الأمر كذلك وإنما هو الرجل الذى فتح لها هذا الباب لغاية فى نفسه ، ولكنها مع الأسف انخدعت به وتركت أطفالها للخادمات حتى أصبحت البيوت مظلمة كئيبة ، وتمردت الأجيال التى تربت فى أحضان الخادمات ، ونشأت فى جو من الحقد والتحدى والعنف ، لأنها لم تجد حنان الرحمة ولم تجد الصدر الذى يحتضنها ويربى فيها عنصر الإيمان أو الأمل ، وفى العمل أيضاً كانت خدعة أخرى من الرجل للمرأة هى خدعه المجاملة ، وأخيرا احست المرأة أنها ضحية ، وأن الرجل أراد منها أن تكون سلعة وأداة ، ولم تحقق المرأة نجاحا فى أي عمل تولته ولم تختار المرأة هـــذا الطريق

ولكن الرجل هو الذى أجبرها وأخرجها عنوة والمرأة تؤمن اليوم بأنها كانت على خطأ ، وأن استمرارها فى العمل خارج البيت هو مزيد من الخطأ .

إن أكبر أخطاء المرأة فى المجتمع الإسلامى هى :

(١) المحاكاة العمياء بغير تفرقة بين الأحوال عندنا وعند الأوربيين .

(٢) الصور المتحركة التى تعرض لنا كل يوم مفاتن الحياة الغرامية على نحو يراد به الإغراء وفيما يراد به التعليم والتهذيب .

(٣) انتقال الألوف من أبنائنا إلى أوربا يعيشون هناك من غير رقابة ولا تقيد بالخلق الإسلامى .

(٤) القراءة الرخيصة التى يصح أن يقال فيها ما يقال من أن الردىء فيها يطرد الجيد من الأسواق .

(٤)

لقد تكشفت فى السنوات الأخيرة تحولات خطيرة فى قضية المرأة فقد أخذت المرأة تفكر فى العودة إلى البيت وهنا نجد أمثال مصطفى أمين وجماعه التغريبين والشعوبيين يسارعون إلى معارضة هذا الاتجاه وعمل كل مافى وسعهم إلى ادامة الاستهتار والتدمير ولذلك نجد مصطفى أمين يحتضن جماعة من الهدامات فى تكوين حزب جديد للدعوة إلى منع عودة المرأة إلى البيت والسخرية بالراغبات فى الحجاب وتشجيع المتطرفات والمتدفعات نحو الفساد والانحلال .

ولا ريب أن عودة المرأة إلى مفهوم الإسلام فى السنوات الأخيرة وما تبعه من تحول خطير فى لباس المرأة وفى عاداتها قد أحدث ظاهرة جديدة وصفها دعاة التغريب بأنها تحول خطير وظاهرة خطيرة تهدد عمل المرأة . وهى فى نظرهم عودة إلى الحريم وهدم لجهاد ضخم قام به دعاة

السفور والانحلال خلال أكثر من خمسين عاما فكيف لا يوصف بأنه يهدد عمل المرأة ولو انصفوا لقالوا انه عودة إلى الفطرة ، وإلى طبيعة الامور ، وأنه اتجاه فى الطريق الصحيح . وإذا كانت المرأة فى الغرب قد أخذت تتجه إلى البيت بدافع من عوامل اجتماعية واقتصادية ولا يعاب عليها ذلك فلماذا يعاب على المصرية والعربية والمسلمة ، إذا هى عادت إلى الاصالة بدافع من الإيمان بدينها ومن التزام أمر ربها .

والاحصائيات تقول أن ٥٢ ٪ من نسائنا العاملات يرغبن فى العودة إلى المنزل لرعاية أطفالهن ، بينما نجد من الخطايا الكبرى إصرار الرجل على أن تعمل امرأته ، وإلى أن لا يتزوج إلا امرأة تعمل غير مقدر للمساءة الكثيرة التى تلحق به من جراء وهم كبير هو أن يكون لزوجته مورد ، تمد يدها إليه ، مع أنه من العار أن يحدث ذلك ، وأن من الشرف أن يعيش الرجل بمرتبه وعرقه والله يبارك فيه مادام من حلال مع تجنب أسباب الترف الكاذبة والفاسدة التى يجرى انفاق المال فيها وهى ليست من الحاجات الضرورية أو اللازمة .

إن المرأة العاملة الآن بعد أن رأت كيف تمتهن فى المواصلات وفى العمل وأن ما تحصل عليه يضيع بين ملابس ومصاريف انتقال وتفاهات ليست أساسية فى العيش ، فهى التى تتحدث الآن على أن العمل لم يعد مغريا للمرأة وأن بقائها فى المنزل ولو بموارد أقل هو أشرف وأكرم .

لقد وضح أمام المرأة المصرية اليوم — كما يقول تقرير المركز القومى للبحوث الاجتماعية — أن التقصير فى رعاية الابناء هى المشكلة رقم (واحد) فى حياة ٨٣ ٪ من النساء العاملات .

وقال البحث أن نوعية الفتاة المؤيدة للعودة إلى البيت كلهن من ذوات المستويات التعليمية العليا والاجور المتوسطة وقد تبين أن أجور المرأة تضيع فى سد احتياجات كمالية كالمحافظة على مظهرها واستخدام وسائل النقل أكثر تكلفة أو الاستعانة بالشغالات .

وقد تبين أن القيم المثالية التى طالما دعا إليها مصطفى أمين وامينة السعيد

مما يسمى حصولها على استقلالها الاقتصادى أو تحقيق توازنها النفسى والاجتماعى وتنمية شخصيتها ، كل ذلك لم يجد أى صدى لدى أفراد المجتمع من النساء أو الرجال .

وقد تبين للمرأة أن الحاجة الضرورية التى تمس حياة الأسرة بشكل مباشر هى تربية الأطفال وأن العمل أصبح يؤدى إلى الارهاق نتيجة الجمع بين العمل داخل البيت وخارجه والاختلاط ومشاكل المواصلات والتقصير فى رعاية الزوج والتفكك الأسرى .

وقد أشارت إحدى العاملات اللاتى تركن العمل بأن هناك تعارض بين عمل المرأه ودورها كأم ، وذلك بسبب النظرة المتطرفة إلى دورها الأموى ، باعتباره دوراً متخلفاً لا يليق بالمرأه المثقفة والمتعلمة أن تتفرغ له مؤقتاً وحتى وأن تحول الطفل إلى الضحية رقم (واحد) لهذا التعارض الغريب فان حسمت المرأه هذا التعارض لصالح العمل اتهمت بالأنانية وبأنها تعيش حياتها العملية وطموحاتها على حساب أطفالها وأن حسمت لصالح تربية الطفل اتهمت بالرجعية والارتداد إلى عصر الحريم . ونحن نرى أن الأصالة والكرامة والإيمان بالله يدفعها إلى التضحية بالمظاهر التافهه وقبول رسالتها الحقيقية فى بناء الطفل والأسرة.

الفصل الثالث

احتواء الأجيال الجديدة

كانت خطة احتواء الأجيال الجديدة وصهرها فى بوتقة التغريب من أهم الأهداف التى حرص عليها النفوذ الأجنبي فى مراحله المختلفة : مرحلة الاحتلال، مرحلة الاستقلال الناقص ، مرحلة ما بعد ذلك ، ذلك أن الشباب هو عماد القوة الضاربة فى الوطن الاسلامى الكبير ولذلك كانت المؤامرة على احتواء عقليته ووجوده وكيانه مرتبطة بالتعلم والثقافة والصحافة ووسائل التسلية .

ولقد كانت الغاية الأساسية هى إبعادة عن عقيدته وأخلاقياتها وتنكره لوطنه ولغته وتاريخه .

ولعل المراجعة اليسيرة لإحدى مواد الماسونية : وهى أن السيطرة على الشبيبة هى أولى غاياتها وأهدافها ، وما أوردته بروتوكولات صهيون من قولهم :

دعوا الكهول والشيوخ جانبا وتفرغوا للشباب بل تفرغوا للأطفال فإن الانطباعات الأولى لا تنسى ، وعليه يجب أن تبنى تلك الانطباعات على أساس أفكارنا (أى أفكار الماسونية) ولابد من تربية الأطفال بعيداً عن الدين » .

ولقد قامت الصحافة بدور خطير فى هذا المجال ، كما قامت الثقافة بترجمة القصص الجنسى المكشوف والمؤلفات الاباحية والمنحرفة ، وجاء التعلم مفرغا من القيم والالتزامات ، ولذلك فإننا نرى بحق أن محاولة احتواء الأجيال الجديدة هى من أكبر العقبات فى طريق النهضة ، والانتقال من اليقظة الإسلامية إلى الاصالة والرشد الفكرى ؛ وإن علينا واجبا لا محيد عنه هو قطع الطريق أمام هذه الأفكار الضالة . وعلى الشباب المسلم ألا يكون أمعة غافلا يستمع لكل ناعق ، ويصدق كل دعوى ، ولا ريب أن الإيمان والعودة إلى الله

والتمسك بالقيم الروحية والاعتدال بعيداً عن الشطط والانحراف والتعصب والتطرف مع الإيمان بأن والاناة فى فهم الامور وتقليبها هى أهم الاسس لبناء الانسان المسلم والطريق الوحيد لحل كل القضايا والمشاكل والمعضلات ولابد من عودة الأم إلى حماية كيان الأسرة وتقديم حنانها لأبنائها ، ولابد من اقتناع الشباب المنساق وراء الانحراف العقلى أو الجنسى ، حيث يجد مغريات التغريب بأن الإسلام يملك البديل الذى يضعه فى مكانه الصحيح وأن البديل الإسلامى — والمبدأ الإسلامى كما يقول الأستاذ أبو بكر القادرى هو الأحق والأبقى والأفضل عند مقارنته بالبدائل والمبادىء الوضعية الاخرى .

وعلى كل عامل فى الحقل الإسلامى أن يكون صدره رحباً واسعاً وأفقه عالياً وتصوراته للاسلام حقيقية لأن مهمة الدعوة إلى الإسلام تتطلب إلى جانب المعرفة والاطلاع نوعا من الصبر والتسامح حتى يكسب من يناقش ويحاور وخصوم الإسلام يرغبون فى أن نخطىء وننحرف حتى تفسد المهمة ، فعلينا أن نتمسك بالإناة والحكمة حتى نسد الطريق أمام خصوم الإسلام الذين لا يريدون له أن يتقدم .

وإنى أنصح بما ينصح به الدعاة الأبرار ، إن على الشباب ألا يستعجل الأمور قبل تمامها ولا الثمار قبل نضجها ، وإن عامل الزمن ضرورى لانضاج هذه اليقظة بما يوفر لها من كتابات علمية تصهر عاطفة الشباب وتربيهم على حسن التأنى للأمور وعلى السير مع روح الإسلام نفسه وليس من العواطف العارضة ولا مع استعجال الأمور قبل أوانها .

(٢)

على جيل شباب الله أن يعلم أنه لا يستطيع أن يبدأ من فراغ ولابد أن يبنى على الاسس التى قدمها له جيل الآباء ، وأن يعلم أن الموهبة وحدها لا تكفى وأن الرغبة لا تفى ، وأن الأمر يحتاج إلى معاناة ودراسة وعلم ونفاذ ؛ وإنه لا بد من الأسلوب العلمى لتصبح أشواق النفس صوراً مقبولة ورصينة

وأن الأدب لا يمكن أن يكون إلا فى مستوى الأصالة والبيان العربى وإن على الأجيال الجديدة أن تصحح مسيرة من قبلها وذلك بتوسيع الطريق الضيق ، والعمل على مستوى الفكرة الجامعة بعد أن عانت هذه الأجيال فى مجال قاصر هو مجال الاقليمية والجزئية والانشطارية التى فرضها النفوذ الأجنبى .

ولابد من تأمين العلاقة بين الآباء والأبناء بالحنان والرعاية من جانب الآباء وبالثقة والولاء من جانب الأبناء ، ولا بد أن تقوم العلاقة بين الرجل والمرأة على أساس المفهوم الإسلامى الأصيل : على أساس (القوامة) التى جعلها الله تبارك وتعالى للرجل وعلى أساس الإيمان بأن مهمة المرأة الأولى والكبرى هى رعاية الأسرة وحماية الطفولة :

إن حماية هذا النبت الجديد هو أكبر المطالب ، ولما كان الأب يعمل والأم تعمل أصبح الابن تائها تتلقفه الأندية التى يشرف عليها قوم غير ذى خلق والتى تتحطم فيها كل القيم ، أو دور السينما والمسارح ، التى تقدم مسرحيات هازلة ساخرة من كل مقومات أمتنا وعقيدتنا فقد ارتبطت تجارة الحب والجنس مع صناعة السينما ونحوها بهدف إفساد عواطف الشباب فى هذا الجيل وتقديم المفاهيم المنحرفة فى مجال العلاقات بين الرجل والمرأة والأب والأبناء . وليس أدل على ذلك مما يقوله خبراء متخصصون عن أن الفن لم يعد وسيلة ترشيد وإنما وسيلة اضحاك حيث يقدم موضوعات تافهة وسطحية ، تحتقر كل مقومات الأمة ، وتعطى الشباب الغض صورة تجعله يكره أمته ولا يرى لها مجداً يتحدث عنه ، فما هنالك من تاريخ تعرضه السينما الا تاريخ الزانيات والراقصات والغوازى والنشالات أمثال ريا وسكينة ووداد الغازية .

وقد حققت موسسة السينما ١٩٧٢ ستة ملايين جنيه خسارة ، ذلك لأن عدداً كبيراً من الافلام التى تم إنتاجها بواسطة المؤسسة تكلفت مبالغ ضخمة لتحقيق أغراض سياسية دعائية مثل عزام السكرنك ، معسكر البنات ، الخروج من الجنة — الخ . . .

وقد أشار علماء النفس إلى خطورة ما يعرض فى على الشاشة الصغيرة من تزييف

الحقيقة ، وتخدير العقول ، ونشر وسائل الجنس والجريمة حتى أن أحد الخبراء العالمين قال : أن التلفزيون قوة لا أخلاقية تساعد على أضعاف القيم الدينية ، وإن المعهد الدولى للصحة العقلية بناء على دراسة ٧٣٢ حالة استغرقت خمس سنوات أعلن أن مختلف التصرفات العدوانية من الأجيال الصغيرة واشتداد نزاعهم مع الآباء والأمهات ، فقد تعلموا الكثير من الجنس من خلال التلفزيون أكثر من أى مصدر آخر ، كما أن التلفزيون ينبه الأطفال وينشر العادات السيئة بالتركيز على لجوء الأطفال إلى المسلسلات ، ومعظم الشباب الصغير يقضون من عشرة إلى ١٥ ساعة أمام التلفزيون . ولهذا يفوق عدد الساعات التى يقضونها فى مدارسهم .

ومن هنا فإن هذه الأجيال تتميز بانخفاض الكفاءة العلمية ، فهى أجيال غير قادر على القراءة والكتابة أو انفاق العمليات الحسابية ، وأن من أخطر أخطار التلفزيون أن عملية المشاهدة تخلق بالتدريج موقفا سلبياً أو عاجزاً عن الأداء الإيجابى الجيد فى أغلب الأشياء ، وهناك خطورة ظاهرة « سلبية المشاهد » وهي تهدد بأجيال أقل كفاءة من الناحية العملية .

وأشارت الأبحاث إلى أن المسلسلات والافلام التلفزيونية تثير الجانب الذى يحتفى بالاستجابات العاطفية أكبر من الجانب المتخصص بالتحليل والتفكير وإنجاز الأعمال ، وأن تتابع الصور التلفزيونية له تأثير مخدر على العقل ـ وقال باحث نفسى : إن السينما تتسرب إلى ما تحت الجلد فى اللاوعى حتى يمكن أن يقال أن السينما هى أفيون الشعوب ! وهى عملية مخدرة فإن هؤلاء الذين ضاعت آمالهم ، يحاولون أن ينسوا الملل الذى يثقل حياتهم فيفرون إلى السينما لرؤية مغامرات فلان وفلان ، وهو علاج وقتى لا قيمة له ، بدلا من أن يلجأون إلى الأسلوب العملى الذى يوصى به الإسلام وهو معالجة المشكلة واستئناف طريق جديد للعمل .

(٣)

إن كل محاولات وسائل الثقافة والصحافة والتسلية ترمى إلى أن تشد الشباب نحو « التيه » فهى تحرمه من معرفة البطولات القومية وفضل إمته على الحضارة الإنسانية ، أو بناء شخصيته بأداء اللغة الفصحى ، أو معرفة العلوم الإسلامية التى هى بلا شك أكثر نفعاً من دراسات الفلسفات المادية والوثنية والإباحية التى تطرح على شبابنا فى الجامعات وفى الصحف ، كذلك فإن هناك محاولات لتفريغه من الثقافة ، ودفعه فى طريق أهواء النفس والرغبات الجنسية والانحلال .

وهناك مغريات خطيرة ، منها جنون الكرة ، هذه الظاهرة التى فرضت نفسها على المجتمعات ، بديلا للصراع الحزبى السياسى ، وهى عملية تقتل الفراغ الذى يمكن أن يستغل فى أعمال إيجابية نافعة لبناء الأمة .

وهناك فوضى الفيدوكاسيت التى تفسد الشباب بأن تقدم له أفلاما جنسية صارخة هى بعيدة الأثر فى النفسية الشابة سواء بالنسبة للأبناء أو الفتيات فهناك خطورة شديدة فى عرض شرائط الفيديو فى بعض المقاهى والأماكن ، والبيوت .

هذا بالإضافة إلى القمار والمخدرات والمال الحرام

ولقد ترددت فى السنوات الأخيرة مسألة حقن الماكسون فورت المخدرة والحبوب التى أصبح الحصول عليها أسهل من الحصول على أقراص الأسبرين : ومعنى هذا أننا نورد شبابنا — الذى هو عدة مستقبلنا مورد الشطط ونحطم هذه القوة التى تمثل الآن أكثر من ستين فى المائة وأن هدم هذا الجيل يعنى أن يشوه مستقبل هذه الأمة تشويهاً خطيراً ويكون منطلقاً لغزو من القوى الطامحة وهو هدفها من هذا العمل فى الحقيقة .

(٤)

ولذلك فإننا يجب أن ندعم الوجود المؤمن بين الشباب الذى ظهر على الأرض الطيبة ، ونحميه من دعاة السوء الذين يريدون اقتلاعه ، نريد أن نخرجه من دائرة البحث حول هوامش الفقه ، والمسائل الفرعية المختلف عليها ، ليقتحم المجال الأوسع والحقيقى ، وهو مجال تحرير العقيدة من الشبهات المثارة فى كل مجال من مجالات الاقتصاد والاجتماع والسياسة والتربيه ، فإن هذا التقوقع فى دائرة المسائل الفقهية المتعلقة بالزى واللحية وغيرها — بالرغم من أهميتها — من شأنه أن يصل إلى غاية يفهم منها أن الإسلام دين عبادة ، نعم نحن مطالبون بتحرير مفاهيمنا فى العبادة ولكن نحن أيضاً فى حاجة إلى أن نعيش مفهوم الإسلام كاملا ، عقيدة وعبادة وأخلاقا وأن نضفى صفة الأخلاقية (التى هى الالتزام الأخلاقى) على جميع المعاملات والعلاقات فى حياتنا ومجتمعنا ، بالنسبة لكل إنسان وإنسان آخر فى العمل أو السوق وبالنسبة للرجل والمرأة وللزوج والزوجة وللأب والابن فإن مهمة هذا الجيل الطبيعى الذى يرغب فى أن يحمل رسالة بناء المجتمع الإسلامى تتطلب التطبيق العملى لهذه القيم الأساسية فى المحيط الضيق : محيط كل أسرة أولا على نحو محكم ثم منه إلى التعامل مع المجتمع العام .

هذا العمل من شأنه أن يقدم اقتناعا حقيقيا بأن بناء هذا المجتمع الإسلامى يجب أن يقوم به أهل المؤمنون به ، وأن عليهم أن يتمسكوا بالعزيمة والاصرار على رفض كل ما يحول دون قيامه ، عليهم أن يرفضوا كل عناصر الفساد الموجودة فى المسرح والقصة والتلفزيون والشارع ، وأن يحرصوا على أنفسهم . وأولادهم من أن ينصهروا فى بوتقة هذه المفسدات التى تحاول أن تقصيهم على مفهومهم الصحيح لعبادة الله وإقامة العلاقات الإسلامية الصحيحة بينهم وبين غيرهم على أساس التقوى والإيمان .

إن العمل الأول هو بناء « القدرة على الانصراف عن كل وسائل الإغراء والانحراف » ، واللذائذ والمطامع والمغريات ، دون أن يصرفهم هذا عن دورهم فى الحياة الشريفة القائمة على الحلال والاستمتاع بحقهم المشروع فيها ، (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) .

وأن يكونوا على حذر كاف وبصر بعيد بما يمكن أن يحدثه ذلك الاستسلام الضعيف العاجز لكل مايدور في المسلسلات من أحاديث غواية أو من رقص ، أو من غناء أو من ملامسة فاجرة وأن يكون نفس الشيء في التعامل اليومي مع الناس ، الذي قوامه القدرة على الانصراف عن الحرام ، والوقوف عند حدود الحلال في الكسب والمطعم والتعامل .

ولا بد أساساً من المحافظة على نقاء الفطرة حتى تكون قادرة على الاتجاه نحو الخير ، أما هذا الشر الذي نجده بين طوايا المجتمع ، فنحن لسنا مطالبون بالخوض فيه ، ونحن قادرون في نفس الوقت على تجنبه .

فنحن لانرفض المجتمع بل نتعامل معه ونتصل به بالقدر الذي تتحقق به مطالبنا وعلينا أن نذود عن أنفسنا وعن بيوتنا وعن أبنائنا وجوه الضلال جميعا ، ونحول دون انتشارها ووصولها إلى بيوتنا ، وأن نكون قادرين على معرفة تلك الفلسفات السوداء التي تبرر هذا الفساد وهذا الاثم فنردها وندحضها ونكشف زيفها لأبنائنا يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة .

وأن نؤمن إيمانا يقينا بأن هذه الحياة ليست إلا ساحة معركة بين الخير والشر والحلال والحرام ، وأن الخير منها والحلال يحتاج إلى صمود وصبر واستمساك ، يقوم على أساس الاستعانة بالله تبارك وتعالى والخوف من حسابه ومن عقابه ، وأن تكون النفس منصرفة أساسا عن المطمع في المادة التي هي مصدر الاغراء في الوقوع في حبائل الفساد .

هذه الطاقة الخلقية القوية القادرة على مواجهة الشر والحرام والنبو عنهما تنبني مع الزمن ، ساعة بعد ساعة ، ويوما بعد يوم ، الصبر بالتصبر ، والاحتمال بالتحمل .

وعلينا أن نكون على حذر مما يلقيه الغير من نظريات ومذاهب فإن فيها قليل من الخير ولكن فيها كثير من الشر ، علينا أن نعرضها على ضوء الكتاب والسنة ، وأن مافيها من الخير يوجد لدينا مثله واضعافه في تراث فكرنا وأن ما فيها من الشر فنحن في غنى عنه .

إننا نصدر أساسا من إيمان عميق وثقة أكيدة بأن السلامة فى منهج الله تبارك وتعالى ، وأن الإنسان لايستطيع أن يقيم منهجا لنفسه خاليا من اهوائه ومطامعه ، ولا بد للإنسان من منهج ربانى لتنظيم حياته ، هذا المنهج هو الذى يهديه إلى الحق فى كل لحظة .

إننا مطالبون بأن نطبق فى أهلنا حكم الله وشريعته ، فلا نقبل غير العلاقة التى أحلها الله ، وأن نطبق فى تعاملنا مع الناس قانون الحــلال والحرام فلا يقبل غشاً ولا رشوة ولا ربا ، وأن نقيم بين الآباء والابناء تلك العلاقة الكريمة ، علاقة الوفاء والعرفان من الولد وعلاقة الرحمة والتوجية من الوالد كذلك فلا تبهرهم هذه المظاهر البراقة من متاع الدنيا القليل الفانى ، ويكفى الإنسان المسلم أن يعمل فى الحلال وأن تكون موارده قليلة ومباركة فهو ينفقها على أهله ويؤدى منها الزكاة .

(٥)

إن أقوى سلاحين فى يد الشباب لمواجهة التحديات :

(١) الاعتصام بالإيمان بالله ويحقق ذلك فى نفسه وبيته وأهله .

(٢) التسلح بالطاقة الخلقية أمام موجات الفساد والانحراف .

(٣) التعامل مع المجتمع على أساس « الحكمة والموعظة الحسنة » بعيدا عن كل أسباب العنف والتعصب أو الانحراف أو فرض الرأى .

وأن المسلم يستطيع أن يقوم فى بيته وعمله على أساس أخلاقيات الإسلام بحيث لا يخضع للفساد الموجود فى الشارع وفى وسائل الإعلام والسينما ، مع التحرر من المطامع الصارخة فى الوصول إلى الحرام سواء فى المال أو فى الجنس ، وأن يستعلى إزاء قبول المال الحرام والكسب الحرام .

وأن يصطنع الشباب المسلم آداب الطعام واللباس وآداب المجالس والزفاف وفق توجيهات الرسول ﷺ .

وذلك كله يرمى إلى « تغيير العرف » العام المنحرف الذى صنعته قوى التغريب والعودة إلى أعراف الإسلام الأصيلة .

(٦)

أن هناك صيحات عالية الآن تتحدث عن الخطر الذى يواجه الطفل المسلم الذى يعانى من إنشغال الأسرة عنه نتيجة خروج المرأة للعمل وانغماس الآباء فى دوامة الحياة اليومية ، وحيث لايجد دور الحضانة الإسلامية التى تتعهد بالرعاية كما لايجد المدرسة الإسلامية التى تقوى صلته بدينه وأخطر ما يفتقده الطفل المسلم هو (القدوة) التى يقتدى بها فلا يجد أمامه إلا معلمين هازلين ، وآباء مشغولين وأمهات لاهيات ، والمثل الأعلى الذى تقدم له الصحف ووسائل التسلية هو الممثلين والراقصين ولاعبى الكرة بانحرافاتهم وكلماتهم المائعة ، وحركاتهم الزائفة .

إن حاجة الطفل الحقيقية هى فى الحنان والبسمة والنظرة الحانية التى تقدمها الأم حينا بعد حين والرعاية والسؤال والمتابعة التى يقدمها الأب ، وكيف والأب مشغول فى عمل لا يطمع من ورائه إلا تحصيل المال من أى طريق ويكتفى بأن يقدمه لزوجته وينسى مسئوليته عن التوجيه اليومى المستمر .

وإذا فقد الطفل قدوته فى الوالدين . فأين يجدها ، أن المعلم فى المدرسة لا يستطيع أن يقدم هذه القدوة لأسباب كثيرة ، كذلك فان الشارع لا يقدم هذه القدوة مع الأسف .

الباب السادس

القانون الوضعي والاقتصاد الربوى

إمتدت خطوات تدمير المجتمع الإسلامى فى عدة ميادين فهى لم تتوقف عند تدمير المجتمع والمرأة والأسرة والطفل، ولكنها مضت إلى إفساد التعليم والثقافة والفن ووسائل الترفيه والتسلية المسماة (المسرح والسينما والأغانى) .

وامتدت خطوات تدمير المجتمع إلى ميدانين آخرين غاية فى الخطورة هما القانون والاقتصاد . أما فى مجال القانون فقد حجبت الشريعة الإسلامية منذ بدأ النفوذ الغربى سيطرته على مصر والبلاد الإسلامية وحل محله القانون الوضعى ، كذلك فقد فرضت المصارف الربوية ووجه الاقتصاد فى البلاد الإسلامية وجهة مخالفه تخضع للربا والفائدة وسيطرة الغرب عليه سيطرة كاملة ومن ثم أصبح القانون الوضعى والاقتصاد الربوى من أكبر العقبات فى طريق النهضة الإسلامية.

أن أخطر مافى هذه المعوقات أنها فرضت على الأمة الإسلامية وما كانت من اختيار الأمة أو رغبتها فقد كانت الأمة تسير فى نهجها الثرى بشريعتها الربانية ونظامها الاقتصادى الرحيم حتى خلعتها عنهما القوة التى سيطرت على الأمة الإسلامية والمجتمع الإسلامى .

واليوم وبعد أن انقضى أكثر من قرن من الزمان منذ الاحتلال البريطانى لمصر فاننا حين نستعرض الموقف نجد أن هناك خطوات جديدة بطيئة نحو الأصالة والرشد الفكرى ولكن الموقف مازال فى حاجة إلى جهد ضخم فى ظل الصحوة الإسلامية خلال مطالع القرن الخامس عشر الهجرى .

الإسلام دين ودولة

إن كون الإسلام دين ودولة ونظام حكم ومنهج حياة لبناء مجتمع قضية أساسية فى فهم الإسلام والإيمان به . غير أن النفوذ الأجنبى حاول التشكيك فى هذه الحقيقة وإثارة الشبهات حولها منذ اليوم الأول لتداخل الاستعمار الغربى فى البلاد الاسلامية بهدف فرض القانون الوضعى وهدم القانونية القضائية الاسلامية ، وإقامة القضاء الوضعى ، وذلك بهدف تفريغ الاسلام من قوته الأساسية وهى(الحكم ، الحيلولة دون بناء المجتمع على أساس المنهج الربانى فى السياسة

والاقتصاد والتربية وغيرها . وكان الهدف الأساسى هو هدم الخلافة الاسلامية وتمزيق الوحدة الاسلامية ، ومن هنا ظهرت كتابات التغريبيين التى حاولت أن تشكك فى هذه الحقيقة وفى مقدمتها كتاب الاسلام وأصول الحكم للشيخ على عبد الرازق وما كتبه أمثال خالد محمد خالد (وقد رجع عنه) وعبد الحميد متولى ومحمد عمارة ومحمد خلف الله .

وفى سنوات المد الشيوعى أولى الماركسيون اهتماما كبيراً بهذه القصة فأعادوا نشر كتاب على عبد الرازق وكتبوا له مقدمات واسعة وظهر أخيرا كتاب الاسلام والسلطة الدينية لمحمد عمارة ونرى الآن كتابات خلف الله ، وحسن حنفى ، وأحمد بهاء تشكك فى هذه القيم الأساسية وكذلك ما كتبه توفيق الحكيم عن تطوير الاسلام .

وقد أولى هؤلاء العلمانيين بعض العبارات لتفسيرها على الهوى الذى يطمعون فى أن يحققه ومن ذلك عبارة الرسول صلى الله عليه وسلم (أنتم باعلم بأمور دنياكم) وهى لاتقصد مطلقا أن يصبح الاسلام دين صلاة وعباده وأن يأخذ المسلمون ايدلوجيات الغرب فى شئون الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصاد وإنما تعنى معنى التخصص الذى يوكل أمره إلى العارفين فى كل فن من فنون الحياة ، كذلك فانهم يستعملون عبارة مبهمة هى : اختلاف الأحكام باختلاف الأزمان وهذا فى أمر الفروع والمتغيرات ولكنه لاينطبق على الثوابت وهى الحلال والحرام . ولا يمكن أن نفسح الطريق لاقرار الربا أو الخمر أو الزنا ويغيب عن هؤلاء أن مفهوم الاسلام ربانى المصدر واسع الأطر ، وأن له ثوابته ومتغيراته ، وإن هذه الثوابت من الحدود والضوابط والأخلاق لا تتغير بتغير الأزمان والبيئات ، وأن موضع الاجتهاد هو جانب المتغيرات مما لم يرد فيه نص ، وأن الاسلام فى ذلك يختلف عن المناهج الدينية الغربية أو الايدلوجيات البشرية التى تحتاج إلى تعديل وتحوير وإضافة وحذف لعدم قدرتها عن مواجهة متغيرات العصور ، ليس الاسلام كذلك .

الفصل الأول

تاريخ القانون الوضعي

ثلاث حوادث أساسية دهمت البلاد أدت إلى تغريب شامل للقوانين المصرية :

(١) الإصلاح القضائي في عهد الخديو توفيق ١٨٨٣

وبه استبدل بالشريعة الإسلامية قوانين وضعية تحكم الأوضاع الكبرى هي : القانون المدني ، وقانون التجارة ، والقانون البحري ، وقانون المرافعات المدنية والتجارية وقانون العقوبات وقانون الاجراءات الجنائية .

وانشئت تبعا لذلك محاكم على النمط الأجنبي ولم يبق للشريعة الإسلامية إلا دائرة ضيقة : هي دائرة الأحوال الشخصية والوقف .

(٢) قيام ثورة ١٩١٩ وصدور دستور ١٩٢٣ :

وهي ثورة قامت على الأصول الإلحادية التي اعتنقتها الثورة الفرنسية ١٧٨٩ وسميت باسم الديمقراطية الحرة أو (الليبرالية) وقنن دستور ١٩٢٣ هذه المبادىء التي تنص خلافا لما يقرره الإسلام — على الحريات المطلقة وبخاصة حرية العقيدة الدينية ، فصارت الدعوة إلى التبشير مباحة ، وصار ارتداد المسلم مباحا ، واحتجبت الأصول الدستورية الإسلامية من الأذهان فمن قائل أن الانتخاب هو البيعة الشرعية ، ومن قائل أن قيام البرلمان بالتشريع هو من قبيل الشورى ومن قائل أن الإسلام يرتكز على الأساس الديمقراطي .

(٣) قيام حركة يوليو ١٩٥٢ واتخاذها المبدأ الاشتراكي الذي أسفر — كما أعلن السادات — عن فشل كامل أو فشل مائة في المائة حسب تعبيره ، فقد أفضى بنا إلى الإفلاس في الداخل والهزيمة في الخارج وإلى ظهور مراكز القوى الطاغية التي ذاقت منها البلاد الأمرين حتى صفيت في ١٥ مايو .

هذا المبدأ الاشتراكى أشد خطراً من النظام الديمقراطى الحر فهو ينكر وجود الله ويزعم أن الاقتصاد هو الذى يصنع التاريخ .

ومن هنا كان القضاء المبرم على المكانة الضعيفة التى تركها النظام الوضعى الجديد للشريعة الإسلامية وكذلك كصدور قانون الأحوال الشخصية ١٩٢٥ وقانون الوصية وغيرها وإلغاء المحاكم الشرعية ١٩٥٥ وتعديل نظام الأزهر ١٩٥٦ (مصطفى كمال وصفى) .

(٢)

ظاهرة اللائكية : فى العالم الإسلامى بدأت بحركة مصطفى كمال أتاتورك التى استهدفت إلغاء الشريعة الإسلامية واستبدالها بالقانون الوضعى من ناحية وإسقاط الخلافة الإسلاميه التى كانت علامة تجمع بين المسلمين وكانت ظاهرة اللائكية التى قامت فى تركيا من صنع النفوذ الأجنبى وكانت موضع حفاوة من التغريبيين فى مصر والبلاد العربية ، ولكن سرعان ما استطاعت حركة اليقظة الإسلامية أن ترفع عقيرتها بالدعوة إلى العودة إلى الشريعة الإسلامية والأمل فى إعادة الخلافة الإسلامية وبعد سقوط الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤ من أكبر الطعنات التى وجهت إلى قلوب المسلمين ، وجاء ذلك على أثر رفض السلطان عبد الحميد بيع فلسطين لليهود وتهديد الزعيم اليهودى (قراصو) رئيس المحفل الماسونى فى سالونيك للخليفة وقوله :

ستری کم یکلفك هذا الرفض .

وقد جاء إسقاط الخلافة بعد إعلان وعد بلفور ١٩١٧ ببضع سنين :

وقد بدأ الأتراك هذه التجربة بعد مصر فقد أخذ الأتراك بقانون سويسرا المدنى وقانون الجزاء الايطالى ، هذه القوانين كانت بعيدة عن عقلية المسلمين وذوقهم ومنازعهم ومشاربهم ، قال مصطفى كمال : نحن أمة عصرية يجب أن نكون عصريين مطابقين لأحوال الزمان لا للمبادىء والتقاليد .

والواقع أنه ليس فى هذه القوانين ما يتفق مع الزمان والمكان وفرق بين

تركيا من ناحية وبين سويسرا وإيطاليا ، وكان أخطر ما فى ذلك قبول هذه القوانين دون تعديل أو تنسيق مع أحوال البلاد فضلا عن أن القوانين الأوربية متأثرة بالتعاليم المسيحية والتشريع الرومانى فهى تحتوى على مبادىء دينية ، أما الفقه الإسلامى فليس مشتقاً من الفقه الرومانى ، وهو مرن تتسع مذاهبه لكل تطور وهناك قاعدة الضرورات تبيح المحظورات .

ولقد حقق التغريب فى تركيا (دولة الخلافة الإسلامية) هدفين كاملين :

١ — إلغاء تطبيق الاسلام كلية ومحـــو معالمه من القانون والدولة والتعليم والثقافة .

٢ — إلغاء اللغة العربية كلية من الكتابة التركيه والكتابة بالحروف اللاتينية .

(٣)

كانت فكرة على عبد الرازق فى كتابه (الاسلام وأصول الحكم) مخالفه مخالفة صريحة لمفهوم الاسلام الصريح الواضح ، فقد أنكر أن الشارع الاسلامى قد تدخل فى أمر العلائق الاجتماعية والاقتصادية أو وضع قواعد وسنناً متعلقة بالتجارة والزراعه أو الصناعة :

يقول دكتور محسن البرازى : إن هذا الانكار لامجال لنا مرتكزاً على دليل بل يتراءى لنا أنه مخالف للحقائق الراهنة ، ويكفينا أن نجيل النظر فى القرآن وكتب الاحاديث النبوية حتى نجد الآيات العديدة والفصول الطويلة التى تبحث فى العلاقات الاجتماعية والاقتصادية . قال على عبد الرازق : إن كل ماجاء به الاسلام من عقائد ومعاملات وآداب وعقوبات فإنما هو شرع دينى خالص لله تعالى ولمصلحة البشر الدينية لا غير ، ولو أننا أخذنا بنظرية على عبد الرازق لذهبت بنا إلى ضد الغرض الذى يرمى إليه صاحبها ، ذلك الغرض الذى هو عبارة عن التفريق بين الأمور الروحية والدنيوية وترك المسلمين أحراراً ينظمون مجتمعهم كما يشاءون وحسب ما تقتضيه حاجات الزمن وشئونهم

السياسية والاقتصادية والاجتماعة دون أن يكونوا مضطرين للرجوع إلى النصوص الموجوده فى القران والحديث ، ولعمر الحق لو اعتبرنا أن جميع ما نص عليه المصدرين من الامور الحقوقية والاجتماعية هو دينى روحى خالص لله وحده، كنا حينئذ مرغمين على أن لا نتعرض لها بأقل تعديل أو تكييف بمقتضى حاجات الزمن هذا ومايرضى عنه صاحب (الإسلام وأصول الحكم) لأن الأحكام الدينة المحصنه أو المعتقدات يحث أن تبقى سالمه كاملة لا يمسها أدنى تبديل فلا مندوحة لنا أمام الأحكام الصريحة الواردة فى المصدرين الذين منحا العالم الاسلامى شريعة تزاول كسائر الشرائع فى الجمعية البشريه. كذلك فإن الأسلام لم يقتصر على الأكثرات للقضيه الاجتماعية فقط بل أنه تطرق إلى بحيث العلائق الاقتصادية .

والحقيقه أن دعوة الشخ على عبد الرازق فى كتابه (الإسلام وأصول الحكم) تعد كما يقول الأستاذ محمد المجذوب خرقا خطيرا فى جدار الاسلام فتح الباب على مصرعيه للجهلة من قادة الشعوب الإسلامية فاتخذوه منطلقا لتخريب مجمعتهم وحجتهم أن القائل بهذه التخرصات وأحد من خريجى الأزهر وأحد رجال القضاء فى بلد الأزهر ، فرأيه فى قضايا الحكم هو دون ريب رأى الإسلام، ومن هذا إتخذت الفتنة الجديده طريقها الجريء إلى تقويض دعائم النظام الإسلامى فى نطاق السياسة التى أصبحت منذ ذلك اليوم العوبة الطواغيث يفتون عن طريقها فى بنيان المسلمين .

وقد أنتجت دعوة الشيخ على عبد الرازق مدرسة من الشعوبين الذين ينطلقون من هذا المفهوم الخاطىء ويحاولون أن يزيفون مفهوم الإسلام الأصيل : بوصفه دينا ودولة وقرانا ونظام حكم ، هذه المدرسه التى أنطلق منها فهمى هويدى وأحمد بهاء وحسان عبد القدوس وتوفيق الحكيم وعبد العظم رمضان ومحمد عماره وخلف الله

(٤)

خضعت مصر والبلاد الإسلامية لقانون نابليون أكثر من مائة عام وحجبت الشريعة الإسلامية وراء القانون الوضعى الذى فرض عليها ومرت خلال ذلك

مراحل جرت فيها محاولات لتعديل ... ولكن صيحة القائمين على « اليقظة الإسلامية » منذ الثلاثيات من القرن الميلادي كانت صادقه وعميقة وقد أستطاعت أن تجد عدداً من المؤمنين بها من رجال القانون انفسهم ، فضلا عن إعترافات رجال القانون الغربيين في مؤتمرات متعددة عقدت في سنوات ١٩٢٥ — ١٩٥٢ تشيد بالشريعة الإسلامية وتعتبرها مصدراً للقانون العالمي وأنها مستقلة عن القانون الروماني وأفضل منه .

ولكن القوى الاستعمارية ومن يؤكدها من رجال التغريب كانت عاملا على ضرب هذا التيار والنيل منه فقد كانت إبرز أهداف التغريب الغربي هو ضرب الشريعة الإسلامية والحيلولة دون تطبيقها وكذلك آزرت ذلك القوى الماركسية وذات الولاء الصهيوني ، وقد خطت الدعوة إلى تصحيح الموقف خطوات أهمها إنشاء جماعة تجلية الشريعة الإسلامية برئاسه المستشار عبد الحليم الجندي الذى قامت بأعداد القانون المدني ، وقد عدلت مصر دستورها سنة ١٩٧٠ باضافه مادة (الشريعة الإسلامية مصدر أساس للقوانين) ثم صححت حتى أصبحت (الشريعة الإسلامية هي المصدر الأساسي للقوانين) .

وقد إعدت فعلا أغلب هذه القوانين وهي لسبيل مراجعتها من علماء الازهر ووضعها في الصياغة النهائيه :

١ — قانون المعاملات المدنية — ١١٤٦ مادة

٢ — قانون الأثبات — ١٨٢ ماده

٣ — قانون القاضي — ٥١٢ ماده

٤ — قانون العقوبات — ٦٣٥ مادة

٥ — قانون التجاره البحرية — ٤٤٣ مادة

٦ — قانون التجارة — ٧٧٦ مادة

٧ — التشريعات المالية والاقتصادية (قانون الزكاه وحظر التعامل بالفائده ، وضريبة التكامل الاجماعي .

٨ — التشريعات الاجتماعية والتأمنيات

وأبرز ملامح هذه المشروعات أنها مأخوذه من الشريعة الإسلامية دون التقيد بمذهب فقهى معين ، مع الحص على بيان الأصل الشرعى لكل نص من النصوص حتى يكون الرجوع إلى مراجع الفقه الإسلامى . أما بالنسبة للعلاقات الاجتماعية والمعاملات الماليه التى استحدثت ولم يتطرق إليها علماء الشريعة فقد بذل الجهد فى أستنباط الاحكام التى تتفق وظروف المجتمع وروح العصر بشرط مطابقتها لروح الشريعة الإسلامية وأصولها ومن أمثله ذلك معاملات البنوك والتأمينيات وطرق استثمار المال (صوفى أبوطالب : يوليو — ١٩٨٣) .

وقال أسطفان باسيلى : أنه عمل بالقضاء أكثر من عشرين عاما ويعلم أن الشريعة الإسلامية يجب أن يطالب بها المسيحى قبل المسلم لأنها ضمت كل مافيه صالح البشر جميعا ، وهى بسماحتها لاتتدخل فى شؤن الديانات الأخرى لأنها من عند الله سبحانه وتعالى .

كذلك فقد نشأت مجموعات رائده من المستشارين والقضاة الذين حققوا مايدعوهم إليه أيمانهم فى صدروا الأحكام وفق قوانين الشريعة الإسلامية ولم ينتظروا حتى تقنن القوانين الجديده كذلك فقد كتب كثيرون منهم فى موالاه الشريعة وفى كشف فساد القانون الوضعى أمثال الاساتذة حسن منصور ، فتحى والى، جمال المرصفاوى ، محمود نجيب حسنى ، أحمد فتحى سرور ، مامون سلام ، يوسف قاسم ، حسنين عبيد ، محمد رشدى حمادى .

فالظاهرة الواضحة أن عشرات من القضاة ورجال القانون بوصفهم من رجل الاختصاص أصبحوا يتحدثون عن شريعة الله وضرورة عودة تطبيقها على المجتمع حتى تسير حياة المسلمين سيرتها الطبيعية : يقول المستشار حسن منصور : أن ما تمتاز به الشريعة الإسلامية فى مجال العقوبة هو بالنسبة للحاكم والمحكوم ، وأن القاضى الذى يصدر الحكم بالعقوبه يجد فى عمله هذا أرضاء لنفسه وراحة لضميره لأنها دائما تستحضر عظمة الشارع للعيون وهو الله سبحانه وتعالى ، فهى مراقبة للحق وأمتثال أمر الخالق ، وهو بذلك يخرج من دائرة المخطورات الثلاث : الكافرون ، الظالمون ، الفاسقون (الوارده فى سورة المائده) هذا بالنسبة للقاضى ، أما بالنسبة للمحكوم عليه فان انفاذ العقوبه يؤدى إلى طهارته من

لخشاء الاثم الذى هوى إلى دركه . وبالنسبة للمجتمع فأنه سينعم بالأمن والاسقرار والطمأنينة .

هناك أعمال ضخمة من علماء القانون المسلمين المؤيدين للشريعة الإسلامية . فى مقدمتها ماكتبة الدكتور محمد صادق فهمى (القاضى بالمحاكم المختلطه) الذى أخرج رسالة فى الاثبات باللغة الفرنسيه ١٩٣٣ ، وقد أولى الجزء الاهم لما قرره علماء الشريعة الإسلامية وعلى راسهم شمس الدين بن قيم الجوزيه فى كتابه (أعلام الموقعين) .

كذلك فهناك الكتاب الضخم النافع الذى حرره الشهيد عبد القادر عودة « التشريع الجنائى فى الإسلام » الذى ترجم إلى أكثر اللغات العالميه وتقرر تدريسه فى الجامعات وهو أعظم مرجع كشف عظمة الشريعة الإسلامية فى وجه القانون الوضعى فى تفصيل دقيق فى ثمانمائة صفحة يبهر الباحث بادلته وقوة منطقة .

كذلك فقد كتب المستشار على على منصور بحثه المطول .

« نظام التجريم والعقاب فى الإسلام مقارنا بالقوانين الوضعية »

المجلد الاول : عن (الحدود ـ القصاص ـ الديه) والمجلد الثانى (القصاص والدية فى النفس وفيما دونها) .

ومنذ وقت طويل — وفى أبان الاحتلال البريطانى الذى كان يوسد للقانون الوضعى فى مصر كانت هناك أعمال قانونية يتقدم بها مصريون إلى دوائر الجامعات الغربية تكشف عظمة الشريعة الإسلامية ، من ذلك أعمال عمر لطفى ومحمود فتحى وبينما كانت النظرية الفرنسية عن (استعمال الحق) فى أوج قوتها بفضل مؤلفات الأستاذ جوسران إذا بالأستاذ محمود فتحى يتتبع نشاط الشريعة الإسلامية خلال سته قرون تقريباً بتلك النظرية التى تنتهى فى مرحلتها الأخيره إلى إقرار أربعة ميادين وأسحة الحدود لاساءه إستعمال الحق أكثرها ذات طبيعة اقتصادية بينما لم توفق النظرية الغربية إلا فى تحديد ميدان واحد من تلك الميادين .

الفصل الثاني

ما يؤخذ على القانون الوضعي

تحدث خبراء الشريعة الإسلامية والقضاة والمستشارون الذين عملوا فى القضاء عن الآثار التى ترتبت على تطبيق القانون الوضعى فى بلادنا ويمكن استيعاب هذه الآثار فى نقاط محدده :

أولا : أخطر مقاتل القانون الوضعى هـو هدم الاخلاق والقضاء على الأعراض فإن جميع الجرائم الخلقية سواء ما نص عليه قانون العقوبات أو فى قوانين خاصة ، مثل جرائم الزنا وهتك العرض وتعاطى الخمور والاتجار فيها تفتح الباب واسعاً أمام فساد المجتمع ، فجريمة الزنا هى فى الشريعة الإسلامية كل اتصال محرم بين رجل وامراه سواء كان أحدهما متزوجا أو كلاهما ، أما فى القانون فهو خيانة العلاقة الزوجيه ومن ثم فهو لايقع الامن الزوج ، وقد اختلفت القوانين الوضعيه بشان تلك الجرائم مذاهب ثلاثه :

(١) مذهب يعتبر الخيانة الزوجية فعلا غير مؤثم كالقانون الانجليزى والقانون الروسى .

(٢) مذهب إعتبرها جريمة يعاقب عليها دون تفريق بين الزوج والزوجه كالقانون الالمانى .

ومن هذه القوانين الأخيرة القانون المصرى نقلا عن القانون الفرنسى ، وقد اختلفت جريمة كل من الزوج والزوجة إختلافا بينا ، سواء فى الاركان المكونه للجريمة ، أو فى العقوبة فهى بالنسبة للزوج لاتزيد عن الحبس سته أشهر بينما تصل بالنسبة للزوجه إلى سنتين .

ثانياً : ليس عيب القانون الوضعى محصوراً فى جرائم الاخلاق على الزنا وحده

وأنما هناك جرائم أخرى تكتفى منها بذكر جريمتين : (الأولى) هتك العرض إذا وقع برضا الطرفين فلاجريمة إلا إذا وقع الفعل على قاصر ولم تتجاوز سن الثانية عشرة ومعنى هذا أن الإنسان متى بلغ الثامنة عشرة فهو حر فى عرضه مع أنه يعتبر قاصراً فى تصرفاته المالية الحاصلة قبل بلوغه سن الرشد وهو فى الحاديه والعشرون : أى أن القانون كان حريصا على المال أكثر من حرصه على العرض .

أما الجريمة الثانية فهى جريمة الاعتياد على ممارسة الدعارة وهى جريمة لا تكمل إلا بالاعتياد على ممارستها وأن يكون ذلك مقابل إجر ورغم أن الدعارة جريمة تخضع لعنصرى العرض والطلب، فإن القانون لا يعاقب : العاهر او المومس إلا إذا تكرر منها الفعل . وكان ذلك لقاء أجر أى أنه لاعقاب على من ضبطت تمارس الفاحشة [illegible] بأجر ، وكذلك لاجريمة ولاعقاب على من قارفت الفاحشه بلا أجر لمجرد المتعة ، ولو تكرر ذلك عدة مرات وأخيراً فانه لاعقاب على الرجل الزانى مع مومس مهما كانت حالته : أغرب أم تزوجا أو غير محصن ، بل أن القانون يعتبره شاهدا فى قضية الدعارة .

وقد أصبح واجبا بعد صدور الدستور فى مادته التى تعتبر أن الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للقانون فى مصر أن يمتنع عن تطبيق أى نص من القوانين القائمة على مخالفة الشريعة كنصوص الفوائد الربوية وبيوع الغرر والمراهنات والعاب القمار والميسر والمعاملات المخالفة للشريعة .

ثالثاً : القانون الوضعى يستجيب دائما للتغيرات الاجتماعية ولوكانت أمراضاً وانحرافات تصيب المجتمع ، ومن الاستجابة لانحرافات المجتمع :الشذوذ الجنسى ، واللهو ، وشرب الخمر ، وفى ذلك خطر كبير على المجتمع إذ يحطم أى سياج أو أطار من القيم والمعنويات التى تحفظ المجتمع من التدهور ، والداعون إلى هذا التدهور يفلسفونه باسم الحرية والارادة العامة للشعب وأنه مصدر السلطات ويدور فى بعض المجالس الخاصه فى مصر أن حرمان الإنسان من الشذوذ هو إعتداء على حقوق الإنسان باعتبار أن الإنسان حر في أن يتمتع بعرضه ولذته كيف يشاء ،

ولقول ذو مزجية (أكبر فقه الدستوري فى هـــذا العصر) أن القانون الوضعى كان دائما خادماً للطبقة الحاكمة مستخدما لأغراضها مخالفا بذلك الأوضاع الطبيعية .

أما النظام الإسلامى فإنه يحيط المجتمع بسياج وأطار يمنعه من التدهور والأنحطاط ويحفظ عليه قيمه ومبادئه فيظل المحظور محظوراً والحلال حلالا ، وفى ظل النظام الإسلامى لاتبديل لأصول الحياة الإجتماعية وذلك مع المرونة الكافية فى فروعها وبذلك يظل المجتمع صلب العود مستقيم الظهر قوى البنيان .

ومعنى هذا أن القوانين الوضعية تتصف بخصيصة استسلامية تعايش بها الفساد وتتبناه ، مهما بلغ من النزول والاسفاف بينما تتصف الشريعة بخصيصة حافظة تحمى المجتمع من التدهور والنزول (مصطفى كمال وصفى) :

رابعاً : أنه كان نتيجة لعقلية القوانين التى سنها الخديو توفيق ١٨٨٣ أن تغير شكل المجتمع الإسلامى تغيراً عظيما ، وأصبحت الطبقة المثقفة من خدام الطبقة الراقية الحاكمة وأصبح إدراك النظم الغربية عنوان الفهم والادراك السليم الذى يجب أن يتحلى به الجنتلمان فى مجتمع المجون الذى ساد ذلك العصر ، وعلى العكس من ذلك فإن الثقافة الدينية أصابها التدهور والانحطاط بسبب سياسة المستشارين الانجليز فقصرت الوظائف الدينية على خدام المساجد والمؤذنين ، وعمد مستشار التعليم إلى شحن المعاهد الدينيه بعلوم تنوء بها ظهور الجمال ، ولاتجد إذن فرصة إلا فى وظائف المساجد والاوقاف وبذلك أنصرفت الطبقة القادره عن التعليم الدينى واتجهت إلى التعليم العام ، وصار أهل الدين عنوان التخلف والتأخر وهدفا للسخرية .

خامساً : كان ظهور القانون الوضعى فى الغرب نتيجة أن المسيحية التى عبرت من الشرق كانت رساله اخلاقية وروحة محضة ، ولأنها كانت جزءاً من رسالة موسى فقد كانت شريعتها فى التوراه ، فلما إستقلت المسيحيه دون أن تكون لها نظام وتشريع أخذت من الشريعة الإسلامية مارأته ملائما لها ووضع منه قانون نابليون المشهور ، واغلبه من مذهب مالك ثم جاء المسلمون ففرض عليهم

أن يحجبوا شريعتهم وأن يقبلوا القانون الفرنسى والسويسرى حكما لمجتماتهم وعندهم أعظم ثروة فقهية فى العالم كله .

ومن هنا كان القانون الوضعى قانونا بشريا يعلى من اهواء الإنسان ويبرر مطامعه وشهواته وفارق كبير بين القانون الوضعى وبين القانون الربانى السماوى ، وعرفت المسيحية الاخلاق والوصايا والاخلاق الفرديه وحدها التى تحولت من بعد إلى اللبير إليه ، أما الإسلام فقد عرف الربط بين الفردية والجماعية وجعل إلى جانب الاخلاق العقيدة والمعاملات على نمط فريد لأنه من صنع الحكيم الخبير ، ومازال الحضاره الغربية والمجتمع الغربى المسيحى ينقل من الشريعة الإسلامية حثيثا : حقوق الإنسان ، حقوق المرأة ، حقوق الجار ، مسائل الزواج الطلاق والارث .

سادساً : لقد أتى الإسلام بمباديء عامة أو أسس عامة يتعين أن يقيم عليها الحكم - لقدراى الإسلام وتيقن من ضعف الطبيعة البشرية فواجهها بطارقه عمليه وجعلت الميادى الإسلامية العامة الحاكم ، غير سلطوى والزمته بالأخذ برأى أصحاب الحل والعقد ، ورفض أن يأتى الحاكم رغم أنف المحكومين بل برغبة الشعب ، والإسلام بوصفة نظام حياة كما هو عقيده وعبادة يفرض نظام الحكم كاساس جوهرى لاغنى عنه ، ومن أجل ذلك وضع الإسلام نظاما شاملا لكل أمور الدين والدينا ونظم العلاقتين معاً : علاقة الإنسان بربة وعلاقة الإنسان بالإنسان والمجتمع ، وإقام تشريعات تختلف مع إختلاف الزمان والمكان وتشريعات لا تختلف ، وأعطى الإسلام تفاصيل دقيقة بحيث لا تحتاج إلى المزيد فمسألة المال والمرأة ، أعطى الإسلام فيها تفاصيل دقيقة جداً باعتبار أن المال والمرأة كانا مشكلتين على مر التاريخ يسببان الكثير من الأضطرابات . وفى الميراث أعطى الإسلام تفاصيل دقيقة للغاية وفى نظام الحكم أتى الإسلام بالمبادى العامة (دكتور خيرى عيسى) .

سابعاً : تختلف الشريعه عن القانون الوضعى فى أمور كثيره : أهمها الصدق والوضوح أن القانون الوضعي قدوضع عقابا على عدم الصدق ولكن الله تبارك وتعالى

جعل ضابط الصدق منه هـــو (لا يوجد صادق مع الله وكاذب مع الناس) لأن المسلم يعلم أن الله مطلع عليه (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) فأهم أساس فى الحكم والسياسة فى الإسلام هو الصدق من الرعية . بمعنى وضع الأمور على ما هى عليه أمامهم فى العصر الحديث ، فى الإسلام أهل الحـــل والعقد ، أهل الفكر والفتوى وأهل الذكر الذين يسمفرنك بالحل وقت اللزوم .

ولذلك كان الصحابة يركزون دائما على مسئولية الراعى من رعيته ويعطون الرعايه مفهوما عاما (للأسرة راع وللقرية راع ورئيس الدولة راع) فالإسلام يشيع فكرة الرعاية ، السياسة بمعنى تولى الأمور مع الالتزام بقيم معينة ومبادىء ترعى ويسال عنها حيث يضع الإسلام طرقا سلمية هادئة لتصحيح مسار أى راع ينحرف عن الطريق السوى ، كما الغى الإسلام الامتياز : الامتياز الذى أعطاه الحكم هو السلطان .

وأهم أساس للرعية بعد الصدق هو الحق . فالحق هو جعل الصدق يسود أمور الحياة بحث يصل لكل إنسان ما يستحقه على قدر مافرض له ما اتفق عليه ، أن مفهوم « الحق » فى الإسلام يختلف عن المفهوم « البرجماتى » وترتبط بالنتيجة والنفع ، الإسلام عنده هو الإنسان أولا يقيس العمل بالنتيجة وينظر للإنسان قبل كل شىء والنية تدخل فى مقياس الحقيقة وفكرة « الحق » فى الإسلام ترجمت فى نظمنا السياسية بفكرة « العدل » أن العدل يعنى التساوى ، وفى الإسلام فهو عدل نوعى كيفى ، وليس عدلا كميا ، فقد يكون التساوى فى بعض الأمور تجاوزاً للعدل ، العدل فى الإسلام هو إعطاء كل شىء حقه . الناس سواسية ، إذا صلح الفود صلح المجتمع وبالجملة فإن أساس الحكم فى الإسلام : الصدق ، الحق ، العدل « دكتور عبد الفتاح بركة » .

ثامنا : أن القانون الوضعى يعقد المشاكل ولا يضع لهـــا حلولا حاسمة ، أن القوانين الوضعية فجرت للمجتمع من المشاكل ما هو غنى عنها ، وذلك يرجع إلى طبيعة القانون الوضعى وما يترتب من آثار على تطبيقه وتحليله ، يقول دكتور محمد رشدى حمادى (رئيس محكمة أمن الدولة العليا) لقد كنت طوال عملى أحاول جاهدا أن أصل إلى اليقين فى أى قضية إتناولها ولكنى رغم ذلك لاحظت

أن القوانين الوضعية لا تنتهى مشكلة إلا لتبدأ مشاكل أخرى مما يزيد الأمر تعقداً وتضطرب الحياة معها أكثر وأكثر ، ويرجع هذا إلى أن القوانين الوضعية وجدت أساسا نتيجه وجود إختلال فى المجتمع الإسلامى وجعلته هى بدورها يعيش مشكلات متلاحقه لاتكاد تنتهى مشكلة حتى تولد أخرى أكثر تعقيداً. ورغبة فى حل هذه المشاكل وتحقيقا لراحة المجتمع وأمنه وأستقراره لابد من البدء فى تطبيق أحكام الشريعة الإسلاميه - أن القوانين الوضيعة زادت من نسبة الثأر فاهل القتيل يتركون القاتل الحقيق ويتهمون غيره ليبقى القاتل الحقيقى خارج أسوار السجن فيسهل عليهم الثأر منه وهكذا يتبادل الطرفان الانتقام وتزداد الأمور تعقيدا لتشمل إفرادا وأسراً بل وقبائل أخرى باكملها والسبب قصور القوانين الوضعية فى معالجتها لقضة الثأر بل إنها أوجدت بعداً أخر زاد الأمور تعقيداً فقانون الأحداث أصبح وكراً للجريمة حيث يعمد أهل القتيل إلى حدث يرتكب جريمة القتل للثأر ثم يوضع بعد ذلك فى مؤسسة لرعاية الأحداث حيث يتولد خلال ذلك دوافع أخرى لممارسة هواية الأخذ بالثأر . أن علاج قضة الثأر تكمن وبلا منازع فى قول الله تعالى :

« ولكم فى القصاص حياة »

وهو علاج يصلح لكل المجتمعات سواء أكانت بدائية أم متحضرة ويكفى أن إفراد المجتمع سينعمون بالأمن والاستقرار بمجرد تطبيق أحكام القصاص .

تاسعاً : الإسلام يدرأ الحدود بالشبهات والحدود تطهر المجتمع من الفاحشه والشريعة الإسلامية ذات طبيعة وقائية ، تحول دون وقوع الجريمة ، بينما القانون الوضعى عقوبة على ما يقع وأحكام البشر صادره عن علم محدود وعن بصر محدود وعن سمع محدود . وأحكام العباد يعتريها فى الأعم الأغلب النقض والقصور والباطل والضلال ولم تفلح العقوبه الوضعية فى إقتلاع الجريمة ، فهى تتفاقم يوما بعد يوم وتشكل خطراً يهدد أمن المجتمع ، وقد ثبت فشل العقوبه الوضعية لجريمة السرقة .

وبالجملة فلاوجه للمقارنة بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي .

الفصل الثالث

عقبات فى طريق تطبيق الشريعة

عندما جاء الدستور المصرى ونص على أن الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريعة كان ذلك أيذانا ببدء مرحلة جديدة فى إرساء القيم الإسلامية بالمجتمع المصرى لا بمجرد تعديل فى نصوص القانون أو فى صياغتها بما يتفق مع الشريعة الإسلامية السمحة ، ذلك أن التشريع لابد أن يرتكز على نظام اجتماعى يسمح به ويؤدى إليه باعتبار أن القانون هو مولود اجتماعى يستمد أصوله من المجتمع الذى نبع فيه ، هكذا يصور الدكتور أحمد فتحى سرور هذه المرحلة الجديده ذلك أن تطبيق الشريعة الإسلامية من شأنه أن يؤثر فى المجتمع ويعمق فيه القيم الإسلامية الصحيحة حتى يكون التشريع الإسلامى نبتا طبيعيا صادراً من مجتمع إسلامى صحيح لا نبتا غريبا فى مجتمع من الإسلام. أن النص فى الدستور على أن الشريعة الإسلامية هى مصدر التشريع هى علامة البدء فى تحويل المجتمع من مجتمع تسوده القيم الغربية الوافدة إلى مجتمع تسوده القيم الإسلامية لأن هذه القيم هى التربة الصالحة لغرس التشريع الإسلامى فيه ، أن مصر بتاريخها وحضارتها التى هزت الدنيا كلها لا يمكن أن تكون عالة فى تشريعها على بلد أجنى لذلك يجب ترسيخ القيم الإسلامية من الآن حتى يكون لدينا المجتمع الإسلامى الذى يتقبل تطبيق هذه القوانين .

لقد صدر التعديل للدستور سنة ١٩٨٠ لكى يؤكد الذاتية الثقافية المصريه النابعة من الحضارة الإسلامية .

ولكنا نجد الآن أن هناك عقبات يحاول البعض أن يضعها فى طريق تطبيق الشريعة . من هذه ... مجموعة من العلمانيين الذين يحاولون تشويه تفسير الشريعة والأحكام والاعتماد على نصوص منتزعة من أصولها لتشبيط الوجهة وتأخير

النهضة ، وهولاء هم العلمانيون ... بد الرازق ، والذين لا يومنون بأن الإسلام دين ودولة والذين يؤمـ ... ح الإسلام ويدعون إلى أنه دين روحى ولا هوتى ، وذلك لفتح أبو ... يةفى مجال القوانين السياسة والاجتماعية والاقتصادية .

وهناك دعوى التدرج فى التطبيق ، وقد أجمع الباحثون والعلماء على أنه لم يقع تدرج فى تطبيق الشريعة الإسلامية إلا الخمر ، وثبت فى الأخير حرمتها بالنص ، وأن دعوى التدرج تخالف كال الشريعة :

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » .

وقد مضى على الشريعة — كما يقول الدكتور جمال المرصفاوى ـ أربعة عشر قرنا فكيف يقال بالتدرج مع أن دساتير العالم تحدد ميعاداً لتنفيذها فور أكمالها وإعلانها ويسرى حكمها على الكافه دون تدرج فلم يحتج بهذا فقط فى الشريعة الإسلامية .

ويقول الدكتور محمد رشدى حمادى : أن أصحاب الدعوة إلى التريث قـــوم يحكمون أهوائهم فى الوقت الذى تنادى فيه أحكام الشريعة وتعاليم الإسلام بضرورة التجرد من الأهواء .

وهناك دعوى تهيئة المجتمع الإسلامى بالكامل . وهى دعوى واهية ـ كما يقول الدكتور المرصفاوى ـ لأن أى مجتمع لابد من وجود الجرائم فيه وقد بدات الجريمة منذ قديم الازل حين قتل قابيل أخاه هابيل وفى عهد الرسول نفسه تقع الجرائم وتقاد الحدود ، وكانت سببا فى ندرة الجرائم ثم أننا نتساءل بأى شىء توجدون ذلك المجتمع الإسلامى مع أن ذلك لا يكون الابتطبيق تعاليم الإسلام

وهناك دعوى رابعة : وهى أن المجتمع فقير ، وهى دعوى مرفوضة ، لأن التشريع جعل ضوابط محددة فى توقيع العقوبه ، فمثلا السارق لا تقطع يده إلا بشروط توافر المطعم والمشرب والملبس وأن يكون المال محرزا وغير ذلك من الشروط الدقيقة التى إذا تخلف منها شرط سقط الحـــد بالشبهة ووجبت له عقوبة تعزير .

وهناك دعوى خامسة هي وجوب إعداد جيل من القضاة مدربون على الحكم بالشريعة الإسلامى وهى — كما يقول الدكتور المرصفاوى — دعوة مردودة لأن القضاة المصرين خاضوا تجربة سنة ١٩٤٧ المتعلقة بتطبيق الشريعة الإسلامية حين الغيت المجالس الحسبية وأحيل إختصاصها إلى المحاكم الشرعية ونجحوا فى هذه التجربة ، كذلك فى سنة ١٩٥٥ حينما الغيت المحاكم الشرعية والمجالس الملية وأحيل الاختصاص إلى المحاكم العادية فقد قام القضاة فى المحاكم العاديه بتطبيق نصوص الشريعة الإسلامية ونصوص الطوائف المليه دون أى عناء والمساله تحتاج فقط إلى صياغة للنصوص الشرعية بوضوح وكذا المذكرات التفسيرية التى يجب أن تكون سهلة وأضحة .

الفصل الرابع

مؤامرة تطوير الإسلام

منذ عقد مؤتمر برنستون صيف ١٩٥٣ الذى شهده عدد كبير من الأسماء اللامعة فى اندونيسيا والهند والباكستان وإيران والعراق وسوريا ومصر ولبنان لم ينقطع الكلام عن ما أطلق عليه مؤامرة تطوير الإسلام : فقد أعد هذا المؤتمر مجموعة من المستشرقين محترفى التبشير ومن المخططين الذين رسموا خطة طويلة المدى لتغيير معالم الإسلام بالتشكيك فى أسس العقيدة الإسلامية كالايمان بالوحى والإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق القرآن الذى إنزل عليه .

الدعوة المسمومة إلى تطوير القيم والعقيدة والأخلاق قام بها مخططون وعقدت لها مؤتمرات وجند لها كتاب لامعون ! !

وكان أحدث ما يتصل بتطور خطوات هذا العمل مؤتمر التخلف الحضارى الذى عقد فى الكويت ١٩٧٤ ومنها مؤتمرات أخرى استهدفت تزييف التاريخ الإسلامى أو تنصير المسلمين أو غيرها من المخططات المرتبطة كلها بالهدف الأساسى الذى تآمرت عليه القوى المتجمعة للسيطرة على عالم الإسلام والتى خططت منذ وقت بعيد من أجل « تفريغ » المسلمين ومجتمعهم من الإسلام الحقيقى وفرض إسلام خاضع للفكر الغربى العالمى . وقد عمدت هذه القوى إلى احتضان البهائية والقاديانية لضرب الإسلام من الداخل وتحقيق أهدافها المسمومة .

لقد نبتت منذ وقت بعيد قضية (تفريغ الإسلام من مفاهيمه الصحيحة) تحت اسم (التطور والمعاصرة والتحديث) ومحاصرته لتضييق دائرة نفوذه وقصرها على شؤون العبادات والغائها للمعاملات التى يقوم عليها تنظيم المجتمع فلما تحقق فى العقود الأخيرة تصميم البلاد الإسلامية على إعادة تطبيق الشريعة الإسلامية بعد أن توقفت أكثر من مائة عام وحل محلها القانون الوضعى تفتق

الذهن التبشيري الاستشراقي عن فكرة (تطوير الإسلام) وتوسعت الكتابات المؤيدة لتلك الخطط حول تطوير الدين وتطوير الشريعة وتطوير اللغة وتطوير التاريخ وهي كلها محاولات لضرب القواعد الأساسية الثابتة التي إقامها الفكر الإسلامي من خلال مفهومة الأصيل الواضح :

الثوابت والمتغيرات .

وهي القاعدة التي ازاحتها الحضارة الغربية المعاصرة من طريقها حين نقلت ثمرات الفكر الإسلامي في عصر النهضة وقبلت (المنهج العلمي التجريبي الإسلامي) ثم فرغته من قاعدته الأساسية القائمة على ترابط العقل والقلب والروح والمادة وماقرره الإسلام من قيم ثابتة لا تتغير مهما تغيرت العصور والبيئات : وهي قيم الحق والعدل والخير والرحمة الاخاء البشري وكيف وضع الإسلام قاعدة حركة المتغيرات داخل دائرة الثوابت .

وكان (ديكارت) ومن جاء بعده هم الذين فصلوا بين المعنويات والماديات وازاحوا مفهوم (اخلاقية العلم والحضارة والمجتمع) على النحو الذي يعرفه جميع الباحثين والذي أشار إليه الأخ المسلم الأستاذ (رجاء جارودي) في مختلف ابحاثه وقال أنه هو مصدر الحيرة والأزمة الشديدة في الفكر الغربي الحديث وقد ظل يبحث عن حل لهـــذا أكثر من ثلاثين عاما حتى إهتدى إليه بمفهوم الأسلام الجامع .

وقد تفتق ذهن المتآمرين خصوم الإسلام عن هذه الفكرة : (فكرة تطوير الإسلام) وتوسعوا في دراستها فمنهم من تكلم عن إعادة النظر في الدين وتطويره (والدين في الغرب بمعنى اللاهوت أو العبادات) ومنهم من طالب بوضع تجربة الدين وتجربة النبوة والمعجزات والصلاة والحياة الآخرة موضع البحث واخضاعها لقواعد علم النفس الحديثة التي تقوم على (الحدس) والتي تخضع نفسها للتغيير والتبديل والتي تحاول أن تجعل من الدين مسالة ذوقية وهمية ليس لها وجود حقيقي في خارج نفس صاحبها الذي يتذوقها كما أشار إلى ذلك الأستاذ (مهلر بروز) في بحثه المعروف بل لقد تطاول هذا الباحث وتحدث عن أسلوب الله تبارك وتعالى في العمل .

وهناك الجهود المبذولة لتطوير الشريعة الإسلامية بحيث تصبح إداة لتبرير القيم الغربية وقبول الواقع الغربى المنحرف والفاسد والمسموم الذى تمر به الحضارة العالمية اليوم وملك الأزمات والتمزق النفسى ويرغب أصحاب هذه الجهود فى احتواء المسلمين دخل دائرة الفكر الغربى المغلقة ودائرة الحضارةالغربية والأستسلام لها والأنصهار فيها بحيث تزول عنهم ذاتيتهم الخاصة وطابعهم المفرد الذى صبغهم به الإسلام ودعاهم إلى المحافظة عليه والدفاع عنه ووضعه موضع قداسة العقيدة نفسها حتى ليضحى المسلم بنفسه إذا كان ذلك بديلا لزوال ذاتيته . وهم بذلك الاصرار الذى يرددونه جميعا أنما يريدون أن يزيلوا ثوابت الشريعة الإسلامية وأحكامها الرادعة على للفاسقين والسارقين والمجرمين ويتأولوا الأوضاع القائمة دون أن يوائموا هذه المجتمعات مع شريعة الله .

ولقد دعت هذه المؤتمرات صراحة ودون مواربة إلى ماسمته « تطوير القيم » وكان من أهم توصيات مؤتمر أزمة التطور الحضارى عام ١٩٧٤ مانص عليه على الوجه الآتى :

« أهمية تطوير القيم وإنماط السلوك الايجابية والمؤثرة فى صنع التقدم والأهتمام بالثقافات الشعبية » .

ويهدف (تطوير القيم) إلى ازالة مختلف الأحكام الخاصة بالأخلاق والفضيلة وحماية العرض والبكارة وحماية مهمة المرأة الأساسية فى بناء الأسرة ورعاية البيت وتربية الطفل وادخال القيم الغربية فى الأخلاق وهى القيم التى تسخر من العرض والتى تندفع وراء صديق العائلة وتبادل الزوجات واختلاط الأعراض ، ولا ريب أن قضية المراة المسلمة من كبريات القضايا التى أولاها الأهتمام جماعة المستشرقين والمبشرين بهدف هدم البيت الإسلامى من الداخل وتفريغه من الأيمان والعبادات وخلق أجيال منحرفة منهارة ممزقة حتى يسهل السيطرة على هذه المجتمات واحتواؤها فى العقود القادمة وبعد ذلك سخرت بالحجاب

والنقاب وتعدد الزوجات ، هذا ع على تطبيق أوضاع من الأحوال الشخصية المدمرة مخالفة لكتاب الله أو تمده على نصوص غير جامعة .

وإذا كان كرومر منذ عام ١٨٩٢ قد وضع هذه الخطة للتغريب حين قال : (الإسلام بطبيعته العالمية عدو للحضارة الأوربية والمسلم غير المتخلق بأخلاق الأوربيين لا يقوى على حكم مصر فى هذه الأيام لذلك سيكون المستقبل للمتربين تربية أوربية ، سنرحل عن مصر على أن تحكم بأيد مصرية وعقول بريطانية) .

ومن ثم بدأت تلك الخطة التى ترمى إلى العمل لإعداد أجيال تابعة ، غير أن اليقظة الإسلامية ما لبثت أن حطمت هذه الخطة وفتحت الطريق أمام الأصالة الإسلامية ، وكانت الهزيمة والنكبة والنكسة سنوات (١٩٤٨ — ١٩٦٧) كلها دلائل واضحة أمام المسلمين والعرب على أن الطريق الذى سلكوه فى التبعية لا يؤدى ، وأنه لابد من التماس المنهج الربانى الأصيل والتماس أسلوب العيش الإسلامى الأصيل . فلكل أمة منهجها وأسلوبها ، ولكن القوى الخارجية المسيطرة ما تزال تعمل على أن يتحول العرب والمسلمون عن أخلاقهم وقيمهم إلى أخلاق وقيم وافدة لا تتفق مع ميراثهم ولا عقيدتهم ولا تاريخهم الذى عاشوه أربعة عشر قرنا . .

ولكن ليس معنى هـــذا أن الفكر الإسلامى فكر مغلق ، أو متعصب أو جامد . أنه فكر ربانى المصدر قام على أسس واضحة جامعة متكاملة ، وله مرونته الوافرة ، وقدرته على الأخذ والعطاء ، والتعامل مـــع متغيرات المجتمعات والعصور ، شريطة المحافظة على قيمه الأساسية التى لا يقبل صدعها أو تشويهها ، وهو بحكم مفهومه الأصيل فى الثوابت والمتغيرات قادر على الإفادة من التنظيمات والأساليب والوسائل الحديثة جميعا شريطة أن ينقلها إلى دائرته على أنها (مواد خام) يشكلها فى كيانه ويصهرها فى وجوده دون أن يقبل تنظيمات أو أيديولوجيات ، وأساسه الأول هو المحافظة على التوحيد والإيمان وأخلاقية الحياة والحضارة ، وعلى هذا النحو يستطيع المسلمون صنع

التقدم ويقبلون من الحضارة ... ... يشكلون ذلك وفق مفاهيم الإسلام : القائمة على العدل و ... البشرى .

أما تطوير القيم بمعناه ... ... كتابات دور كايم وفرويد وماركس والقول بأن التطور مطلق والأ... ... وليست ثابتة وأن القيم تتغير بتغير الزمان فهذا ما لا يقره الإسلام مهما دعا إليه الدعاة ذوو الأسماء اللامعة . أن الإسلام كما يقول المستشار ... البهنساوى : يحكم السلوك فى القول والمعاملات وأن الأخلاق قيم ثابتة لا تنفصل عن الدين ولا تتغير مع الزمن فهى لا تخضع للتغيير والتطوير أما التى تخضع للتغيير فهى العادات والتقاليد لأنها من صنع المجتمع كذلك فإن الذى يخضع للتطوير والتغيير هو الصناعة والمهارة ، أما القيم الإسلامية (من اجتماعية وأخلاقية) فأنها لا تتغير بتغير الزمان أو المكان ومن أمثال ذلك الكذب والفحش والسرقة والدنس والانحراف فكل هذه رذائل منذ أول يوم فى هذه الحياة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . .

أن النفس الإنسانية لا تتغير ، ولكن الذى يتغير هى وسائل الحياة والمعاش ، أن القول بأن القيم الدينية والأخلاقية تتطور أو تتغير مع الزمن من شأنه أن يجعل الدين مرتبطا بالعصر ويكون تابعا لمدنيته ، ولقد جاء الإسلام ليحطم كل ذلك ويحرر الناس من هذه التبعية . .

أن المناداة بتطوير القيم وربطها بعادات الناس وميولهم من شأنه أن يجعل الإسلام ماركسيا ، أو أن يكون لدعاة الجنس واللذة إسلام يجعل ممارسة هذا اللون تسبيحا لقدرة الله تبارك وتعالى واعترافا بجمال الخالق كما يزعم بعض دعاة هذه المذاهب اليوم ، ومن شأن هذه الدعوة أن تحطم عقيدة الإسلام ، هذا ما نصح به كرومر ... فى كتابه « بريطانيا العظمى فى مصر » حين قال :

« فإذا أمكن للمبادىء الإسلامية أن تتطور مع الزمن المتطور عند ذلك سوف يتحرر ملايين البشر من هذه العقائد » .

وهذه الدعوى ما تزال تملأ قلوب وعقول دعاة الاستشراق والشعوبية

والتغريب يخفونها أو يبدون قليلا منها ولكنهم يؤمنون بأن هذه مهمة لهم لابد أن يعملوا لها ، وعلينا نحن أن نعرف الأهداف ونكشف المخططات .

وإذا كانت مؤامرة التطوير لا تتوقف عند ميدان واحد من ميادين الثقافة والفكر والمجتمع — وتحظى قضية المرأة منها بالحظ الوافر — فإن تلك الدعوة إلى بعث التاريخ القديم هدف أصيل كما أشارت مقررات مؤتمر الكويت فأن هناك عناية مبذولة إلى إحياء الفولكلور وبعث التاريخ القديم السابق الإسلام وهناك جهود مشتركة بين الأثريين في سبيل اذاعة أخبار يومية متجددة حول الأصنام والقبور وأموال ضخمة تنفق على علماء الآثار ليعيدوا الناس مرة أخرى إلى الفرعونية والفينيقية والبابلية والآشورية مع أن أشد علماء التاريخ تعصبا أعلنوا بما لا يقبل الشك أن الإسلام قد أوجد (أنقطاعا حضاريا) وتاريخيا بين عصره وماسبقه من العصور وإن إعادة الحياة إلى هذا التاريخ مستحيلة لأنه لا يملك لغة ولا ثقافة ولا تراثا ماعدا الأهواء والأحقاد التي تملأ بعض الصدور ، والهدف معروف وهو محاولة أعادة الأمم الإسلامية إلى أصولها الأولى السابقة الإسلام بما يقضى على روح الوحدة الإسلامية ويمكن لهذه الأمم أن تخضع لنفوذ الحضارة الغربية والفكر الأممي ، وإن تنصهر فيه ويزول تميزها وتذهب ذاتيتها ويرتبط بهذا إعلاء التراث الوثني القديم في الوقت الذي تجري فيه السخرية بالتاريخ الإسلامي الباذخ وما الحديث عن جلجاميش وادونيس وتموز وغيرها من أساطير في الشعر الحديث إلا واحدة من هذه المحاولات الماكرة .

أن هذه العبارات التي تجري على السنة بعض الكتاب اليوم إنما هي منقولة من كتابات البهائيين والقاديانيين وهي محاولة لتجديد فكرهم لضرب الإسلام من الداخل ولن يستطيع هؤلاء الدعاة أن يجدوا متقبلا لما يقولون به أو ينشرونه مادام يعارض أساسا حقيقيا من أسس الإسلام : في أصول العقدة أو في عبادة الحضارة الوثنية المادية الاباحية أو الدعوة إلى الجنس ، ومن العجب أن يحمل لواء القضايا الفكرية جماعة من القصاصين عاشوا حياتهم كلها في مجال محدود ولم تتيسر لهم دراسة الفكر الإسلامي بحيث تكون لهم مقدرة حقيقية على أن يقولوا فيه كلمة جادة أو صادقة يسمع لها ويقتنع بها الناس وهم محجوبون عن الناس

لأنهم لم يقدموا طوال حياتهم إلا مواد التسلية وتزجية الفراغ وماعهدهم أحد موجهين أم قائمين بكلمه خالصة يريدون بها وجه الله فمقياس القمم الشوامخ مقياس باطل لأن الأبطال الحقيقيين لا تعنى بهم الصحافة عنايتها بسيد دوريش وإبراهيم ناجى وعبد الحليم حافظ أن ظاهرة سيطرة القصاصيين على الحياة الفكرية الحديثة مع أنهم لا يملكون ادوات الفهم والاستيعاب للفكر الإسلامى أو العالمى أمر جد خطير .

أحكام قضائية على أسس الشريعة الإسلامية

أصدر الاستاذ محمد محمد تمام رئيس محكمة السويس الجزئية حكما فى القضية رقم ٨ سنة ١٩٨٠ جنح أثبت فيه أن القوانين الوضعيه المعمول بها فى مصر والمخالفة للشريعة الإسلامية باطله بطلانا يحدر بها إلى درجة الانعدام من الناحيتين الشرعية والقانونية . جاء فى الحكم ما يلى :

وحيث أنه يلزم القول بدائه أن القوانين الوضعيه المعمول بها فى مصر والمخالفة للشريعة الإسلاميه باطله بطلانا ينحدر بها إلى درجة الانعدام من الناحيتين الشرعية والقانونية .

أولا : من الناحية الشرعية فأن تلك القوانين المخالفة لاحكام الشريعة باطلة بطلاناً مطلقاً وهى والعدم صنوان ويجب على جميع المسلمين فى جميع مواقعهم سواء أكانوا من رجال السطة القضائية ، أم من رجال السلطتين التشريعه والتنفيذية أم من أفراد الناس العاديين أن يمتنعوا عن تطبيق وتنفيذ أو إحترام كل حكم وضعى يخالف أحكام الشريعة الإسلامية والادلة على ذلك مستمدة من نصوص القرآن الكريم والسنه الشريفة ثم من الاجماع وهى المصادر الأولى للتشريع الإسلامى .

لقد أمر الله سبحانه بالحكم طبقاً لما إنزل وجعل من لم يحكم طبقاً لذلك ، كافرا أو فاسداً أو ظالما (وإن أحكم بينهم بما إنزل الله) المائدة (أنا إنز لنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما إراك الله) النساء ، بل أنه لاخيار للمسلم أمام ما أختاره الله ورسوله ولا رضاء له إلا عما يرضى الله ورسوله (فلا وربك لا يؤ... حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا عما قضيت ويسلموا تسليما) .

وقد قطعت نصوص القرآن الكريم بوجوب إتباع الشريعة الإسلامية أو مبادئها العامة أوروحها التشريعية صراحة أو ضمنا فلا يجوز للمسلمين أن يتخذوا غير شريعة الله قانونا وكل إتباع لغير قانون الله إتباع للهوى (فأن لم يستجيبوا لك فاعلم إنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن أتبع هواه بغير هدى الله)، (ثم جعلناك له على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع إهواء الذين لا يعلمون).

بل أن وأجب التحاكم إلى الشريعة الإسلامية وعدم التحاكم إلى القوانين الوضعية - بل فى مخالفتها وعدم الرضا بها والكفر باحكامها - وأجب على المسلمين كافة، فيجب على آحاد الناس أن يطلبوا من القضاة ومن أولى الأمر تحكيم الشريعة الإسلامية فيما يطرحونه من منازعات وإن يرفضوا تحكيم القوانين الوضعية المخالفة للشريعة الإسلامية.

والقول بأن الله تعالى أمر بطاعة أولى الأمر وعلى ذلك فيجب علينا طاعة: القوانين التى يضعونها وإن الحكام وحدهم هم المسئولون عن تلك القوانين المخالفة للشريعة الإسلامية أمام الله سبحانه وتعالى: فهذا القول لا يستند إلى سند شرعى أو عقلى أو منطقى فالآية الكريمة قد أوجبت طاعة الله وطاعة الرسول أساسا.

أما طاعة أولى الأمر فانها لا يكون إلا إذا كانت أوامرهم موافقة لاوامر الله وأوامر الرسول (يا أيها الذين أمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول أن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تاويلا).

ومن هنا فإن طاعة أولى الأمر لا يكون إلا إذا كانت أوامرهم موافقة. لاوامر الرسول، وبهذا قال رسول الله (لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق).

وقد إنعقد إجماع الأمة الإسلامية على أنه لا طاعة لاولى الأمر فى غير حدود ما إنزل الله وعلى أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق وقد سار على ذلك الخلفاء

الرشدون فى خطبهم وفى سلوكهم ، إذن فالشريعة الإسلامية هى قانون الدولة الإسلامية الأعلى والأساسى (دستورها) فما وافقها من قوانين وضعيه صحح وأجب الإعمال وما خالفها باطل وآجب العصيان ، فالشريعة الإسلامية قد إنزلها الله سبحانه ليعمل بها فى كل مكان وزمان ولا يمكن أن تلغى أو تنسخ لأن القاعدة الأساسية فى الشريعة الإسلامية (وفى القوانين الوضعية) أن النصوص لا تنسخ الا بنصوص من مثل قوتها أو أقوى منها ، أى من نفس الشارع أو ممن له سلطان يشريعى أعلى ممن إصدر النصوص المراد نسخها وما بين أيدينا من كتاب وسنه لا يمكن أن ينسخ بعد أن أنقطع الوحى وأختار رسول الله الرفيق إلا على ، وليس لأولى الأمر فى ظل الشريعة الإسلامية حق التشريع إلا سن التشريعات التنفذية التى تستهدف ضمان تفيذ أحكام الشريعة الإسلامية وذلك على أساس مبادىء الشريعة الإسلامية وروحها التشريعية وفى حدود ما سكتت عنه الشريعة ولم ترد بشأنه نصوص خاصة - ويقول القاضى العظيم الأستاذ عبد القادر عوده أنه (من المتفق عليه أن من يستحدث من المسلمين أحكا ما غير ما إنزل الله ويترك بالحكم بها كل أو بعض ما إنزل الله من غير تأويل يعتقد صحته فأنه يصدق عليهم ما قال الله تعالى كل بحسب حالة . فمن أعرض عن الحكم بحد السرقه أو القذف أو الزنا لأنه يفضل غيره من أوضاع البشر فهو كافر قطعاً ، ومن لم يحكم به لعلة أخرى غير الجحود والنكران فهو ظالم أن كان فى حكمة مضيعاً لحق أو تاركا لعدل أو ومساواة والا فهو فاسق) .

(الاسلام وأوضاعنا القانونية للأستاذ عبد القادر عودة)

وفى صدد التدليل على بطلان القوانين الوضعية فأنه يلزم بداءه بحث ما إذا كان هناك سند شرعى يقوم عليه تطبيق القوانين الوضعية أصلا فى مصر (وفى غيرها من البلاد الإسلامية) وذلك منذ أن بدأ تطبيق القوانين الوضعية وذلك يقتضى بحث الكيفية التى دخلت بها تلك القوانين إلى مصر فقد بدأ دخول تلك القوانين فى عهد محمد على الذى إستجلب إلى مصر بعض القوانين التجارية والحربية (المحدوده) وفى عهد الخديو إسماعيل ثم إنشاء المحاكم القنصلية على أثر توسع الأمتيازات الأجنبة فى مصر بسبب إزمه الديون .

وكانت لهذه المحاكم سلطة الحكم فيما يرتكبه رعايا الدول الأجنبية المستحقة بتلك الامتيازات من جرائم على المواطنين المصريين ، وكذلك سلطة الفصل فى القضية .

وعندما وجدت المحاكم المختلطة كان أغلب قضاتها من الأجانب وطبقت فى هذه المحاكم القوانين الفرنسية منذ سنة ١٨٧٢ وبدلا من خضوع الأجانب لقوانين مصر (الشريعة الإسلامية) خضع المصريون للمحاكم المختلطة التى استطال خطرها إلى السلطة التشريعية إذ كان من حق الدولة المستحقة بالامتيازات الأجنبية ألا يسرى عليها ماتسنه مصر من التشريعات إلا بعد موافقة جمعية عامة لقضاة المحاكم المختلطة وبعد عام وأحد من أحتلال الانجليز لمصر وبعد سبع سنوات من إستيراد القوانين الفرنسيه وتطبيقها فى المحاكم المختلطة عمم الانجليز تطبيق القوانين الفرنسيه فى انحاء مصر وقصروا تطبيق الشريعة الإسلامية فى المحاكم الشرعية بعد أن حددوا اختصاصها (بالأحوال الشخصية) أما ما عداها فقد أصبحت تختص بها محاكم سميت بالمحاكم الأهلية التى أصبحت تطبق القوانين الفرنسية التى كانت تطبقها المحاكم المختلطة وأصبح المصريون جميعاً خاضعين لهذة المحاكم وأصبح فى مصر انفصال غريب وخطير بين ما يسمى بالقضاء الشرعى وما يسمى القضاء الأهلى ، كل منهما يطبق شريعة مختلفا تماما عن الآخر ونسى الناس نوع الشريعة التى تطبقها تلك المحاكم وأنها منافية للشريعة الإسلامية والدين الإسلامى وسار الأمر على ذلك ونشأت فى مصر أجيال من المثقفين ، ثقافة قانونية أجنبية (فرنسية) قائمة بتلك الثقافه وجاهلة تماما أو شبه جاهلة بأحكام الشريعة الإسلامية وتحولت المحاكم الأهلية إلى محاكمنا هذه ونحيت الشريعة الإسلامية واستقرت الأوضاع الجديده وأصبحت مألوفة للناس الذين ماعادوا ينكرونها أو يعملون على تغييرها وسارت الأمور على هذا النحو حتى يومنا هذا ويلزم القول أنه لا يوجد سند شرعى لتطبيق القوانين الوضعيه ، فى مصر ، ذلك أنه أولا لم يسبق إستجلاب القوانين الوضعية وتطبيقها فى مصر إستفتاء الشعب أو أخذ رأيه أو موافقته على ذلك ، رغم أن موافقة شعب مصر على تنحية الشريعة الإسلامية واحلال القوانين الوضعية محلها أمر غير جائز شرعا وقد ادخلت تلك القوانين إلى مصر بناء

على امر حاكم غافل مستبد لا سند لها من الشرعية القانونية وبما أن الدستور المصري المعمول به (دستور ١٩٧١) لا يوجد به نص يوجب أو يجيز تطبيق القوانين الوضعيه المخالفة للشريعة الإسلامية وذلك حتى قبل التعديل الأخير (أضافة مادة الشريعة الإسلامية مصدراً للقوانين) حتى ولو أفترضنا خلوه من النصوص التي توجب تطبيق الشريعة الإسلامية ، وتفصيل ذلك أنه باستقراء أحكام الدستور تبين أنه قد ناط بصفه أساسية وظيفة التشريع بالسلطة التشريعية ولم يرد بين نصوص الدستور ما يوجب أو يجيز لمجلس الشعب أن يسن قانونا مخالفا للشريعة الإسلامية والنص سالف الذكر لا يتضمن مخالفة الشريعة الإسلامية فقد أعطت الشريعة الإسلامية لأولى الأمر حق للتشريع إلا أنها لم تعطهم هذا الحق مطلقا من كل قيد فحق أولى الأمر في التشريع مقيد بأن يكون ما يضعونه من تشريعات متفقا مع نصوص الشريعة ومبادئها العامة وروحها التشريعيه وتقيين حقهم في التشريع على هذا الوجه يجعل حقهم مقصوراً على نوعين من الشريعة (١) تشريعات تنفيذية (٢) تشريعات تنظيمية على أساس مبادىء الشريعة الإسلامية فيما لم يأت منه نصوص خاصه ويشترط في هذا النوع من التشريعات أن يكون قبل كل شيء متفقا مع مبادىء الشريعة العامة وروحها التشريعية وعلى ذلك فإن النص الدستورى المشار إليه وجميع نصوص الدستور ليس فيها ما يعد سنداً شرعيا لتطبيق القوانين الوضعيه المطبقة في مصر لا يقوم على أى سند من الشرعية وإنما يستند إلى الثبات الواقعي وأعتياد الناس عليها والفهم لها وإستمرار تطبيقها لزمن طويل وغفلة الناس عن مخالفة تلك القوانين الإسلام بل وأكثر من ذلك فإن الدستور المصرى المعمول به لا يقف عند حد تقديم السند الشرعي للقوانين الوضعية وإنما يبطلها ويقوض أساسها ويهدم كل قيمة لها . فأولا وردت عدة نصوص في الدستور توجب إحترام ومراعاة أحكام الشريعة الإسلامية ، منها الأسرة أساس المجتمع وتكفل الدولة التوفيق بين وجبات المراة نحو الأسره وعملها في المجتمع ولاشك أن نص الدستور بان (الإسلام دين الدولة) كاف في حد ذاته لابطال القوانين الوضعية المخالفة للشريعة الإسلامية ، ذلك بأن الدولة باعتبارها كائن معنوى لا يتصور أن يكون لهـــا دين وإنما مفاد هذا النص أن الاسلام هو دين الغالبية الساحقه المصرين ، ولما كان الاسلام شريعة وعقيده،

الأمر الذى أكده الدستور باعتبارة مصدراً للتشريع فأنه يجب أن يستمد قوانين الدوله من الشريعة الاسلامية وأن تكون جميع القوانين المعمول بها فى الدوله متفقة وأحكامها وإن جميع القوانين المخالفة لها باطلة ومعدومة الوجود ومجردة من كل قيمة ، بل أن الأمر أصبح بالغ الوضوح بعد التعديل الاخير الذي أصبحت بمقتضاه المادة الثانية للدستور تنص على أن (مبادىء الشريعة الاسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع) .

وحيث أن البعض يرى أن القوانين الوضعيه واجبة التطبيق ، وهذا الرأى فى نظرنا لا يستند إلى أى سند شرعى أو يقوم على سند عقلى أو منطقى اللهم إعتياد الناس على القوانين الوضعية وإستمرار تطبيقها لزمن طويل - والمتفقة على الطريقة التى دخلت بها إلى بلادنا ومخالفتها للإسلام الذى ندين به ، ويرى إنصار هذا الرأى أن القوانين الوضعيه القائمة وأقع لابد أن ينص فى الدستور صراحة على الغائها وأحلال الشريعة الاسلامية محلها ، ورغم أن هذا الرأى مردود عليه بما إسلفنا فأنه يضاف إليه التعديل الدستورى الأخير الذى ينص على أن (الشريعة الاسلامية المصدر الرئيسى للتشريع) .

وقد ترتب عليه أن اصبحت الشريعة الإسلامية على قمة المصادر الرسمية التشريعة ولم يعد هناك مكان للمصادر الأخرى فى ظل الشريعة الإسلامية الغنية باحكامها الدقيقة المفصلة لكل شىء ، ذلك أنه من المستقر عليه فى فقه التفسير أن التشريع لا يلغى إلا بتشريع فى درجته أو أعلى منه مرتبة .

وقد كانت المادة الاولى من القانون المدنى تعتبر الشريعة الإسلامية مصدراً رئيسيا من الدرجة الثالثة وعدلت هذه المادة بمقتضى التعديل الدستورى الأخير والغى الترتيب الوارد بالمادة الأولى من القانون المدنى وأصبحت الشريعة الاسلامى هي المصدر الأول للتشريع التى يقوم أساسها البنيان القانونى فى الدولة ولم يعد يسبقها أى مصدر أخر .

وقد قررت محكمة العليا فى العديد من أحكامها أنه إذا تعارضت القواعد الادنى مرتبة والسابقة على الدستور مع أحكام الدستور وجب التزام أحكام الدستور

وإهدار ما سواها بما يعني أهمال الأحكام المخالفة للدستور وعدم أعتبارها وتجريدها من كل قيمة والتصرف على أساس إنعدامها وعدم وجودها وأنه إذا أورد الدستور نصا لزم أعمال هذا النص يوم نفاذ الدستور وتغيير النصوص المخالفة للنص الذى أوردة الدستور قد نسخت ضمنا بقوة نفاذ الدستور .

وحيث أنه ترتيبا على ما تقدم فإن القوانين السابقة على التعديل الدستورى الذى نص على أن الشريعة الاسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع تعتبر منسوخة فى أحكامها المخالفة للشريعة الاسلامية وتعدل بما يتفق وأحكام الشريعة الاسلامية .

وحيث أنه وأخذا بما سلف بيانه من تقريرات قانونية فإن القدر المتيقن والذى لا يمكن أن يثار بالنسبه له أى خلاف أن التعديل الدستورى سالف الذكر قد ترتب عليه فور نفاذه بطلان جميع القوانين المخالفة للشريعة الاسلامية وبمجرد صدور هـــذا التعديل فقد لفظت تلك القوانين أنفاسها الأخيرة وفارقت الحياة .

(الدعوة — يوليو ١٩٨١)

الفصل الخامس

الإقتصاد الربوى

منذ سيطر النفوذ الأجنبي على مصر والبلاد العربية والاسلامية فقد وضع يده على خيوط الاقتصاد الوطني جميعاً، وحولها إلى مصارفه وخزائنه وجعلها سداداً للديون التي كان قد إقترضها الحكام وأهل النفوذ، وكانت مؤامرة الاستدانة دائماً مقدمة للاحتلال والسيطرة، وقد حفظ التاريخ الحديث ثلاث مؤامرات أحدآها على خديو مصر إسماعيل وعلى شاه إيران وعلى باى تونس كانت مقدمة للسيطره الاستعمارية والاقتصادية على هذه الاقطار وقد تبع هذه السيطرة توجيه الاقتصاد وجهة غربية خالصة، باستنزاف مصادر الثروة من البلاد الاسلامية بأبخس الأسعار وفتح أسواق تجارية للمنتجات الوارده من البلاد المسيطرة وسيطرة مجموعات من الاجانب على الأسواق والمواد الأساسية والقيام بعمليات المراباة للتجار والزراع تحت تأثير المغريات الوافدة وفى مقدمتها الخمور والراقصات والمنتجات الكمالية.

وهكذا صنع الاحتلال البريطاني نظاما ربويا إقتصاديا مسيطراً تتحرك فيه التجارة والزراعة والصناعة فى البلاد خلال فترة الاحتلال، ما عدا محاولات قليلة جرت بانشاء صناعات وطنيه كالتي قام بها طلعت حرب وأحمد عبود وغيرهما غير أن مصر فى المرحلة التالية لم تستطع أن تستقل إقتصاديا، وظلت خاضعة لنفوذ الاقتصاد الغربي ثم جاءت مرحلة الارتباط بالاقتصاد الشيوعى، وفى كلا المرحلتين عاشت مصر مرحلة قاسية من أشد مراحل التبعية والبحث عن مصادر لاستيراد العملة الصعبة وقامرت على أمتلاكها مصادر الطعام الإساسى كالقمح فى سبيل زراعة محاصيل أخرى تدر موارد اجنبية، ولا يزال الإقتصاد المصرى يعانى من عاملين :

العامل الأول : التضخم والاخر السيولة ، وكانت عملية الحصول على القروض من الدول الغربية ولا تزل عاملا هاما فى توجيه الاقتصاد وعدم القدرة على تحريره فضلا عن عجز الدول العربية ذات الموارد النفطيه الواسعة عن إستثمار عائدها فى البلاد العربية والاسلامية .

ولا ريب أن أحتواء الاقتصاد الاسلامي وسيطرة الدول الغربية والاشتراكية عليه هو من أخطر العقبات التى تحول بين المسلمين وبين أمتلاك ارادتهم وتكوين مجتمعهم القادر على الحركة الحرة ، وعلى استثمار مواردهم الواسعة المذخورة الآن فى البنوك الأجنبية والتى هى سناد حقيقى للاقتصاد الغربى ، دون أنتفاع المسلمين بها أساساً لبناء حضارتهم الجديدة .

ويعيش العالم الاسلامى فى مجموعتين : مجموعه لها مواردها الضخمة التى لا تحتمل منها إلا على قدر معين بينما تودع مدخراتها فى المصارف الغربية . ومجموعة ناميه تحتاج إلى قروض لرفع مستوى حياتها الاجتماعية ، وتوظيف مواردها فى تسديد بعض هذه الديون .

وقد تجاوزت ديون العالم المتقدم على العالم النامى ٤٠٠ مليار دولار :

وقد نهبت بريطانيا من الهند ومصر وهولندا من أندونيسا وفرنسا وإيطاليا وبلجيكا وامريكا من جنوب ومن أفريقيا قدراً ضخما من الموارد (كالبترول والكوبلت والمنجنيز) وكانت من المصادر الهامة من مصادر التصنيع والتقدم الذى حققته الدول المستعمرة ، وتعمل الدول الكبرى على إبتلاع فائض المال العربى عن طريق : المواد الكمالية والسلاح .

وهناك ٥٠ مليون أفريقى وأسيوى من الدول الفقيرة يتساقطون من الجوع .

وهكذا نجد أن العالم الإسلامى كله يقع فى قبضة الدولتين الكبيرتين والنظامين الرأسمالى والشيوعى ، وأن المسلمين مازالوا عاجزين عن التحرر من سيطرة الاقتصاد الغربى بعقيه .

وهكذا نجد أن المسلمين خسروا « منهجهم الاقتصادى الأصيل » الذى علمهم القرآن ، وطبقه المسلمون أربعة عشر قرناً . وسيطر عليهم النظام الربوى العالمى بكل مخاطره وأثاره وفساده ، واندفعوا وراء الاستهلاك والترف ومظاهر الحضاره وكلها عوامل تدمر الشخصية وتقتل فيها عناصر التماسك والقوة وتجعلها خاضعة متحللة منهارة .

غير أن حركة اليقظة الإسلامية قد كشفت للمسلمين مدى الأخطار التى تحيط بالاقتصاد الإسلامى لوقوعه فى براثن الربا وسيطرة الدول الغربية عليه ، والآثار المترتبة على ذلك فضلا عن غضب الله وعقابه ومن ثم إنطلقت صيحة الامتناع عن الادخار إلا فى البنوك الإسلامية وقد اضطرت كثير من المصارف إلى إنشاء دوائر خاصة للادخار الإسلامى جعلت أعمالها فى دائرة « المضاربة المسموح بها من الإسلام .

(٢)

نعم ، لقد واجهت حركة اليقظة الإسلامية هذا النظام الربوى وكشفت عن سمومه وأخطاره ، حيث يتكامل خطره مع القانون الوضعى والتعليم العلمانى وفساد معطيات الحضارة ووسائل التسليه والترفيه وتبنت فى السنوات الأخيره تياراً اقتصاديا إسلاميا جديداً يقوم على نظام الإسلام وهو وإن كان لا يزال يخطو خطواته الأولى ولكنه يتقدم بسداد وحزم ليقدم النموذج الإسلامى للعالم كله فقد حققت المصارف الإسلامية فى ثلاث سنوات أكثر مما حققه المصارف الربوية فى خمسمائة عام .

وقد ضمت دار المال الإسلامى ٢٤ مصرفا (بالاضافة إلى ١١ مصرفا اخرى) فى ٤٤ دوله إسلامية و ٣٠ شركة تكافل وعشرين شركة إستثمار واربع شركات للاعمال .

وتحاول هذه المصارف جميعا تجميع أموال المستثمرين المسلمين لتوظيفها وفق أصول الشريعة بعيداً عن الربا وقد بلغ رأس مالها المطروح ألف مليون دولار

وأنضم شبكة متكاملة لخدمة الأغراض المالية والتجارية والاستثمارية فى مجال الزراعة والصناعة على أساس إسلامى كبديل للنظام الربوى والاقراض بالفائدة وتشكون مشاريعها بالمشاركة فى الربح والخساره . (١٤٠١ هـ) .

ولكن عالم الغرب لا يسلم بسهولة بل أنه يحاول أن يثير الغبار فى وجة هذا الاتجاه لصرف المسلمين عنه ، كما يحاول فرض سيطرته من ناحية أخرى حيث يحول دون تمكين البلاد الإسلامية من الحصول على التكنولوجيا وبفرض ربط تصدير النفط بالحصول على بعض المشاريع التكنولوجيه فى مجال الصناعة والزراعة ولكنهم يرفضون تماما تزويد المسلم بالعلم الأستراتيجى مع أن النفط إلى جانب أنه وقود فهو سلعة إستراتيجية عميقة التأثير وبعيدة المدى .

(٣)

يقول الدكتور أحمد النجار الأمين العام لاتحاد البنوك الإسلامية : أن كثيراً من إساتذه الاقتصاد الغربيين فى المانيا ويوغسلافيا وفرنسا وإنجلترا وأمريكا يفهمون حقيقة حركة البنوك الإسلامية بأكثر مما يفهمها اساتذة الاقتصاد فى كثير من البلاد الإسلامية :

وأن هناك من يتزعج من أدخال الإسلام ومفاهيمة فى الاجهزة الاقتصادية بالقناعة أن أمور الاقتصاد يجب أن تقوم على المنطق والأرقام ولا يمكن أن تقوم على العقائد ، وفى مؤتمرات عقدت فى لندن وباريس وامريكا تبين أنه من السهل إقناع الاقتصاديين الغربيين بالفكرة ولكن من الصعب إقناع بعض الاقتصاديين المسلمين بها .

أن تجربة البنوك الإسلامية بدأت فى نطاق محدود ولكنها كانت بداية طريق جديد من الفكر الاقتصادى العالمى لأنها تميزت بدخول الاسلام بما يشتمل عليه من ثروة روحية وخلقية فى مجال النظم المصرفية والفكر الاقتصادى الذى يحل مبدأ (المشاركة محل الفائدة) فالبنك الاسلامى يعول المشترى طالب التمويل ما يلزمه لتنفيذ مشروعة ويقدم جهده والبنك يقدم خبرته وأمكاناته على صورة

يمثل فيها التعاون ضرورة للطرفين ويزيد على ذلك أن يأخذ التمويل صفة الجبريه والبنك الاسلامى لهذا يوجه نشاطه كله نحو التنمية :

البنوك التجارية تدعى أنها تشارك فى الاستثمار ولكنها فى الحقيقة تبيع النقود مقابل الثمن لمن يزيد ، والربح الذى تحققه هذه البنوك ليس نتيجه مشاركة فى الحياة الاقتصادية ولكن نتيجة الاتجار فى النقود باعتبار أن النقود فى ذاتها سلعة تباع بربح هو « الفائدة » وحلقة الفوائد اللعنية هى التى أدت إلى ظاهرة التضخم العالمية ، فإذا الغينا نظام الفوائد ووضعنا نظام المشاركة نكون قد وضعنا الأساس الاقتصادى السليم للتنميه .

إن حديث الرسول الله صلى الله عليه وسلم حدد جوهر التعامل الاقتصادى فقال « الذهب بالذهب والفضة بالفضة والحنطة بالحنطة والقمح بالقمح والتمر بالتمر والملح بالملح ، يدا بيد ، مثلا بمثل ، فإن إختلفا فبيعوا كيف شئتم » .

والاصناف التى عددها الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تقوم بوظيفة النقود فأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحمى النقود من أساءة إستخدامها حتى لا تختل المقاييس وبهذا الحديث فإن الاتجار بالنقود حرام والاتجار بغيرها حلال لأن النقود فى المفهوم الاسلامى ليست سلعة ولكنها أداة لتحريك الطاقات فى المجتمع وتحقيق التنميه والسبيل إلى ذلك أن يشارك رأس المال فى العمل فى تحقيق التنمية وهذا ما تقوم به البنوك الاسلامية .

وإذا كانت البنوك التجارية تهتم بذوى الدخول الكبيره فإن دور البنوك الاسلامية هو أن تمد يدها إلى كل مسلم مهما يكن دخله لأن كل شخص يمكن أن يدخر ولو بضعة قروش ، فإذا إتسعت دائرة المدخرين لتشمل المجتمع كافة فإن البنوك سوف تجد لديها من الاموال ما يكفيها لتنطلق فى العمل ومادامت هذه البنوك لا توجه أموالها إلا فى مشروعات إنتاجيه مثمرة ورابحة ، وتحسن إدارتها والأشراف عليها فإن المجتمع كله سوف تتحقق له التنمية الرشيدة من خلال هذه البنوك الاسلامية ولكن البنوك الاسلامية وهى بداية تغيير جذرى

في المهام المصرفية والاقتصادية الأولى الآن : هي توفير الكفايات المدربة الفاهمة لفلسفة العمل ... في دراسة أحكام الفقه في البيوع والتجارة والأقراض وغيرها ... البنوك الاسلامية عملها بالاستعانة بخبرات من البنوك التجارية ... معظم العاملين فيها ممن تربوا في بنوك ولا يتصور أن البنوك يمكن أن ... ون فوائد . لذا كان من الضروري أن ينشىء الاتحاد الدولي للبنوك الاسلامية معهداً متخصصا لاعداد الكوادر المسلحة بالوعي الاقتصادي الاسلامي في وقت واحد وبذلك تكتمل للبنوك الاسلامية عوامل النجاح : الفلسفه والمنهج والأفراد القادرون علميا وعمليا على إقامة صرح الاقتصاد الاسلامي على أسس قوية من الشريعة ليثبتوا للعالم أن الاسلام قادر على علاج مشكلات مفهوم الاقتصاد بشكل علمي متقن » .

(٣)

لقد كان لهذا الاتجاه الجديد آثاره الواضحة في مواجهة عقبة من أضخم العقبات في وجه تطبيق الاسلام ، ومن ثم بدات تتشكل جماعات من الاقتصاديين الاسلاميين الذين يقننون مفهوم الاسلام الاقتصادي ويشرحونه ويفسرونه ويضعونه في قوالب عصريه صالحة للتطبيق .

وبذلك إنتهت تلك المرحلة التي بدأها رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي (١٨٣٠) تقريباً وهي مرحلة الانبهار بالنظم الغربية وتبريرها بدعوى أنها إسلامية الأصل ، والمعروف أنه عندما وصل رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي إلى باريس واتصلا بالفكر الغربي لأول مرحلة من رحلتي ... المشرق اكتشفا أن ما تلقياه هو شيء قريب في ما يعلمون من فقه الاسلام وعلومه حتى ... أنه يمكن نقله أو اقتباسه بوصفه بضاعة المسلمين قد ردت إليهم ، وكان هذا ... ساذجا لحقيقة الاقتباس والنقل الذي تم في الغرب لعلوم المسلمين ومفاهيمهم . ذلك أن الغربيين عندما اخذوا علوم المسلمين قد أخضعوها لأمرين :

اولا : أخضعوها لاطار فكرهم المسيحي واليوناني والروماني القديم ثم أخضعوها لاهوائهم فنزعوا عنها طابع الاسلام القائم على الاخوه البشريه

والرحمه والغيره على المرض) فإن الفكر الغربي في هذه المفاهيم الثلاثة خاضع للفكر اليوناني القديم الذي تجدد تحت اسم قتل الضعفاء على يد نيتشه ، أو الاباحة في العلاقات بين الرجل والمرأة أو من حيث إستعلاء العنصر على الاقوام الأخرى يدعوى الرجل الأبيض صانع الحضارة في هذه العناصر الثلاثة تجاوز الفكر الغربي مفاهيم الإسلام وخضع لمفاهيم الفكر البشرى القديم المتجدد إذ ذاك ، أما شيخينا (الطهطاوى والتونسى) فانهما لم يتنبها إلى هذه الفوارق حتى جاء الدكتور محمد عبد الله العربي وجيل آخر من الشباب المسلم الذي درس القانون في الغرب دراسة أكاديمية بعد مائة عام (١٩٣٠) وقالوا : أن الامر مختلف تماما ، وإن المسلمين لا يستطعون الاعتماد على الفكر الغربي في بناء المفاهيم المستحدثة في القانون أو الاقتصاد أو السياسة أو العلم أو الحضارة .

يقول الدكتور العربي : أن الفكر السياسى الغربي يرى أن الاديان السماوية ليست لها رسالة في أمر الدولة وشئون الحكم فهذه من شئون الدنيا التي يتفرد البشر بتنظيمها على أساس ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، ولكن الإسلام وضع الأصول التي يجب كل مجتمع إنسانى أن يسير على نظامها .

والمسلمون اليوم يستأنفون بناء نظامهم السياسى والاجتماعى والاقتصادى في أطار الإسلام بعد أن خضعوا طويلا نتيجة الاحتلال الأجنبى للانظمة الغربية الوافدة .

(٤)

في أطار حركة اليقظة الإسلامية يتجمع العلماء الآن والخبراء ليقدم خبرتهم وفهمهم للمنهج الاقتصادى الإسلامى وبناء المنهج الإسلامى في المعاملات الاقتصادية ، ذلك المنهج الذي اتفق الجميع على أنه طوق النجاة للأنظمة الاجتماعية العالمية شرقيه كانت أم غربية ، شيوعية أو اشتراكية أو رأسمالية وقد كشفت إبحاث الخبراء عن أن تراثنا الإسلامى الوفير ملىء بالكثير من الحلول لمشكلاتها وإن الإسلام يقدم النموذج الأمثل وقد عرضت الابحاث الإسلامية لمفهوم المنهج الاقتصادى فقدمت المقومات التي تكفل إقتحام هذه العقبة ، وتفتح الطريق إلى التطبيق الإسلامى .

وقدم الدكتور شوقى الفنجرى تصوراً صحيحا جامعا للاقتصاد الإسلامى فيقول أنه كالعمله الواحدة ذات وجهين :

أولها : وجة ثابت يتعلق بالمبادىء والأصول الاقتصادية الإسلامية حسبما وردت بنصوص القرآن والسنة كاصول الحريه الاقتصادية المقيدة ، وأصل التنمية الاقتصادية الشاملة وأصل ضمان حد الكفايه لكل فرد فى المجتمع .

ثانيهما : وجه متغير يتعلق بالتطبيق ، أى كيفية أعمال الاصول الاقتصاية الإسلامية ومواجهة مشكلات المجتمع المتغيره كبيان نظام الملكيه العامة ومدى تدخل الدولة فىالنشاط الاقتصادى ، وإجراءات تحقيق كفاية الانتاج أو متابعة تنفيذ خطط التنميه والاقتصاد وبيان مقدار حد الكفاية ومن ناحية أخرى هذه المجموعة من الحقائق :

أولا : أن دور دارسى الاقتصاد الإسلامى (مذهبا ونظاما) هو دور الكاشف لا المنشئ ، فهو ليس كأى باحث إقتصادى حر فى بحثه يتوصل إلى الحدود الاقتصادية كيفما يشاء وإنما هو مقيد فى الكشف عن الحكم فى المسائل الاقتصادية بنصوص القرآن والسنه وذلك إذا وجد النص فإن لم يكن فهو مقيد بالاجتهاد لاستظهار الحلول الاقتصادية الإسلامية لتلك القضية وذلك بالطرق الشرعية المقررة من قياس وإستصلاح واستصحاب ، ولا يعتبر الحل الاقتصادى إسلاميا الابقدر التزامه بنصوص القرآن والسنه وإتباع الطرق الشرعية المقررة .

ثانياً : الاقتصاد الإسلامى اقتصاد متميز له ذاتيته المستقلة ، فإن بحوث الاقتصاد الإسلامى مازالت تتصف بالصفة العلمية محـــدودة للغايه وذلك لان تدريسه كمادة مستقله هو بدورة حديث للغاية ، ذلك أن جامعات العالم الإسلامى تدرس الاقتصاد الرأسمالى والاقتصاد الاشتراكى ولاتدرس الاقتصاد الإسلامى .

وللاقتصاد الاسلامى وجهان :

الوجه الأول : مجموعة الأصول الاقتصادية الاسلامية المستقلة من صريح

نصوص القرآن والسنه وهى على ماسبق بيانة إلهية بحته (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) ومن ثم فأنها منزهه عن الخطأ وصالحة لكل زمان ومكان .

الوجه الثانى : هو مجموعة التطبيقات الاقتصادية الإسلامية سواء كانت فى صورة نظام أو نظم على المستوى العلمى أو فى صورة نظرية ، أو نظريات على المستوى الفكرى ، فهذه كلها إجتهاديه بحيث يجوز الخلاف حولها ويقبل التغيير والتبديل باختلاف الازمنة والامكنة ويقبل أختلاف الاجتهادات حسب الظروف والتقدير ، بحيث لا تتجاوز الأصل الثابت بنص القرآن والسنه وهو ما لا يتناول سوى التفاصيل والتطبيقات وهو ماعبر عنه الأصوليون بقولهم (تغير الأحكام بتغير الازمنة والامكنة) وقولهم بأن إختلاف زمان ومكان لا حجة وبرهان وقد عبر عنه الشيخ ابن تيميه :

(أنه إختلاف تنوع لا إختلاف تضاد) وقد كان ابن حزم يتخذ إتجاها جماعيا بينما يتخذ ابن خلدون إتجاها فرديا .

ثالثاً : الاقتصاد الإسلامى يجمع بين الثبات والتطور ، الثبات من حيث الأصول أو المذهب الاقتصادى والتطور من حيث التطبيقات أو النظم الاقتصادية

(٣)

قدرة الاسلام على حل مشاكل المجتمع الاقتصادى :

لا جدال فى أن الإسلام يعد مصدراً أساسياً لتقديم حلول فعالة للمشكلات الهامة فى كافة المجالات الاجتماعية والاقتصادية ، فالإسلام نظامه الاقتصادى الذى يحقق هذه النتائج عندما يطبق بإخلاص وقد شهد غير المسلمين قبل المسلمين بأن الإسلام مازال حتى الآن القوة الروحيه والخلقية التى تجلب التقدم والتكافل ، فيقول هاملتون جب « ولكن الإسلام مازال فى قدرته أن يقدم للإنسانيه خدمة سامية جليلة ليس هناك أى قوه سواه يمكن أن تنجح مثله نجاحا باهراً فى تأليف الاجناس البشرية المتنافرة فى جبهة واحدة أساسها المساواة ».

فالموارد الرئيسة متوافره لدينا ولدينا التقنية والمعرفة العلمية ولدينا التاريخ ومع ذلك فنحن نتطلع إلى الآخرين عند أختيارنا للمنهج الذى نهتدى به بدلا من البحث عنه فى واقع تراثنا وحضارتنا ومعقداتنا ، وعلى ذلك يتعين علينا ادراك القيم الإسلامية ومبادىء الاقتصاد الإسلامى ثم تطبيقها عمليا فمهجنا الإسلامى أولى بالاتباع (عبد العزيز حجازى) .

يستطيع الإسلام اليوم والعالم يبحث عن النظام الاقتصادى العالمى ومع الحيرة التى يعيشها عالم المسلمين وسط النظم الوضعية التى يطبقونها ، أن يقدم المنهج الذى يحقق الرفاهية للشعوب ويسد الفجوة بين الاغنياء والفقراء ويقرب المسافة بين الشعوب المتخلفة والنامية والمتقدمة ، تلك التسميات التى ارتبطت فى الاذهان بقوانين الاحصاء وأبعدت عن قوانين السماء :

والسؤال هو : هل حقق التقدم الاقتصادى المعاصر « سعادة الإنسان » واين السكينة التى يتطلع إليها البشر ، بل أين الوفاهية الحقيقية أى يتطلع لها الإنسان ، أن الشعوب القادرة تضن بثرواتها وما تفيض به على الشعوب المحتاجه فهو قليل ، وهى تضع الحواجز السياسية بين العالم الغنى وعالم الفقر ، وتهلك الثروة التى وهبها الله لها . »

(٣)

للإسلام رأى فى قضايا التنمية والاستثمار والانتاج والاستهلاك والتمويل والتكافل والادارة والمحاسبة ، وفى قضية الانسان والسكان .

ويرتكز المنهج الاسلامى على أسس واضحه :

المحور الاول : العبوديه لله (الخضوع والطاعة) والتوحيد للخالق الرازق لا شريك له ، ومن غير هذا الايمان بالوحدانية والقدرة الالهية يفقد المنهج الاسلامى ودعامته الأولى ويحصر الفكر الاقتصادى فى أمور وضعية ، يعيشها وتشكو منها ويحاول التغلب عليها أو التخلص منها فلا يقدر ، من أجل هذا لابد أن يقوم الفكر الاسلامى فى الاسلام قبل كل شىء على العقيدة بالتوحيد .

المحور الثانى : إنطلاقا من مفهوم العبودية لله سبحانه وإن الثروة من خلق الله وإن المال مال الله وهو المالك لكل شيء ، بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، وإن الإنسان خير خلق الله إستخلفه فى الأرض لأعمارها والعمل بشريعة الله ، وخلقه فى أحسن تقويم وعلمه البيان وترك له حرية الاختيار وفتح له آفاق العمل وطالبة بأن يكدح إلى ربه كدحاً ، وإن ليس له الأماسعى ، وإن سعية سوف يرى وأنه سيؤتى الجزاء الاوفى ، وهكذا تتاكد الركيزة الثانيه للاقتصاد الإسلامى وهى : أن الانسان هو الهدف .

وإن تمييز الإنسان بنعم العقل والتفكير والتدبير تفرض بالضرورة التكليف والاعتراف بمجموعة من المسلمات والضرورات للفوطيفة الحياتية للإنسان وهى :

١ ــ الخضوع لحكم الله ويتطلب ذلك قدراً من القناعة والرضا بما قسم الله من الارزاق .

٢ ــ العمل ، السعى ، الكدح ، أتبغاء مرضاة الله .

٣ ــ الاعتراف بالدرجات (فضلنا بعضكم على بعض درجات) .

٤ ــ المحاسبة عن الأعمال (الاعتراف بالثواب والعقاب فى الدنيا والآخره)

والواضح أن الكثير من مشكلات المجتمع الحديث والمعاصر ترجع إلى الخروج عن واحد أو أكثر من هذه المسلمات أو الضرورات .

فالمجتمعيات التى تعتنق المادية وتعتبر الإيمان بالله ضربا من الشعوذه ، تفتقد الروح الإيمانيه ، والمجتمعات التى تنتشر فيها الأميه وتقصر فيها الافراد عن البحث والمعرفة أو تلك التى تسود فيها البطالة الظاهرة أو المقنعة أو تلك التى تسود فى الانتفاع بثرواتها يقال عنها دول متخلفة ، أما تلك التى تسيطر فيها أحكام السلطة الفوقية أو يتحكم فيها القوى الحزبية (الشمولية) تحقيقا للمساواه الكاذبه بين إفراد المجتمع .

وتقضى فيها على روح الحرية والمنافسة والتكافؤ فى الفرص التى أتاحها الله

لمباده تفقد الإنسان أحد المقومات الرئيسة للحياة القديمة وكل هذه الانحرافات تؤدى بالمجتمع إلى التخلف وبالإنسان إلى الضياع وحتى تستقيم الحياة لابد من أن يطبق منهج الله فى المعاملات باعتبار أن الانسان مستخلف فى الأرض فعليه التمسك بالحقوق والقيام بالواجبات وطاعة الاوامر والابتعاد عن النواهى .

المحور الثالث : إذا كانت الثروة من خلق القادر والمال مال الله والانسان مستخلف فى الأرض فان الانتفاع بنعم الله وخيراته يستوجب تنفيذ أوامره وتجنب نواهيه فأنه مسئول عن تنمية هذه الثروة فى كل نشاط حلال وحسب أولويات يتعلق بمتطلبات الإنسان حسب أمكانياته وقدراته المتوافره ، والتى يمكن توفيرها فى المجتمعات الأخرى التى تتكامل بعضها مع بعض ، ومعنى ذلك بالضرورة تحديد الأهداف التى ترجى من تطبيق المنهج ، ومعنى هذا أن (الرفاهية) لا يمكن تحقيقها إلا بعد تحديد (حد الكفاية) للكافة كما تدعو إليه رسالة الاسلام (عبد العزيز حجازى) .

(٤)

الملامح العامة :

- السمة المميزة للاقتصاد الاسلامى هى القرآن والسنه
- الزكاة خير علاج للازمات الاقتصادية .
- لا تناقض بين الدنيا والآخره وإباحه الطيبات .
- أبتغاء مرضاة الله هى الأساس .
- أوامر الله هى هدايه لتحقيق مصلحة الإنسان وليست قيودا اتضحى بمصلحة الإنسان لتحقيقها .
- الاستهلاك والسعى لأجله منه ما هو فرض أو مباح أو حرام .
- حسن النية والشكر هما عنصرا الثواب على الاستهلاك .
- أن المسلم إذا أنفق نفقة على أهله وهو يحتسبها كانت له صدقه)

- أن النية تحول العادة إلى عبادة .
- دعا الإسلام إلى الانفاق : وأعظم النفقة على الأهل .
- الانفاق من غير كفران لأنعم الله أو تجاهل الآخرة أو رفض مشاركة المحتاجين ومن غير ترف وتعد .

حاجات الإنسان الضرورية هى موضوع المشكلة الاقتصادية .

وقد عددة الامام محمدبن الحسن الشيبانى يقوله : إن الله تعالى خلق أولاد آدم خلقا لا تقوم أبدانهم إلا باربعة أشياء :

١ ـ الطعام ، (وما جعلناهم جسداً لا ياكلون الطعام وما كانوا خالدين)

٢ ـ الشراب (وجعلنا من الماء كل شىء حى) .

٣ ـ الملبس (يابنى آدم قد إنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءآتكم وريشا)

٤ ـ المسكن (وخلق الإنسان ضعيفا) .

حاجة الإنسان إلى مسكن يقيه الحر الشديد والبرد القارس والعلاج والتعليم والأمن حاجات ضروريه تكفل بها النظام الإسلامى .

وقد أعطى الامام الشيبانى إعتبار العلاج والصحة من الضرورات(ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكه) و (ولا تقتلوا نفسهم) .

ثانياً : أن لب المشكلة الاقتصادية : حاجات الإنسان من غداء وكساء وادوات إنتاجيه نتيجة قصور الإنسان فى محيطه المحدود عن إنتاج كل ما يلزمه وهو يعبر عن ذلك بعبارته (أن سعى الإنسان بما هداه له الله التماسه لفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله ، إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة على تحصيل حاجته من الغذاء غير موفيه له بمادة حياته ولو فرضنا فيه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم) .

ثالثاً : التمتيز بين السلع الضرورية والكماليه ، فإذا أرتفع مستوى معيشتهم

وحققوا مزيدا من الرفاهيه فانهم يتحولون إلى السلع الكمالية فما تزيد أموال الرفه والدعة وذلك من خلال نشاط الصناعة والتجارة .

رابعاً : الأرض كلها هي ميدان النشاط الإنساني فغاية هذا النشاط الواسع المترامى الآفاق هو أبتغاء فضل الله ومعنى ذلك أن السعى فى الكسب وتحصيل الرزق لا خطأ فيه ولاعيب بدلالة وصفه - فضل الله — ولكن لا تلبث الآية أن تعود إلى ذكر الله حتى لا يتحول النشاط الاقتصادى تجارة أو صناعة أو زراعه إلى عمل يتجرد من دوافع الإنسان الفاضله وحوافز الانسانيه الساميه .

(٥)

حاجة العالم إلى النظام الإسلامي :

أولا : لقد تبين أن النظام الاقتصادى العالمى أخفق وإن العالم أمام طريق مسدود وطالبت الدول بنظام عالمى جديد ، سبب الاخفاق هو تمسك الدول الصناعيه بالنظام القائم وعدم موافقتها على أدخال أى تغيير عليه ، حيث فى أستطاعة الغرب ضرب أى محاولة من الدول النامية للتحكم فى تصدير سلعها ، حتى المنظمات الدوليه التى إنشئت لتقديم المساعدات للعالم الثالث فهى أدوات فى يد الدول المتقدمة صناعيا تستخدمها لتكريس نفوذها ومصالحها الاستراتيجية والسياسية والتجارية وهى تحرم الدول التى تعتبرها معادية للغرب ، والدول التى تتلقى المساعدات تقدمه لها بشروط قاسية وقوانين ربوية تجعل الدين الأصلى يصل إلى ثلاثة أمثاله عن أنتهاء السداد .

ثانياً : يرى الدكتور مصطفى السعيد أن الصيحة للمطالبة بنظام عالمى جديد أصبحت تجد إستجابه فى عالم الغرب بعد أن كانت تحت تاثير إعتقاد جازم بأن التقدم المادى المضطرد قد شارف حد الكمال غير ان الرقى المادى لم يحقق السعادة المرتجاة للجنس البشرى فما زالت الشعوب المتخلفة مغلوبة على أمرها تستغلها الدول الصناعية المتقدمه وقد ضاعت روح التمييز بين الحق والباطل وأصبحت الانانية والعبث بحقوق الغير وعدم الاكترات بالمسئوليات الأوليه وبالحفاظ على حريه الحركة من السمات الحديثه لهمجيه العهود الأول .

ثالثاً : أن موقف الإسلام من الربا موقف حاسم لا يقبل التراجع مهما برره بعض المفتين أرضاء لأصحاب المصالح . وقد أجمع علماء المسلمين فى مؤتمر البحوث الاسلامية سنة ١٩٦٥ على أن كل الربا قليله وكثيره حرام ، لا فرق فى ذلك بين ربا القرض الانتاجى أو القرض الاستهلاكى ولا بين الوديعة لأجل أو فائده صندوق التوفير فكان لابد من قيام المصرف الاسلامى الذى لا يتعامل بالربا لا أخذا ولاعطاء .

فرساله المصرف الاسلامى هى :

١ — الغاء سعر الفائده على معاملاته .

٢ — تصحيح مسار الاقتصاد لما فيه خير البشرية .

والربا هو الزيادة التى يتالها الدائن من المدين نظير التأجيل فى معاملة الدين بينهما ، أما (الربح) فهو الزيادة التى ينالها البائع من المشترى على قيمة السلمه فى معاملة البيع وبازاء الربح تستعمل كلمة الخسارة إذا ما بيعت السلفة بقيمة أقل من قيمتها المتكلفة .

ويقول غير المسلمين : إنما البيع مثل الربا ، أى أن الزيادة التى توجد فى البيع على قيمة السلمه التكليفية هى مثل الزيادة التى توجد على رأس المال فى معاملة الدين وقد رد القرآن على إعتراضهم بقوله (وأحل الله البيع وحرم الربا) أى أن الزيادة فى المال فى البيع شىء أخر فقد أحل الله الأولى وحرم الأخرى ، فن إراد المنفعة فعليه أن يحترف البيع بنفسه أو يشارك غيره فيه ولكن حرام أن يطلب الزيادة باقراض الناس أمواله .

ولا يبيح الاسلام للإنسان أن يضع رأس ماله ويأخذ ربحاً محدوداً عليه ، فأنه إن كان مشريكا حقاً فيجب أن ينال نصيبه فى الربح وفى الخساره معاً أيا كان الربح وأيا كانت الخسارة فالربا هو كل زيادة مشروطة على رأس المال أى ما أخذ بغير تجارة ولا تعب وزيادة على رأس المال فهو ربا ، الفوائد الزائدة

على رأس المال جاءت بغير مشاركة ولا مخاطرة ولا شيء من المتاجرة فهذا هو الربا الحرام، والحرام لا يملك ويجب التصرف فيه بالتصدق، وقال البعض يقدم جواز أخذه صدقه .

ولقد كانت الزكاة هي الوسيلة المثلى لتوسيع قاعدة الاستهلاك الذى يدفع بدوره عجلة الانتاج ويتيح فرص العمل لمزيد من الناس .

التنمية فى أطار إسلامى هى أوسع فى مفهومها من مجرد التنمية الاقتصادية والتنمية فى الاسلام ليست مجرد زيادة فى الانتاج، مع أن هذا ضرورى وأساسى.

ولكنه مجرد وسيله لهدف أبعد وهو : تاسيس نظام اجتماعى عادل، أن مجرد الوصول بالابتاج إلى أن الاقصى ليس هو ما نطمح إليه بل الهدف المزاوجة بين زيادة الانتاج وعدالة التوزيع، وبذلك يكون هناك إستثمار كامل للمصادر من جهة وتحقيق للعدالة والمساواه لا فراد المجتمع من جهة أخرى، أما إذا زاد الانتاج وزاد إستغلال الانسان ومعاناته فهذا ليس هو النمط من التنمية الذى يسعى إليه الاسلام، وهذا ما تعانى منه المجتمعات الاسلامية حاليا أن المجتمع الاسلامى قد واجه هذا التحدى من قبل عندما تدفقت الثروة على المسلمين من الاقطار المفتوحة وقد واجه عمر بن الخطاب يومها هذا التحدى لا بتشجيعه قيام نخبة تستأثر بالثروة بل بتوزيع الثروة بحيث يفيد منها جميع أفراد المجتمع واستخدامها لتنمية أوسع، هكذا أقام عمر بن الخطاب نظاما حيويا للأمن الاجتماعى . أن تكافؤ الدول الاسلامية ولو بشكل وحدات متقاربة جغرافيا ضرورى جداً لمستقبل إقتصادى آمن والتكامل الأقليمى المناسب يحل كثيراً من المشكلات الاقتصادية . التكامل الأقليمى والاعتماد الأقليمى المتبادل يجب أن يكون محور خطط المستقبل وأقامة المصانع قرب المواد الخام ووجود اليد العامله، وتأمين تدفق السلع بين مختلف الأقاليم الاسلامية وتأمين الاكتفاء الذاتى لهذة الأقاليم، إستغلالا أمثل للمصادر .

الباب السابع

تحديات فى وجه الثقافة العربية الإسلامية

أولا : مناهج الثقافة

ثانياً : » الأدب

ثالثاً : » اللغة العربية

رابعاً : » التاريخ

خامساً : » العلم

سادساً : » الفلسفه

سابعاً : » الفن

اولا : مناهج الثقافة

فى مجال الثقافة الإسلامية : تتجمع سحب التغريب والشعوبية ومحاولات تعتيم الطريق المضىء الذى أضاءه الإسلام ، ليبدو أ مظلما خابيا فى ميدان اللغة والتراث والتاريخ الإسلامى والحضارة بجد تلك التحديات التى تهدف إلى إخراجها جميعا من الأصالة واحتوائها بالمطروحات الوافدة التى تفسد طابعها الإسلامى الأصيل ووجهتها الربانية شأنها فى ذلك شأنها فى مجال الاقتصاد والقانون والمجتمع والتعليم .

واقد كان الهدف من ذلك واضحا هو تأخير الفكر الإسلامى عن الوصول إلى غايته فى فتح الطريق أمام تحقيق الارادة الإسلامية فى بناء المجتمع الإسلامى واستئناف الحضاره الإسلامية عطاءها من جديد .

ومن هنا فقد كان لأبد من إعادة النظر فى مناهج الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامى ، بوضع مناهج جديدة تعبر عن أرادتنا ، وعلى الجامعات الإسلامية أن تسدد أمانة الالتزام الإسلامى والدفاع عن قيم الاسلام وتصحيح المفاهيم التى أفسدها النفوذ الأجنبي وكان النفوذ الأجنبي قد أنشأ هذه الجامعات على أنها مؤسسات بلا هوية ، وجعل إبرز أعمالها دراسة فكر الأغريق والرومان فى القديم وفلسفات الغرب فى الحديث ، ودراسة تاريخم وأبطالهم دون دراسة فكر الاسلام وحضارته ، أو دراسها درسامشوها مليئا بالدس المقصود لكى يكون المواطن المسلم حضما عنيدا لثقافته ودينه .

(٢)

ولما كانت الثقافة العربية (إسلامية الأتجاة والانتماء) فقد واجهت من تأثير النفوذ الاستعمارى الوافد تحديات خطيرة من دعوات تريد أن تميع ذاتية الثقافة الاسلامية وتخلط بينها وبين الثقافات تحت اسم عالمية الثقافة أو دعوات تريد أن نفصل بين حلقات التاريخ المتصلة تحت أسم (المعاصرة والحداثة) وكل هذه الدعوات إنما تستهدف فكرة الارتباط الدقيق بين الثقافة الاسلامية

العربية التى تعيشها وبين جذورها العميقه المتصلة بالاسلام والتراث الاسلامى العربى فى عصوره المختلفة .

كذلك فإن هناك شبهات كثيره مثارة حول قيم الثقافة ووجهتها وخصائصها وعلاقتها بالفكر والدين والمعرفه مما يتطلب تحريره والكشف عن وجه الحق فيه .

والثقافة ليست مجموعة من الأفكار ولكنها نظرية فى السلوك وبها يرسم طريق الحياة إجمالا فيما يتمثل عليه الطابع العام الذى ينطبع عليه شعب من الشعوب ، وهى تمثل الوجوه المميزة لمقومات الأمة التى يتميز بها عن غيرها من الجماعات بما تقوم به من العقائد والقيم واللغة والمبادىء والسلوك والمقدسات والقوانين والتجارب ومن ثم فكل مجتمع له ثقافته التى يتسم بها ولكل ثقافة مميزاتها وخصائصها التى تحدد شخصيتها وبالجملة فإن الثقافة طريقة خاصة تميز أمة بعينها عن أمم أخرى ، ومعنى هذا أن الثقافة العربية الاسلامية تختلف عن الثقافة الغربية فى أن مقومات كل منهما تختلف عن الأخرى .

فالثقافة العربية اللغة إسلامية المصدر تستمد كيانها من الاسلام والقرآن واللغة العربية وتراث الأديان المنزلة ، بينما تجد الثقافة الغربية (أياً كان نوعها غربية أوماركية) إنما تستمد مصادرها من الفكر اليونانى واللغة اللاتينية وتفسيرات المسيحة التى وصلتها ، — ومن هنا يبدو الفارق واضحا بين مصدر الثقافات ، ويتجلى بوضوح دعوة النفوذ الأجنبى إلى ما يسمى بوحدة (الثقافة) العالمية ، ولو قبل وحدة (المعرفة) للعالمية لكان ذلك مقبولا ، لأن المعارف تضم المعارف والعلوم العامة التى هى ملك للبشرية كلها ، ذلك أن الثقافات ذاتية وخاصة ومتصله بأممها لا تنفك عنها ، ومن أجل ذلك فهى لا تنصهر ولا تذوب فى بوتقه واحدة ، ولكنها تتلاقى وتتعارف ، ويأخذ بعضها من البعض الآخر مايضاد وجوده أو يتعارض مع الأصول الأساسية لمقومات فكره وكيانه وذاتيته .

ومن هنا فاننا نرفض مطروح الغرب الفاسد فى دعوته إلى أن تقبل الأمة

الاسلامية الثقافة والحضارة معاً ، ونحن لا نقبل ما يتعارض مع قيمنا ومفاهيمنا وأسلوب عيشنا وهى دعوة مسمومة مضللة تستهدف تحطيم معنويات إمتنا وتدمير مقوماتها والقضاء على شخصيتها وهدم ذاتيتها ودفعها لان تذوب فى بوتقة الاممية والعالميه فتفقد وجودها وتصبح غير قادره على مقاومة الغزو والاستلاب .

وتختلف الثقافة العربية الاسلامية عن الثقافات الغربية الوافده فى جماعيتها وتكاملها فقد إستقامت على كلمة الله الحق بالتوحيد وإستمدت من القرآن الكريم قيمها الاساسة : عبادات ومعاملات واخلاقا ، نظام مجتمع ومنهج حياة ، جامعة بين العقل والقلب ، والروح والجسم ، والدين والعالم ، والدنيا والآخرة .

وذلك بينما أن الثقافات الغربية تقوم على أساس الفصل بين اللاهوت والحياة وعزل الامور الروحيه عن الأمور الجسدية ، وتقوم على الانشطارية فى عالم الفكر والانقسامية فى عالم الحياة كذلك فإن الثقافة العربية الاسلامية تقدم اولية الخلق على الجمالى وتوازن بين الروحى والمادى ، وتتسم بضبط الرغبات الحسية والانسجام بين معطيات العقل ومعطيات الروح .

والثقافة العربية الاسلامية ليست شرقيه ولا غربية ، وهى ليست مركبا للثقافتين ولكنها ثقافة مستقلة لها ذاتيتها الخاصة ، إستمدت وجودها من القرآن الكريم والاسلام واللغة العربية ، وقد قامت على أساس التكامل بين القيم وهى فى هذا تختلف عن الثقافات الغربية التى تعلى من شأن المادى على الروحى وتفصل بينهما وتعلى من شأن الجمالى على الخلقى . وقد وازنت الثقافة العربية الاسلامية بين جوانب العقل وجوانب الوجدان ورفضت أعلاء المعتزلة للعقل وأعلاء الصوفيه للوجدان وحافظت على « المفهوم المتكامل الجامع » .

ثانيا : مناهج الأدب

إن خصائص الأدب العربى التى تميزه عن الاداب العالمية المختلفة فى الشرق والغرب ترجع إلى البيئة التى نشأ فيها والفكر الذى تشكل فى أطاره والتحديات التى واجهته فى طريق مسارة الطويل . وقد أعطى القرآن الأدب العربى العامل الأعظم فى ثباته وظهور فنونه وعلومة ومناهجه ، وهو الذى أغنى العربية بالأساليب والمضامين ، والأدب العربى لا يمكن أن يدرس فى ضوء مناهج وضعت لاداب أخرى ، ذلك أن أساليب النقد والبحث إنما توضع للأداب بعد ظهورها ، ولذلك فهى مستمدة منها وليس العكس ، أن مذاهب الأدب التى يحاول النقاد محاكمة الأدب العربى إليها هى فى جملتها مذاهب غربية وضعت مسمياتها ومناهجها بعد قيام ظواهرها فى الأداب الاوربية وهى فى الحق ليست مذاهب وإنما هى أسماء عصور كالكلاسيكته والرومانسيه وغيرها وهى تتمثل فى مجموعها بتاريخ الأمم التى وضعت هذه المذاهب . فلماذا ننقل لتكون قوانين يخضع لها أدبنا الذى يختلف فى تكوينه وطابعه وتاريخه وبيئته ومظاهر حياته عن هذه الأداب ، أن أختلاف المصادر والمنابع بين الأدب العربى والاداب الغربية يجعل من العسير خضوع الأدبين لمقاييس واحده أو لقوانين وأحدة ، والمعروف أن الأداب الغربية جميعا تستمد مصادرها من الأدب الهلينى والفلسفة اليونانيه والحضارة الرومانية فقد أتجة الأدب الاوربى الحديث منذ أول ظهوره فى عصر النهضة إلى هذه المنابع وربط نفسه بها ، ولاريب أن الاساس التى تقوم عليه الاداب الغربية بمختلف فنونه وبيئاته تختلف أختلافا وأضحا عن الاساس التى يقوم الادب العربى الذى أستمد مصدره أساسا من القرآن الكريم والإسلام وبقيم العربية الاصيله التى تلاقت مع مفاهيم الإسلام وانصهرت معها .

وقد وأجه الادب العربى عدداً من النظريات الوافدة فى مجال النقد الادبى [illegible]ها بعض الادباء فى نطاق الدعوة إلى تجديد الادب العربى ، وقد [illegible]ت هذه النظريات منطلق الادب العربى وجذوره ، وعارضت ذاتيته الإسلامية العربية الخالصه واصطدمت بمزاجة النفسى والعقلى ، ومن هنا فقد سقطت وأحدة بعد

أخرى ، ولم تجد مجالا للعمل والنماء والتشكل مع الأدب العربي ، ذلك أن هذه النظريات فى أصولها قد إنطلقت من طوابع الآداب الأوربية وذاتيتها وتشكلت وفق مضامين تلك الآداب وأعتمدت أساسا على النظريات التى بدأت فى دائرة العلم الطبيعى ثم فرضت نفسها على الفلسفات والآداب وهى النظريات التى أعتبرت الإنسان حيوانا خاضعاً لظروف البيئة خضوع مختلف الأشياء لها . وهى نظرية مادية خالصة لا تتفق مع روح الأدب الذى يقوم على أساس ترابط وأضح بين المادية والروحية وبين العقل والقلب والتى تعتمد قاعدة التوحيد الإسلامية أساساً لمنطلقها .

ويقوم منهج النقد الأدبى العربى (الحديث) الذى فرضة بعض الأدباء بعد الحرب العالمية الأولى على الأدب العربى على أساس مادي خالص فهو مبنى على أساس النظريات التى أستمدت مناهجها من نظرية داروين فى التطور وأصل الإنسان : هذه النظرية التى قامت فى دائرة العلم الطبيعى ثم نقلها الفيلسوف هربرت سبنسر إلى مجال المجتمع فطبقها على مبادىء الأخلاق ثم جاء برونتير الناقد الفرنسى فطبقها على الأجناس الأدبية ، هذا فضلا عن المفاهيم التى أعتمد عليها دعاة المذهب الغربى فى النقد الأدبى ، والتى إستمدوها من برونتير هذا ومن تين وسانت بيف وهم يرون أن الإنسان ما هو إلا أثر من آثار البيئة بمعناها الاجتماعى الواسع وأنه لا يكاد يفترق عن النبات والحيوان فى انتفاء الحول وإنعدام الأرادة وما يتصل بهذا من أن الفضيلة والرزيله ليست إلى حد كبير الا نتاجا لعملية تلقائية مثل الاحماض والقلويات فضلا عما ترتبط هذه النظرة جميعها به من أثر نظرية النشوء والارتقاء من حيث إنزال الإنسان من مكان البطولة إلى مكان الحيوان الذى يعيش تحت رحمة القوى المحيطة به وقد نما هذه النظريات الباحث الفرنسى اليهودى (دوركايم) ، من مفاهيمة التى تلقاها بعض أدبائنا هولاء فى جامعة السربون .

وجعلوا من كل هذا الخليط أساسا لنظريتهم فى النقد الأدبى التى جرى تطبيقها على المتنبى وأبن خلدون والمعرى ثم جرى تطبيقها على الشعر الجاهلى وعلى أدب القرن الثانى للهجرة ، وكان لها ذلك الأثر العميق من التضارب الذى أصاب القيم

الأساسة للأدب العربى والفكر الإسلامى والثقافة والتى ذهب الباحثون المسلمون فى تعقب أثارها فلم يصلوا إلى هذا المعنى إلا منذ وقت قريب حين تبين محاولة إخضاع الادب العربى للمنهج الاجتماعى الذى رسمه دوركايم والذى يعترف بأن الإنسان حيوان إجتماعى وإن مختلف قيم المجتمع ليسب أصيلة فيه ، والمنهج النفسى الذى التقطه الادباء من نظرية فرويد والذى يرى إن الإنسان عبد لشهواته وإن الجنس هو المحرك الاول لكل تصرفاته .

وقد غلب المذهب الاجتماعى على دراسات الادب والتاريخ ، وغلب المنهج النفسى على دراسات التراجم والشعر ، ومن هنا ظهرت تلك الاراء الغربية التى تمسك بها بعض الادباء والتى لا تفق من قريب أو بعيد مع مفاهم الفكر الإسلامى والثقافة العربية الإسلامية .

وقد عارض كثير من الباحثين هذا المنهج الوافد فى نقد الادب العربى

كذلك هناك خلاف عميق حول إخلاقية الادب فقد كان من أبرز مادعا إليه المذهب الغربى فى الأدب هو تحرير الأدب من طابع الأخلاق ودفعة إلى تصوير الغرائز والأهواء فى غير ما قيد وذلك باسم حرية الأدب التى أطلق عليها مصطلح الفن للفن ، وقد إستهدفت هذه الدعوة التى أتسع نطاقها وقامت من أجلها المناظرات والمحاضرات فضلا عن ذلك الفيض الضخم من القصص الفرنسيه المكشوفة التى جرى ترجمتها وتقديمها باسعار زهيدة والقائها بين أيدى الشباب والفتيات إستهدفت الاستخفاف بالقيم الأخلافية والغمز لكل ما يتصل بالعقائد الدينية والسخرية بالفضائل والبطولات والدعوة إلى الأطلاق بدون حرج والجرأة على المقدسات بل أن ذلك قد جرى تطبيقة فى بيئات مختلفة منها بيئة العلم الأساسية وقد لقيت نظرية حرية الأدب ومعارضة الاخلاق نقداً وإعراضا مصدره تعارضها مع طابع الأدب العربى أصلا وكشف الباحثون عن أن حرية إبى نواس وبشار لم يكن مصدرها الأدب العربى أومفاهيم الإسلام الاجتماعية وإنما مصدرها تطلعاتهم الحسية واهدافهم الشعوبية إلى أرادوا الجهر بها لهدم مقومات الأدب العربى الأصيلة وأعلاء مفاهيم المجوسية والأباحية التى تحرر منها الأدب العربى بعد الإسلام .

ثالثا : مناهج اللغة العربية

وأجهت اللغة العربية محاولات ضخمة من أساليب التغريب والغزو الفكرى ، رغبه فى فصل اللغة الفصحى اللغة المكتوبة والفصل بين بيان القرآن الكريم وبيان الكتابة العامة ، والهدف هو عزل القرآن الكريم عن الحياة الفكرية والأدبية ، على النحو الذى عزلت به الكتب القديمة عن اللغات والمعاصرة ، ومن ذلك الدعوة إلى العامية ، فقد حرص عدد كبير من المتشرقين ان ينصحوا « المسلمين والعرب » بالتخلص من اللغة العربية كما تخلصت الشعوب الأوروبية من اللغة اللاتينية ، وتغليب لهجاتهم فى كل قطر حتى تصبح كل لهجة منها لغة إقليمية كما فعل الأوربيون باللاتنية حين أوردوها المتحف وإقاموا من لهجاتهم لغات هى الفرنسيه والانجليزيه والألمانية الحاليه ، ولطالما الح بعض دعاة التغريب على هذا المعنى فرددوه وانخدع به بعض كتاب العرب ، مع أنه ليس هناك شبه للمقارنة بل هناك فوارق عميقة منها (أولا) أن اللاتينية ماتت كلغة للشعب بموت الدولة الرومانية وبقيت لغة الكنيسه والعلماء ، أما الشعب فكانت اللغة على لسانه تتكيف بتكيفات مختلفة حسب الأمكنة أو والازمنة والعناصر .

• وقد حاول الاستعمار والتغريب أن يقول بأن اللغة العربية لغة أمة هى الأمة العربية وإن كل قطر من شأنه أن يكتب لغته وإن هذا الأمر يستدعى أن يتناول هذه اللغة على النحو الذى يرضاه ويراه محققاً لهذه الغاية ، وطرح القضية على هذا النحو يحمل طابعا خطيرا من التموية والتزييف والتجاوز .

وقد يمكن أن يكون صحيحاً فى أى بلد من بلاد العالم وفى مواجهة أى لغه ولكنه يصبح عسيراً جداً حين يطرح بالنسبة للغة العربية ، ولوان اللغة العربية لم ترتبط بالقرآن والإسلام لكان يمكن أن يكون هذا القول فيه مجال للنظر .

أما وقد إنزل القرآن منذ أربعة عشر قرناً باللغة العربية فانشأ عالم الإسلام الفكرى والاجتماعى والدينى فقد أصبح للغة العربية وضع مختلف لاشبيه له فى أى لغة أخرى ، إذ لم يعد للعرب وحدهم حق التصرف فى اللغة العربية ولم تعد اللغة العربية لغة إقليمية تخص قطراً بل لم تعد الأمة العربية نفسها مطلقة الارادة

فى التصرف فيها هذه هى الحقيقة التى وأججت محاولة التغريب والغزو الثقافى منذ قام ولكوكس فى مصر وماسنيول فى الشام وكولان فى المغرب ثم تابعهم بعد ذلك سلامه موسى والخورى مارون غصن ولويس عوض وغيرهم بمهاجمة اللغة العربية .

وقد حوربت اللغة العربية الفصحى منذ وصل الاحتلال الغربى إلى بلاد الإسلام حوربت فى البلاد الإسلامية بإيقافها وتنمية اللهجات القديمة واللغات الغربية فكل مستعمر قد عمد إلى فرض تعليم لغة ، أما فى البلاد العربية فقد حوربت اللغة العربية بحصرها فى الجوامع والاستعاضه عنها بالعامية الدراجة ، وكذلك جاءت الدعوة إلى الغاء الحرف العربى والاستعاضة عنه بالحروف اللاتينية وجرت حملة واسعة بالادعاء بعجز اللغة العربية عن إداء مهمتها إزاء المصطلحات الحديثه وصعوبة تعلمها وتعالت الاصوات بالدعوة إلى تمصير اللغة العربية وأدخال الكلمات العامية إليها وقد تصدى لهذه الحملات عدد كبير من المفكرين المسلمين والعرب فى مقدمتهم على يوسف ومصطفى صادق الرافعى وأحمد زكى الملقب بشيخ العروبة وعبد العزيز جاويش ومحب الدين الخطيب والدكتور محمد محمد حسين وكشفوا زيف هذه المحاولات كلها وأبانوا عن مقدرة اللغة العربية ومرونتها وعارضوا كل هذه الشبهات .

ومن هذه الدعاوى المسمومة دعوى « تطوير اللغة » وهناك من يفسر هذا فيقول :

أنه تطوير الفصحى حتى تقرب من العامية لا العكس الذى هو من الامور الطبيعية وإنما يعنى أصحاب هذه الدعوة المريبة التحلل من القوانين والأصول التى صانت اللغة خلال خمسة عشر قرنا أو نزيد فإذا تحللنا من القوانين والأصول التى صانت لغتنا خلال هذه القرون المستطاولة كان نتيجة ذلك تبلبل الالسنه وتوسيع رقعة الاختلاف بين الاقطار العربية حتى تصبح عربية الغد شيئا تختلف كل الاختلاف عن عربية القرن الاول أو عربية اليوم ، وتصبح قراءه القرآن

والتراث العربى والإسلامى كله متعذره على غير المتخصصين من دارسى الاثار ومفسرى الطلاسم .

كذلك فلابد من الأشارة إلى محاولات النفوذ الأجنبى لمقاومة نمو اللغة العربية .

والتمكين للغات الأجنبيه : الفرنسية والانجليزيه على الخصوص فقد قطع الاستعمار الغربى الطريق على توسع العربية بين مسلمى العالم حيث كان من الطبيعى أن يمتد بامتداد الإسلام إلى مختلف المناطق بحسبانها لغة الثقافة والدين .

رابعا : مناهج التاريخ

إن أخطر ما واجه كتابه التاريخ فى مرحلة الاحتواء والتغريب تلك المحاولات الوافدة لتفسير تاريخ الإسلام من خلال نظريات وضعية تتطابق مع أيدلوجياتها وبيئاتها وإبرز ذلك لتفسير الغربى الليبرالى القائم على الفردية والحرية والنظره الأستهلاكية والتفسير الماركسى القائم على النظرة المادية وكلا النظريتين قاصرة وغير صالحة للتفسير التاريخ الإسلامى الذى تقوم وقائمه على مفاهيم مختلفة تماما عن مفاهيم المادية والفرديه والتى تستمد روحها من الإيمان العميق بالله والتصحية فى سبيل العقيدة وبذل النفس رخيصة فى سبيل إعلاء كلمة الله .

ذلك إن الإسلام الذى يقوم منهجه على تكامل الروح والمادة ، والحياة والموت والدنيا والآخرة والنفس والجسد ، والثوابت والمتغيرات والكلى والجزئى ، لا يمكن أن يفسير بمنهج جزئى إنشطارى كمناهج الغرب ، سواء كان مادياً أو روحياً خالصاً .

ولذلك فإن هذه المحاولات كلها التى تحاول أن تضع الإسلام فى صف الديمقراطة مرة أو الاشتراكيه مره أو الحرية مره ، كلها قاصرة فالإسلام له ذاتيه الخاصه وتكوينه الجامع المنفرد الذى قد يلتقى ثمة مع جانب من هذا

أو ذاك ولكنه لن يكون إلا هو وحده الذى تعجز المناهج المادية ونظريات التفسير الجزئية عن إستيعابه وفهمه .

ولقد واجه التاريخ (الإسلامى) حملة ضخمة من حملات التغريب والغزو الثقافى تستهدف إلى أثاره الشبهات والشكوك حوله ، بهدف وضعه موضع الازدراء والانتقاص ، فى نظر أهله ، وحتى يفقد أهميته من حيث أنه قوه أنبعاث ويقظة .

وكان هدف التغريب ولايزال ينصب على (إختلاق تاريخ إسلامى منفر) .

عسى إن ينتزع من المسلمين ثقتهم فى ما ضيهم الفاخر ومن أنفسهم كمسلمين ، ويسلخهم من تراثهم الفكرى وتاريخهم الإسلامى فيصبحون بلا ماض فتضعف معنوياتهم ، وبذا تسهل السيطرة عليهم فكرياً وثقافيا ، مقدمه للسيطرة عليهم عسكريا واقتصادياً ، وقد جرت المحاولات لاحلال مناهج الغربى فى تفسير التاريخ الإسلامى بديلا للدراسات الإسلامية وفرضت كتب التاريخ الغربى فى المدارس والجامعات وجعلت مناهج الغرب فى دراسة التاريخ هى الجواز إلى تخريج المؤرخين العرب والى صدارتهم .

وقد إمتلات هذه الدراسات بالتطاول على أعلام الإسلام وقادتة وتوابعه والتشهير بهؤلاء العظماء فى كل عصر ، عن طريق تزييف طائفة من الأخبار المشكوك فيها والقصص والأعتماد على مصادر غير أصيلة أو مطعون فى صحتها لا لتماس هذه الشبهات حول بطولات رجال التاريخ الإسلامى ، وأباح بعض المتصدرين فى الجامعات ، للخيال أن يذهب مذهبه فى إبتكار الصور التى تقرب للناس حقائق التاريخ ، وبذلك جرى تصيد الروايات من هنا وهناك لمحاولة دعم إراء محرفة معدة أساساً لا ثارة الشبهات وما تزال هذه المحاولة تتخذ للتآمر على التاريخ الإسلامى قديما وحديث .

فقد أشار الشيخ أبو بكر بن العربى فى كتابه (العواصم من القواصم) إلى هذه المراجع المشبوهه حين قال : احذروا من المفسرين والمؤرخين وأهل

الأدب فأنهم أهل جهالة بحرمات الدين وغلى بدعة مصرين فلا تبالوا بمارووا ولا تنقلوا رواية إلا عن أئمة الحديث :

وثمة خطر أخر خطير وأجه التاريخ الإسلامى فى العصر الحديث :

ذلك هو مفهوم التاريخ فى الفكر الغربى ، فقد ظهرت عدة تفسيرات تحاول أن تفرض نفسها على فهم التاريخ منها التفسير الجغرافى ، والتفسير البيولوجى والتفسير الاقتصادى والتفسير الاجتماعى والتفسير الدينى .

وقد حاول كل من الباحثين أن يؤكد تفسيره وتغلبه على كل العوامل ويرى البعض أن العامل الجغرافى هو العامل الأول إعتماداً على التضاريس الأرضية ومصادر الثروة وتوزيع الحياة والأحوال الجوية ويرى غيرهم أن أثر الوراثة هو العامل الأوحد أو الأهم .

ويريد أخرون أن عامل البيئة هو القوة المؤثرة فى حياة الناس .

ويريد ماركس : إن العامل الاقتصادى هو العامل الأساسى فى حركة التاريخ.

ويريد تويفبى (التفسير الاجتماعى والحضارى) أن مواضيع التاريخ الصحيحه هما المجتمعات الإنسانيه ومدنياتها لا الشعوب والأقطار ، ويرى فرويد أن العامل الأساسى ليس سوى أزمات نفوس الأفراد التى درت إلى الانقلابات الهائلة فى التاريخ ويرى أصحاب نظرية التفسير البيولوجى للتاريخ : أن التاريخ سيتناول حياة الإنسان من حيث هو إنسان ويتحدث فى أثر الزمن فيما هو إنسانى بحت والبيولوجيا هى تبحث عن أثر الزمن فى الكائنات الحية من حيث النمو والاضمحلال والتطور وهناك تفسير هيجل السياسى ، وكل هذه النظريات مجرد إحتمالات وفروض ، ونظرات محدودة قاصرة ، ومركزه على جانب وأحد ، ولعلها جميعا تمثل مجموع العوامل المؤثرة فى التاريخ على أقدار قاصرة وادوار متفاوته ، ولقد عجزت كل نظرية من هذه النظريات فى أن تحقق الغرض أو أن تثبت سيطرتها بمفردها على تفسير التاريخ .

أما مفهوم الإسلام لتفسير التاريخ فهو لا يأخذ بعامل وأحد من هذه العوامل

ولكن مفهوم جامع يستمد طابعه الأساسي من الفهم لإرادة الله العليا المحيطة بالكون والأشياء وبالترابط الوثيق بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة وبين إرادة الإنسان ذات الأثر الجوهري في التعبير وبين العوامل المادية والروحية والنفسية جميعاً، فليس لعامل واحـــد مهما كان قدرة الانفراد بالتأثير وترى النظرية الإسلامية أن العوامل المعنوية : روحية وأدبية ونفسية لها آثارها التعبيرية التي تزيد كثيراً عن العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي يركز عليها الفكر الغربي في مرحلته المادية التي يعيشها في هذه القرون .

خامسا : مناهج العلم

حاولت اطروحات الفكر الغربي الوافد أن تفسد مناهج المسلمين للعلم من خلال محاولات كثيرة قائمة على المغالطة والانحراف :

أولا : أدعى الغربيون أن المسلمين لم يقدموا إلا ترجمات العلوم اليونانية إلى الغرب وأنهم لم يكن لهم دور حقيقي في بناء منهج العلم الحديث وكانوا في ذلك متعسفين إزاء الحقيقة التي يعرفها العالم كله وهو أن المنهج العلمي التجريبي أنشأه المسلمون وأنه نشأ في أحضان الإسلام وقام على مفهوم القرآن :

« قل أنظروا ماذا في السموات والأرض »

« قل هاتوا برهانكم » « أن يتبعون الا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا »

ثانياً : حاول الغربيون طرح مفهوم مادي للعلم ينكر خالق الكون وصانع الحياة — جل شأنه — والوقوف عند المحسوسات وإنكار ما وراءها من دين وغيبيات ووحي رسالات السماء واعتبار ذلك كله من الوهم الذي يغرق فيه الجهلاء .

واستعلى مفهوم العلم المادي علواً كبيراً حتى أدعى أنه يستطيع أن يفسر الحياة وأن يحكم الحياة ثم لم يلبث العلم أن تحطمت في وجهه هذه الزهوة الكاذبة حين عجز عن فهم كنه الحياة فعاد العلميون يقررون أن العلم يقف عند تفسير ظواهر

الأشياء وقرر العلمـــاء أن العلم إنما يقدم مجموعة من الفروض الظنية لتفسير الطبيعة .

ثالثاً : حاول الفلاسفة أن يقدموا للبشرية مناهج إجتماعية وإيدلوجيات سياسية واقتصادية على أنها نظام وتشريعات تحل محل الدين وقد تبين فساد هذه المناهج وعجزها عن تحقيق إقامة المجتمع السليم ، وبان عوارها ، ولم تلبث أن احتاجت إلى الإضافة والحذف ثم كشفت الأيام عن أنها تحمل أهواء البشرية وأنها لا تستطيع أن تسامى المنهج الربانى .

رابعاً : إنحرف العلم عن الطريق الصحيح فى تجربته الحضارية المعاصرة ، وأتجه نحو أمرين غاية فى الخطورة أولهما الإسراف فى الاستهلاك وتحويل الموارد الضخمة من المعطيات والموارد إلى أدوات التجميل والتحلل والفساد والترف فكان ذلك من أخطر عوامل إهدار وتبديد الثروة البشرية .

ثانيهما : إتجاه العلم إلى صناعة أدوات التدمير والقتل والإبادة والتوسع فى مجال القنابل الذرية والهدروجينية وبذلك أصبح العالم عرضة للدمار .

ثالثهما : وضع مقدرات العلم الماديه الواسعة فى أيدى الدول صانعة الحضارة وحرمان الأمم الأخرى منها خاصة وأن المواد الأولية لهـــذه الصناعات والاختراعات صادرة عن البلاد المختلفة وقد استطاع النفوذ الأجنبى نهب هذه الثروات بأقل الأثمان وحرمان أهلها منها وإعادة بعض منتوجاتها إلى هذه البلاد بأغلى الأثمان ، كذلك فقد سيطرت الدول الكبرى على المواد المالية الناتجة عن مصادر الثروة والاحتفاظ بها فى مصرفها دون أن تمكن هذه الدول من إقامة صناعات بها فى بلادها .

خامساً : كان لفتوحات العلم أثرها البعيد فى الفكر الغربى وبلغ هذا الأثر غاية فى الادعاء بقدره العلم على القضاء على الدين وإعطاء الطبيعة موضع الله سبحانه وتعالى من أسباب الإرادة والقوة والحركة ، فاختفى بذلك تماماً من افق العلم وأبحاثه ونظرياته : الصانع الأكبر والخالق الأول الذي خلق من العدم

ومن غير مادة موجودة ، وكان لهذا آثاره العامه على الحضارة والمجتمع والحياة حين أعلى شأن العلوم المادية مع القديس العقل وتاليه الطبيعة بينما تراجعت العلوم الإنسانية فى كل ما يتصل بالنفس والروح والمعنويات والدين والأخلاق وكان هذا من أكبر وأخطار التى واجهت العالم المعاصر وسرما أطلق عليه أزمة الإنسان الحديث .

وكان من أخطر نتائج هذا الاتجاه المظلم محاولة تفسير العلوم الانسانية بالأساليب التجريبية أو تطبيق تجارب الحيوان على الانسان وقال الباحثون أن جسم البشريه قدتضخم تضخما خارقا للمادة ، بينما إنكمش عقل البشرية وروحها فلا تستطيع فهم الحياة .

وقد تأكد الان أن العلوم الانسانيه لاتفسر بالمذاهب الماديه وأن العلم عجز عجزاً كاملا عن القضاء على الدين وقد اكد الدين الحق أنه هو الذى يستطيع أن يضع الاطار الاخلاقى للحياه وللعلم ، ويرسم المنهج الذى تقوم عليه العلاقة بين الله تبارك وتعالى وبين الانسان .

وقد أقام الاسلام منهج العلم ومنطلقه من حرية البحث والتجربة على اساس الاخلاقية : أخلاقية القيم والتقوى الربانية حتى لايستعلى بنفسه أو تستغلى به طائفة من الناس فيهددوا البشريه أو يحرموها ثمرته ، وحتى لا يكون أداة لابادة الامم أو إثارة القلق والاضطراب فى المجتمعات .

سادسا : منهج الفلسفه

لم يقف الفكر الاسلامى أمام علوم الامم الا إذا تعارضت مع مفهوم التوحيد وعندما ترجمت الفلسفات القديمه من أثاره اليونان والهنود والفرس وهى يشمل - العلوم الطبيعة والعلوم الرياضيه ومايسمى فلسفه الالهيات فأن هذه الاخيرة هى التى حدث الخلاف بشأنها بين الاسلام وبين الفلسفات الهلينية والغنوصية على السواء لانها عجزت تماما عن إن تصل إلى تحديد الصلات بين الله سبحانه وتعالى وبين الكون والبشر على نحو صحيح ، فكان هناك القول بالتعدد فى الفلسفه الشرقيه والقول بإن الله (جل شانه) لايحيط علما بالجزئيات تعالى الله عما تقولون علوا كبيراً لذلك عجزت عن أن نفهم أن العالم مخلوق لله فقالت بقدم العالم وعجزت عن تحديد العلاقه بين الله سبحانه وتعالى وبين العالم وقالت بوحدة الوجود وأن الله سبحانه حال فى الكون وهذه كلمه تتعارض مع فكره التوحيد الاساسيه التى جاءت بها الأديان لذلك عجزت عن فهم الغيب فقالت بالدهرية وانكرت بعث الاجسام وكما قالت الفلسفه بحتمية ارتباط السبب بالمسبب وجهلت قدرة الله تبارك وتعالى على خرق الأسباب ، وعندما نقلت الفلسفات الشرقية والغربيه إلى افق الفكر الاسلامى جرت المحاولات فى إذايتها فى مفهوم الاسلام ولكن هذه المحاولات عجزت بنتيجة الفساد الجذرى مع مفاهيمها ومن هنا كانت ردود الفعل الاسلاميه على ماخالفت فيه الفلسفه مفهوم التوحيد وكذلك اختلف مفكرو والاسلام وعلمائه وفقهائه مع الفسلفة فى مسائل كثيرة واهمها مسائل الاخلاق فانكروا المذاهب الابيقورية وانكروا الاديان الوضعيه التى تقوم على الاداب الاخلاقية منفصلة عن عقيدة التوحيد كالبوذية وانكروا مفهوم الفناء الذى جاءت به الفلسفات الهنديه .

ومفهوم النسك الذى الذى يعتزل الحياة وانكروا التناسخ والحلول والاتحاد ومشاعية الملك للنساء والاموال وأنكروا اعلاء العقل وإفراده

بالنظر كما انكروا افراد الحدس والوجـدان بالنظر ، وعارضوا المثل الاعلى اليونانى الذى يقوم على الجمال والعرى والاباحيه وعباده قوة الاجسام وتأليه الابطال وانكروا اللاأدرية والشك الهدام .

وكان هذا هو موقف الاسلام من الفلسفة عندما ترجمت فى القرن الثالث الهجرى فقد رد منها الفلسفه الالهية التى تسمى علم الاصنام وقبل منها الفلسفة الرياضية والطبيعية وقام علماء المسلمين ينكرون هـذه المفاهيم ويعارضونها وفى متقدمتهم أحمد بن حنبل والشافعى والغزالى وأبن تيميه مما يكشف أن للاسلام منهجه الفكرى الاصيل والمستقل والمتميز عن المفاهيم الفكريه الأخرى ؛ وكيف أن الاسلام لم يقبل التبعية لاى منهج فكرى آخر فضلا عن الفوارق العميقه بين منهج حضاره اليونان القائمة على الوثنية وعبودية الفرد والاباحية ، فكيف يمكن لحضارة الاسلام القائمه عـلى التوحيد والاخاء البشرى والمسئوليه الاخلاقيه أن تقبل منهج اليونان .

ولما جاء النفوذ الأجنبى إلى مصر والعالم الاسلامى وكان من أخطر مجال لانه طرح مفاهيم الفلسفات اليونانية والهلينيه والغنوصية مقدمة للفلسفة المادية فجاء المستشرقون إلى الجامعه المصريه القديمة ليعلنوا أن الفلسفة العربية ليست الا الفلسفة اليونانية مكتوبه بالعربية ، وكان تركيزهم على الكندى والفارابى وأبن سينا وما كان هولاء الا تلاميذ للمدرسة اليونانية وجاء لطفى السيد فترجم باسمه أبرز كتب ارسطو واستعلت الدعوة إلى أن (ارسطو) هو شيخ الفلاسفة والمعلم الأول للمسلمين ودعا لطفى السيد المسلمين والعرب إلى إتخاذ ارسطو وفلسفته منطلقا إلى النهضه الجديدة وكانت كتابات طه حسين وغيره من بعد دعوة ملحة إلى هذا الطريق والحقيقه أن ارسطو لم يكن منطلق الحضارة الغربية المعاصره فى عصر النهضه أو ما بعدها ، ذلك أن أول عمل قامت به هذه النهضة هو نقض ارسطو وتزييفه والحملة على منهجه مع إعتبار منهجه عامل التجميد الذى عاش فيه الغرب معتقلا قرونا حتي جاء منهج التجريب الاسلامي الذي أطلق الطاقات إلى عصر العلم الحديث

ولقد كان علماء المسلمين انطلاقا من القرآن الكريم هم الذين إنشأو المنهج العلمى التجريبى الذى كان أول حجر فى بناء الحضارة والعلم الحديث بشهادة (درابر وبريفولت وجو ستاف لوبون) فى القديم وسارتون وهونكه وجارودى وغيرهم فى العصر الحديث ومما صدر فى هذا الشأن كتاب عنوانه (شمس الله تشرق على الغرب) وكتاب (أوربا لدت فى آسيا) إذن فلم يكن لطفى السيد صادقا فى دعواه ولم يكن طه حسين امينا حين نقل الينا هذا المعنى ، ذلك أن المسلمين نقدوا ارسطو منذ عصر الترجمة وما نقده به الغربيون كان بعض ما قاله المسلمون وقد رفض الغربيون ارسطو كمقدمة لرفض ارجانون اليونان وقبول المنهج التجريبى الاسلامى الذى رفعهم إلى ذروة التكنولوجيا الآن وصدق الدكتور محمود قاسم حين قال :

لقد نقلوا المسلمين إلى ارسطو ونقلوا أنفسهم إلى منهج المسلمين ذلك أن ارسطو هو الذى سيضع المسلمين مرة آخرى داخل القوقعة المنطقية التأملية المغلقه ويحرمهم من ثمرات التجريب الذى أنشأه ونماه العرب والمسلمون .

سابعا : منهج الفن

يقوم المفهوم الاسلامى للفن على استحاله التناقض مع الفطره ، فإذا كانت الفنون من روح الفطرة وجب الاتخالف أوتناقض دين الاسلام فى شيء ، فإذا خالفت الفنون الدين فى أصوله ودعت صراحة أو ضمنا إلى رزيله من أمهات الرزائل التى جاء الدين لمحاربتها وعاقت الإنسان عن أن يعمل بالفضائل التى جاء الدين لايجابها على الإنسان حتى يبلغ ما قدر له من الرقى فى النفس والروح إذا خالفت لفنون الدين فى شيء من هذا أو شيء غير هذا فهى بالصورة التى تخالف بها الدين فنون باطله ، فنون جانبت الفطره إالتى فطر الله الناس عليها — هذا هو الفن كما عبر عنه الدكتور محمد أحمد الغمراوى ومفهوم الفن فى الاسلام يقوم على أساس أنه عنصر من عناصر الفكر يتكامل مع والادب الإجتماع والاخلاق والدين والحضاره وهو فى الاسلام له طابعة الاصيل الواضح المباين لمفهوم الفن فى الطاقات والحضارات الآخرى : قوامه الاخلاق وطابعه التوحيد يتسامى بالغرائز ويرتفع بالنفس الانسانية إلى الكمال دون أن يبتعد عن الواقع — والفن فى نظر الاسلام أداة لتجميل الحياه ووسيلة الاسعاد الروحى والنفس يتحرير الانسان من عالم الاهواء والغرائز ، وإطلاقة فى نظرة حره إلى الكون والوجود يعرف منها قدره الله تبارك وتعالى وعظمة ويزواد بها ايمانا .

غير أن النفوذ الأجنبى الذى أظل البلاد الاسلاميه ، حاول أن يزيف مفهوم الفن العربى الأسلامى بادخلال مفاهيم الوثينه والماديه التى عرفها الفن فى الغرب فقد كان الفن اليونانى بطابعة المادى والوثنى يجعل الأولويه للتماثيل المسيحية أعجابا بالاجساد وعبادة لصور الجمال ومظاهر القوة ولكن الفن الاسلامى مستمدا من مقوماته الاساسيه يجعل البيان والشعر والادب فى مقدمة الفنون ، الكلمه البليغة والفكره الموحية ، وذلك انتقالا بالانسان

من عالم المادة إلى عالم الفكر ، فالتأمل أوسع العوالم والتفكر فى خلق الله اعظم معطيات العقل والروح : (نون والقلم وما يسطرون) وبذلك أصبح رائد الفن : البيان الذى يتمثل فى اسمى صوره بالقرآن الكريم وبذلك دفع الاسلام الفكر البشرى إلى الأمام إنتقالا من مفهوم الماديات إلى مفهوم المعنويات ، وسلك المعنويات والماديات اطار جامع متكامل ، وبذلك فقد حرر البشرية من مفهوم المادية الخالصة التى تقدس الجسد والشهوات والغرائز والوثنيات وتقيم لها المهرجانات والطقوس ودفع البشرية إلى الانتقال من تجسيد البطوله فى صورة مادية إلى تكريم عمل الانسان نفسه .

وأبرز سمات الفن فى الفكر الغربى لاتجد فى مجال الفكر الاسلامى مجالا لها ، فالاسلام لا يقر الصراع بين الالهة والإنسان أوبين القدر والإنسان على النحو الذى يقوم عليه الفن الغربى ، ولا يؤمن المسلم بإن الانسان يثبت ذاته بمصارعة القدر والالهة ولا بان البطل الصالح يتحطم فى يد القدر والآلهة وكل هذه المعانى المأساوية مستمده من فكرة (الخطيئة) الأصليه ، كما أن المسلم لايؤمن بتعدد الآلة ولاتجسيد الآلة فى صورة وشن حسى ملموس كالتماثيل العديدة فى العقائد الغربية فى ذلك الخلط العجيب بين المسيحية والهلينية — كذلك فأن المسلم لا يعبد الجسد ولا أى نوع أى من العبادات الوثينة التى يقدم لها القرابين وكل ما يتصل بذلك من أساطير الجسد والجمال عند الأغريق وهى حافلة بالمباذل لاتجد فى افق الإسلام قبولا ، المسلم لايؤمن بعبادة الطبيعة أو المحسوسات ، كذلك فإن الإسلام لايقر تجسيد البطولة فى صوره ماديه ليس فقط حفاظا على مفهوم التوحيد من خطر الاتصال بالتماثيل والاصنام التى كانت تمثل عبادات ما قبل الإسلام ، ولكنه ارتفاعا بالنفس الإنسانية من أن تتمثل فى مفهوم مادى ، بينما جاء الإسلام محرراً للبشرية من التجزئه بين الماديات والمعنويات .

وهكذا حقق الفن الإسلامي مذهبا جديدا مستمدا من حقائق الإسلام فكان فنا منطلقا وتجريدا معبرآ وليس جامدآ ، وأن المرقشة فى الفن الإسلامى حيث لا مبدأ لهـــا ولامنتهى ، انما تمثل مفهوما من مفاهيم التوحيد لانها تسعى وراء الله (تبارك وتعالى) الذى هو الأول والآخر ومنه تبدأ الأسباب واليه تنتهى المسببات ، والرقش حين يمتد بلا نهاية انما يسعى وراء الصورة المثلى وهذه اللانهائية انما تحمل دلالات هامة للروح الإسلامية التى آمنت بالله تبارك وتعالى غير المنظور وغير المحدود والذى إليه إتجهت قلوب المؤمنين لترتفع إلى مستوى هذا المثل الأعلى عن طريق العمل الصالح أو طريق الاجتهاد والابداع .

* * *

الباب الثامن

إقتحام العقبات

كان هدف مخطط الغزو الفكرى والتغريب الذى نسجيه القوى الكبرى حين زحفت للسيطره على العالم الإسلامى فى جولة جديده بعد أن انتهت بالهزيمة الساحقة فى الحروب الصليبيه ، والحيلوله دون قيام الأمه الإسلامية فى القارة الإسلامية بامتلاك ادارتها وبناء مجتمعها وإستئناف بعثها الحضارى والثقافى وكانت الخطة محبوكة معقدة متصلة الأواصر ، على النحو الذى كشفت عنه حلقات هذا البحث وكانت القوى الكبرى تعرف تماما :

أولا : أن الحضارة الغربية شاخت ونضب معينها وانحرف طريقها .

ثانياً : أن هذه الأمة القائمة فى القاره الوسطى بين آسيا وافريقيا هى الأمة التى تملك مقدرات الحضارة والنهضه واقامة المجتمع الإنسانى الكريم .

ثالثا : أن هـــذة الأمة تملك المنهج الربانى الأصيل الذى لاينحرف ولا يضطرب والذى يقيم العداله والرحمه والأخاء البشرى للعاملين .

رابعا : أن هذه الأمة تملك مصادر الثروات الكبرى وتملك الطاقه وتملك التفوق البشرى .

خامسا : أن الإسلام والتحديث لا يتناقضان ، وإنما يرفض المسلمون التغريب والتبعية والأحتواء والأنصهار فى بوتقه الحضارات القائمة .

سادسا : أن الصحوة الإسلامية القائمه الآن هى حركة حقيقيه ذات جذور عميقة وإنها نابعة من الرغبه فى إمتلاك الإدارة وإقامة المجتمع الإسلامى وإنها لا تشكل تهديدا للعالم غير الإسلامى .

سابعا : أن الغرب يتطلع البعض إلى أفق جديد ويطالب بنظام عالمى جديد بعد إعلان فشل النظام الليبرالى الغربى الأشتراكى والماركسى والشيوعى وليس هناك غير الإسلام .

وهذه الحقائق ترددها الآن جميع الأقلام الغربية المنصفه التى عاشت فى قلب المعركة ، بل أن هذه الحقائق وغيرها وقد دفعت عدداً من

المفكرين الغربين الذين كان لهم دورهم الخطير فى التحولات الراسمالية والماركسيه وغيرها إلى اعتناق الإسلام باعتباره هو الملجأ الوحيد للبشرية .

ولكن هناك قوى غربية لها أهداف ومطامع تحاول أن توقف هذا التيار وتصد هذه الموجة العارمة وتعمل على تأخير النهضه ومحاولة تحطيم إمتدادتها حتى تحتوى مفاهيم الإسلام فى المقاومة وجهاد الغاصب والمرابطة والأعداد واليقظة فى مواجهة أى عدو أو دخيل .

وهى تعمل ببث عوامل الفساد والأباحة والتحلل والترف والحرام على هدم هذه الاجيال الجديده وتفريغها من القدرة على المقاومة والثبات وحماية الزمار ، حتى يمكن تحطيمها والقضاء عليها .

وهناك ظاهرة استنزاف ثروات المسلمين عن طريق الاستهلاك والمغالاة فى المطعم والمشرب والملبس والحافل والمراقص والفساد فضلا عن نهب ثروات المسلمين وتخريب اقتصادهم بأحتوائه والسيطرة عليه .

ولاريب أن هذه المحاولات كلها ترمى إلى تدمير المجتمع الإسلامى والأقتصادى الإسلامى وإزالة الهوية الإسلامية والقضاء على الذاتية وغرس قيم دخيلة فى نظام القيم السائده فى المجتمع وفرض أعراف مخالفة للإسلام على الناس فى طعامهم وشرابهم وملبسهم ومسكنهم ، وأخراجهم من قيمهم وأعرافهم وتقاليدهم التى بناها الإسلام فى أربع عشر قرنا هذا فضلا عن ضآلة الحجم الذى يتحول فيه التوجيه الإسلامى حيث لاتفسح له فى الصحف المساحات الكافيه . ولا يتجاوب دعوته مع التيار العلمانى المسيطر والذى لا يريد مهاجمه فساد الأخلاق وانحراف المجتمع لأنه هو الذى يغذيها عن طريق القصه والمسرح والأغنيه مع استغلال ظاهره الأنحراف الفرديه لاضفاء ظلها على المجتمع كله .

ومن ذلك ما يذيعه الشعوبيون والتغريبيون من سموم وشبهات ترمى إلى تغيير الهوية الإسلاميه واسلام وجدان الآمه وعقليتها إلى الاستغراب

ومن ذلك قول أحدهم أن الحضارة الإنسانيه حضارة واحدة وأن التمسك بالماضى يحول دون مواجهة تحديات العصر بهدف أن يظل المجتمع الإسلامى مجتمعا تابعا إستهلاكيا فقط لانتاج الغرب المتقدم .

وهم يحاولون أتهام [العودة إلى المنابع] بأنها ترمى إلى الرؤية السلفيه ويريدون بالسلفيه فى العصر الحديث ما كان يريد بها طه حسين حين تحدث عن القديم وغيره عن التراث وغيره عن الرجعية ولكنها مصطلحات تخفى وراء الهجوم على الإسلام علانية .

والحقيقة أن هناك هوية إسلامية تجمع المسلمين فى جميع أنحاء العالم ، هذه الهوية ترتبط بالثوابت فى فكر الإسلام وعقيدته لأنها تعمل على أساس ثابت وهى ليست إسلامية بمعنى أنها دينيه على مفهوم الغرب فالإسلام دين ونظام معا فى آن واحد وأن الأختلافات التى يدعون أنها تحول دون ثبات الهوية مع العصور أو البيئات هى خلافات فرعية قليلة لا تزيل (الأصول) الكبرى التى رسمت ضمير الأمة الإسلامية ووجدانها وعقلها خلال أربعة عشر قرنا وأن نظرة متعمقة فى الثقافات الإسلامية الموجودة فى الهند وأندونسيا وغرب أفريقيا لا يوجد بينها تباين حيث أنها من حيث الأساس مرتبطة بالقيم الإسلامية الأساسية أما أوجه الخلاف فهى من المسموح به فى دائرة المتغيرات وهى تتصل بالجغرافيا أو عوامل المناخ أو بعض الآثار التاريخية القديمة وهى خلاقات قليلة لا تغير من الملامح العامة الأساسية وهى ضرورية لأنها تدخل فى اطار المتغيرات وهى ليست هوية دينيه بمعنى الدين فى الغرب ولكنها هوية أسلامية بمعنى المفهوم الإنسانى الشامل أن الانتماء فى مفهوم الإسلام هو المحافظة على اللغة والعقيده والمقومات الاجتماعية من أن تنهار فى وجه المتغيرات التى تقدمها الحضارة الغربية التى ترمي إلى أحتواء المجتمعات الإسلامية وتذويبها فى بوتقة الامميه والعالميه .

نعم لقـد تراجعت الرابطة الدينية فى العصر الحديث أمام رابطة الجنس والوطن واللغة ، بدأ هذه التراجع فى الغرب ثم حملت رياح التغريب والغزو الفكرى هذا المفهوم إلى المجتمع الإسلامى الذى تغرب وفرضت عليه العلمانية ومفاهيم الفصل بين الدين والروح والمادية والوثنيات والقانون الوضعى والاقتصاد التربوى والتعليم العلمانى .

كان هذا التراجع فى الغرب ناتجا من الانحراف الذى عجزت به المسيحيه الغربية — وهى غير المسيحية المنزله — من دفـع المجتمع إلى العلم أو الحضارة أو التقدم وفرضت نفوذها وسيطرتها على المجتمع الغربى وعزلت الطوائف غير المسيحية فكان لابد أن ينكر هذا القيد أمام طبيعة المساواة البشريه التى أصبح الدين بعنصريته هذه حائلا دون إملاك الارادة الحرة أما فى الإسلام فالأمر يختلف إذ أن العلم والرابطه القومية والوطنيه جزء منه كما أنه إقام نظام الأخاء البشرى لكل بنى الإنسان وحمى الاديان والعقائد وأهلها وبيعها وكنائسها ولم يقف فى طريق العلم ولكنه دفعه إلى الأمام وجعل خير الأرض للناس جميعا ولم يجعل لجنس ما إستغلاء خاصا أو لوطن ما سيطرة خاصه .

وإذا كانت الرابطه الدينية فى العصر الحديث قد تراجعت وحلت محلها القوميات والاقليميات والوطنيات فرجع ذلك إلى أن الذى قاموا عليها فى الغرب افسدوهـا ولم يقدموهـا للبشرية على صورتهـا الحقيقية وسوف يعيدها الإسلام مرة آخرى على صورتها الحقيقية بعد أن تبين فسادها وخطرها وتقطيعهـا للأرحام وآثارهـا البعيده فى هدم الأخاء الإنسانى .

والحقيقة أن المسلمين يمرون بعصر التحديات التى إصبحت مكشوفه إمامهم تماما ويعرفون مصدرها واهدافها ولم تعد خافية عليهم ويعرفون مطمع الذين يتآمرون ويخططون ولكن على المسلمين أن يجمعوا أرادتهم على إقتحام العقبه بتحرير مجتمعهم من التغريب والتبعية ، لمواجهة هذه الصراعات

والصدامات والفتن والحروب الداخلية وهزيمة الجيوش العربية أمام اسرائيل ١٩٦٧ فليس ثمة سبيل للتغلب على هذه الصعوبات سوى الرجوع إلى الإسلام والتمسك بتعاليمه فهي وحدها القادرة على إعطاءه القوة الحقيقية إمام هذه التحديات ولا بد أن تكون روح النضال صادرة من الايمان بالله فلا يزال الغرب يدفع بسمومه وفتنته ويزداد عنفا كلما رأى علامات التقدم والنهضه والصحوة .

وهما الآفتان اللتان استطعتا الحضارات منذ القديم وأصابتا الحضارة الإسلامية والمجتمع الإسلامى هما الترف والإستلام للتغريب .

فلا شك أن آفة الترف والأفراط فى اللهو وتغلغل العناصر الغربية فى جسم الامة وإستخدام البطانة التى هى من دون المسلمين فى المناصب الكبرى ، وما يزال التغريب هو المدد الحقيقى إيضاً للامة الإسلامية فى هذا العصر وفى كل عصر ، التغريب هو تسميم الفكر الإسلامى بالتلبس بمفاهيم الأباحيين والزنادقه والشعوبيين والسفهاء مايتقل ويترجم من تراث الامم ، هؤلاء الدعاة إلى تاريخ ماقبل الإسلام والذين يفصلون بين العروبه والإسلام والذين يهدمون الإسلام عن طريق هدم اللغة العربية والدعوة إلى الفكر الحر لتهديم القيم والأخلاق .

ترجمة الفلسفات الوافدة التى تثير الشكوك والفحش والتى تقسم المسلمين بالفتنة الفكريه إلى شيع تتحارب ومذاهب يحمل بعضها الضغينة للبعض الآخر فتحل بذلك من قلوب المسلمين العقدة المقدسة والعروة الوثقى التى كانت من أهم إسرار قوتهم .

وهناك بعض الطوائف الدخيلة على الإسلام كالقاديانية والبهائيه والباطنية التى تتلقى المعونة والتوجيه من النفوذ الأجنبى والمبشرين وهم يعدونها لما اسموه ، ضرب الإسلام بالاسلام ، هذه الطوائف تقدس زعمائها

وترفعهم فوق مرتبة البشر وتشرح لاتباعها مالم يأذن به الله مستغلة أسم الإسلام لهدم الإسلام .

إن المعنى الذى حاول الأستعمار إسقاطه من النفسية الإسلامية هو إبراز الإسلام كعقيدة وتربية ، لم يكن يوما من الايام راضيا بالذل ولامساندا للخضوع ولامعينا على العبودية فى أى وقت من الأوقات فقد ربى الإسلام معتنقية على الاعتزاز الكبير بكرامتهم ورباهم على الايمان بأنهم خلقوا ليفرضوا وجودهم فوق هذه البسيطة ولينتزعوا مكانهم تحت الشمس لا ليكونوا عبيدا ولكن ليكونوا سادة ولم يكن الإسلام حليف الطغيان ولا حليف الظلم ولا حليف الأستعمار والظاهرة التى تكشف عنها دراسة التاريخ الإسلامى هى المقاومة فالأسلام هو الذى إستطاع أن يحرر المسلمين والعرب من رق الدول المستعمرة ذات العدة والعدد ، رغم أن المسلمين لم يكن لهم سند ولامورد وإنما كانت قوتهم الاساسية التى وأجهوا بها النفوذ الاجنبى هى قوة الروح والفكر والعقيدة واليوم وبعد أن حرر الاسلام المسلمين يجب أن يدفعهم إلى إقامة مجتمعهم ونظامهم ، كان الاسلام فى المرحلة السابقة عامل تحرر وهو اليوم عامل تقدم .

* * *

أولا : أخطاء مناهج التعلم

أولا : أول أخطاء مناهج التعليم هو صدورها من فكر مادى وثنى غربى، ذلك أن ما يطبق فى البلاد العربيه والإسلاميه من مناهج توضع فى كتب ومقررات هو مأخوذ أساساً من معاهد التبشير والكليات اللاهوتية ومدارس الارساليات وهو من محصلات الفكر الغربى المسيحى النزعة اليونانى الأصيل بمفاهيم التى تختلف عن مفاهيم الإسلام أساساً ولا يلتقى معها إلا فى أقل القليل فهى أولا لا تستجيب لحاجات الطالب النفسية، ومتطلبات نموه فى بيئة تختلف عن أسلوب الحياة من الغرب، وحيث تصدر تلك المنطلقات من عقيدة وسلوك وعرف مختلف، هناك حيث لا نعيا بالعرض ولا بالعفاف ولا بالغيرة ولا بالبكارة وهذه الأشياء جميعها لا قيمة لها ولا اعتبار لها بينما هى فى مجتمعنا الإسلامى من صميم القيم الأخلاقية والاجتماعية.

وهذا مايسمى « تناقض الأساس النفسى والاجتماعى »

ثانياً : الازدواجيه فى النظم التعليمية : من حيث إدخال مناهج وأنظمة تختلف مع طبيعة المجتمع الإسلامى والحضارة الإسلامية وهى تمثل المجتمع الغربى وتحدياته وتجيب على تساؤلاته، ومن هنا دخلت مناهجنا ودراساتنا مناهج وتصورات تتناقض مع الإسلام.

إن ما نتطلع عليه اليوم فى مطالع القرن الخامس عشر الهجرى وبعد مائةسنة من النفوذ الأجنبى المسيطر على التعليم والقانون والاقتصاد تتطلع إلى الجامعة التربوية الإسلامية بدلا للجامعة العلمانية فى إطار واضح قائم على :

• إعادة صياغة وتأسيس العلوم التربوية والنفسية والاجتماعيةوالاقتصادية فى ظل النظرة الإسلامية الكلية المكون والحياة والإنسان.

• تقديم الأدب "مربى المعاصر ونظرياته النقدية فى إطار إسلامى.

• عرض المشاكل المعاصرة فى ضوء حلول الإسلام لها .

• إن لا يوغل علم العقيدة فى مهاجمة مدارس الكلام والمنطقيين والفلاسفة بل ندرسها فى إطار عصرها وتحدياته .

• نقد الفلسفات القديمة والتيارات المعاصرة .

• وضع ضوابط للانفتاح على الثقافات العالمية للاستفادة من تجربة المجتمع الإسلامى الأول فى مواجهة الحضارات العالمية .

• إعادة صياغة مناهج العلوم الاجتماعية من تاريخ واجتماع واقتصاد وسياسة وتربية وعلم نفس .

• تطوير نظرية تربوية إسلامية تنبثق عن فهم الكتاب والسنة واستلهام تراث الفكر التربوى الإسلامى مع الإفادة من المعطيات السليمة للنظريات التربوية المعاصرة بعد صبغها بصبغة الإسلام .

وهذا الفصل الواضح بين مناهج المجتمع الإسلامى وبين مناهج الغرب ضرورة حتمية للحفاظ على الذاتية الإسلامية ووجهتها المنوط بها تبليغ رسالة الله تبارك وتعالى للعالمين فإذا فقدت خصيصتها القائمة على التوحيد إنهارت مهمتها ونحن نعرف أن الروح المهيمن على نتاج الغرب وحضارته بعيدة عن الإيمان بالله تبارك وتعالى ورسالاته .

وقد انطلقت النظريات الغربية التربوية من فلسفات مادية ، وتصورات علمانية ومعظم فلاسفتها من الماديين والعلمانين ، ونظرة إلى واقع المجتمعات الغربية تكفل الحكم على معطيات التربية الغربية : التحلل الخلقى ، الاحساس بالضياع ، الرغبة فى العدم ، تصاعد الجريمة ، تحدى القانون والعنف وشريعة الغاب فى التعامل مع الآخرين .

لقد اعتبر « فرويد » الإنسان عبداً للجنس الذى يتحكم فى مشاعره وسلوكه ويكون محور نشاطه الخاص والعام ، واعتبر « ماركس » الاقتصاد

هو محور هذا النشاط وكلاهما متأثر بنظريه دارون عن أصل الإنسان التى تهبط به إلى الحيوان ولذلك فإن مشاعره وفكره وسلوكه جميعا يرتبط بهذه النظرية فهو إما يدور حول محور الجنس أو محور الاقتصاد .

أما نظرة الإسلام ففيها تكريم الانسان بوصفة مخلوقا عاقلا مكلفا (ولقد كرمنا بنى آدم)

كذلك فنحن مطالبون بصوغ النظرآت الإسلامية فى علم الاجتماع والاقتصاد واستقراء التراث للوصول إلى المبادىء والنظريات التى سبقت نظريات الغرب . وأمامنا :

سحنون : آداب المعلمين .

القابسى : الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين .

الخطيب البغدادى : الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع .

ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم .

فنظرية استقلال السلطات المنسوبة إلى (مونتسيكو) فى إستقلال السلطة فقد سبق إليها الإسلام قبل مونتسيكو بأكثر من عشرة قرون وتعيين القضاة وإستقلالهم يتم من قبل الخليفة نفسه ولا يخضع لولاة الأمصار ، ولم يكن الخليفة قادراً بعد تعيينهم على التدخل فى شئون القضاء وأحكام القضاء .

كذلك فنحن مطالبون بإعادة صياغة التاريخ الإسلامى والعالمى من منظور إسلامى والإفادة من مناهج النقد التى ألفها رجال الحديث تحت عنوان مصطلح الحديث .

فالمسلمون أمة لها تراث خصب يستطيع أن يشدها إلى ماضيها ويكسبها شخصية متميزة فى حاضرها .

ونحن نعلم أن عصر الأحياء فى الغرب سبق عصر النهضة وبدأ من القرن الثانى عشر إلى القرن الخامس عشر واستفاد الاوربيون من منهج البحث

التجريبى عن المسلمين وقد أقر (برتزاندرسل) بأن العرب كانوا سادة التجريب ولكن لم يفطن إلى أنهم فعلوا ذلك فى إطار المنهج القرآنى بدلا من التنظير اليونانى حيث أن القرآن الكريم هو الذى لفت نظر المسلمين إلى الطبيعة وقواها الظاهرة والكامنة ودعاهم إلى الكشف عن أسرارها وقوانينها عن طريق:

الاختبار والتجريب

باستخدام العقل والحواس مبنيا أن الطبيعة مسخرة للانسان الذى من واجبه التعرف على قوانينها والإفادة من تسخيرها له وكذلك صوغ النظارات الإسلامية فى مجال الاجتماع والاقتصاد وفى مجال الأدب فإن أبرز مفاهيم الأدب الإسلامى : التزامه بالحلال والحرام وعدم الاستسلام للعصر ودعوة العصر إلى الالتقاء بالحدود والضوابط حيث لا يخضع الأدب الإسلامى لقوانين وقواعد الأدب الغربى ، وذلك لاختلاف الأطر والطرق وهى هناك قائمة على فكرة مادية محدودة ، وعلى هوى وظن فلابد من التحرر من قيود المذاهب النقدية الغربية .

ثانيا : التحديث فى إطار الأصالة

إذا كانت التربية الإسلامية هى قضيتنا الأولى فان قضيتنا الثانية هى : التحديث فى إطار الإصالة:

ذلك إن هناك مغالطتان واضحتان ترددهما كتابات الغربيين حول الصحوة الإسلامية ، أولاهما إن هذه الصحوة الاسلامية تشكل تهديداً للعالم غير الاسلامى وهو قول مردود بدليله وحجته .

الثانية : إن الاسلام والتحديث نقيضان لا يلتقيان .

والواقع أن الاسلام قد دعا إلى أمرين دعاءاً متصلا :

التحديث والتقدم ، ولكن مفهومه لهما تختلف عما يطمع فيه التغريب

باحتواء المسلمين داخل الحضارة الغاربة أو إخضاعهم لمفاهيم الغرب عن العلم والحضارة . والدعوة المرزولة التى تجرى على السنة التغريبين اليوم ، هى أن هناك حضارة واحدة وإن على المسلمين أن يقبلوا الانصهار فى هذه الحضارة وتقبلوا مفاهيمها الفكرية والثقافية قبل فاهيمها المادية والعلمية ، ولكن المسلمين يفرقون بين المعرفة وبين الثقافة ، فالمعرفة عالمية والثقافة قومية ، والمسلمون أمة عريقة لها منهج حياة ونظام مجتمع كامل متسق مرن ، أعطاهم مختلف الاجابات والحلول لمشاكل السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية ، هذه التى تسمى أسلوب العيش فهم ليسوا فى حاجة لنقل أسلوب آخر، أو اقتباسه أو الخضوع له ، ولأن أسلوب عيشهم يقوم على عقيدة التوحيد والاخاء البشرى والالتزام الخلقى فهو يختلف عن أسلوب عيش الغرب ، ولكنهم فى مجال العلوم والمعرفة والمفاهيم المادية والتكنولوجية يقبلون استقدام علوم الغرب ومعطياته ويصهرونها داخل بوتقة حضارتهم ، فهم لا يخضعون لها وإنما يصيرونها مواداً خاماً يشكلونها فى دائرة منهجهم العقدى والأخلاقى حتى تكون خاضعة لله تبارك وتعالى ومقيمة لمنهجه فى الحياة : وبذلك يقبل المسلمون التحديث دون تبعية ؛ بل يرى البعض إنه : لكى يتحقق التحديث لا بد من رفض التغريب بل نزعم إنه بقدر الاصرار والنجاح فى رفض التغريب يكون النجاح فى تحقيق التحديث وأمامنا تجربة اليابان الذى ظل اليابانى فيها محتفظا بحياته العائلية والاجتماعية وتقاليده وهذا أبلغ رد على الذين يطلبون من طلاب التحديث ترك القيم التى ورثوها .

إن الأمة التى تلقن أنها بحاجة إلى أن يتعلم آداب المائدة من عدوها هى أمة فقدت احترامها لنفسها ويستحيل عليها أن تحرز أى تفوق . ويقول جلال كشك الذى نقلنا عنه النص :

« التحديث » : هو امتلاك كل المعرفة التى يتفوق بها الغرب وإنتاج كل المعدات التى ينتجها الغرب ، وكل ما تحتاجه أمة من الأمم لتحقيق هذا التحديث ، وهو إرادة قومية ، ونظام صالح قادر على تعبئة هذه الارادة وتوجيهها عن طريق التصنيع أو التحديث إذا كانت البلد مستقلة أو عن طريق

تحرير الأرادة القومية عبر جرب التحرر الوطنيه التى يتم التحديث خلالها ، ولـكن يشترط قبل ذلك أن تؤمن الأمة أن تخلفها هو ظاهرة عارضة وأن أصالتها تمـكنها من تجاوز هذه المرحلة العارضة ، أما التغريب فيبدأ من أقتناع الأمة الشرقيه بأنها متخلفة فى جوهرها ، متخلفة فى تاريخها وصميم تـكوينها ومن ثم فلا بد من أنسلاخهـا تمـاما عن كل مايربطهـا بماضيها وتميز ذاتها . ويرمى التغريب إلى إعادة تشكيل المجتمع على الطراز الغربى من ناحية العادات والمظاهر السلوكية مع إبقائه متخلفا عاجزاً عن إنتاج سلع الغرب ، عاجزاً عن اكتساب معرفة الغرب ، فإذا ما اكتسب بعض إفراده هـــذه المعرفة يجدون أنفسهم غرباء عاطلين عن العمل فى مجتمعهم ، فيضطرون إلى النزوح إلى عالم المتفوقين ، والمجتمع الغربى هو ذلك المجتمع الذى تزدحم طرقاته بـأخر وأحدث السيـارات المستورده وتضم مدنه أفخم دور عرض الأفلام المستوردة ويرتدى أهله أحدث المنسوجات المستوردة وعلى أحدث الموضـات الغربية ، ويثرثر مثقفوه فى قاعـات مكيفة بأجهزة أمريكية أو روسيه حول مشاكل المجتمع العربى والأمة ويملأون صفحات من ورق مستورد يطبع بحبر مستورد وبالآت مستورده وحول قضايا الوجودية ومسرح اللامعقول والجنس الجماعى وتطور حرلة الهيبية على بعد خطرات من كهوف مواطنيهم حيث البلهارسيـا والـكوليرا أو التراخوما وكل تراكمات التخلف منذ القرن السابع عشر وقد شهد الطرف الشرقى من آسيا (اليابان) نجاح سياسة « التحديث » لا « التغريب » فإن الطرف الغربى شاهد النموذج المضاد تماما .

فتركيا بعد الحرب العالمية الأولى وبعد قرن من العجز عن التحديث أندفعت بأقصى ما أستطاعت فى حكومة أن تمسخ شعبها الشرقى فى سياسة التغريب وكتبت من الشمال إلى اليمين ، وبحروف لاتينيه ، كالغرب وخلعت الإسلام وقرأت القرآن باللاتيني وليست البدلة والقبعة بأمر القانون وعطلت يوم الأحد وحولت المساجد إلى متـاحف وحررت المرأة على أوسع نطـاق وجعلت الزواج والطلاق على الطريقة الغربية المسيحية ،

وأشترطت إسم عائلة كما فى جوازات وبطاقات السياح الغربيين ، ولم تترك صغيرة أو كبيره من مظاهر الغرب إلاقلدتها على نحو يفوق قدرة القرود ، وظلت دولة متخلفة يفتك بها الفقر وترتفع نسبة الأمية منها إلى سبعين فى المائه ولما تغربت كل طاقتها بقيت خارج نطاق الدول الصناعية أو التحديثة وكان (التغريب) هو الطريق المضمون لخسارة معركة (التحديث) وكل الدول التى تم تغريبها أو أختارت طريق التغريب ، أخطر من ذلك ، أن التغريب يقضى على روح المقاومة فى الأمم الشرقية فيجعل إستعمارها من قبل الدول الغربية المتفوقة أسهل وحكمها أيس ، ومن هنا كان إهتمام الغرب بترويج فكرة التغريب بين صفوفنا فمنذ الحملة الفرنسية وهناك إستثمارات فكرية إلى جانب الاستثمارات المالية .

وبعد الغزوة الغربية الأخيرة (الهجمة الصهيونية) ومع الحاح الجماهير المتزايد فى البحث عن حل يكفل لهم إمتلاك المعرفة التكنولوجيه التى يمتلكها عدوهم الصهيونى والعالم المتقدم الذى يساند هذا العدو بادر أعداء (التحديث) يسدون الطريق على أى محاولة لاكتشاف الجواب الصحيح ، فكان الألحاح من جديد على أن التغريب هو الحل وأننا لم نتغرب بما فيه الكفاية ولهذا أنهزمنا ، وأن كل ما نحتاجة هو جرعة كبيرة من القيم والتقاليد والعقائد القادمة من الغرب راسماليا كان أو شيوعيا وأن نقطع خطوات أكبر فى الأبتعاد عن تراثنا ومعوقات شخصيتنا وبدأت عملية (تزييف التاريخ) بهدف إجهاض موجة العداء المتزايدة ضد العدو التاريخى والقومى والحضارى الذى شل تقدمنا وإبقانا فى أسر التخلف خلال مائة وخمسين عاما حاسمة من تاريخ العالم ثم رمانا بأنيابه الشرسة المتوحشة المدججة بتكنولوجية بدلا من تنمية هذا الوعى وتوجية هذا النفور من الغرب تحاة الحرب الوطنية وبدأت محاولات الغرب ، والخلاف حول تفسير التاريخ ليس ظاهرة ترف ولا مجرد خلاف حول تفسير الحاضر بل هو فى الدرجة الأولى خلاف حول الطريق إلى المستقبل ، والأمم دائما تهرع إلى تاريخها فى لحظات محنتها تستمد ومنه الالهام والدعم

النفسى بينما يلجأ خصومها دائما إلى تزييف التاريخ وتشويهة لتضليل الحاضر وإفساد الطريق إلى المستقبل .

الذين يروجون بعد هزيمة ١٩٦٧ للدور التحضيرى والتحررى الذى لعبه غزو البلدان المتقدمه للشرق المتخلف هم فى الحقيقة يطرحون إجابة غير مباشرة لحيرة الجماهير المعاصرة .

وبعد هزيمة ١٩٦٧ وهى هزيمتنا التاريخية الثانية إمام الغزو الغربى المتفوق حضاريا وأن الدراسات التى انتشرت على أوسع نطاق بعد هذه الهزيمة ، لاتخفى هدفها بل تقوم بهدف إستقصاء مقومات الدول الحديث فى تاريخنا للتعرف على أى شوط قطعنا (فنعرف فإذا بقى أمامنا لبلوغ الهدف) .

المفهوم الوحيد لمثل هذا النصح هو أن علينا أن نكمل ما بداه الرواد مع الحملة الفرنسية منذ مائه وسبعين عاما ، والرواد فى مثل هذه الدراسات هم الذين تعاونوا مع جيش الاحتلال وعملوا فى خدمتة وطلائع حركة تحرر المرأة ، والجواب أذا هو أن نتفتح على الحضارة المتقدمة الغازية مثلما أنفتح الرواد للحملة الفرنسية فى مطلع القرن التاسع عشر .

وترى المدرسة الاستعمارية أن التفوق والتقدم والتحديث والتحرر كلها معان وسلوك يكتسب من خلال التعاون مع المحتل وبمعونته وأرشادة وما أبعد المسافة بين الغزوة الفرنسية ونكسة ١٩٦٧ فقد نما فى هذه الفترة شعور إسلامى ضخم زاحف لا يقر للنفوذ الاجنبى ولا للتخريب هدفه ومطامعة وهو يرى أن التجربة قد فشلت نهائيا وأن على المسلمين أن يختاروا طريق الإسلام بعد تجربه إسلوبى الغربى الليبرالى والماركسى وفشلهما على السواء .

ثالثا : الإسلام قوة عالمية

والحقيقة التى تكشف عنها الاحداث اليوم أن الإسلام قوة عالميه حقيقية ، يجب أن تمتلك أرادتها وتقدم نموذجها الربانى للعالمين ولاريب أو القدرات الحقيقية للعالم الإسلامى تؤهله للفاعليه والتأثير فى الاطار الدولى وقد تبين اليوم أن الإسلام وحده كما يقول دكتور حامد ربيع هو القادر على أن يطرح تصورا ثالثا يقف بين الماركسيه والليبراليه اللتان فشلتا فى تحقيق سعادة البشرية وليس يحول دون ذلك إلامحاولات الاحتواء التى تقوم بها القوى الاجنبية الضاغطه والمسيطرة على الذاتية الإسلامية المتميزة التى يجب أن تظل قوية وقادرة وبارزة ولايضحى بها من أجل أى هدف آخر من الاهداف المطروحة فى الساحة وهى التقدم والعصرية والحداثة فهذه كلها يمكن تحقيقها مع الاحتفاظ بالذاتيه ودون التفريط فيها .

ولقد امتلك العالم الإسلامى قدرات حقيقية أبرزها الطاقه والثروة والكثافة السكانية والامتداد الاقليمى فالعالم الإسلامى يشكل حزاما يمتد من المحيط الهادى إلى الاطلسى وهذه المنطقة تتحكم فى جميع المواصلات الجويه بين أوربا وباقى العالم القديم فضلا عن امتلاك الموارد الاقتصاديه الهامه فى المناطق الإسلامى الاسيوية ولاريب أن محاولات النفوذ الاجنبى فى مجموعها ترمى إلى تبديد هذه الثروة وذلك باحتوائها فى مصارف الغرب وبالدعوة إلى تحديد النسل للقضاء على النمو السكانى .

ويقول دكتور حامد ربيع أن الإسلام هو المقدمه الطبيعيه لدول العالم الثالث وأن الإسلام كدين (وهو نظام ومنهج حياة) موجود فى كل مكان ، حتى وجوده كأقليات فى دول أوربا وأمريكا لها وزن وثقل ، وهناك مفهوم الجهاد فالإسلام دين القوة بمعنى أن الحق بلاقوه لاموضع له ، وهذا ماتجرى المحاولات لطمسه واحلال مفاهيم مغايرة لافساده وتزييفه .

واشار دكتور حامد ربيع إلى مخططات النفوذ الاجنبى .

أولا : لاستئصال الإسلام نفسه .

ثانيا : للشيوعية .

ثالثا : لاستبعاد قدرته الفكريه وتسميم عقولها .

رابعا : الدعوة إلى تنظيم النسل .

خامسا : إغراء العقول المفكره للهجرة خارج العالم الإسلامى .

سادسا : اثاره النعرات القبليه والإقليميه داخل المجتمعات الاسلامية بهدف تفتيتها واثارة القلاقل فيها (بين العرب والبربر) وبين الاقباط والمسلمين) بين الاكراد والعرب .

ويشير الدكتور حامد ربيع إلى عوامل الضعف الإسلامى .

١ ـ التخلف الاقتصادى والاجتماعى للشعوب الاسلامية .

٢ ـ النقص القيادى فى المجتمعات الإسلامية .

٣ ـ عدم بناء فكر سياسى متكامل يصير عنوانا على الوجود الإسلامى .

٤ ـ عدم وجود تنظيم دولى ثابت وقوى يعبر عن الارادة الإسلامية .

٥ ـ عدم خروج المجتمعات الإسلاميه إلى الوظيفه الكفاحيه .

ويقول : أن الدول الاسلامية العالميه عاشت قرنا واحداً من الزمان وهى تمتلك إسمى مفاهيم السياسة بينما النموذج الرومانى للدولة العالمية بقى خمسة قرون وليس لديه حضارة وثنيبسه ، وليس فى ذلك أن الإسلام يمتلك نظاما للقيم ولكنه فى حاجة إلى المدرسة الخلاقه القادرة على تقديم نظام الحكم السياسى وشكله وأساليب التعامل مع الواقع اليومى ويضرب المثل بأن اليهودية أستطاعت أن توجد الصهيونية السياسيه وأن المسيحيه قدمت نظرية كاثوليكيه للحركة السياسية .

ويدعو الدكتور حامد ربيع إلى تحديد العلاقة بين الاسلام والقوميه السياسية ويقول : أن الاسلام اليوم سلوك فردى فقط ، ودعوة فى بعض البلاد العربية وحضارة فقط فى بعضها الآخر أما دولة فلا وجود لهـــا . فلابد من تكامل الحلقات .

١ — سلوك فردى .　　　٢ — دعوة .

٣ — حضارة .　　　٤ — نظام سياسى .

٥ — دولة عالمية .

المطلوب الآن أن تعود هذه الدوائر لتتطابق وتصبح دائرة واحدة بمعنى أن لايكون بينها فواصل كالدعـــوات العنصرية التى تمزق العالم الإسلامى وتتناقض مع الاسلام كدعوة عالمية ، وقد جرفت التقاليد الاسلامية مفهوم الامة حيث التجانس من منطلق الادراك والتصور الواحد :

(العقيدة والسلوك القائم عليها) أما القومية بمعنى العنصر والتجانس العنصرى فالأسلام يرفض القومية بمعناها القائم على التجانس العنصرى والادراكى ، إذا لا فضل لعربى على اعجمى إلا بالتقوى بهذا المعنى مفهوم الامة ينتهى بنتائج واحدة .

مجتمع واحد لامجال لتجزئته (العقيدة والسلوك معا)

ويجب على العالم الاسلامى أن يتخطى مشكلة عدم التجانس الداخلى فى كثير من اجزائه ـ أن الشعوبية والولاء الطائفى هما محور التخلف الحقيقى فى القدرة السياسية للعالم الاسلامى ، إن الاسلام يجب أن يستقل فى النظام الدولى　　جميع النظم القائمه لكى يكسب المناعة ضد الخلات ولكى يحقق اهدافه ابتداء من توزيع الادوار .

ويقول الدكتور حامد ربيع ، مازال العالم الاسلامى يملك عوامل قوة كامنه تكفل له أن يلعب دوراً فعالا فى النظام السياسى العالمى وهو فى طريقه لهذه المشاركة يصطدم بالغرب الواقف له بالمرصاد ، فالعالم الغربى ، وأثر الصحوه الاسلامية المعاصرة يعيش حالة خوف وقلق بالغين يصفهما البعض بالحالة المرضية ، والمتتبع للعلاقة المعقدة بين العالم الاسلامى والغربى الذى أمسك بقبضة الاستعمار على العالم الاسلامى سنوات طويلة يلاحظ أن هناك تراثا من كراهيه المسلمين للغرب لايمكن تجاهله وقد تصاعدت حاله الخوف الراهن من الاسلام فى السنوات العشر الأخيرة تصاعدا ملموسا جعلت طرح القضيه أمرا لابد منه ، وقليلون فى الغرب هم الذين يدركون كثيرا من حقائق الاسلام ، فالاسلام ليس مجرد إقتناع دينى كما يحاول البعض أن يصوره ولكنه حضارة متكامله إيضا ، والحضارة تفترض وجرد النظام الاسلامى الكامل ، كما تفترض عمليه إحلال وتجديد دائمتين فهل ينطوى الاسلام على هذه الامكانيات .

ونحن نقول للدكتور حامد ربيع : نعم أن الاسلام قادر على إستيعاب العلوم والتكنولوجيا الحديثه وصهرها فى بوتقة لبناء حضارته الإسلامية ، دون أن يتخلى عن قيمة الأساسية وذاتيته الواضحه الحقيقية وأنه لن يقبل أى محاولة تؤثر على كيانه أو تحتويه أو تجعله ينصهر ، أو يتجاوز عن الحدود والضوابط التى وضعتها فى الشريعة الإسلامية ومن المعروف أن الإسلام سيصنع مجتمعا متميزا وسيبنى حضارة تختلف فى جوهرها وغاياتها عن حضارة الغرب الآن وسيستعمل الاسلام فى ذلك كل عناصر القوة والايجابية ليقدم للبشرية حضارة حديثة ، إما أن يقبل التنازل عن طبيعته أو التحول عن غاياته ، بما يفهم منه الاحتواء والانصهار فهذا لن يكون .

ونحن نعرف أن هذه المحاولات التى تجرى اليوم لاحتوائه داخل نطاق الأيد لوجيات ، أونطاق التكنوجيا ، أو غيرها ، من موقع سيطرة النفوذ الأجنبى وامتلاكه لبعض الموارد ومصادر الثروة فى بلادنا فإن هذا لايمثل الوجه الحقيقى لمفهوم الإسلام نفسه .

وإذا قدر لهذه التجربه أن تمضى شوطا فأنها سوف تفشل لأنها لن تكون إلاحلقه من حلقات التغريب والاحتواء العالمي والأممى .

ومن الحق أن نقول مع دكتور الياس سحاب :

إذا كان المسلمون سيأخذون العلوم والتكولوجيا فأن الغرب لن يكون هو نموذجهم فى صنع التقدم ولكنهم سيصبون حضارتهم على إساس (الأطار الإسلامى القرانى) الذى سيضعون فيه العلوم التجريبية وعنه يصدرون فى بناء المجتمع والحضارة .

ويقول : إنه إذا كانت صيحة الخطر التى يرددها دعاة التغريب هى ضرورة تجاوز التخلف إلى التقدم عن طريق التبعية وقبول النموذج الغربى فأننا نرفض هذه المعادلة ، ولا نقبل التخويف ، وهو اشبة بتخويفنا من الانفجار السكانى أنها دعوات كاذبة مضللة تريد منا أن نترك إمالتنا وقيمنا ونضحى بها فى سبيل أن تنصهر فى اتون الأممية فنفقد ذاتنا وقيمنا ، ونحن قادرون عن طريق منهجنا الأصيل القرانى أن نفعل كما فعل المسلمون فى كل أزمة من الازمات التى ألمت بمجتمعاتهم والتحديات التى واجهتهم ، وهى الأنطلاق من الاصالة والرشد الفكرى ومقوماتنا الإسلامية فى سبيل استعادة قدرتنا على إمتلاك الارادة وبناء المجتمع والحضارة على مفهوم التقدم الأسلامى المرتبط بين المعنويات والماديات وأننا لانضحى بذاتنا الإسلاميه ابدا فى سبيل بريق خادع هو قبول النموذج العرقى فى التقدم أو الحداثه .

وأن أسلوبنا الاسلامى فى العيش والفكر والحياة سيمكننا من الوصول إلى التقدم دون أن نفقد الأصالة الذاتية القائمة على مايسمونه القديم والتراث والسلفية وهذه لكها كلمات لم تعد تخيفنا أو تزعجنا لاننا نؤمن بأنها تختلف عندنا عما عند الغرب وهما عندنا تعنى الإسلام والقران إساسا وليس شيئا آخر ، والمهاجمون لها يعنون فى قرارة انفسهم مهاجمة الإسلام والقران ولكنهم اجبن من أن يصرحوا به فهم يضونه مغلف تحت هذه الاسماء : القديم والتراث والسلفية .

كذلك فحن لسنا مطالبون بأن تلاحق ركب الحضارة الغربية لنصل إلى ما وصل إليه من تقدم مادى أو نصارع فى سبيل ما يقدمه فى هذا المجال فذلك شأن لايعنى الحضارة الاسلاميه ، وأنما يعنيها الحصول على القدر الكافل لتكون الحياة جديدة وعصرية مع الاحتفاظ بأطارها الإسلامى الأصيل .

وإذا كانت التبعية سوف تجعلنا لانصنع شيئا فأن لرسالتنا الحقيقية وهى ابلاغ الاسلام للعالمين وأطلاعهم على جوهرة الذى تفتقده البشرية اليوم ولدس مطلوبا منا مسابقة التقدم المادى واللهث وراء خطواته السريعة [illegible] المحافظه على شخصيتنا من أن تصهر فى الحضارة [illegible] يقوم الانموذج الإسلامى ليقدم للبشريه ماهى فى حاجه إليه عماينقصها فى الحضارة المادية .

رابعاً الغرب يكتشف الإسلام

واليوم ونحن نستعرض العقبات التى تقف فى وجه الإسلام والمخاطر التى قيد بها النفوذ الأجنبى هذه الأمة عن أن تحقق مطامحها فى بناء مجتمعها الربانى وتبليغ دعوة الله للعالمين ، نجد هناك عديداً من الظواهر التى توحى بأن كلمة الله لن تتوقف وأنه مهما عملت هذه القوى على ضرب الإسلام وتأخير نهضته واستنزاف ثرواته فإنه سوف يغلب ويعلو . من هذه الدلائل الرصينة أن الإسلام يفتح آفاقا جديدة فى كل قطر وفى كل بلد من بلاد العالم فى قاراته الخمس لاينى ولايتوقف ، يدخله الناس أفواجا ، وتعلو مآذنه حتى فى البلاد التى طرد منها ، يعود الآن إلى الاندلس سلما ويدخل غرب أوربا ويكون جالياته فى المانيا وإيطاليا وفرنسا وينمو ويتسع فى الولايات المتحدة حيث لاتطلع الشمس إلا على مسلم جديد ، وعشرات من المؤمنين فى كل مكان غير أن الظاهرة الكبرى هى دخول مفكرى الغرب فيه حيث دخله فى الأخيرة جارودى وموريس بوكاى وأعترف به مؤلفون وفلاسفة أخرون ، ودوائر كثيرة أعترفت به وأقرت بفضله ، وتكشفت حفريات جديدة تؤكد ماجاء به وأطلع العلم على حقائق أوردها القرآن قبل اربعة عشر قرنا وعلت صيحات فى الغرب تطالب بالإسلام منهج حياة بعد فشل المنهجين الرأسمالى والماركسى ومن يطالع ماكتبه هؤلاء العلماء والباحثين فى دعوة قومهم إلى التماس منهج الإسلام كل هذا يوحى بالافاق الجديده التى يمضى إليها الاسلام فى العالم حيث يتعثر فى بلاده بين غزوة ماركسيه وغزوه صهيونية غربية وتبشير ومحاولات لتمزيق وحدته وصرف أهله عنه .

هذه التحولات فى الغرب تكشف عن رأى منصف بعيد عن تعصب الدوائر الكنسيه والدوائر الاستشراقيه وهى تدور حول القرآن والنبى والحضارة الإسلامية وحول مفاهيم كثيرة .

أولا : تصحيح أفكار عن دور الإسلام فى النهضة والحضاره المعاصرة فيما كتبه درابر وجوستاف لوبون وبرنا ردشو وسجريد هونكه وبوكاى .

ثانيا : تصحيح إفكار من جهة اللاهويتين فيما يتعلق بالكتب القديمة وبشريتها مقارنه بمفاهيم القرآن الكريم التى لم تستطع معطيات العلم أن تعارضها بل لقد كشفت عن معجزات إستعلنت قبل أربعة عشر قرنا وعن حقائق لم يكن يعرفها إنسان فى ذلك التاريخ البعيد وفشل مؤامرة (الحوار) التى حاول الغرب استدراج المسلمين إليها ليعلنوا انه لاتوجد خلافات جذرية بين مفاهيم الاديان .

ثالثا : تصحيح إفكار من جهة التراث حيث كشف فواد سيزكين عن حقائق ذاخرة قدمها التراث الإسلامى فى مجال العلوم التجريبية إستفاد بها الغرب معترف بفضل مصادر الإسلام وتراثه .

رابعا : حقائق قانونية وتشربعيه إحصاها العلماء المسلمون قديما واعترف بها علماء القانون المعاصرين .

خامسا : تكشف فساد منهج الاستشراق وتخلى المستشرقين عن الاسم والتحول إلى اسم جديد وفشل التبشير وإنكشاف خططه .

سادسا : تكشف العلوم عن حقائق مغايرة للقوانين العلمية القديمة التى قامت على اساس مناهج فلسفيه وخاصه الماركسيه والتفسير المادى للتاريخ ، كما أن المنهج العلمى كشف زيف الوثنيات ، والاساطير والفكر اليونانى والاباحى والمادى .

سابعا : تبين فساد التطبيق للمنهج المادى فى مجال العلوم الانسانية وقد كشف دكتور الكسس كارليل فى كتابه (الانسان ذلك المجهول) أن هناك فوارق عميقه فى الحلقة والتركيب بين الرجل والمرأة تحول دون مساواة المرأة بالرجل والعمل خارج دائرة اختصاصها .

ثامنا : كشفت الأبحاث عن دور رائد للفكر الإسلامى فى مجال بناء الحضارة الحديثة وخاصته منهج التجريب ومنهج المعرفة وقد كشف ذلك كثيرون فى مقدمتهم درابر وفى الآخر جارودى فى كتابه (حوار الحضارات) .

تاسعا : تغير الموقف بالنسبة للنبى محمد صلى الله عليه وسلم فى كتابات الغرب ويتحدث الكثيرون عن تطور ايجابى حدث فى موقف الفكر المسيحى من الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الملتقى الإسلامى المسيحى فى قرطبه ، والملتقى الثانى ١٩٨٠ الذى نظمته جمعية الصداقه الإسلامية المسيحية فى مدريد وقد أعلن المجتمعون التخلص من عدة احكام مسيحيه مسبقه ضد رسول الإسلام الكريم وأعلنوا النظر إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأكبر قدر من الموضوعية وكانت كتابات الكاردينال (تار أنكون) رئيس إساقفة دينية عليا يمثل هذه الايجابية عن رسول الاسلام الأسبان تمثل أول نص فى تاريخ المسيحية تتكلم فيه سلطه وقد رد الدكتور ميكل دى ايبالثا الأستاذ بجامعة مدريد الذى رد عدم التقدير الحقيقى لرسول الاسلام إلى الجهل والعداء السياسى والمبادىء الدينيه المسيحيه ، وقد كان المسيحيون فى الغرب يظنون أنه (صلى الله عليه وسلم ليس إلا واحداً من زعماء الطوائف التى خرجت عن المسيحية الشرقيه وأنه من الغزاه داخل الأمبراطوريه .

وقد دام هذا الجهل قرونا كثيرة ، وقال (كروث برناندث) أنه ربما لا يوجد صاحب دعوة تعرض للتجريح والأهانه ظلما على مدى التاريخ مثل محمـــد ، وكذلك لا توجد اية أتهامات إساسها السياسه لا الدين مثل الأتهامات التى وجهت للإسلام .

ولقد كانت الحروب السياسية المتكررة بين البلدان الإسلامية والمسيحية حتى الحروب الصلبيه والاستعمارية الآخرة جعلها تحول

دون النظر بكل موضـوعية واحترام إلى رسول ومؤسس الدين الإسلامى .

ويقول : لقد بدأ اجهل المسيحية بمحمد (صلى الله عليه وسلم) يزول شيئاً فشيئا نتيجة للدراسات التاريخيه التى قام بها المستشرقون الاوربيون فى القرن ١٩ ، ٢٠ وبالرغم من الاحكام المسبقة من جانب هؤلاء ضد العرب والمسلمين فقد درسوا بموضوعية نسبية المراجع العربية والإسلامية وعرفوا بها فى الاوساط الاوربية وقد اجبرهم المنهج العلمى على الاعتراف بالقيم الإسلامية النبيلة وبرسول الإسلام الكريم ، وبما أن الكثيرين منهم كانو من العقلانيين وضد التعصب الدينى فقد وجدوا رغبة كبيرة فى أصلاح الأخطاء الهائلة عن النبى ، تلك الاغاليط التى ما يزال يعتقد فى صحتها معظم المسيحيين ، لكن يمكن القول بأن ما يكتب حاليا فى أوروبا حول النبى محمـــد (صلى الله عليه وسلم) ، اغلبه موضوعيا » .

ومما يتصل بهذا ما تشرته مجله الحقيقة الواضحه (وهي مجلة مسيحية تطبع خمسه ملايين نسخة وتوزع فى جميع انحاء العالم) تحت عنوان (المسلمون فى القرن الخامس عشر الهجرى) اصبح الإسلام قوة فعاله فى العالم تنتشر انتشار اسريعا حيث يزداد عدد معتنقيه ، يوميا فى إنحاء المعمورة فعلى سبيل المثال يوجد مسلم واحد بين كل خمسه اشخاص من سكان العالم ، وعدد المسلمين الآن الف مليون مسلم موزعين على خمسه وسبعين قطراً من اقطار العالم ، ويردد المراقبون أن انتشار الإسلام يفوق انتشار المسيحية فى الاقطار الأفريقيه فيما وراء الصحراء بنسبية عشرة اضعاف ، وقد حان الوقت أن يطرح غير المسلمين جانبا الخرافات والافكار الخاطئة التى حملوها سابقا عن الإسلام الذى لم يعد مجرد

مبادىء وافكار وعقائد روحيه فحسب ، بل غدا بالاضافه إلى ذلك قوة سياسية وثقافيه واجتماعيه لها وزنها الذى لايمكن غض النظر عنهـــا فى تسيير مقادير وامور العالم حاضرا ومستقبلا إن الإسلام بالنسبة لمعتنقيه فى جميع انحاء العالم انما هو (نظام حياة يومية كاملة لاتتجزأ) بينما لا يعرف المسيحيون الطريق إلى كنائسهم إلا أيام الاحاد لفترة وجيزة فإن الوضع يختلف بالنسبة للمسلمين الذين هم على اتصال روحى دائم بالخالق الاعلى يوميا مـن خلال أداء فرائض الصلوات الخمس اليومية وصلاة الجمعة التى تعتبر مؤتمرا اسبوعيا لمسلمى العالم يجتمعون فيه للصلاة وتداول الآراء فيمابينهم فى حياتهم اليوميه من قريب أو بعيد ، أن نسبة الجريمة فى العالم الاسلامى اقل منها بكثير مما هو فى العالم الغربى ، وكذلك الأمراض الاجتماعية التى غدا الغرب يعانى منها بشكل ملحوظ بحث اصبحت مهددة بالانحلال والتفسخ كالمسكرات والمشروبات الروحيه بأنواعها وتعاطى المخدرات رغم محاولات وضع التشريعات والا نظمة والقوانين الوضعيه وانفاق مبالغ ماليه هائلة لهذ الغرض نرى العكس بالنسبة للعالم الإسلامى حيث أن الإسلام قد سبق المشرعين الغربيين منذ القرن السابع الميلادى عند ماجاءت التشريعات والأنظمه والقوانين الإسلامية السماويه الناجحة لمثل تلك الامراض ونجت منها .

وقد ذكرت المجلة حقيقة واضحة يتجاهلها المسلمون ورجال الدين المسيحى والكنيسة نحو سياستها ونظمها وهى أن العهد الجديد وأن كان قـــد تم وأكمل وضعه قبل ميلاد الرسول محمـــد الكريم (صلى الله عليه وسلم) بخمسة قرون زمنية الا انه لم يهمل مستقبل الإسلام فالانجيل يشير ويظهر بوضوح إلى قيام إتحاد عرقى إسلامى فى الشرق الأوسط سيكون له دور حاسم فى مجرى التاريخ » .

عاشرا : اشار هاملتون جب إلى تعدد الشواهد والادلة والبينات الخارجية على حيوية الإسلام خلال القرون السته الآخيرة :

١ ـ تكوين الأمبرطورية العثمانية فى الشرق الأوسط .

٢ ـ اميراطورية المغول فى الهند .

٣ ـ احياء المذهب الشيعى فى إيران .

٤ ـ انتشار الإسلامى فى كل اندونيسا وشبة جزيزة الملايو .

٥ ـ نمو المجتمع الاسلامى فى الصين .

٦ ـ طرد الأسبان والبرتغالين من المغرب .

٧ ـ اتساع الحزام الإسلامى فى كل من شرق افريقيا وغربها .

كتابه (مودرن ترانلدش إسلام) وتقول جونسون) :

ربما كان شكل المجتمع الإسلامى والمؤسسة الدينية جامدة وخالية من الحياة اثناء تلك القرون السته ولكن تحت هذا الجمود الظاهرى كان تيار الايمان يجرى ياستمرار قويا منذفعا والآيزال يجرى حتى الآن ربما يدرجه أقل ولكن يقوة كافية .

خامسا : ذاتيه الإسلام وتميز الشخصية الإسلامية

تبين من كل المعارضات للفكر الغربي الزاحف بسمومه ووثنياته وماديته والحادة وعلمانيته عـلى الفكر الإسلامى أنها تهدف إلى طمس الذاتيه الإسلاميه واحتواء الشخصية الاسلامية وتذويبها فى اتون الأممية والحضارة العالمية وذلك بتغيير اعراف الاجتماع ودفع المجتمع الاسلامى إلى آفة الترف وهى علامة بدأ عصور التفكك والانحراف وقد كان الاسلام حريصا على أنه لايقع إبنائه فى الاحتواء أو الانهيار الخلقى والاجتماعى ولاتزال المهمة الشاقه والكبرى هى الحفاظ على الذاتية وبناء الشخصية الاسلامية كمقدمة لاقتحام العقبات ، أن الدفاع عن شخصية الأمة الاسلامية ومقوماتها وإستقلالها الفكرى والايدلوجى هو اكبر مهمة تواجة الدعاة المسلمين اليوم وهى تعنى ليس فقط مقاومة الغزو الفكرى والفهوم الخارجى على معتقداتنا ومبادئنا ، وانما تعنى قبل كل شيء معالجة التخلف الفكرى والركود العلمى الذى جعل شعوبنا ادنى بكثير من مستوى مبادئها السامية وعقيدتها الخالدة ، ومما يزيد الأمر تعقدا أن الغزو الفكرى يستعين بعناصر داخلية تحاول هدم شخصية الامة وتحارب وجهة الأصالة والمدافعين عنها ، فى محاولة لدفع المسلمين إلى الاحتواء والانصهار ولكن إمتنا رفضت ومازال ترفض وهى قادره على الصمود والمقاومة ، ورد المغالطات والدعايات الزائفة ، والاعتزاز بشخصيتها التى وضحت أمامها الطريق المستقيم .

(وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعو السبل فتفرق بكم عن سبيله)

ولاشك ان ازدياد أقبال جيل الشباب على الاسلام فى كل مكان فى العالم الاسلامى اليوم ظاهرة عميقه المغزى بعيدة الدلاله ، وهى أحدى الثمرات الرئيسية لجهود حركة اليقظة ، وهى علامه على الاصالة وعلى الرشد الفكرى وعلى انتصار الاسلام عقيدة وفكرا على العلمانية وهزيمتها وإنحسار مدها

توطئه لسقوطها وقد ارتبطت العلمانية بالرأسمالية كما ارتبطت الاباحة بالماركسية وكلاهما اصبح مرفوضا فى افق الفكر الاسلامى ، فالمسلمون اليوم على ابواب مرحلة جديدة هى مرحلة (التطبيق) الذى يتطلع اليه المسلمون ومقاومة القوى الغازية والمسيطره .

وإن فشل العلمانيين على مدى عشرات السنين رغم وجود أسباب القوة والسيطرة ووسائل التوجيه ووجود مقاليد السلطة فى معظم المناطق فى أيدى دعاتها هذا الفشل الواضح اليوم بازدياد الأيمان بمفهوم الإسلام الأصيل كمخرج لهذه الأمة من من أزمتها ، لدليل واضح على أن هذه الأمة قادرة على دفع الجسم الغريب ، وأنها تستمد قوتها من قيمتها الأساسية ومن المحافظة على ذاتيتها وأنها تضحى فى سبيل هذا على بكثير من المعطيات المادية .

أننا نتطلع إلى الرؤية الإسلامية الشامله كمخرج من الأزمة والأحتواء بعيدا عن الجزئية والانشطارية التى هى صفة الفكر الغربى : هذا المنهج الربانى الواسع الاطر الخالد على الزمن القادر على العطاء فى مختلف البيئات والعصور ، هو وحده الملجأ والملاذ .

أن نقطة انطلاق هى أن يعترف المجتمع بأنتمائة إلى الإسلام ومايقتضيه هذا الأنتماء من التزام وسلوك .

نريد الجيل الجديد المتحرر من الترف والربا والخمر والميسر ، القائم على حدود الله ، يحل حلاله ويحرم حرامه ، الآمر بالمعروف والنهى عن المنكر وبناء الأخلاق الإسلامية والأرادة الفردية القادرة على التغيير .

أن هناك قوة إسلامية حقيقية اليوم : هى الثروة والطاقة والتقدم البشرى من شأنها أن تغير مسيرة التاريخ الإنسانى والعالمى خلال أقل من مائه عام فعلى المسلمين تأصيل وجهة هذه الثروة .

أن هناك صحوة إسلامية حقيقية الآن واجهوانه امموعة الداخل والخارج رغبة فى اجهاضها قبل أن تستوفى موعدها الحقيقى ، لابد من

حمايتها . أن الغرب اليوم يحول بين عالم الإسلام وإمتلاك أراته وإقامة مجتمعة وأستئناف حضارته ، لابد من اسلمة مناهج التعليم والثقافة والتسلية وتصحيح المناهج العلمية فى مجال الأخلاق والتربية والاجتماع الاقتصاد والسياسية .

وإذا كان التعليم لم يخرج عن نطاق العلمانية فعلى الثقافة الإسلامية أن تكمل النقص ، وإذا كان المجتمع الإسلامى لم يخرج عن نطاق التبعيه فعلى الأسرة المسلمة أن تبنى افرادها ؟

هذا وبالله التوفيق ؟